



عتبات الجنة

فتحي امباري

This is a watermark for trial version, register to get full one!

VIPBenefits:

1. Converts the whole document.
2. No trial watermark on the output documents.

Remove it Now

GATES OF THE HEAVEN

أسطورة الاثنى عشر

فتحى إمبابى

عتبات الجنة

المطبعة العامة للكتاب
بمكة المكرمة

عتبات الجنة

عتبات الجنة

الكتاب:

رواية

المؤلف:

فتحي امبابي

الطبعة الأولى

2014

الناشر:

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفني:

فتحي امبابي

رقم الإيداع بدار الكتب:

رقم الإيداع الدولي:

عتبات الجنة

الأسطورة الأدبية الحديثة

فتحي امبابي

رواية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2014



النيل

على نرف أنطورة اللاني عشر ضابطا في خمر الاسترا قائد دفا عر ولاوي النبل العظم

- 1- ملازم عبد الوهاب طلعت، قتل في واقعة الرجاف⁽¹⁾ في 10 نوفمبر سنة 1888م، برتبة صاغ.
- 2- ملازم سالم خلاف قتل في واقعة الرجاف في 10 نوفمبر سنة 1888م، برتبة يوزياشي.
- 3- ملازم محمد الفولي، قتل في واقعة الرجاف في 10 نوفمبر سنة 1888م، برتبة يوزياشي.
- 4- ملازم عبد الواحد مقلد، توفي بسبب مرضه جنوب بحيرة فيكتوريا⁽²⁾، برتبة يوزياشي.
- 5- ملازم إبراهيم حليم، توفي بسبب مرضه جنوب بحيرة فيكتوريا برتبة صاغ.
- 6- ملازم أحمد سليمان، نقل من الاستوائية إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
- 7- ملازم حسن سليمان، نقل من الاستوائية إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
- 8- ملازم محمد فوزي، نقل إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
- 9- ملازم عبد المبين شلعي، ترك مع باقي القوة مديرية خط الاستواء، برتبة يوزياشي.
- 10- ملازم علي شمروخ، ترك مع باقي القوة في مديرية خط الاستواء، برتبة يوزياشي.
- 11- ملازم محمود العجيمي قتل في واقعة ريلي⁽³⁾، برتبة يوزياشي.
- 12- ملازم مصطفى العجيمي، وصل إلى مصر سنة 1889م مع حملة ستانلي، برتبة يوزياشي.

1 (محطة الرجاف العسكرية: تقع على بعد 375 كيلومتر من خط الاستواء. دارت فيها معركة بين الجيش المصري والدراويش في 10 نوفمبر 1888 م.
2 (ترك عبد الواحد مقلد وإبراهيم حليم أثناء عودتهما إلى مصر مع بعثة الإنقاذ (حملة ستانلي) بأمر أمين باشا، بجهة (كيتيجا) في جنوب بحيرة فيكتوريا، لدى المبشرين الإنجليز، وماتا هناك.
3 (واقعة ريلي بين الجيش المصري والدراويش.

إصدار
إلى ضباط مهران وحمود
الذين يقاتلون معركة التحرير

رتب الجنود والضباط في القرن التاسع عشر
وعلامات الرتب والشارات
والمرتبات

الرتب في القرن التاسع عشر	المهمة	المرتب بالقروش	علامات الضباط والجنود	الرتب في الجيوش العربية المعاصرة
نفر		10	شريط	جندي
أومباشي	رئيس عشرة	25	شريط أحمر على الصدر	عريف
جاويش	-	30	شريطين	رقيب
باشجاويش	-	40	ثلاثة أشرطة	رقيب أول
صول قول اغاسي	معاون يسار	60		مساعد أول
ملازم ثاني	معاون ثاني للرئيس	250		ملازم
ملازم أول	معاون أول للرئيس	350	يحمل على صدره جهة اليمين نجمة فضية	ملازم أول
يوزباشي	رئيس مائة	500	نجمة وهلال من الفضة	نقيب
صاغ قول اغاسي	معاون يمين	1200	هلال من الذهب ونجمة فضة	رائد
بكباشي	رئيس ألف	2500	هلال ونجمة من الذهب	مقدم
قائم مقام	نائب أمير الأتاي	3000	هلال ونجمة من الذهب مرصع بالماس	عقيد
أمير لاي	أمير آتاي	8000	هلال ونجمة من الذهب مرصع بالماس	عميد
لواء	أمير لواء	11000	نجمان داخل الهلال	لواء
ميرميران	أمير الأمراء		ثلاثة نجوم داخل الهلال، النجوم من الذهب المرصع بالماس	فريق
سر عسكر	الرئيس العام للجيش وقائد القواد			مشير

المصتبة الأولى

سكروى ديموى



ضرب الإسكندرية 11 يوليو 1882

- 1 -

على بوابة القصر الخارجية كسرت طرقات عنيفة صمت الليل، استيقظ البك مفزوعاً، دفع عنه جاريته الرومية، وقام غاضباً يغادر مخدعه الوثير، نادى خادمه أن يحضر سوطه، كي يؤدب الحيوان الذي تجرأ على أن يعكس صفو نومه، في الباحة الحجرية وقف رسول يسابق ملاك الموت، انحنى أمام البك، وهمس يخبره أن الجدة تدعوه للحضور إليها، صرخ به، ألم يكن بوسعه الانتظار حتى الصباح؟ أجاب العجوز: "سيدنا البك، الله وحده يعلم، إذا كانت شمسهُ سوف تشرق عليها".

ألقت الجارية على كتفه معطف السمور الذي خلعه عليه السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني⁽⁴⁾ تقديراً لبلائه في مفاوضات معاهدة سان استفانوس⁽⁵⁾، قفز إلى مركبته، وهو ينفذ عن باله حروب الموسكوب⁽⁶⁾، والضعف والوهن الذي نخر في الدولة العلية⁽⁷⁾.

4 (السلطان الغازي عبد الحميد الثاني: تولى السلطنة في 7 سبتمبر عام 1876، قام بتنظيم مجلس عمومي برلمان للإمبراطورية العثمانية في 24 أكتوبر 1876، يتكون من مجلسين، الأول ينتخب أعضائه الأهالي، والثاني تعين الدولة أعضائه، وأصدر في 23 ديسمبر 1876 القانون الأساسي للدولة مشتملاً على 119 مادة، ثم أعلن الأحكام العرفية بعد مرور شهرين على إصدار الدستور.

5 (معاهدة سان استفانوس: وقعت في مدينة آيا استفانوس 3 مارس عام 1878م بين الدولة العثمانية وروسيا، وفيها مزقت أجزاء واسعة من الإمبراطورية العثمانية لصالح الروس، ونصت على تخلى الدولة العثمانية عن غالبية الأراضي التابعة لها في البلقان، تدخلت بريطانيا لمواجهة النفوذ الروسي، ف وقعت معاهدة دفاع مع الدولة العثمانية في 4 يوليو 1878، واستولت على قبرص كعربون لمساندتها تركيا، رفضت بقية الدول الأوروبية اقتصار حصول بريطانيا وروسيا على الغنائم والامتيازات، فعقدت في برلين معاهدة برلين 13 يوليو 1878، نجم عنها تمزيق الإمبراطورية العثمانية، ووضعها تحت المراقبة وحماية حقوق الأقليات، ومن نتائجها احتلال فرنسا لتونس والجزائر، وتعد هذه المعاهدات بداية تدخل إنجلترا في الشأن المصري، والذي توج باحتلال مصر في يوليو 1882..

6 (حروب الموسكوب: مصطلح أطلق على الحروب التي دارت بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية طوال ستة قرون من القرن الثاني عشر وحتى القرن التاسع عشر.

7 (الدولة العلية: عرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية، لعل أبرزها هو "الدولة العلية"، وهو اختصار لاسمها الرسمي "الدولة العلية العثمانية"، كذلك كان يطلق

وسط زمهرير شتاء 1882 ركضت الخيول على الطريق الترابية باتجاه الجنوب، والحوذي يحثها بسياطه، مع السحر ظهرت الأضواء الخافتة لقريّة تقع جنوب مدينة منوف العلا، وقد تحلق حول المشاعل جماعات القرويين، يترقبون الخبر الذي طال انتظاره.

ترجل البك عن عربته، وأسرع يشق الزحام الذي اكتظ به الدرب الضيق، يقوده عمدة القريّة، والفلاحون يفسحون له الطريق باحترام وأدب شديدين، وأمام دار طينية واطنة أكلها القدم، أحنى قامته، وغاص في صحن الدار، بين النسوة المتشحات بالسواد، توقف العمدة أمام باب خشبي متآكل، وتركه ليدلف وحيدا إلى قاعة غطيت جدرانها بالسناج، غارقة في العتمة.

هاجمه عطش مسكون برائحة الموت، على ضوء مشعل زيتي لمح جسدها الضئيل مكوما في حرام من وبر الجمال فوق قبة الفرن، تحوم حوله وشيش أشباح هائمة، وقف حائرا، وذهنه يتساءل. "هل ماتت؟". صعد من بحراية الفرن⁽⁸⁾ إلى مصطبة القاعة. امسك بيد شابها تجاعيد موشجة بالأسى، كانت دافئة، مال على أذنها يهمس:

- "نينا"⁽⁹⁾، أنا جيت، سلامتك يا نينا.

دعا الله أن يسمح له بأن يودعها قبل أن تلفظ أنفاسها، غفي مستعيدا وجه أمه وهي تموت بين أحضانها، يرى جدته تشيح بيدها إلى الشبح الجاثم على كتف أمه الأيسر، تسأله بدمدمات غاضبة أن يرجئ كتابة سيئات ابنتها، في اللوح الذي ستقابل به وجه ربها يوم القيامة، ويضيفها إلى كتابها هي، وهي تعدّه أنها ستموت قريبا وعليه أن يصبر، وتعود تنظر بوجه بشوش باتجاه الشبح الجاثم على كتفها الأيمن، ترجوه ألا يكف عن كتابة حسنات ابنتها التي توشك أن تلاقى وجه ربها.

تذكر أن أمه أفاقت، وأشرق وجهها الحلبي بابتسامة، وقبضت على كفه بفيض من الحنان، وهمست تخاطبها: "يا أمه أنت سيئاتك كثيرة،

عليها في الدول العربية، خصوصا بلاد الشام ومصر، "الدولة العثمانية"، اشتقاقا من كلمة "عثملى" - Osmanli - التركية.

8 (البحراية: منطقة تعقب باب القاعة، وتقع أمام الفرن مباشرة، وتجلس فيها النسوة لعمل الخبز.

9 نينا: كلمة عامية تعنى الجدة

هو أنت ناقصة، واستدارت يسارا وهمست: "متسمعش كلامها بحق جاه حبيبك النبي"، عايزاها تكون رفيقتي في الجنة، واستغفرت ورددت الشهادتين، ولفظت أنفاسها لتنساب روحها إلى بارئها، وانطلق العويل.

بعد عام غادرت جدته قصره إلى دار أمها العتيقة، استحلفها أن تبقى تؤنسه، ويكفيها راحة أيامها الأخيرة، دون جدوى، وفي النهاية استسلم أمام إصرار نساء يرغبن في قضاء أيامهن الأخيرة وحيدات.

شعر البك برعشة خافتة من يدها الخشنة، كانت روحها تهيم في هلوسات غابرة، ترى نفسها جالسة أمام النشع⁽¹⁰⁾ تفلئ ملابسها من حشرات الدنيا؛ بقى وقمل وبراغيث، ونفحة باردة من الصبا حملت معها شبح فتى يافع بزغ عليها، وهو يخاتلها بأزرار بذته الميري اللامعة مثل ربيع كاذب، كان حفيدها الحسيني الذي بلغ الرابعة عشرة، يأتي لزيارتها في أول إجازة له من المدرسة الحربية، الخالق الناطق عبد المحسن ابن خالتها الذي عاركتة طيلة حياتها، مفضلة عليه أغاوات ومشايخ وتركمان وفرنسيس، سمعها تهلوس مخرفة:

- "عبد المحسن يا ابن خالتي، رجعت من النار أزي يا وله".

نشبت أناملها المعروقة في يده المترفتين بالنعمة، شعربكلايات من سعيير تجذبه إلى الجحيم... لماذا كان يرتعد؟ ولماذا يرهبها ويخشها؟ ولماذا كان يحبها؟ استجمع شجاعته، ومال عليها، يطلب منها أن تخبره بما تريد، همست بصوت يخيم عليه ظل الموت:

- "أوهبني ابن سيدك عبد المحسن".

أمسك جبهته يلوم غباءه، كيف فاته الأمر؟ ولكن كيف يمكن أن يستعيد من حبل المشنقة ضابطا تهتمته رفع راية العصيان المسلح، والمشاركة في مؤامرة لاغتيال أمير البلاد، بيد أنه لم يكن لديه النية على محاجاتها، عزم أمره، وقال "أمرك مجاب يا نينا".

أشرق وجهها العتيق بابتسامة باهتة، مدت يدها أسفل حشيتها، وأخرجت لفافة أوراق قديمة، تضم حجة الأرض ووصية بدفنها بجوار أمها،

10 (النشع: مستنقعات تظهر مع قدوم فيضان النيل في المناطق الواطئة بالدلتا).

ألقى في يده قطعة من المسكرات كانت تحملها له دوما أثناء طفولته،
أوشك أن ينفجر في الضحك، وبدلاً من هذا انهمر في عويل طويل.
رحلت في شهقة معذبة، قبل جبينها فوجد جسد طفلة صغيرة، دثرها
في معطفه السمور فاخفت داخله، همس "ليس أقل من عطية السلطان".
نادى على العمدة، فجاء متجهماً يحبس دموعه، حملها إلى خارج
القاعة، سار ينكفئ في أجساد الجالسين، وخلفه وجهاء القرية وأعيانها،
عندما ظهر على باب الدار انفجر العويل في سماء القرية الصغيرة.

* * * *

-2-

ألقى قائد الحرسجية لسجن القلعة إلى المساجين باليملك⁽¹¹⁾ العفن، فتقاتل عليها رجال تاهت ملامحهم من قسوة الجوع، ابتعد الحسيني عبد الغفار عازفا عن الطعام، منشغلا بأخبار تناقلها المساجين عن استقالة رياض باشا من منصبه اعتراضا على تخفيف الأحكام على قادة التمرد، واستبدالها بالنفي، وقيام الأميرة والدة الخديوي، يساندها الضباط الشراكسة بضغوط هائلة لخوزقة الخونة في ميادين عامة، لتلقين أولاد الفلاحين درسا، يمتنع عليهم بعده أن يرفعوا رؤوسهم فوق حذاء الخديوي، ورغم ذلك جثمت جثة نافقة برائحتها على الأنفاس، تقول إن قادة الثورة رفعوا التماسا يلتمسون شفاعتة ملكة بريطانيا العظمى.

قاوم رغبة في القيء، تحامل على نفسه وزحف على أرضية السجن الباردة، ليتكوم بجوار الحائط الحجري، غط في نوم كئيب، من كوة الزنزانة أنار ضوء ذاكرة الماضي؛ صفير القطار الخديوي، يتهدى إلى داخل محطة مصر، حاملا الخديوي توفيق في حراسة جيش الاحتلال. ... قبل ذاك الصباح الأسود طلب منه شريف باشا⁽¹²⁾ ناظر النظائر أن يرحل إلى العاصمة على وجه السرعة، كي تنقل رسالة شفوية إلى قادة

11 (يملك: اسم يطلق على الطعام المقدم للمساجين في السجون.

12 (محمد شريف باشا: ولد عام 1826، التحق بالمدرسة الحربية، والتحق بمدرسة سان سير saint syr لدراسة الفنون الحربية في باريس، وبلغ رتبة فريق، تولى وزارة الخارجية عام 1857م في عهد الوالي سعيد باشا، وتولى مناصب سياسية متعددة، وتولى عام 1868 رئاسة المجلس المخصوص في عهد الخديوي إسماعيل. لم يشارك في مساوئ القروض، وكان موقفه من التدخل الأجنبي مشرفا، تولى رئاسة الوزارة عدة مرات، ناهض التدخل الأجنبي، والحكم الاستبدادي، ومن دعاة إنشاء مجلس نواب وحياة ديمقراطية لدولة حديثة، وهو صاحب أول دستور مصري قدم مسودته للمجلس النيابي المنتخب، وأقره المجلس النيابي في يناير 1882، كان من زعماء الثورة العربية، عارض مطامع بريطانيا في سلخ السودان عن مصر، توفي سنة 1887م، (عن عبد الرحمن الرافعي عصر إسماعيل الجزء الثاني صفحة {242.228} الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة).

الثورة، يناشدهم عدم التسليم، وضرورة المقاومة، والصعود بقواتهم إلى الصعيد والسودان إذا لزم الأمر، وسيعمل كل جهده لمدهم بالجنود والميرة⁽¹³⁾، عندما رآه يقف مكبلاً بالدهشة، استدار عائداً إلى مكتبه، وهو يترنح ليكتب رسالة لم تصل لأحد، ولم يطلع عليها سواه، وبعد أن ألقى بريشته في محبرته المذهبة، طلب منه قراءة الرسالة قبل أن يضعها في مغلفها حتى يتبين خطورتها.

"إن الوطن الذي كان على وشك أن يملك دستوره للمرة الأولى في تاريخ البلاد، وأن يكون له مجلس نيابي منتخب، أضاعهما إصرار القوى الغربية على إجهاض ميلاد أمة عريقة، لهو في أمس الحاجة إلى فضيلة الحكمة والشجاعة، فإن كنتم قد خسرت معركة التل الكبير، واحتل العدو القاهرة، فمن الواجب أن تسلكوا في مواجهة الغزاة أساليب الحرب المعهودة في وادي النيل، فكل الذين خسروا معاركهم ضد الغزاة، صعدوا إلى الصعيد الأعلى، تاركين المقاومة للشعب، حتى استجمعوا قوتهم؛ هكذا هزم الأميران مراد بك وإبراهيم بك حسن باشا القبودان، وزير السلطان عبد الحميد الثاني وهو في أوج مجده، وهذا ما حدث مع عسكر يونانيرته، ومحمد علي باشا الكبير أثناء حملة الجنرال فريزر عام 1807.

هذا هو التاريخ العسكري إن كنتم لم تقرأوه فاتبعوه، وتعلموا أن الثورات لا تموت أبداً، حتى ولو نزع نصال المقاصل رموس قادتها، ولكهم القادة إذا وهنت عزيمتهم وانهارت إرادتهم، وفضلوا مصالحهم، وجبنوا عن حماية الشرف الوطني".

13 ميرة : مصطلح عسكري تستخدمه الجيوش العربية الإسلامية، طعام يدخره الجنود أثناء الحرب.

مهرها بخاتمه وأعطاهما له، وطلب منه الرحيل على وجه السرعة، وهو يحذره بالا يخطر بوقوعها في يد أحد.

ترحل غير قادر على النطق مخلفا الإسكندرية مكللة بالحداد، وأمواج بحرها تهدد صخورها المكشوفة بأحيائها المحترقة، وبيوتها التي هدمها القصف المدفعي للبحرية البريطانية، تسأل الأسباب التي جعلت الأميرال سيمور⁽¹⁴⁾، يتوارى خلف حجج واهية كي يحرق المدينة، ويدك أبنيتها فوق رؤوس أبنائها، وسط ابتهاج وتهليل الخونة.

تبلغ العاصمة في الرابعة صباحا، يحدوك الأمل أن تلهب الهمم، وتوقد العزائم، وعقلك يصنع الخطط لمغادرة القوات المصرية المحتشدة في قشلاقات⁽¹⁵⁾ العباسية إلى الصعيد الأعلى، على ظهور السفن التي سيقدمها البحارة عن طيب خاطر لإنقاذ الجيش الوطني.

يداهمك العار والخزي، تغيب روحك في غياهب اليأس، وتحاصر ك الحيرة، انتهى كل شيء، واستسلم قادة الثورة إلى الجنرال (دوري لي)⁽¹⁶⁾ قائد الخيالة البريطانية، لا تعرف ما يتعين عمله، وضباط ثكنات العباسية يخبرونك وهم يسرعون بمغادرة قشلاقات العباسية؛ أن الخديوي الذي باع نفسه للأجانب أصدر مرسوما بإلغاء الجيش في 19 سبتمبر سنة 1882، وتجريد جميع الضباط الذين شاركوا في العصيان من رتبهم وأملاكهم، وحرمانهم من حقوقهم المالية، لتبقى الدولة المصرية بلا جيش، فماذا تفعل؟ ولماذا أنت هنا؟

تسألهم عن مكان يأويك، يشيرون عليك بالعودة إلى قريتك، أو الصعود إلى ثكنات المقطم التي أقيمت على عجل ضمن تحصينات الدفاع عن القاهرة، ولم تحتلها القوات البريطانية بعد، تشق صحراء العباسية تحيط بك الكآبة، وهناك يستقبلك الضباط الراحلين بتعجب من ضابط

14 (أميرال سيمور: السير يوشان سيمور قائد الأسطول البريطاني في بوغاز الإسكندرية، ضرب الإسكندرية في 11 يوليو 1882. (عبد الرحمن الرافعي الثورة العرابية صفحة 296 الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة 1983).

15 (قشلاق: كلمة تركية ومعناها (مسكن العسكر، ثكنة الجيش، منزل العساكر)
16 (جنرال دوري لي: Drury Lowe قائد فرقة الفرسان بالجيش البريطاني في موقعة التل الكبير واحتلال القاهرة. (عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابية، صفحة 398، الناشر دار المعارف، الطبعة الرابعة 1983.

يدخل على جواده بوابة المعسكر حين ينبغي الرحيل. لا تجد إجابة سوى القول إن لديك مهمة أخيرة يجبرك واجبك على القيام بها.

يتفهمون، ويلقون أوامرهم للجنود بألا يتركوا الثكنة إلا بعد أن يجهزوا لك الطعام، وماوى للنوم، ويقدمون لجوادك المتعب مدود تفيض بالعلف، ويودعونك عائدين إلى قراهم وقد خلعوا عنهم الميرى.

* * * *

تتمدد وحيدا حيث السماء قريبة، بانتظار قدوم شريف باشا من الإسكندرية، كي تخبره بالإجابات المفجعة، يتلوى النيل أمامك موشج بالغموض، تسأل نفسك هل انتهيت من آخر المهام المستحيلة التي أوكلت إليك؟ تلاشى الجيش الذي بناه محمد علي باشا، وأتاح سعيد باشا⁽¹⁷⁾ لأبناء الفلاحين الترقى في صفوفه لرتب كبار الضباط، بعد أن كان حكرا على أغراب الأرض من أتراك وشراكسة وألبان وأرناؤوط، فلم يمض عقدان حتى قاموا بثورة، الآن أصبحت البلاد تحت أقدام الإمبراطورية البريطانية.

17 محمد سعيد باشا: هو ابن محمد علي باشا، ولد سنة 1822م تولى الحكم في الفترة بين 1854م حتى 1863م، كان يحب المصريين ويكره الأتراك والشراكسة، ويميل للأوروبيين، ومن إنجازاته: تخفيض الضرائب على الأرض الزراعية، وإسقاط المتأخرات على الفلاحين، قام بتطهير ترعة المحمودية وإتمام الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية. كما مد الخط الحديدي بين القاهرة والسويس وفتحه للمواصلات سنة 1858، اهتم بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية فأنشأ شركتين للملاحة إحداهما نيلية (1854) والأخرى بحرية (1857).

من أهم إنجازاته التي غيرت وجه مصر، هو إصداره لللائحة السعيدية في 5 أغسطس سنة 1858، التي منحت الفلاحين حق تملك الأرض، والسماح للمصريين الترقى في سلك الضباط في الجيش. وفي المجال الاجتماعي والثقافي أصدر لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين وأصلح مجلس الأحكام، والقضاء الشرعي، ومنع نقل الآثار المصرية إلى الخارج التي كانت نهبا لتجار الآثار والمغامرين.

أهم إصلاحاته الحربية تقصير مدة الخدمة العسكرية لجميع الشبان على اختلاف طبقاتهم، وعنى بظروف معاملة الجنود وتحسين الغذاء والسكن والملبس، وكان ميالا إلى ترقية الضباط المصريين.

خاضت مصر في عهد سعيد باشا حربيين، الأولى حرب القرم التي استمرت بعد وفاة عباس باشا وأرسل سعيد باشا نجده إلى الجيش المصري واستطاعت تركيا وحلفاؤها بفضل بسالة الجيش المصري التفوق على الروس وإبرام الصلح بينهما سنة 1856م في مؤتمر باريس..

تحمل الرياح أذان الفجر من جامع السلطان حسن، تصلى ركعتين لله، تسأله أن يزيج عنك غمة ثقيلة، تحمل خرائطك التي ستوضح عليها سير المعارك في الجبهة الشرقية، وأسباب هزيمة الجيش، على باب الثكنة ترى الأرجوان يسبق الشمس قبل صعودها من جوف الشرق البعيد.

طرق جوادك الأرض بحوافره وقد شق عليه ثقل ما يحمله، تربت على عنقه، تطالبه برحلة أخيرة، يكب السير على الطريق الهابط إلى القاهرة الفاطمية، وأمامكما يبرز نور الصباح من وسط الضباب، يكشف عن أعلام ورايات وبيارق الزينات تخفق على قلعة الجبل.

تخترق الدرب الواقع بين مسجدي الرفاعي والسلطان حسن، إلى شارع محمد على، تبلغ ميدان باب الخلق، كان مزدحماً تصدح أرجاؤه بالموسيقى العسكرية، تنتشر فيه خيالة الشركس والحرسجية ورجال الخفر شاكي السلاح، يفتشون بين العابرين عن ضباط العصيان، يدهمك القلق، فسلطان باشا⁽¹⁸⁾ رئيس مجلس النواب المنحل، الذي كان يقود مقاومة الاحتلال بالأمس، أصبح اليوم قائدا لقوات ضمت خليطا من البدو وسرايا الجيش النظامي الموالية للخديوي، واندفع يفتش العاصمة وأرجاء البلاد للقبض على كل من شاركوا في الثورة، بمن فيهم أصدقاؤه القدامى، توطئة لقدم الخديوي من الإسكندرية في حماية جيش الاحتلال، الآن تشعر بفطر حماقتك.

توقف عن لوم نفسك، ثمة واجب يحتمه عليك ولاؤك لشريف باشا الذي وضعك تحت رعايته، وأنت تخطو خطواتك الأولى في مدرسة العباسية العربية، تقاتل باشجاويشية الأرناؤوط⁽¹⁹⁾ وهم يحاولون نزع كنيستك، لتتلاشى جذورك، وتتحول لمجرد عبد لقيط في جيش مولانا الوالي.

18 محمد سلطان باشا: ولد عام 1825، انضم إلى الثورة العربية طمعا في الجاه، ولما انتصرت الثورة أسندت إليه رئاسة مجلس النواب، ثم انقلب عليها وانضم إلى الخديوي، واتصل بالإنجليز واتخذوه أداة لرشوة القبائل البدوية وإفساد طائفة العمدة والأعيان، وكان له أثر بالغ في الهزائم التي حاقّت بالثورة، وفي تثبيت الاحتلال وأطلقت يده في القبض على أنصار الثورة وظهر بمظهر الجبروت والطفيان، أنعم عليه الإنجليز بوسام سان جورج وسان ميشيل جزاء إخلاصه لهم، وأنعم عليه بلقب سير. (عبد الرحمن الرفاعي الثورة العربية صفحة {476-477} الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة 1983).

19 الأرناؤوط: كلمة تركية تطلق على سكان البانيا الواقعة في بلاد البلقان، الواقعة على بحر الأدرياتيك شمال اليونان. مع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية واستوطنوا في سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وتونس والجزائر ولايزالون-

صيحة جأربها قائد الخيالة اندفع على أثرها الفرسان باتجاه فم الخليج،
يطاردون عددا من طلاب الأزهر، تجمعوا لمناهضة الخديوي الخائن، عندما
تواروا فتح الطريق أمامك لعبور الميدان، تتقدم باتجاه باب الشعرية.

غص شارع عباس الأول بحشود القادمين من كل حدب وصوب يرتدون
أزهي ملابسهم، وأصحاب المحلات يوزعون الحلوى والشربات، وأمام ساحة
محطة السكك الحديدية تجمع كبار موظفي الدولة، والأعيان والتجار،
تسأل كيف تغيرت طبائع الناس بمثل هذه السرعة؟

من يملك الإجابة؟ تعبر ميدان باب الحديد مذهولا وسط قرع الطبول
وحمى الزغاريد والأفراح، مشوشا بدماء الفلاحين التي سالت على رمال التل
الكبير، جثثهم الملقاة في العراء، تنهشها مخالب العقبان وأنياب الضباع، يا
الله رحمتك، كيف نفهم مشيئتك؟!

على السلالم الرخامية المؤدية للمحطة وقف كبار ضباط الجيش من
الشراكسة يتيهون زهوا، يهمس في أذنك أفندي شاب ويبتعد مسرعا "ألم
تعلم أن مرسوما صدر بحل الجيش؟".

تتوارى عن الأنظار، وتتسلل إلى داخل المحطة، فات وقت التراجع.

شقت صفارات قطار الخديوي وضجيج عجلاته فضاء المحطة، تجمع
المستقبلون في صفوف، يتقدمهم الجنرال (ولسلي)⁽²⁰⁾ قائد جيش الاحتلال
البريطاني، ويجواره الدوق "أوف كنوت"⁽²¹⁾، سلطان باشا ورياض باشا،
والسير إدوارد مالت المعتمد البريطاني. تهادى القطار المزين بالأعلام ولفظ
أنفاس مرجه الضخم، عزفت الموسيقى العسكرية مارش الغازي عثمان

= يحتفظون بلقبهم الأرنأؤوط، في سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وتونس والجزائر،
ولا يزالون يحتفظون بلقبهم الأرنأؤوط.

20) جنرال سير جارنت ولسلي: Sir Jarnet Wolseley القائد العام لحملة الجيش البريطاني
على مصر وصل الإسكندرية 15 أغسطس 1882، لم يكن مشهودا له بالكفاءة ولا ممن
امتازوا بالنبوغ في معارك سابقة، بعد هزيمة العربيين واحتلال القاهرة انهالت عليه الألقاب فنال
لقب لورد، ولسلي أوف كاير، تولى في 1884 قيادة الحملة على قوات المهدي في دنقلة،
وهزم، وتولى 1903 قيادة الجيش البريطاني في حرب البوير وباء بالهزيمة، (عبد الرحمن
الرافعي- الثورة العربية صفحة 371 0 الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة).

21) الدوق أوف كنوت : نجل الملكة فيكتوريا وقائد الألى الأول (آلا الحرس) - (عبد
الرحمن الرافعي- الثورة العربية صفحة { 366 } الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة 1983).

باشا⁽²²⁾، تكاد تضحك، فالثناء على الخديوي لا يختلف كثيرا عن الثناء على عثمان باشا، كلاهما هزم، وإن كان الأول قاتل في ميادين الحرب من أجل الإمبراطورية العثمانية، فإن الثاني قاتل ضد وطنه داخل قاعات قصوره، وحرّم الفلاحين أن يعبروا إلى المستقبل.

نزل الخديوي وأطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة تحية لقدمه، وتقدم المستقبليون يتلقونه بالتهاني، كان وجهه مصفرا يشوبه الامتقاع، وخلفه ظهر شريف باشا رئيس الوزراء، تاه شيخ الأزهر بين المستقبليين، كانوا يدفعونه إلى الخلف، دفعه الشيخ العباسي إمام مشيخة الأزهر السابق والقادم، بكوعه إلى الوراء، وهو يصيح بالدعاء والثناء على مولانا الخديوي المعظم، ويستمطر الحماية الإلهية على جنوده من الملائكة وفرسان الملكة المعظمة، ردد الحاضرون الدعاء بحماس، وكل منهم يحاول أن يرى الخديوي التائه بين جنرالات الإمبراطورية.

شاعت أصدااء مدافع من القلعة ترحيب بعودة الخديوي من الشغل منتصرا، لا تفهم كيف تصبح المحروسة كالحرباء، تستبدل روح الحرية، بجلد الخيانة، هاهم الذين أصدروا عرائض مناصرة الثورة، وطالبوا بالجهاد، ووقعوا فتوى خلع الخديوي بتهمة الخيانة، والخروج عن الشريعة، يتدافعون لاستقبال السلاطين الجدد.

قبضة حديدية تجذبك باتجاه مكتب ناظر المحطة، لتجد نفسك في مواجهة شريف باشا، يهرب الدم من وجهك، وأنت تعيد إليه رسالته التي حملك إياها منذ أيام قليلة دون أن تفض، لتلقى إليه بالحقيقة المفجعة، لقد سلم عرابي باشا نفسه إلى قائد لواء الفرسان جنرال "دوري لي". تعجز قدما الباشا عن حمله، يهمس: قالوا ومصدقته، قبضوا عليه أزي؟ إيه اللي حصل، هو البارودي⁽²³⁾ فين؟ في الصعيد؟

- محمود باشا البارودي نصح عرابي بإخلاء القاهرة، وإغراق القليوبية والشرقية بالنيل، لتعطيل الإنجليز، ومصادرة جميع المراكب، وشحنها

22 (الغازي عثمان باشا: قائد القوات العثمانية في حصار مدينة (يلفنة - Pleven) تقع إلى الشمال الشرقي من صوفيا عاصمة بلغاريا قرب الحدود الرومانية، (محمد فريد بك المحامي - تاريخ الدولة العلية صفحة 629 - الناشر دار النفائس - الطبعة الأولى 1881).
23 (محمود سامي باشا البارودي: أحد كبار قادة الثورة العرابية، ورئيس وزراء الحكومة التي أقرت أول دستور مصري يناير 1882، وهو شاعر من شعراء النهضة.

بالذخيرة، والانسحاب إلى الصعيد، لكن عرابي رجع منزله، وارتدى ملابس التشريفة، وأمام ثكنات العباسية طلب الإذن بالدخول، وسلم نفسه وسيفه إلى الجنرال دورى.

- يحتفى في معطف الملكة! فاكِر نفسه مين؟ نابليون بونابرت؟!

- أسير حرب.

- أسير حرب! أما فلاح صحيح، لا كان له في الحرب ولا في السياسية.

غشاه دوار، همس: "كنا قد شرعنا في بناء أمة، ولم يعد لدينا سوى قطيع من الأنعام، يرأسها خروف يغثو في زريبة للذئاب.

دفع الياور بكرسي قريب نحوه، اتكأ عليه يتقى السقوط، كان ينظر إليك بسخط، وعيناه تلتمعان بدموع تنظران جدران محطة القطار الشامخة، همس: كنت فاكِر أنها ستكون مفخرة يتباهى بها المصريون، ليه رفض الحزب العسكري قبول تعديل الخديوي على الدستور، ضاع كل شيء. تطلع إليك مستفسرا عن بقية الجيش، وأين ذهب القادة.

- "أودعهم سلطان باشا السجون والمعتقلات، واللي مسلمش نفسه قبض عليه من منزله، ومن تمكن من الهرب قام أعوانه بالإرشاد إليه، دلوقت سلطان باشا هو صاحب الحول والطول في العاصمة".

قبل أن تخرج خرائطك ترى مركبة الخديوي تتحرك للأمام وسط أعلام الفيالق البريطانية، مال الياور على الباشا ينبهه إلى ضرورة الرحيل حتى لا يلاحظ غيابه، قام متثاقلا يللمم جسده بصعوبة، تقدم عائدا نحو الموكب وعشرات المستقبلين يفتحون الطريق لفخامته.

وسط دوى المدافع شق موكب الخديوي الطرقات في حراسة خمسة آلاف جندي بريطاني اصطفوا على جانبي الطريق، تسلل اليوزباشي من بوابة المحطة الجانبية، يود لو يستطيع التخلص من بزته العسكرية، من جلده، هو الهرب أو الموت برصاصة غير متوفرة الآن.

ذاك اليوم المشئوم أطبقت عليك صيحات الخيالة الشراكسة كما تطبق الفخاخ على الطرائد، اندفع أحدهم نحوك على جواده بمهارة فرسان الأناضول ممزقا سترتك العسكرية، رفع طربوشك على ذؤابة سيفه، ارتفعت قهقهات زملائه الفرسان، يستمتعون بمطاردة يؤججها غليل الثأر،

تنساب خيوط الدم على وجهك، يبلل طعمها شفتيك الجافتين، يتقدم الثاني في هجوم كاسح قبل أن يتوقف بغتة ليصعد جواده عاليًا في الفضاء، ويهبط بقائميته الأماميين على صدرك، تسقط على الأرض، ترى صفحة السماء في زمن الظهيرة، وحولك تشع وجوه بالكراهية والاحتقار.

انقضوا بخيولهم، وسياطهم، وهم يسخرون بصخب، تسمعهم:

- فلاح نفرويس، يستحيل يكون ضابط.
- فلاح يأكل روث بهائم.
- فلاح يخدم عبد في بيوت الأكابر.
- فلاح خنزير مرسيس، يحارب أسياده!
- (فتة) وانتهت.
- لعنة الله عليكم، تقاتلون جيوش إمبراطوريات، وأنتم خنازير، كلاب يعضون يد أسيادهم.

حولوا جسده هدفًا لحوافر جيادهم، تطارده لكننتهم التركية التي كرهها منذ اللحظة التي طرقت مسامعه في طوابير المدرسة العسكرية.

على الطرف الغربي للميدان، وقف عدد من جنود الإمبراطورية يشهدون خيالة الشركس تمرغ ضابط مصري شاب في الوحل، مشهد لا يعنيه، وقد انتهت حملة الغزو إلى نزهة على ضفاف النيل الأزلي، والأهرام أعجوبة الدنيا، وقد دكت البحرية الأعظم بلاد تنبع من سحر التاريخ، الآن صار وادي النيل قطعة في متحف بريطانيا العظمى، عاشت الملكة، وأطال الله عمرها، وليغمرها الرب ببركته، وتعلو كلمته في الأعال.

نهض متحاملًا على الألم، يرى خرائطه يتداولونها بغضب، وهم ينظرون الاستحکامات العسكرية للجيش المصري، رفع أحدهم الخرائط العسكرية واتهمه بالخيانة، ليتحول مصيره إلى جحيم مجلل بالعار، وضعوا أصابعه على أحجار الأرصفت، وسحقوها بكعوبهم، وفي قلب الميدان شيدوا مشنقة.

هدرت عذاء تشاهد التاريخ، بلكنة اسكتلندية قادمة من أرخبيل (شتلاند)⁽²⁴⁾ يأمر خيالة الشراكسة بالتوقف.

24) شتلاند: Shetland أرخبيل جزر تقع في بحر النرويج وهي جزء من إسكتلندا

لم ينتبهوا للصوت الأمر لميجور ستيوارت هيجنز قائد سرية الحرس، وربما لم يفهموه، لكن طلقة من غدارته حطت على ميدان باب الحديد بخيمة من الصمت البارد، كانت أوامره تقضى على الفرسان الشراكسة بتسليم خرائط الضابط المصري، هذه إهانة أخرى، وبعد مداولات طويلة امتثل قائد خيالة الشركس لنصيحة رفاقه بالتراجع، فقدم عن طيب خاطر خرائط اليوزباشي لجيش الاحتلال، وعادوا يستكملون طقوس الإعدام.

صوب الحرس الاسكتلندي بنادقه نحوهم، هرشوا رؤوسهم تحت تهديد لا يحتمل اختباره، يتذوقون المهانة في حيرة، كبحوا عواصف غضب صحرانهم التترية، وهم يتذوقون قسوة الاختيار المربين الخضوع عنوة أو الخنوع بكياسة لجبال الجليد وقوة البحر.

نكس الشركس رؤوسهم، لينتهي المشهد على انسحاب مكلل بالعار، وخرائط عسكرية للاسكتلنديين، والسجن لأولاد الفلاحين، وأمر بحمل الضابط إلى المستشفى العسكري البريطاني، كي يعيدوا صحته التامة، قبل أن يقدم إلى المحاكمة، مرحى بالعدالة البريطانية.

* * * *

"العدالة البريطانية" حلم ناعم ظل يساوره، وهو داخل قفص من الجبائر، وجسده الفتي يلتئم بفضل الإرادة الحديدية للراهابات الايرلنديات الكاثوليكيات، اللائي وضعن رعايته نصب أعينهن، وعلقن على سريريه أيقونة القديسة الشافية استير الدينارية، وابتهلن إلى السيدة العذراء بشفاء مريض شاع عنه؛ أنه الضابط الذي كان ينوى اغتيال ابن الملكة البروتستانتية.

تطاردك كوابيسك بظلال مواقد حجرية تتناثر في المستنقعات، تحت سماء معتمة، وقطعان ذئاب جائعة، وقرب⁽²⁵⁾ لماعز مقطوعة الرأس، تطارد الفلاحين العائدين لدورهم، وجنيات ترقص حول شجرة جميز عملاقة، تسكن زواياها غيلان وشياطين، وتبرق على أطرافها عيون عصافير جنة.

(25) قرب: جمع قرية، تصنع من جلد الماعز بعد سلخها، وتستخدم قديما في الريف في صناعة الألبان، وفي المدن في السقاية

تحملك إلى ضريح سيدي إبراهيم الدسوقي، يتمنى عليه أن يحملك
إلى حيث السماوات العلا، ليغتابك شبح يمتطى جواداً حديدياً، ينفس من
منخاريه حلقات دخان، يتقدم بك داخل أكمات كثيفة من مستنقعات
البردي، تتخللها صليات من السنة النيران.

تفيق من حمى اللهاث، وسط بحيرة من عرق غزير، تستجمع شتات
أفكارك، بحثاً عن صفاء يمكنك من فهم المصير الغامض الذي ينتظرك.

في صباح أحد الأيام الباردة من شهر ديسمبر تلمح إحدى الراهبات
مومياء بيضاء من عكاكيز وضمادات قطنية لشبح يجوب العنبر،
خرجت تعد وتدعور فيقاتها، اجتمعن حوله وهن يوشمن صدورهن
بالصليب، ويتمتمن الدعاء للسيدة العذراء، وسيدة الشفاء استير
الدينارية، مبهجات بعودة الروح لمريضهن.

تعبّر لهن عن عرفانك، ويجعلن منك سرهن الشيق، يزلن الجبائر واحدة
بعد أخرى، وكأنهن يسرعن بك لمصيرك المحتوم، فقد صدرت أوامر القيادة
بنقلك إلى سجن القلعة للمحاكمة بتهمة الخيانة وعصيان أمير البلاد.

* * * *



طالب في مدرسة أركان حرب

-3-

قلعة الجبل؛ أسوارها الشاهقة وقبابها المتوجة بالمآذن، جامعها الذي شيده محمد على باشا، إيوانات وعروش مهجورة، يصعد البعض من أقبيتها المظلمة لسدة الحكم، ليسقط آخرون من عروشهم إلى زنازينها المعتمدة.

يتعثر البك وهو يهبط سالماً الحجرية في طابور من الجرذان، تقوده إلى نفق من الظلمة، تفتح المزاليج تحت تأثير المال، وكتاب ممهور بتوقيع شريف باشا ناظر النظار بالإفراج عن الشاب، وإعادة رتبته العسكرية بعد تخفيضها لرتبة ملازم أول، مع عقاب بالنفي إلى السودان.

في مخبئ موشج بظلال العالم السفلى ووجوه تالفة صرخ قائد الحرس وهو يدفع مشعله في وجوه الأحياء الموتى ينادى اسمه:

- الحسيني عبد الغفار بن مزارع، إفراج بأمر معالي شريف باشا ناظر النظار.

في قبو معبق بالنتن، فك قائد الحرسجية الأغلال الصدئة عن قدميه وزنديه، وصعد به دهايز القلعة، على باب النصر تنفس البك الصعداء، ودفع الجسد المتهالك إلى عربة تنتظره، وأسرع إلى مرفأ القصر العيني، ليستقلا ذهبيّة حملتهما إلى القلعة السعيدية، الكائنة بثكنات القناطر الخيرية⁽²⁶⁾.

(26) ثكنات القناطر الخيرية أو (القلعة السعيدية): أنشأها الخديوي سعيد باشا وإلى مصر، ليجعل منها معسكر الجيش الرئيسي، ومقراً للمدرسة الحربية، ولمواجهة الهجوم النهري على المحروسة، ونقل بها مدرسة المهندسخانة، ثم قام تحت ضغط الأستانة على تسريح ضباطه، بعد

أودع البكباشي رستم أوجلى قائد ثكنات القناطر الضابط في
اسبتاليا الأشلاق، وطلب من طبيب الثكنة أن يعتنى به العناية اللازمة،
وتركه البك ومعه عجوز لخدمته، قبل أن يرحل شكره الشاب لإنقاذه
حياته، ابتسم البك، وقال مرتاح الضمير:

-الشكر لستك بدريّة، اهتم بصحتك، عشان نينا ترضى عنى".

* * * *

ليال مضت، داوم الطبيب على مداواة القروح المنتشرة في جسد الضابط
الشاب، الذي داهمته الحمى وغرق في كوابيسه، والعجوز تواليه بعنايتها،
تختاله صورة غامضة لأمه التي أخذتها المنية وهو في الرابعة، ليهرب به أبوه
من خيام البدو الواقعة على "كوبانية" قناة السويس إلى جدته بدريّة،
يتركه ويرحل ثانية مختفيا من مطاردة رجال السلطة، يكبر في أحضان
المرأة التي لم يعرف سواها، أما، وجدة، وراوية حكايات، وأساطير،
وتهتكات هستيرية، لا يكف عن لوم أبيه الذي وضعه بين يدي عجوز
جنت، ولم يعد لديها من العقل إلا قليلا.

يجن عقلك، كيف تعيش في كنف امرأة تستحضر بدعواتها
شياطين من الجحيم، وتسافر بوعيتها إلى ماض مجهول، تخاطب رجالا ونساء
لا تراهم، تذكرها ذئبة كاسرة تقفز من فوق قبة القرن إلى أحد أركان
القاعة الموشاة بضوء شاحب لمشكاة زيتية، تهاجم شيطان رآه بأعينه
يجلس منزويا يحمل قرونا حمراء، ترجمه بلعنات على العذاب الذي أوقعه
بها وبأمرها صديقة، والأذى الذي ألحقه بأبوها المنصور أبو حجاج، وابن خالتها
عبد المحسن الشقي، الذي قتلتته اندفاعاته الخرقاء نحو الحرية.

يتوسل إليها وهو يبكي دموعا من بخار ساخن، أن تتوقف عن إنزال
لعناتها به، فهم يضاعفون سنوات عذابه. تجيبه ساخطة "هو أنا في أيدي
غيرها أخفف بيها وجعي"، يولول ولولة عفريت يحترق ويتلاشى في اللهب.

أن أتاح لهم الاختيار بين العمل في مطابخه، أو الحصول على وظائف مدنية، وأمر بتكسير
السفن الحربية، وبيع أخشابها خردة.

تصاب بالفزع، وتهرب في الصراخ، عل أحدا يأتي لينقذك من برائتها،
لكن أحدا لا يأتي سوى الليل، تأخذك في صدرها المعروق إلى قبة الفرن
الدافئ، تمد يدها إليك بالمسكرات، تسرد عليك حكايات تمضيان بها
ليالي الشتاء القارص، قرب الفجر تستيقظ على نار دافئة، تبسم بدرية:

- معلنش يا حسيني ده حساب قديم، أصل أنا كان لي أبين وولدين، وح
يكون لي من العذاب عيارين، يا رب يا واحد أحد من غير اثنين.

تشرع في غنائها الباكي "عايزة أمشي من الدنيا، تعذبت ما فيه
الكفاية، جنة أو جحيم ما يهمش، يتهيا لي ما فيش غيرها نار وقايدة في
صدري، يا رب سامحني وأنا راضية باللي تقسم لي بيه"، "هو الواد ده اللي
مخليني عايشه، لولاه كنت مت من زمان واستريحت.

* * * *

تغادر فراشك للمرة الأولى إلى شرفة عنبر الاسبتالية الخارجية المطلّة
على النهر، تتمدد على دكة خشبية وأمامك بحارة المرفأ منهمكون في
تجهيز السفن وصيانتها، تنظر في زهول إلى السلاسل اللانهاية لصيرورة
الأمواج الخمرية، بينما النهر الذي فقد دهشته للعالم لا يتوقف عن
الجريان.

تصبح الشرفة مجلسك المفضل، تشاهد بملل السفن الشراعية تتوالى
على المرفأ، وعلى سطحها عشرات الفلاحين حفاة عراة إلا من قمصان
الكتان، تشرب أنظارهم إلى ضباط أتراك وشراكسة، يدفعونهم من
سطح المراكب إلى البر، وحوافر الجياد المحتاجة تبعثرهم في الأنحاء.

تتري وجوه، قادمة من أزمنة قريبة، وأحداث هائلة، وفي لحظة تدرك
مثل رؤيا، أنك تسكن بقايا جيش العصيان.

كان يوما سائما، بدا بعرض عسكري للأورطة العسكرية الأولى
المشكلة من الفلاحين الذين أعيد استدعاهم من جيش العصيان الذي
جرى تسريحه، سادت الفوضى، وسرت إشاعات حول نية الخديوي إرسالهم
للدفاع عن الدولة العثمانية ضد الموسكوب، إشاعات أخرى سرت بأن
العمارة البحرية العثمانية حررت عرابي من برائن الأسطول الإنجليزي، وأنه

عائد للحرب، بعد تدخل السلطان للصلح بينه وبين الخديوي، وهذا ما ينبغي أن يفعله المسلم مع أخيه المسلم ضد أعداء الدين، ما لم يكن معروفاً هو قدوم مكاتبات من حكام السودان تطلب إرسال تعزيزات عسكرية عاجلة لوقف انتشار الثورة التي قام بها درويش يدعى المهدي سيطر على السودان الغربي، وبدأ يهدد الخرطوم.

لمح جنوده الذين خاضوا معه معركة التل الكبير، بقيء بهم جوف السفن، وفرسان الشراكسة يدهسونهم بسنابك الخيل، وهم يفرقعون بسياطهم، يدفعونهم إلى رصيف المرفأ الضيق، ارتدى زيہ العسكري، وسار يجر جسده المتهاك، وقد قرر الخروج في مواجهة خاسرة أخرى.

بدأ الطريق الواصل بين شرفة الاستباليا والمرفأ طويلاً، تقدم ليقف حائلاً بين جنوده، وبين خيالة الشراكسة، نفرت الجياد ودارت تثير الغبار، وهو يحاول التماسك، استدعى أمين بلوك الأورطة ينادى في الجند ويدعوها للانتظام، ليحيل الفوضى الضاربة بين الجنود إلى طابور عسكري لا يمت لطواير السخرة بصلته.

حل الصمت محل الجلبة المعتادة، وتحولت وقفة الانتباه إلى جدار صلد واقترب المشهد من روح الثورة، صاح على جنوده بالانصراف، طارت الطواقي والعمائم متبوعة بشيلان حلقت في الفضاء مثل شهب في السماء، التف حوله أصدقاؤه القدامى، يحاول تبين ملامحهم، غشاها الضباب وسقط مغشياً عليه، حملوه إلى مستشفى، وقائد المعسكر يسأل أركانه عن اسم هذا الضابط الشاب، الذي دافع عن شرف وحدته العسكرية، الأمر الذي يستوجب الذبح بالمقاصل الأميرية.

* * * *

بعد أن أنهى الشيخ عمر الشلح صلاة الجمعة، أشار إلى ابن أخته الفتي؛ عبد المعز بالبقاء، وسأله إن يستعد للسفر معه إلى القناطر الخيرية، فقد وصلت إشارة إلى العمدة من المديرية، تنبئه بأن نظارة الحربية قبلت انضمامه للجيش المسافر إلى السودان، وسأله الذهاب إلى شيخ البلد، كي يتسلم قرار إلحاقه بالحملة.

كانت الأم تخلط دموعها بالخبز الذي سيأخذه معه أصغر أبنائها العشرة في سفره الطويل، والذي نادته باسم أبيه "أبويوسف"، الذي وافته المنية قبل ولادته، فنشأ يتيما، كان قويا عفيا، ينم جسده عن قوة هائلة، حظى بمحبة الجميع، وناداه زملاءه في المعهد الأزهري بطنطا "أبو المكارم"، لأخلاقه الرفيعة، وسجاياه الزاهرة.

وكانت دعوة الناس له عقب ختمته للقران الكريم بالشيخ أبو يوسف، باعثا لديها لأن ترجو خاله الشيخ عمر الشلح، وتتوسل إليه، كي ترسله لدراسة علوم الدين في المعهد الديني الأحمدي الأزهري بطنطا، ولم يخيب ظنها، فداوم على دراسته، وحصل على الثانوية الأزهرية في السادسة عشر من عمره، وبدلا من التوجه إلى الأزهر الشريف في القاهرة، قرر خاله أن يصحبه معه إلى المديرية الاستوائية، معلنا للجميع أن هذا في مصلحة ابن أخته، وهو يراه في قرارة نفسه خير من يخدمه في الغربية.

قام الخال بعمل اللازم، وتوجه إلى عليّة القوم طالبا منهم التوسط لدى أصحاب الفخامة من المسؤولين لإلحاقه بالحملة المتوجهة إلى خط الاستواء، وها هو قد نجح.

في ليلة رحيله عكفت أمه، على إعداد الزودة التي سيسد بها رمقه أثناء سفره، وهي تعلم أن ابنها النهم إلى الطعام (بشكل يثير سخريّة الجميع)، سيموت من الجوع، وأن طعام الجيش لن يقيم أوده، بينما أخوته الذكور يبدون سعادتهم للتخلص من نفقات دراسته، ومن معدة حمار لا يشبع، وأن خزين الدار سيتخلص من عبء معدته النهمّة.

في الصباح الباكر غادر الشيخان عمر الشلح وعبد المعز قريتهما الواقعة قرب طنطا، حاملان زودة من الخبز والقرص والقراقيش، والجبن الحادقة، وغيارين من الملابس، وقفطان، وجبة من ذات الطوق (الكاكولة)⁽²⁷⁾، وطربوش وشال، فبلغا القلعة السعيدية في الظهيرة

* * * *

(27) الكاكولة: رداء رجل الدين الأزهري

قبل غروب الشمس وصل قادة القوات المتوجهة إلى السودان، أطلق البروجي نوبة جمع، لاستعراض القوات التي بدت مثل عمال العونة، طلب القادة مهلة لتدريب القوات، وإعادة الضبط والربط للعسكر، قيل إن سردار الجيش المصري سير أفلين وود⁽²⁸⁾، المعين حديثاً، أعطى تعليماته بسرعة التخلص من هذا التجمهر الخطر، حتى لا تشتعل ثورة من جديد، وأضاف باستخفاف: "لديكم الزمن الكافي في البحر".

قالوا بدهشة: في البحر يا سعادة الفريق!

- على ظهور السفن، على ظهور الجمال، دربوهم أو تخلصوا منهم.

ثلاثة عشر ألف جندي من جيش الثورة المهزومة اصطفوا في ساحة المعسكر، موزعين على خمسة آليات⁽²⁹⁾ مصحوبة بطوبجية الصواري، غادروا إلى ميناء السويس، حيث تنتظرهم السفن التي ستقلهم إلى ميناء سواكن الواقع تحت سيطرة الجيش المصري، تاركين وراءهم القوات البريطانية ترتع على أرض الوطن، وشعور يقبض على النفوس بأنهم لن يروا الأرض التي ولدوا على ترابها، وترعرعوا بين حقولها، وكان حلم الحرية الذي داعب خيالهم يوماً، تحول إلى عقاب بالموت.

* * * *

28 (أصدر الخديوي محمد توفيق أمراً عالياً في 10 يناير 1883 بتعيين سير (أفلين وود) سردار للجيش المصري ، ورئيس أركان حربه، وأعطاه رتبة فريق، وأنعم عليه بلقب باشا.
29 (قاد الألوية المتجه إلى السودان لمقاومة الثورة المهدية أميرلاى سليم بك عونى، أميرلاى سيد بك عبد الرازق، اللواء إبراهيم باشا حيدر، أميرلاى رجب بك صديق، أميرلاى عباس بك وهي،

أُسْطُورَةُ الْوَنِيِّ عَشْر



بکباشي آرکان حرب

- 4 -

وقف في ردهات نظارة الحربية بانتظار السماح له بالمشول أمام اللواء محمد رءوف باشا⁽³⁰⁾ قائد المحكمة العسكرية التي أصدرت أحكاما بالإعدام ضد قادة الثورة، وهو يضرب أخماسا في أسداسا فيما إذا كانوا ينوون إعادة محاكمته، عندما سمح له بالدخول، وجده منكبا على قراءة ملفات عسكرية خاصة باثني عشر ضابطا جرى محاكمتهم بتهمة التورط في مؤامرة ضد أمير البلاد، رفع اللواء رأسه، يتأمل الضابط الشاب الذي كان عضوا في بعثة الجيش المصري لمدرسة المشاة الفرنسية، ولم يتجاوز الواحدة والعشرين، قال بتوجس غامض:

- "لما بدأت الثورة كنت في السودان، لما رجعت كانت مصر منقسمة بين حزب يشايح عرابي وحزب يشايح الخديوي، أنت كنت مع أي حزب؟".

- حزب الثورة. نظر إليه مليا، وأضاف:

- "يمكن لو كنت عاصرت بداية الأحداث، كنت اخترت حزب الثورة".

كبح نفسه عن سؤاله؛ ولم حكمت عليهم بالإعدام؟، لكنه اكتفى بالصمت، أشار الباشا إليه بالجلوس، واستطرد بنبرة باردة أنه تم اختياره لمهمة تتطلب ضابطا كفؤا.

اعتصم بالصمت بانتظار ما سوف يعرفه بعد قليل، أخبره الباشا أنه بناء على توصية عليا صدرت الأوامر بتولي قيادة حملة لإمداد مديرية خط

30) محمد رءوف باشا: ولد لأب من صعيد مصر ولأم حبشية الأصل، عمل كقائد برتبة قائم مقام للكتائب المصرية التي تشكلت منها في بعثة الخديوي إسماعيل لضم أعالي النيل للحكومة المصرية، بقيادة صمويل بيكر، أقرب بيكر لمحمد رءوف قائد القوة العسكرية التي رافقت بيكر للمديرية الاستوائية بهمته ونشاطه ونجاحه. ثم عاد وانتقده بسبب اتصاله بأبو السعود تاجر الرقيق بحكم زمالته له أثناء الدراسة، بناء على تعليمات الحكومة المصرية وضع نفسه في خدمة الجنرال غوردون حاكم السودان ولكن غوردون أثر إبعاده. أصبح حاكم مصر بعد احتلالها في 1875. وحاكما للسودان بعد استقالة غوردون في الفترة من ديسمبر، 1879 وحتى فبراير /نيسان 1882. تولى رئاسة المحكمة العسكرية لقادة الثورة العرابية التي انعقدت في 28 سبتمبر.

الاستواء بالمؤن، والعتاد العسكري، وأورطه من الجنود، وأشار إلى نقطة في خريطة لوائي النيل تبعد آلاف الكيلومترات، وقال:

- هنا على خط عرض {5⁰}، واضح يا أفندي؟

- تمام أفندم.

ألقى باثني عشر ملفا لضباط محكوم عليهم بالنفي:

- ح تاخذ معاك اتناشر ضابط من جيش العصيان، دلوقت هم في إجازات ليودعوا أهاليهم، وح ينضموا إليك تباعا ومعاهم أسرهم.

- تمام أفندم.

- مهمة ثانية موكلة إليك من هيئة أركان الجيش المصري، ونظارة الري والأشغال، بقيادة بعثة من المساحة العسكرية لاستكمال عمليات رفع قطاعات أعالي النيل الأبيض وقياس تصرفاته حتى المنابع، واضح؟

- واضح يا أفندم.

يستطرد: أي أسئلة أو استفسارات ح تلاقى الإجابة في هيئة الأركان، ح تتحرك بعد عشرة أيام، فيه عندك أي طلبات؟

هز رأسه نفيا، قال اللواء كمن يحدث نفسه:

- "مش عاوز تشوف والدك والست والدتك؟".

- "أزور قبر جدتي".

هز اللواء رأسه متفهما، وقال وهو يتطلع إليه بشفقة:

- "يرحمها الله، متجوز؟".

هز رأسه نفيا، عقب اللواء بجديّة:

- "مسموح لكل ضابط باستصحاب زوجته، وأطفاله، وخادمين.

همس بحيرة: "وسعادتك وأنا ح أخدم مين؟".

أراد اللواء أن يقول: "أنت في خدمة الخديوي"، لكنه يعلم أن هذه العبارة لن ترضى شابا خرج لتوه من سجن القلعة عقابا على عصيانه أميرها، ود لو يقول: "أنت تخدم الجيش". تقدم يصافحه:

- "حسيني أفندي، شرف الضابط خدمة وطنه".

أمام قبر جدته "بدرية" قرأ الفاتحة والصمدية، ودعي لها بالرحمة، ودخل إلى مقام الشيخ العريان وصلى ركعتين، ثم توجه إلى القرية، حيث لا أب يستقبله، ولا أم تلقاه ببخيرة من دموع، جاء الجميع للسلام، والسؤال عن

الأحوال، كانوا منغمسين في عالمهم الكئيب، دار الحديث حول شئون شتى، كان ينتهي بحديث ظاهره مع العربيين، وباطنه ميل واضح إلى الخديوي، فالثورة لم تكن من شيمتهم.

فرغت المندرة وأصبح وحيدا، وجاءت عمته تعرض عليه ابنتها هاجر، التي لم تبلغ التاسعة، وهي تؤكد إن جدته بدرية أوصت له بها قبل موتها، رأي طفلة تقف في مخاطها مرعوبة، ففكر... ليس لديك شيء هنا، اقطع حبل خلاصك بعالم تمضي عنه إلى الأبد، لترحل في الصباح الباكر، تأتي عمك جريا، تنبهك أن البنية في حاجة لوقت قبل السفر، تقول وأنت على ظهر جوادك:

- يا عمّة الأحوال خطيرة، ووضع الجيش مش مستقر، كفاية أتحمّل مسؤولية نفسي، مش ناقص عيلة بتضرع.

* * * *

على طريق الكافور الذي يمتد على القوس الجنوبي لمركز بلبليس، ركض الملازم صواري محمد فوزي السلحدار، على جواده الأشهب، باتجاه الأبعادية التي وهبها محمد علي باشا، لجده شوكت باشا بن يلماز بك السلحدار، مكافأة على الخدمات الجليلة التي قدمتها أسرته، من بعيد أطلت مباني الإسطبلات الكبيرة المشيدة من الحجر الأجر، والتي حوت أجود أنواع الخيول التي أحضرها أبيه وأجداده، أثناء مشاركتهم في الحروب، التي دارت على امتداد البحرين؛ الأحمر والأبيض المتوسط، ومحمد علي باشا ينشئ إمبراطورية من العدم.

سهل جواده الذي كان رفيقه في معارك التل الكبير، وهو يتفادى التعثر في الحفر، وجذوع الأشجار، التي يسيره نحوها قائده اللاهي عنه في أفكاره، انتبه الملازم، وربت على عنق جواده باعتذار، وعاد يسأل نفسه، كيف سيستطيع أن يخبر زوجته الخاتون (ورد الجنان)، إنه قد صدر قرار بإبعاده إلى المديرية الاستوائية، وأن عليه مغادرة القصر خلال أيام.

أمام بوابة الإسطبلات، تقدم نحوه سائس الخيل العجوز، وهي ينحني، وثب الفارس الشاب من على ظهر جواده، وألقى إليه بمقوده، سأل بصوته الأجش، ذي الرنين:

- الفرسة عملت أليه يا عم حسن؟
- ولدت يا سعادة الباشا، وجابت مهر.
- واللّه، لك الحلاوة.
ضحك العجوز سعيدا، وقال وهو يفك السرج: ربنا يطول عمرك يا
سعادة الباشا، ويزيدك من خير، كريم زي المرحوم الباشا أبوك، كان
كل ما فرس تولد، يقول نفس الكلمة.
- ومين اللي ولدها؟
- سمعان أفندي البيطري، وسيدي الباشا الكبير.
- هو جدي جوه؟
- سعادتك عارف، هو حد يقدر يقرب منها إلا في حضوره، معاه الخاتون
الكبيرة، والبيه الصغير. عض الفارس شفته السفلى، وضاق عينا
الصقر النافذتين، اللتان تزينان وجهه الأحمر المدور، غمغم يخفى توتره..
هه وبعدين يا عم حسن.
من باب عنبر الخيول اندفع طفل في الثالثة من عمره، إلى أحضان أبيه
وهى يصرخ:
- بابا، بابا، جدى سمى المهر على أسمي. حمله من إبطيه، ورفع عاليًا.
- سماه أيه؟ قال الطفل بغضب: يعني أنت مش عارف أسمي.
- لا مش عارف، وأنا يعنى ح افتكركه أزاى.
قال الطفل يناكده: طيب أنا ح أقول لجدى عشان يخاصمك.
انزلق من بين يديه واندفع إلى الداخل، وهو يصيح: بابا جه يا (دده)⁽³¹⁾..
بابا جه.

خلع الفارس صدريته، وجلس القرفصاء يمد يد المساعدة لرجل عجوز،
تبدو عليه ملامح النبل والسمو، كان عمره يناهز التاسعة والسبعين،
توارت تجاعيد وجهه الأصهب فى جلال جذوره، التي تمتد لأكثر من خمسة
قرون خلت، تولى أجداده قيادة الرعيّل الأول لفيالق الانكشارية، والتي
طلب السلطان (أورخان) عثمان من الدرويش حاج (بكتاش)، أن يضيف
على الفيلق بركاته، فأخذ يغطي رؤوسهم بقطع من عباءته، وقال له: "إن
وجوه الفيلق الذي أنشأته ستكون بيضاء وضيئة، وسواعدهم قوية،
وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة، ولن يبرحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت

□ □ دده (Dede): جد (والد الأب أو الأم)، باللغة التركية

لهم ألوية النصر، وهى نبوءة تحققت على امتداد ثلاث قرون، قبل أن تتحول فيالق الانكشارية إلى وبال وبلاء، أوقع كوارث محققة على الدولة العثمانية، أدت إلى انهيارها فيما بعد.

تمتم الجد وهو عاكف على تنظيف المهر:

- مهر قوى زي أبوه، خلاص مسافر؟

- أيوه يا جدى.

- واختك ألفت؟

- لا طبعاً مش ح تسافر، جوزها سالم أفندي رفض أنها تسافر معاه.

- خليها "تيجي" تقعد معانا هي وبناتها.

- أمرك يا باشا.

ناول شوكت باشا الملازم المهر الصغير، فحمله، نظرت الأم إلى وليدها من ركن عيناها، دعي طفله كي يشاركه حمله، وقال:

- يلا نخط مراد الصغير في حضن أمه.

حملاً المهر، ووضعاه أمام الأم، احتضنته برأسها، ولعقت جسده المندى بلسانها، ولكزته بخطمها فتدحرج بسعادة.

وقف الملازم فوزي أمام جده صاحب القامة الفارهة، وتبادل معه حديثاً حول موعد سفره القريب، لمح زوجته (ورد الجنان) تخرج من كابينة خيل تقع في مؤخرة العنبر، وخلفها فرستها جلنار، حيته بمودة، وقالت أنها سوف تترىض في مضمار الخيل، وتلحق به على الإفطار.

تابعها حائراً إذا كان يتعين عليه أن يخبرها أم ينتظر، قبل أن تغادر باب العنبر، نادها قائلاً: أنا مسافر بعد ثلاث أيام.

التفت إليه وقالت وهى تبتسم: تروح وترجع بالسلامة.

- ح أقعد حوالى سنة، سنتين الله أعلم.

- لية محمد أفندي؟ مسافر إسطنبول، خدني أنا ومراد معاك، أزور بابا

وماما خاتون.

فتح يديه وقال بيأس، وابتسم باعتذار: أنا مش مسافر الشمال.

- أمال فين تسافر محمد أفندي؟

- أعالي النيل، عند اللي بياكلوا البشر.

- ليه محمد أفندي؟

تقدم ناحيتها وهمس: أوامر الجيش بالإبعاد.

- يعنى أليه إبعاد؟
 - نفى مستتر. استطرد: تحبى تجي معاي؟ مسموح باصطحاب الزوجات
 والخدم بسبب طول المدة.
 - ومراد بيك الصغير؟
 - نسيبه هنا مع جده.
 - طبعاً أنت زوجي، وأنا أسافر معاك آخر بلاد العجم والمسلمين،
 انتفخت أوداجه، وغمرته السعادة، قال يحاول أن يتيح له فرصة
 التراجع، وهو على يقين أنها لن تفعل:
 - خليكم أنتم هنا مع مراد، حرام نسيبه وحده، لسه صغير.
 ولدهشته وافقت وقد بدلت رأيها، وكأنها بانتظار سبب تتعلق به، قالت
 وعيناها ترحلان لبعيد:
 - معكم حق، حرام ن ظلم أبنا الصغير، ممكن أسافر أنا وهو
 أسطانبول، أشوف (بابا) و(أنا جوهر عدن).
 هز رأسه مستسلماً، استدارت راحته، وعندما امتطت فرستها، كانت
 تشعر بحرية لم تذوق طعمها منذ الليلة الأولى لزواجها به، تلك الساعات
 المريرة التي عانت منها الأميرين وهى يلجها، بدت بعدها الحياة سجن صغير،
 يضيق كلما جمعهما الفراش، مع الوقت انتقلت إليه مشاعر النفور التي
 تقبض على أنفاسها، فتحاشى القدوم إلى غرفة نومها، واحترم رغبتها،
 مبقيا على ما يجمعهما من واجب، وعرف، وتقاليد.

* * * *

وهو في طريقه إلى القصر قطع الطريق عليه خولي الأبعادية، وانحنى
 يعفر رأسه في التراب، وهو يرجوه، ويتوسل إليه أن يأخذ أبنه معه:
 - خد الواد مسعد معاك يا سعادة الباشا، خده "يونسك".
 - الله!.. هو أنت لحقت تعرف يا حاج مصطفى.
 - هو فيه حاجة تستخبي؟ أمانه عليك خده معاك.
 - أنت عاوز تتخلص منه؟
 - هو يطول، دا له كبير الشرف.
 - لو عاوز يجي مفيش مشكلته، هو "جاله" استدعا من الجيش؟

- تصدق يا باشا، بعد ما الواد رجع من الحرب، وشمر ذراعه واشتغل معانا، قلت أجوزه، ويعقد جنبي يساعدني، ومراته تساعد أمه، ملحقناش، جالنا الخفير يقول فيه إشارة من مأمور بلبيس للمحروس بسلامته، (جربينا) للعمدة لقينا استدعاء بالأمر السامي.
- ربنا مش كاتب لك أنه يساعدك يا حاج مصطفى.
- مش كاتب لي يساعدني، خلاص يساعد جنابك يا باشا.

* * * *

- على مائدة الفطور، اقتحم مسعد بن رئيس الأنصار، وخولي الأبعادية القاعة مبتهجا، وهو يصيح بصوت جهوري: أسمع يا باشا، أنا مستعد أجي معاك طبعاً، ومن كل بد، أنا أفديك بروحي بس لي شرط.
- أنت ح تتأمر علينا يا مسعد؟
 - أبدا يا باشا مش شرط يعني.. اعتبره رجاء، اعتبره فعل خير، صدقة، دا أنا ابن الخولي بتاعك.
 - طيب قول عاوز أيه؟
 - جوزني يا باشا، عاوز أجوز. أدخل دنيا.
 - سهل، من حقتك تاخد مراتك معاك.
 - ما أنا عارف يا باشا.
 - طب لما أنت عارف عاوز أيه، ما تقول وتخلص.
 - مش ده الطلب..
 - أمال أيه الطلب؟
 - العروسة.
 - مالها؟
 - جوزني البت مبروكة بنت عم حسن الساييس.
 - اختلج وجهه الملازم، وافتر وجهه عن ابتسامته مبهجة وهو يقول:
 - مبروكة مرة واحدة، أنت قد مبروكة يا مسعد.
 - هو أنا لوحدي؟ ماهي ح تخدمني أنا وسعادتك.
 - لا الموضوع ده يخلصه لك الباشا الكبير.
 - برضه نفسك معاه.

لفحته موجة من هجير، أصلته بها زوجته، قال بخيبة أمل:

- بس الوقت مش في صالحك يا واد يا مسعد.

- اللي فيه الخير يا باشا يقدمه ربنا.

* * * *

عقب صلاة العشاء جلس الأئمة الموزعون على البلوكات الستة يعطون درساً حول مكارم الأخلاق والجهاد في الإسلام، وأبطال الفتوحات الإسلامية في فجر الإسلام، وعصور الفتح الأولى في بلاد الفرس والروم، وكان الحديث يعرج على فتوحات الدولة العثمانية وسلاطينها، والدور العظيم لمحمد علي باشا، وابنه البطل الفاتح إبراهيم باشا، وينتهون بالدعاء إلى الخديوي محمد توفيق بطول العمر والصحة.

في أحد الأيام شاهد جنود البلوك الثاني بياذة الشيخ الشاب يقرأ في كتاب قديم غير القرآن الكريم، عندما علموا أنه سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن، طلبوا منه بالحاح أن يقرأ لهم ما حوي من أساطير، ومن أسرار النيل العظيم، قال ووجهه ينبسط :

- يعنى أنت يا نفر أنت وهو عاوزين كده؟

- أيوه يا شيخنا؟

- من كل بد.

- يا سلام... طب وماله.

مد يده إلى الكتاب، وبدلاً من حديث صلاة العشاء، أعتلى الدكة وتربع، وضم الجبة على جسده الضخم، وضبط العمامة على رأسه، وقال:

قال الراوي الشيخ عبد المعز أبو المكارم راوي سيرة أبي الأمصار، وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار، إنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك بأرض اليمن ذو عزة وتمكين، اسمه الملك ذي يزن، له وزير عاقل يدعى (يثرب)، واضح البيان، وفصيح اللسان، قرأ في الكتب القديمة، والتوراة وكتاب عيسى، وصحف الخليل، أسم سيدنا محمد عليه السلام، الذي يظهر الإسلام، ويبطل أديان أهل الكفر والطغيان، فعرف الباطل وتبع الحق،

فكتم إسلامه عن قومه أجمعين، ثم أن الملك ذي يزن أمر بعرض جيشه فكان، أربعمئة ألف فارس قناعس⁽³²⁾، وأربعمئة ألف عمالقة غطارس⁽³³⁾، وأربعمئة ألف مدرع ولابس، وأربعمئة ألف بالعمد والبلط والفؤوس أسود عوابس، فأخذ الملك الفرح، وأقسم باللات والعزى وحق الأصنام الشوامخ، أن ما من ملك من ملوك الشرق والغرب أعز جاها منه، ولو في أقاصي الأرض جالس.

كانت الضوضاء الناجمة عن قضاء العساكر لحاجيات ساعات الليل التي تسبق التوجه إلى النوم تنتشر في الماعون، رويدا رويدا انتهت الأسماك، وتوجهت الأفئدة، إلى الصوت الجهوري القوي، الذي تسلل في فضاء الماعون، حاملا أخيلة الحكاية، وتوهمات الأسطورة، حتى بلغ قوله -

أن الوزير يشرب قال إن في الشرق ملكا يدعي (بعلبك)، له قوة وبأس، وعنده عساكر وفرسان أبطال كالأسود الدجال⁽³⁴⁾، عددهم بعدد الحصى والرمال، ينبت التبر في أرضه، ولديه قبة من الذهب، تحتها كنز من سائر الجواهر، وبستان أشجار وفواكه، طيوره تسبح بحمد الله بكل لسان، ولسان العرب فيها غالب، وقصر أسكنه حريمه، يزيح الهموم ويزيل الغموم، وتحيطه البهجة من كل جانب. فلما سمع الملك كلام وزيره، صار الضياء في عينيه ظلام، وقال وحق اللات والعزى، لأسير لهذه الملك وأسقيه الموت الزؤام^(*).

خيم الصمت على الماعون، وسكن الطير على رؤوس العسكر، وأفاض الشيخ الفتى وأسهب، حتى انتصف الليل، فأطلق البروجي النفير، يدعو الجنود للمهاجع.

* * * *

30) قناعس: مقنعة

31) غطارس: جمع غطرس جمع غطرس - متكبر، متعجرف، منعجب بنفسه

32) الدجال: ماء الذهب

في القلعة استلم اليوزباشي كساوي القوات المتمركزة في مديرية
خط الاستواء من إدارة المهمات، وفي هيئة الأركان تسلم خرائط النيل،
ومخطوطة بعثة سليم بك قبودان⁽³⁵⁾ الاستكشافية إلى منابح النيل
الأبيض، في قصر عابدين تسلم الهدايا المرسلة من الخديوي إلى رؤساء قبائل
وملوك ممالك خط الاستواء، وقد مهرت بملاحظة "تسلم شخصيا يدا بيد".
في نظارة المالية استلم من أمين بيت المال كشوفات نفقات المديرية
الاستوائية، وطالبه بالتوجه إلى الخزنة العامة وتسلم رواتب الجند المتأخرة.
طلب تأجيلها ليوم آخر، ألقى البك إليه أذونات الصرف وهو يخبره أن الرواتب
استقطعت بصعوبة، وقد تأتي غدا فلا تجدها، لحظتها سيأكل جنود
وموظفو المديرية الاستوائية لحمك حيا، وتساعل مبتسما إذا كان يعلم
أنهم يأكلون لحم البشر، في نظارة الحقانية أعطاه وكيل الحقانية
حقيبة قضائية بالأحكام، وطلب منه تصديقها من فخامة ناظر الحربية.

* * * *

كان الطريق الواصل إلى قصر سلطان باشا مضاء بالمشاعل والزينات،
واصطفت عربات عليّة القوم، وصدحت الحديقة بالموسيقى، في البهو
الداخلي حيث وقف سلطان باشا وسط أعيان البلاد يتيه خيلاء في حلة
"الفراك" يتدلى على صدره وسام سان جورج الذي أنعمت به عليه الملكة،
وقد فاح من حوله رائحة التزلف والنفاق، سمع أحد الموظفين يقترح أن
يكون يوم إنعام ملكة إنجلترا عليه بلقب "سير" عيدا للمصريين.
توقفه يد ياور شريف باشا، يسأله بعينين زجاجتين: "رفعة الباشا يريد
أن يعرف سبب وجودك، يشرح الأمر، يغيب دقائق، ويعود ليصاحبه إلى
الإيوان الكبير، يأخذ حافظة الأحكام إلى الباشا الجالس بصحبة
الخديوي وعدد من النظار، يقف وحيدا يتساءل "متى يمكن مغادرة
المحروسة؟ هذه مدينة لم يعد يربطك بها صلة... في تلك اللحظات الكابية
يداهمك آخر شيء تود أن تسمعه؛ صوتها الذي يحمل في ثناياه إيقاع آلة
التشيللو:

35) بكباشي سليم بك قبودان: قاد في عام 1842 أول بعثة استكشافية في العصر الحديث
للبحث عن منابح النيل الأبيض، وبلغ غندوكرو، ولم يبق على بلوغ خط الاستواء سوى
أربع مائة كيلومتر.

- طيب قول إنك هنا عشان نسلم عليك.

تلتفت لتحيتها، تراها بصحبة ضابط إنجليزي يلف ساعده حول خصرها، ويده الأخرى ترتفع بكأس من الكونياك، يطلب من رفاقه اللحاق بهما إلى الحديقة الخلفية للقصر.

تخف وطأة اللحظة وهي تغادر بالسرعة التي هلت بها، لكنها تعود وتجذبه من ساعده إلى حيث وقف ثلثة من الضباط الإنجليز الشبان، تعتمر رؤوسهم بفوضى عقالات ولاسات بدوية، وكل منهم يتعلق في ساعده فتاة من بنات العائلات الأرستقراطية، والجاليات الأوروبية، تقدمه إلى خطيبها تشارلز هاملتون كابتن سلاح الفرسان، تخبره بإنجليزية ركيكة أنك ضابط في جيش عرابي، يزيح عن وجهه طرف "اللاسة"، وينحني نحوه بسخرية:

- "أكيد، التقينا من قبل".

- لا أعتقد.

- سيدي، إذا أردتم أن نلتقي قريباً، دلوني على موقع ثكناتكم، يستدير محدثاً رفاقه: "هل لديكم عنوان لثكنات الجيش المصري".

تسري غصة في الحلق، وأنت تستمع إلى ضحكاتهم، وكى لا يزيد شعورك بالخرج يجذب ساعد فتاة يونانية إلى الحلبة ويشاطر الراقصين موسيقى الفالس.

تصبحا وحيدين في ضوضاء، لكنها وللأسخريّة تخبرك أنه أسلم، وأنه مؤمن برينا، وقلبه طيب، تلمح وجهها الخمرى يتألق بلوحة غامضة من اللامبالاة، تغغم: "هو قريب العائلة الملكية، الموضوع مشى بسرعة، الباشا وافق، جدي رفض، أعمامي على سنة الباشا". أضافت بدلال، وهي تكابدك: "ح كون زوجة عليها حق الطاعة لزوجها، زي ما أمرنا الدين".

تبتسم بتشفي، وتساءلك أين ستذهب؟ تقول "خط الاستواء". تلجمها الدهشة وتهتف: "يا.. آخر الدنيا"، يشرق وجهها وتهمس بثقة: "ح كلم الباشا يطلب من السردار يبقيك هنا جنبي"، لا تستطيع أن تكبح نفسك عن القول إذا ما كانت ترغب في الإبقاء على سرية احتياطية بعد مغادرة القوات قلعتها.

تتجاهل إهانتك، وتضيف أن لك في قلبها معزة خاصة، ح أزوجك من
أختي الصغيرة، يتساءل عقلك عن نساء ليس لتهتكهن حدود، تغمغم:
- "لن يحتفظ قلبك بمكان لمهزوم".

يدعوك ياور ناظر النظار، حيث ينتظرك شريف باشا في حجرة
جانبية، تقف أمام الرجل الذي لن تجود به مصر لعقود، والذي أراد بناء
مستقبل لهذا الوطن وفشل، يسألك ووجهه كالصخرة إذا كنت تريد أن
يلغى أوامر سفرك، وأعطف أنك لن تجد من يردك. تقبل يده في امتنان،
وكانك تقبل كف أبيك الذي لم تره، وترجوه ألا يفعل، يربت على
كتفك، وهو يشير إلى ياوره كي يعطيك محفظة الأحكام.

في نهاية الرواق تراها تجلس جواره على أريكة تصدر القاعة،
وكانها تنتظر ظهورك، وكفها ترتاح على فخذه، يبتسم الكابتن
بوجهه الأحمر وشعره الأشقر القصير، وكأنه اكتشف لتوه سرهما
الخفي، يرفع كأسه يحييك وهو يصيح: "من أجل الداهيين لخط الاستواء"،
ويضيف بوقاحة: "لا تأخذك الراحة هناك، فسوف نطارذك". تقف مذعورة،
وتهرع خلفك، تسألك أين تنوى الذهاب في هذه الساعة المتأخرة؟
- محطة السكة الحديد.

تسمع رنة التشللو الغاضبة وهي تهمس بغيرة:
- "بتكذب علي؟ ح تروح تنام عند واحدة ثانية".
تحط براحة كفها على صدرك، تدعوك بصوت ناعس لا يتحمل
الرفض: "نام هنا، ح خليهم يفضوا لك حجرة الزوار"، وأضافت بصوتها
المبحوح: "هو سكر خلاص، لما يمشى ح اجى لك".

يا الله على نسائك... تستدير راحلا وتغادر القصر سيرا على الأقدام،
تأخذك النسائم إلى حيث تهب برودة منعشة، على شاطئ النيل تعود
بذاكرتك إلى تلك الأيام التي بزغت فيها الهوية الوطنية من ركام القرون،
وتوحدت الآمال القومية للأمة بجميع طبقاتها وفئاتها وطوائفها؛ الأحزاب،
دعاة الإصلاح المدني، الحضرة والريف، الأعيان والتجار، مشايخ الأزهر،
مطارنة الكنيسة، حبر اليهود، اجتمع المصريون بلا خوف من تدخل رجال
الدرك وجواسيسه، وقد انتشى الوطن بجذوة الحرية والأمل في بناء دولة
الديمقراطية والمساواة.

أيام نادرة في تاريخ العسكرية المصرية، كنا نسير نحن الضباط من أبناء الفلاحين في طرقات المحروسة، رؤوسنا مرفوعة أمام الأتراك والشركس، والأهالي يتطلعون إلينا بفخر، يستوقفونا ويعانقونا في الدروب والحارات، ويقدمون الشربات، تزغرد النسوة في الشرفات، وتلقى البنات من خلف المشربيات ورود المودة والإعجاب.

انتهى حكم الخلافة المطلق، وبدأ عصر جديد من الحرية المدنية والسلام الأهلي، نبت وترعرع حول معنى غامض في العقول، قوى في القلوب، هو مصر والمصريون.

الآن، ضاع كل شيء، وأضيف إلى نير التبعية إلى دولة الخلافة العثمانية، أضفاد الاحتلال البريطاني، لتمزق الوطنية المصرية التي استيقظت لتوها من كفنها بين أصولية الشرق وحداثة الغرب.

تدخل ثكنات القناطر، وقد تحولت ساحة الأشلاق إلى جرن تجمع فيه من تبقى من جنود الجيش الذي أرسل إلى السودان، يتجولون في أرجائه بهرج وفوضى، ويجلسون جماعات بانتظار شاعر الربابة الذي سيغنى لهم عن بطولته مغتصبيهم؛ أبو زيد الهلالي سلامة، الظاهر بيبرس البندق داري، سيف بن زي يزن.

في الميناء كان طابور من الحمالين ينقلون إلى جوف السفن المهمات والميرة المتوجهة إلى المديرية الاستوائية⁽³⁶⁾، وغاطسها يغوص في مياه النهر تدريجيا، وعندما خيم الليل أوقدت المشاعل، واستمر الحمالون في عملهم حتى فرغت الأرصفة.

* * * *

36) اشتملت المؤن والميرة على مائة وخمسون قنطار مسلي، خمسون إردب ملح، عشرون قنطار بن، سبعون قنطار دخان، تسعون قنطار صابون، مائتان وستون أقة سبرتو، مائة وثلاثون ثوب قماش تروميه، ثلاثمائة زراع قماش كسوة، مائة وعشرون ثوب قماش كوبري، ثمانمائة وستة وعشرون زوجا من أحذية جلد الجاموس، ثلاثمائة طربوش بزرابرههم، خمسون صندوقا من هدايا متنوعة من الخرز والنحاس هدايا لزعماء القبائل.



القناطر الخيرية

-5-

- ده نايم.

- لاده ميت.

- هو أنت كنتي شفت ميتين قبل كده؟

شعر الحسيني بيد ناعمة رقيقة، تهز وجهه برفق: "أهه ميت".

وصوت صبي يحذرهما: "ح يصحى".

- لا مش ح يصحى.

- يا بنتي ابعتي عنه أحسن لك.

أستقيظ من إغفاءة القيلولة، لتلتقي عينيه بعيني طفلة في الرابعة تحديق فيه، وتحذر شخصا آخر لا يراه، صرخت الطفلة بفزع، وانطلقت تجري وخلفها طفل في السادسة من عمره، جذب الحسيني حملات بنطاله فوق فانتله الصوفية، وقام إلى بهو الصالة الخارجية، ليرى امرأتين صغيرتين، وفي أعطافهما اختفي الطفلان، نظر مكشرا إلى الطفلة، دفست وجهها المبتسم في حضن أمها.

اعترضه الطفل، ووقف يحملق فيه بجراحة، ضرب بقدمه الأرض ووقف انتباها وهو يؤدي التحية العسكرية:

- "جعفر أحمد سليمان، حملة خط الاستواء" افندم.

اغتصب ابتسامته، ونظر نحوه من أعلى، وسأله:

- "حضرتك مسافر خط الاستواء لوحدك".

- معاى، أبوي وأمي وعمى وزوجة عمى افندم.

نظر الحسيني إلى الطفلة التي كانت تتابعهما بشغف، وسأله:

- مفيش حد تانى؟

- مريم بنت عمى افندم.

- ومين أبوك افندم؟

نادت امرأة شابة ترتدى برقع: "جعفر، شنو تسوى، تعال هنا"، جذبتة
لكنه تخلص منها، وعاد يشد من قامته وقال بحماس:
"-يوزياشي بحري أحمد سليمان افندم، وعمى ملازم أول بيادة حسن
سليمان افندم".

تطلع الحسيني إلى الطفل المنتصب أمامه وسأله: "اسمك إيه افندم؟".
- جعفر أحمد سليمان افندم.
- جعفر أفندي، تقف حرس على نينته، ومراة عمك وبنت عمك.
- تمام افندم.
- وما تتحركش من قدامهم.

حاول الطفل أن يعبر عن استيائه، لكن الحسيني داهمه: "تمام افندم!".
- تمام افندم.
- انصرف جعفر أفندي.

في الساحة الخارجية لبهو الضباط أدى ثلاثة ضباط التحية
العسكرية، تقدم أقدمهم، كان طويل القامة متين البنيان، لعينيه قوة
نيران هائلة، تلمع بشرته كالنحاس القاتم، تمتد جذوره إلى السودان:
- ملازم بحري أحمد سليمان؛ حملة خط الاستواء، افندم.
- ملازم سوارى سالم خلاف؛ حملة خط الاستواء، افندم.
- ملازم بيادة حسن سليمان؛ حملة خط الاستواء، افندم.
تطلع في بيان الضباط الاثني عشر، يوزع المهمات عليهم.
- ملازم بحري أحمد سليمان، عاوز تقرير عن حالة السفن.
- تمام يا فندم.
- ملازم سوارى سالم خلاف، قيادة البلوك الأول والثاني.
- تمام افندم.
- ملازم حسن سليمان، مأمور المخازن والمؤون والمهمات والسلاحليك.
- تمام افندم.

نادى الملازم أحمد سليمان رئيس المراكبية المعلم أحمد نقد بن محمد نقد⁽³⁷⁾ وتوجها إلى المرفأ، ومع غروب الشمس ابلغه أن صناديق صيانة وابور النيل لا تزال في الإسكندرية، وأن السفن في حاجة إلى صيانة. - محدش عاوزنا نقعد هنا ساعة، وأضاف بسخط: الجميع عاوز يتخلص من جيش العصيان. - "حضرتك مقدرش أتحرك من غير معدات الصيانة"، وأضاف: "يومين في القناطر الخيرية، أفضل من شهرين في بحر الجبل". - محمود أفندي العجيمى وأخوه مصطفى في الإسكندرية ليعقدوا قرانهم، أبعث لي تلغراف بأمورية لإحضار مهمات الصيانة معاهم. على العشاء، طلب الملازم خلاف، تدريب القوات، تحدث الحسيني بطريقة لا تسمح بالتعقيب: غير مسموح بتدريب أحد. وعقب الملازم حسن سليمان يرجوه صرف ملابس الجنود، حتى يعتلوا سطح السفن كعساكر جهادية، وليسوا عمال للعونة⁽³⁸⁾، وطلب خلاف السماح لهم باستقبال محمود ومصطفى العجيمى. - مش كلكم كنتم مع بعض في السجن؟

* * * *

في الهزيع الأخير من الليل طرق عسكري الخدمة مخدع الحسيني يخبره بوجود ضابطين على البوابة، في حالة سكر بين، خرج غاضبا تحمل له الرياح صدى قهقهتهما، على الطريق الخارجي وجد شابين فتحا

37 محمد نقد: كان من أهم مصاعب استكشاف أعالي النيل الأبيض هو عبور المراكب البخارية والشراعية والذهبيات الجنادل الواقعة بدءاً من جنوب أسوان، ما استلزم تفكيك بعضها ونقله على ظهور الجمال، وتمكن محمد نقد المشهور بإشرافه على صناعة السفن وأعمال الملاحة النيلية إذ ذاك، صاحب حملة بيكر إلى أعالي النيل الأبيض، أمام شلالات عمكة تمكن من تعديّة أربع ذهبيات وأحدى عشرة قياصة (مركبا متوسطا)، وتعذر تعديّة باقي المراكب البخارية والشراعية الكبيرة (الشليات) بسبب تلاطم قاعها بالجنادل، واستلزم بعضها الإصلاح أعلن محمد نقد المشرف الفني على العملية تأجيل نقلها إلى الموسم التالي، عقب هبوط النيل قام على إزالة الأحجار الناتئة في تلك الجنادل. وقد استخدم 2000 عامل، وبلوك، وفرقة من جنود التفجير (اللغمجية)، في 1870.10.2 استطاع العمال تعديّة "وابور المنصورة وبرددين وتلحوين من شلال عمكة إلى البحر الأصلي وأعقب ذلك تعديّة المركب البخاري "الصافية" ثم مركبين بخاريين آخرين وهكذا عبرت المراكب الست البخارية هذا الشلال في طريقها لخدمة أغراض الحملة الاستوائية قبل نهاية أكتوبر عام 1870م.

38 (العونة: السخرة

أزرار سترتيهما الميري، أحدهما ممددا على دكة خشبية من فلق النخيل،
والآخر أسود اللون، بدينا قصير القامة، وفي عينيه خول، كانا عاريا
الرأس، يتبادلان اللكمات، وقد ألقيا مختليهما العسكرية وزجاجات
الخمير الفارغة، لاحظ الحسيني وجود كدمة في عين الضابط البدين،
سأله: "ومال عينك؟".

حاول الوقوف انتباه، وقال إنها إصابة في معركة كفر الدوار.
من المقعد اعترض صوت غليظ: "متصدقوش يا بيه، عينيه سليمة زي
زرقاء اليمامة"، واستطرد وهو مستغرقا في الضحك: "بيتحجج أحسن
الإنجليز يعرفوا أن هو اللي ضرب قطارهم المدرع بالمدفعية الصاروخية".

لكزه كي يصمت، لكنه استطرد وهو يلتقط أنفاسه:
- "طب أنت ضابط بيادة، مالك ومال الطوبجية، مبتسمعوش الكلام
ليه، أهو الموت جالك يا تارك الصلاة".

نظر الحسيني إلى الضابط الواقف أمامه مستفهما، فقدم إليه نفسه
قائلا:

- "ملازم بيادة عبد المبين شلعي، حملة أعالي النيل"، وأضاف معذرا
أنهما يحاولان ألا يدخلوا الثكنة وهما على هذه الحالة، لكن الشاب الآخر
دفع صديقه جانبا، ليجد الحسيني يطل عليه من أعلى، قال وهو لا يزال
ممددا، يحاول أن يتبين ملامح الحسيني:
- "حضرتك عاوز مين؟ قصدي عاوز إيه؟".

- عاوز إيه؟ قوم يا أفندي لم نفسك، وسلم نفسك للسرية بتاعتك".
ضحك الفتى بأعلى صوته: "سلم نفسك، سلم نفسك، كل حاجة في
الدنيا دي سلم نفسك، مفيش حاجة اسمها حرر نفسك".
- الكلام ده يا أفندي في الملكية مش في الميري.

- أبدا والله العظيم، مين قال إن فيه في الدنيا دي ملكية⁽³⁹⁾، كله
ميري يا باشا، سيدي⁽⁴⁰⁾ عبد الرحيم علمني ضرب النار وأنا عيل عنده
خمس سنين، وقال "عشان الدياب ماتكولاكش يا ولد ولدي"، أبوي
عمدة منقباد رمان في الجيش، وقال "عشان تحمي الدستور يا ولدي"، ها

39 (ملكية: يقصد حياة مدنية.

40 (سيدي: تعنى في الريف جدي أي، والد الأب، أو الأم، وليس السيد.

..ها.. دستور يا سيادي، قلت يا حاج هو أحنأ نأوى الجان، قال يا عبيط ده دستور مصر المعظمة، مصر الجديدة، دخلنا الميرى وقامت هوجة، عرابي ضد الخديوي، وشريف باشا ضد رياض باشا، والبارودي ضد رفقي، سألت مين مع الدستور، قالولي عرابي، عملت بنصيحة أبوي خدت إعدام، طلع سيدي شيخ عرب منقباد على القصر وحول الإعدام لنفى، حضرتك بقي عاوز إيه؟ قصدي عاوز مين؟.

لأنت ملامح الحسيني، قال بشفقة:

- "ميصحش كده يا حضرة الضابط، ادخل الأشلاق".

- "ليه ميصحش كده، جناب الخديوي سرح الجيش، وقال لنا يلا أنت وهويا فلاحين يا ولاد الكلاب على غيطانكم، قلنا مع السلامة يا أبوي، ما هي آخره خدمة الغز علقته، وتجشأ، ثم استطرد: "وبعدين طلعت في دماغه، يرجع اللي طردهم من الجيش للجيش من تانى، معرفش منين جت له الفكرة الجهنمية دي؟! قلنا ماشي ما أحنأ خدامين عند اللي جاب الأميرة أمه، لكن تصريح العودة للخدمة اللي معاي يبدأ من بكرة، وأنا بقي بصراحة مش مستعجل قوى، هو أنا لابس ميرى، أنا أهه اعتبرني مدني، عاوزنى أمشي من جنب الأشلاق، أوامر سعادتك أمشي، وأجي لحضرتك الفجر، قبل كده يستحيل". قالها والمؤذن ينهي أذانه.

تبادل الحسيني وشلعى النظر، طلب من شلعى أن يأخذ باله منه، وقال وهو يستدير عائدا إلى الأشلاق:

- طيب زي ما أنت عاوز يا حضرة الضابط.

* * * *

في الصباح تقدم ضابطان لقائد الحملة:

- ملازم بيادة عبد المبين شلعى حملة أعالي النيل.

- ملازم بيادة على شمروخ حملة أعالي النيل، واستطرد شمروخ بخجل

واعتذار: "أسف يا أفندم على اللي حصل امبارح".

قال الحسيني بتجاهل: "هو فيه حاجة حصلت امبارح؟"

- أأ أصل.

- يلا يا أفندي سجل نفسك في إدارة الأورطة، واستلم مهماتك.

في الظهيرة انضم إلى الحملة الضابطان السادس والسابع، ملازم محمود العجيمى سلاح الطوبجية، وشقيقه ملازم مصطفى العجيمى، سلاح المشاة، يصطحبان عروسيهما الشقيقتين، صبيتان في مقتبل العمر، أقاموا لهما حفلا صغيرا، وعشاء أصرت النسوة على تقديمه بأنفسهن.

عندما أوغل الليل، اجتمع الرجال يشربون القهوة على شاطئ النيل، قال الملازم خلاف للجالسين وهو يضحك ضحكة مقتضبة، أن الخطأ الذي يرتكبه ضابط مغفل هو اصطحاب زوجته معه، فما بالك بمن يتزوج كي يصطحب زوجته معه.

عقب الملازم أحمد سليمان: "قصر ديل".

عارضه شلعى: "أبدا النساء متوفرات في المديرية الاستوائية".

تدخل شمروخ وهو يرتجل نغما:

- "متوفرات زي الغزلان في المراعي".

- وحضرتك ح تكون الذكر بينهم".

قاطعه خلاف: "لا يا افندم النساء متوفرات زي الحمير الوحشية".

- وحضرته ح يكون البغل بينهم".

قال شلعى وهو يتراجع إلى الوراء:

- "يسلم بقك يا افندم بالضبط كده".

قال شمروخ: "يا افندم مقدرش أعقب على حضرتك، بس حضرته عرفت

منين؟"

قال شلعى: "طبعاً لازم أعرف، مفيش حاجة تستخبي علي؟"

قاطعهم الحسيني وقام مغادرا:

- "يلا يا حضرات، إحنا ح نتحرك في الفجر".

مع حلول ساعة الفجر الكاذب اشتدت الحركة في الثكنات، سمع الجميع صوت الشيخ عبد المعز أبو المكارم يؤذن لصلاة الفجر، فتجمع الجنود للصلاة خلف أئمة الأورطة، بينما أم الشيخ عمر الشلح الضباط.

قبل انبلاج الصباح أنطلق البروجي بنوبة جمع الجنود، اصطفوا في طوابيرهم، قدم قائد الحملة تمام القوات إلى اللواء رءوف باشا الذي تلقى كلمة قصيرة عن مهمتها، فأشار إلى الدور الهام الذي لعبه الجيش المصري في السودان والممالك الواقعة حول منابع النيل، وما قامت به الحكومة

المصرية من إقامة المدارس والمستشفيات، وشق الطرق وخطوط البريد، وإنشاء العاصمة الخرطوم، ونوه إلى فرمان⁽⁴¹⁾ الخديوي سعيد باشا، والذي حدد هدف الحكم المصري في السودان، وهو تعمير البلاد، ورفاهية العباد، وإقامة شعائر العدل، ونشر اليمن، ومنع الإتجار بالرقيق، ثم تطرق إلى ما قام به الخديوي إسماعيل لاستكمال ما بدأه أجداده، بإرسال حملة للاتصال بمنطقة بحر الجبل والبحيرات، وذلك لتأسيس أسباب التمدن والعمارة وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة، ودفع الأحوال الوحشية وتمهيد الطرق وتأمينها والتآلف مع الأهالي، ثم اختتم حديثه بالقول: "منذ أيام غادرت ثكنات القناطر خمسة أليات من الجيش لمواجهة الصراع الناشب في السودان حول عقيدة الإسلام الصحيحة، لكن عناية الله العلى التقدير منّت عليكم بالصعود إلى أعالي النيل، فمنكم من سينعم الله عليه برؤية مسرات الأرض رأي العين، ومنكم من سيبلغ أدراج السماء، ومنكم من سوف يقف أمام عتبات جنته"، ثم هتف ثلاثا والعسكر يرددون وراءه: - "عاش مولانا الخديوي المعظم".

تردد صدى الهتاف، فإذا تلاشى، أعطى أوامره بالتوجه إلى السفن.

على الطريق المجاورة لنهر النيل نهبت الأرض مركبة تجرها أربعة خيول مطهمة، بين فينة وأخرى يطل من نافذة العربية وجه سيدة شابة في مطلع العشرين تخفي دموعها، وتسال الحوذي أن يسرع، توالى لسعات السياط، والحوذي يدعو الله أن ينجيه من عقاب الباشا الكبير، الذي سيحاسبه حسابا عسيرا، ترك قرية "باسوس" وراءه، وأطل النهر تطارد هم نباح الكلاب الضالة، عبر قرى ملفوفة في عباءة الظلمة، دخل قرية القناطر الخيرية مع أذان الفجر، غمغم يدعو الله أن يقى المرأة (الصغيرة) وابنتها عناء المجهول، ثم قال لنفسه "أنت الآن تعلم".

فى مرفأ القلعة السعيدية ألقت المشاعل ضوءها الباهت على سرايا العسكر، وهي تصعد إلى (الماعون) "التمساح"، لتعود ساحة الثكنات خاوية يحيق بها السكون، أطلق وابور النيل صافرتين، تبعتهما دفقتان من البخار، ليتحرك إلى عرض النهر، تهادت السفن واحدة بعد أخرى تغادر

41) صدر من المعية بتاريخ ربيع الأول 1272 دفتر 1883، عام 1855 دفاتر الأوامر نمرة 4

المرفأ، شاهد البكباشى رستم أوجلى آخر السفن توشك على مغادرة المرفأ، فاستدار عائدا لمكتبه، يفكر في دعوة عشيقته للقدوم، مع صندوق من الروم القوى، ضربة عنيفة انخلعت لها البوابة الخارجية جعلته يستعيد رشده، وأمامه كان الحوذي يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يسيطر على الخيول التي اقتحمت البوابات.

اقتحم مكتب القيادة امرأة شابة من بنات الذوات، ومعها طفلتها، وقفت أمام رءوف باشا تبكي بحرقة وتسأل عن زوجها، قبل أن ينطق البكباشى بكلمة، حذجه اللواء بنظرة قاسية، وعاد يبتسم بعطف للمرأة الصغيرة، يسألها بلطف أبوي: "ومين حضرتك؟"، أجابت وهي تفهق: "ألفت السلحدار زوجة اليوزباشى سوارى سالم خلاف، هوفين؟ هم سافروا؟". - تقصدي ملازم سالم خلاف.

- عندكم ملازم وعندي يوزباشى وبكباشى وفريق، هوفين؟ - "معك حق افندم، وأضاف: "حضرتك حفيدة شوكت باشا السلحدار، نظرت بغضب وهي تخشى أن يمنعها عن اللحاق بزوجها، قامت تضرب الأرض بقدميها، ترجموه: "يا باشا أنا بسأل حضرتكم، هم سافروا؟"، وقبل أن يجيب تركته إلى الشرفة الخارجية تنظر إلى النهر، ثمته سفن شرعية تتلأأ وهي تغادر المرفأ.

استدارت نحوه: "هم دول؟"، وأضافت تستعطفه وهي تبكي: - "وحياة ولادك، بنتي لازم تعيش مع أبوها؟"، أوماً بعينيه، فاندفعت تجرى نحو المرفأ، وابنتها متعلقة بها، والحوذي خلفهما يحمل الحقائب.

كانت آخر السفن الراسية "الأمير طوسن" بدأت في الإقلاع، على المؤخرة وقف الملازم على شمروخ يتابع النوتي يحرك الدفة للخروج من المرفأ، طارده صراخ جعله ينظر نحو السيدة الصغيرة التي قدمت تجرى نحوه، تلوح له أن ينتظرهما، قفزت على ظهر المركب، والنوتية يمدون لها يد المساعدة.

ساد الاضطراب على ظهر السفن، والملازم شمروخ يهدئ من روعها، من أعلى صاري السفينة الأخيرة تناقل جنود الإشارة رسالة إلى الملازم سالم خلاف، السيدة حرمكم وابنتكم على ظهر السفينة "الأمير طوسن".

* * * *

-6-

في فجر أحد أيام يناير عام 1883 غادر مرفأً ثكنات القناطر باخرة القيادة "النيل"، وفي المؤخرة قطر وابور "الخرطوم"، ماعون⁽⁴²⁾ نقل الجند، يحمل الأورطة التاسعة، وبينهما أفردت ثلاث "شلييات"⁽⁴³⁾ وخمس "قياسات"⁽⁴⁴⁾ قلوها، تدفعها رياح قوية باتجاه أعالي النيل.

على مرفأ ملوي وقفت الباخرة "النيل" في عرض النهر لالتقاط الضابطين الثامن والتاسع، صعد أحدهما إلى ظهر الباخرة، تاركا زميله يتبادل عناقا حارا مع والده، أعطى الشيخ ابنه خطابا موجهًا إلى قريب له، يعمل موظفا في المديرية الاستوائية.

- قريبك يا ولدي، معشانش تكون وحيد في غريتك".
- حاضريا أبا، ريح بالك، كله خير بإذن الله".

تابع الشيخ ابنه يصعد الباخرة، وغمغم، وهو يمسح دموعه، مستسلما للمقدر والمكتوب: "رينا يحرسك يا ولدي"، وأشار لهم: "رينا يحرسكم يا ولاد، تروحوا وترجعوا بالسلامة".

عانق العربايون زميليهما بحرارة، نبه الملازم عبد الواحد مقلد صديقه، تقدما من قائد الحملة:

- ملازم طوبجى إبراهيم حليم، حملة خط الاستواء افندم.
- ملازم طوبجى عبد الواحد مقلد، حملة خط الاستواء افندم.

* * * *

42) ماعون الجند: مركب بحري لحمل الجنود يتم قطره بوابور بخاري
43) شليية: مركب شراعي كبير
44) قياسية: مركب شراعي متوسط

أبهر⁽⁴⁵⁾ الليل، وتداعت أصواته خافتة، تترى على الماء أضواء ديروط الشريفة، ارتفع صوت اصطدام ارتج على أثره وابلور النيل، قفز الحسيني من مرقده واندفع يجرى على سطح الوابلور، حيث وجد مقدمة السفينة الشراعية "سواكن" تركب ظهر الوابلور، والملازم بحري أحمد سليمان يعنف عسكري الحراسة، الذي وقف يدافع عن نفسه، ويقسم أنه صرخ على "آدم الزنديق" رئيس السفينة سواكن دون جدوى، بصعوبة تمكن الرجال من تخليص السفينتين من بعضهما دون خسائر جسيمة لتعود القافلة إلى الإبحار.

في ظل الفوضى الناشبة استدعى قائد الحملة الملازم أحمد سليمان لتقديم تفسير لهذه الأوضاع، أجاب بأنه لا يمكن قيادة قافلة بحرية دون سرية إشارة بالأعلام، ولم يكن هناك وقت. كنا متاخدين من الدار للنار.

- ما تعمل سرية إشارة.

- محتاج عساكر تقرا وتكتب.

- أفرزهم، اختارهم من حفظة القرآن، من طلاب الأزهر.

- تمام افندم.

- ضم سرية المساحة، الملازم إبراهيم حليم وعبد الواحد مقلد يساعذك.

* * * *

بحث الملازم شمروخ عن الصول عطية وش الفار لتوزيع نوبات الخدمة الليلية، فقبل له إنه في ماعون الجنود، توجه إلى الماعون على متن قارب المناوبة، وعندما صعد وجد الهدوء مخيم، والعسكر يجلسون صامتون في ظلال المشاعل، وصوت الشيخ الفتى يأتيه حاملا حكايات الأساطير، توارى وجلس في المؤخرة، وجلس يستمع إلى الشيخ عبد المعز أبو المكارم وهو يقول:

سارت العسكر في الصحارى القفار حتى بلغوا بيت الله الحرام،
فترجل الوزير وسجد، فغضب الملك، وسأله السبب، فقال أعلم أيها

45 (البهرة: وهو إبهار الليل بمعنى انتصف وتراكت ظلمته، وذمبت عامته وبقي نحو ثلثه.

الملك العظيم، أننا أتينا منزل الملائكة الكرام، وبيت الله الذي خلق السموات السبع، وبسط الأرضين، واثقلها بالجبال الرواسي، وخلق الشمس والقمر، والحجر والمدن، والفلك الأكبر، والليل الأعكر، والصبح الأصفر، والبحر الأزفر.

فسأل الملك الوزير: تقول هذا بيت الله الذي خلقنا، فما بالنا نعبد الالات والعزى وتلك الأوثان، فنزل الملك وطاف حول البيت، فأعجبه عجباً شديداً، فمال قلبه إلى هدمه، ونقله إلى مدينته، كي يفتخر به على ملوك الأرض في الشرق والغرب، فقال له الوزير أيها الملك الكبير وصاحب العلم الشهير، أن لبيت السعيد رب يحميه، فلا تطع نفسك، فتندم حيث لا يفيد الندم

ولما أراد الملك هدم البيت الحرام، دعي المهندسين وأرباب الصنائع، وأمرهم بهدمه، وعندما أقبل الليل ونام وأصبح الصباح، وجد نفسه متورماً ورماً فظيماً وأصبح في حجم الفيل، وجسده مثل فار مسلوخ، فزعق وصاح، فدخل عليه أرباب دولته، فأخذهم الدهول، وقف الوزير يشرب بين يديه وقال: يا ملك زمانه، وفريد عصره وأوانه، هذا سهم رماك به رب هذا البيت، فأن لم تصرف نيتك عن هدمه، ستهلك، فارجع عن ما أضمرته من شر وفجور، وأمن بالواحد القهار، منشئ الليل والنهار، فأجابه إلى هذا، وأعلن توبته، حتى لا يكون من الهالكين، وقال أمنت برب هذا البيت الجليل، وصدقت برسالة إبراهيم عليه السلام، أتم تسليم.

يقول لكم الراوي الشيخ عبد المعز أبوالمكارم: فإن الملك ذا يزن قال أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن إبراهيم خليل الله. وأمن بعالم الشهادة والغيب، وأمر عسكره بأن يؤمنوا برب الأنعام، فأجابوه لما طلب، وأعلنوا دخولهم دين الإسلام^(*).

في الأيام التالية غاب الملازم شمروخ عن مائدة العشاء، استفسر الحسيني عن سبب غيابه، قيل إنه يمضي الليل في الماعون، علق قائلاً: إن ضابطه متفان في عمله.

أدار الملازم شلعي وجهه يخفي استرابته، تسأل القومندان إذا ما كان يشك فيما يفعله صديقه، قال وهو غير قادر على التوقف عن الضحك:

- سعادتك اللي تشوفه.
- أيه فيه حاجة غلط؟
- أبدا مش عاوز أشوه صورته عند حضرتك.
- ليه، ماله؟
- إمام البلوك الثاني صوته حلو في الإنشاد، كل ليلة يغني للعسكر.

اكتفى القومندان بالصمت، وهو يفكر؛ أن زمن الرحلة طويل، والغناء يخفف عن الجنود، فى الليالي التالية تزايد رواد الماعون، وتنامت الأحاديث عن جمال صوت الشيخ الصغير.

* * * *

رست الحملة على مرفأ مدينة أسيوط، وبدأ تحميلها بإمداداتها من الحبوب، طلب شمروخ إجازة لزيارة أهله في منقباد، طارده الضباط ونساؤهم، كي لا يعود إلا ومعه عروس، حاول التملص من إلحاحهم، وأرسلت الزوجات الصغيرات رسائل واضحة مع أزواجهن، "حضرة الملازم على أفندي شمروخ، عد لنا ومعك زوجة من بنات الأصول". ضحك وقال: "جربت حظي وفشلت، والزيارة دي وداع أخير".

أمام إصرارهم، تعلل بأنه لا يستطيع أن يجد عروسا بين يوم وليلة تصحبه إلى آخر بلاد الكفرة، شجعه الحسييني بأن الحملة ستبقى عدة أيام، يمكنه الزواج بثلاثة نساء، وأضاف مصطفى العجيمي "وأربعة لو شاء، وعقب أحمد سليمان وابتسامته تشع من عينيه نجوم زاهرة، "ولو هو صادق النية، لا بد وأن يجد في بنات العم اللي تتمنى أن تلحق به لآخر الأرض".

عقب شمروخ: "الدنيا قسمت بالحظ مش بالعدل، وأنا سيني الحظ"، حدث الحسييني الملازم شلعي: "مش أنت صديقه الصدوق؟".

-أيوه يا أفندم، أوامرك". ونظر من طرف عينيه ناحية شمروخ واستطرد:

"عاوز إيه حضرتك وأنا أنفذه فورا".

- تنزل معاه الإجازة وترجعوش إلا ومعاه عروسه، شاء أو أبى.

- "أنا!!!"-

- أيوه أنت، أمال أجيب مين؟ ومسموح لك أنت كمان بالمحاولة.

انخرط شلعى فى الضحك، قال شمروخ مرحبا: "جهز نفسك وتعال ليه لا، مين عارف؟" هرش رأسه شلعى وكأنه طريدة وقعت فى فخ.

على البهر لاحقت عائلات الضباط شمروخ وشلعى وهما يبحثان عن مكاري ينقلهما إلى منقباد بتعليقات ساخرة، ونصب مطبخ الميدان، وانتشر الجنود للتدريب على الضبط والربط، وفي الجوار جرت أحاديث النسوة، حيث يحلو للسيدة حباب أن تحكى بزهو ونسب قبيلتها الشكرية، القرشية الهاشمية، جدهما شكير بن إدريس، بن عبد الله الجواد بن جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه السلام، وجدها حسن عوض الكريم أبوسن، الذي أذاق للملوك الفونج⁽⁴⁶⁾، والهمج⁽⁴⁷⁾ والركابية⁽⁴⁸⁾ مرارة الهزيمة، ثم تنشدا لابنها جعفر، نسبة الشريف:

"نحن الغر ملوك الدار ونسر الجنة جدنا جعفر الطيار"

في اليوم الثاني خملت السفن بالقمح، والسكر الأبيض، وجاءت برقية من كولونيل ستيوارت الضابط الموفد من الحكومة البريطانية لدراسة الوضع في السودان، يطلب من قومندان الحملة أن يعرج على مدينة الأقصر، كي يصطحب رسالة فرنسية إلى (لادو)، للقاء خطيبها الذي يعمل لصالح الحكومة المصرية.

46 (الفونج : أسم قبيلة، ذهب فريق من المؤرخين إلى أنهم ينحدرون من المجموعة النيلية بالسودان وينتمون إلى الأصول القديمة لقبيلة الشلك الذين كانوا من أوائل النيليين الذين اتصلوا بالعرب منذ دخولهم السودان، اختلطوا بالنوبيين وتزاوجوا مع القبائل العربية واعتنقوا الإسلام، تأسست مملكة سنار عام 1504 بالتحالف بين الفونج والعبدلاب، وتعتبر مملكة سنار أول دولة عربية إسلامية قامت بالسودان بعد انتشار الإسلام واللغة العربية اهتم ملوكها بالعلم، فأقاموا رواق السنارية في الأزهر بالقاهرة من أجل طلابهم المبعوثين إلى هناك.

47 (الهمج: من كبري القبائل بولاية النيل الأزرق استقرت في الروصيرص وضواحيها، حكمت جنوب النيل الأزرق قبل دولة الفونج وشكل الهمج الوزراء الأقوياء والمحاربين الأشداء في مملكة الفونج.

48 (الركابية: قبيلة الركابية من أشرف آل البيت، ينتهي نسبهم إلى جعفر الصادق وموسى الكاظم حتى الحسين بن علي، وهى من القبائل التي أدخلت الدين الإسلامي في السودان وأسهمت في نشر الخلاوى واشتهروا كقبيلة صوفية في فرع من فروعها هم (الصادق).

أثناء تحميل جوانات البصل الأخيرة، وقفت على المرفأ عربية تجرها
الخيول، وعلى متنها الضابطين، وخلفهما عربية محملة بصناديق ضخمة،
كان ظهورها يدعو إلى الاستبشار خيرا.

هبط الملازمان يضحكان، رحب بهما الجميع، وعلى وجوههم علامات
الترقب، بعد قليل نزل جسد ضئيل، لفتاة ترتدى خمارا يغطي وجهها،
أسرعوا يهنئون الملازم على الزواج السعيد، وهو يجيبهم:
- على أيه؟ مش أنا، باركوا له هو.

مضى وقت قبل أن يفهموا أن العروس ليست لشمروخ، وبين الدهشة
والدعابات المرحية، والحقائب التي حرص عبد المبين على العناية بها أثناء
نقلها، وقف على شمروخ على جسر السفن منتفخ الأوداج، يرفع ساعديه
لأعلى معلنا أنه لا يزال حرا طليقا، وأن صديقه وقع في الفخ، وما أن استقر
الجميع على ظهر الباخرة أعطيت التعليمات بالتحرك.

* * * *

ضفائر

أقام الضباط وعائلاتهم حفل زفاف للعروسين، جلس
سهيلة شلعي في ملابس التشريفة، ويجواره سهيلة ترتدى فستانا
أبيض من الساتان الموشج بزهور الدانتيل، وأمامهما رقص الملازم شمروخ
على موسيقى الجيش وسط الزغاريد، وهو يهتف: "سعيد النبي سعيد،
والعاشق في جمال النبي يغنى بالصلاة عليه، أنظر بعينك وصل على
النبي، ما شاء الله ما شاء الله". يا أخي هوة هوة هوة.

دخل عدد من الجنود السودانيين عراة الصدور، يلفون صدورهم بأثواب
بيضاء، يرقصون على أنغام الربابة والدفوف رقصة الصقرية⁽⁴⁹⁾، وبينهم
وقف أحمد سليمان وأخوه حسن في مواجهة كل منهما الآخر، في قميص

(49) رقصة الصقرية: رقصة قبائل الشكرية يقف رجلان في مواجهة كل منهما الآخر،
يمثلان صقرين وبينهما تتمدد فريسة على الأرض، يمدا ساعديهما إلى جانبيهما في انحناءة
يسيرة كجناحين، ويتقدما تجاه الآخر على قدم واحدة، وجذعيهما منحني إلى الأمام، صقران
يتقتلان، يركل كل منهما الآخر وهما ينزعان أحشاء الضحية.

وسروال أبيض، وطاقية مشغولة بالوان زاهية، يتقاتلان كصقيرين حول
الفريسة التي تمددت على الأرض عارية.

جلست العروس متجهمة، وخمنت النساء أنها ليست على طبيعتها،
وأثار الهمس ذاك الجزء الأحذب الذي برز على ظهرها.

تساءلت سنية، إذا كانت العروس حذاء، قالت أختها: "يا عيني عليك يا
عبد المبين أفندي"، قاطعتها أميرة: "يا ريت يكون على حد كده، مصيبة
تكون مخاوية تعبان".

ضحكت صفية: "يعنى العريس أعمى".
عارضت أميرة: "طب ليه ميكونش على أفندي وقع صاحبه في
مصيبة".

استنكرت حباب وهمست، "كيف لعللى أفندي أن يترك بنت عمه
لغريب". وأضافت: والله أنتم طيبين.
شهقت النسوة: "يعنى أيه؟".

همست: "يعنى لو كان فيه الخير مكانش رماه للطير".
- قصدك أيه يا حباب؟

- "يعنى ليه متجوزهاش هو؟"، وأضافت بزهو: "في قبيلتنا لا تخرج بنات
الشكرية لغريب، حتى ولو كان فيها ما يعيب".

وأضافت وهي تنظر زوجها بفخر: "شنو ليش أنا تزوجت ابن عمى، والله
في سماه لو خيرت بملك الروم والعجم ومعاه ذهب قارون، لاخترت ابن عمى".

دار العراك بالتحطيب، وارتفعت الضوضاء، وانهمك الجميع في أحاديث
جانبية، وجلس شلعى بابتسامة تموج بالطيبة، تعبر عن الرضا بمصيره،
وأفعال القدر، هذه الصببة المليحة ستشاركه رحلة المجهول.

طلب الجنود الشيخ عبد المعز أبو المكارم أن يحكي لهم ما تجود
قريحته من سيرة فارس السمن، فتصدر الفتى الدكة وعدل من جبته
وعمته وتربع، ثم أنشد:

يقول لكم الشيخ عبد المعز أبو المكارم، أن الملك سيف وجد نفسه وحيداً فريداً
على العمود، وما عنده أحد، فبكى وأن واشتكي تقلبات الزمان، وما تأتية الليالي
النائبات من الحرمان، فأنشد يقول صلوا على طه النبي الرسول:

ومنفذ في السر والإجهار	وعد الإله على الخلاق جارى
فتبارك الله العزيز البارى	انشأ الخلاق من بدائم صنعه
لم ألق من بين الورى انصارى	جار الزمان على حتى أنى
فيبدل الإعصار بالإسار	أن شاء أنقذنى وفرج كرى
ويجوده عفو عن الأوزار	ما من عوائده الجميل فضله
مما بليت به ودمعى جار	كيف السبيل ولم اجد لي راحما
ما صاحب العظمت والأقدار	ما قادر ما قاهر ما غافر
وكذا يحير لي ونعم الجار	ادعوك مطرا فأنت وسيلتى

* * * *

على العشاء خلعت العروس طرحتها، انفرج النتوء الذي يثقل ظهرها،
عن ضفيرتين غليظتين، لينسدل شلال من الشعر الحالك، امتد حتى
أعقاب أقدامها، هتفت النسوة تباركه:

-سبحان الله وأشهد أن لا إله إلا هو العلى القدير-

على فراش الليل رقدت العروس جسدا بلا مشاعر، تقبل عبد المبين
سلوكها المتوقع، ففي اليوم الثاني من نزوله منقباد، والجميع يحاول إجبار
صديقه بالزواج من بنات العم، اقتحمت وسط ذهول الحاضرين فتاة سافرة
مجلس العمدة، وسألت وفي عينيها دموع سخينة عبد المبين:
-هو أنت يا حضرة الضابط متجوز-

-لا.. هزت رأسها واختفت.

في تلك الليلة لم يهدأ شلعى عن سؤال صديقه عنها، وهو يراوغه،
لكن شلعى صرح له بأن دموع عينيها تطاردانه، قرب الفجر طرق باب
صديقه، وبينما شمروخ يفرك عينييه من النعاس، فاجأه برغبته في الزواج
من ابنة عمه، إذا لم يتقدم للزواج منها، بعد عناء طويل عرف قصتها.
كانت تعشق أخيه الأكبر العايق، السكر الفاسد والفاسق، طرده
أبوه، فرحل دون أن يفكر فيها، ومنذ ستة أشهر أرسل رسالة يقول فيها إنه
تزوج، وأن زوجته السويسية حامل في طفله الأول.

في الصباح طرق عبد المبين شلعى باب العمدة، وسأله الزواج من ابنة أخيه، وبعد مداولات عائلية، وأمام إصرار الصبية، عقد شلعى قرانه، وهما هي جواره، تعلن أن جسدها ملكه، بينما قلبها وروحها في مكان بعيد.

قبل أن يغفو في النوم، مسد شلعى شعرها الطويل وهو يدمدم بالأغنية التي طالما سيهددها بها أثناء نومها، والتي ستبكي طويلا كي تسمعها مرة ثانية:

دلدي شعورك الطوال خديني من وسط الجبال يا سهيلة

* * * *

على بعد مئات الكيلومترات ذوت أضواء المشاعل الزيتية، لعرس آخر أقيم في قصر شوكت باشا السلحدار الكائن بمديرية الشرقية، كان العريس هو الشاويش مسعد بن مصطفى الرفاعي رئيس أنفار وخولي الأبعادية، والعروس مبروكة بنت عم حسن، كبير ساسة إسطنبولات القصر، لم يلق مسعد المعارضة المتوقعة من الفتاة التي بلغت السادسة عشر من عمرها منذ أيام، والتي كانت زهرة الأبعادية، ونوارتها، تهافت عليها الخطاب، وهى مختبئة وراء جدار من الرفض الصلب، حتى أوشك أبوها على قتلها في أحد الليالي، عندما ضرب عنقها بمديّة تقشير حوافر الخيول، فحادت عنها بسرعة وهبت لها الحياة، تاركة ورائها ندوب زادت عنقها الطويل فتنة.

طوال الليل دقت الطبول، وعزفت المزامير، وارتفع الغناء والزغاريد احتفالاً بالعرس، ورقص الفلاحون، والفلاحات، وعلى كنبه مرتفعة جلست مبروكة مخضبة بالحناء، الموسومة على كفيها وساقها، وعيونها الناعسة التي أضجت مضاجع الشبان، مرسومة بكحل ساحر لا يعرفه أولاد العرب، تتابع بوهج شبح غير مرأى يطوف في الأنحاء.

في نهاية الليل أطفأت المشاعل، وتوجه الجميع للنوم استعداداً للسفر إلى القاهرة، كان قد أسند إلى الملازمين محمد فوزي ومحمد الفولي قيادة السفينتين الصافيتين والمنصورة، المحملتين بالأسلحة والعتاد الحربي من مرفأ القصر العيني، واللاحق بحملة خط الاستواء، والانضمام إليها قبل عبورها جنادل (عبكة).

وقف الملازم محمد فوزي بين يدي جده شوكت باشا، يودعه الوداع الأخير، فتح العجوز خزانة سرية، وأخرج رزمة من المال، ووثائق مكتوبة بخط همايوني، وطلب منه

أن يتوقف في (شندي)، ويتوجه إلى قلعة (شنان)، ليلتقي الشيخ ربحان الطيب ود سالم،
ليقوم بالبحث عن عظام الجد الأكبر يلماز بك، ويوارىها التراب، في مدفن لائق.

في مخدعه وقف الملازم محمد فوزي أمام زوجته (ورد الجنان)، ابنة أحد التابعين
الكبار للصدر الأعظم، تطلب منه بصوت بارد أن يطلقها قبل أن يغادر القصر،
كانت رغبته أشد وطأة عليه من كتيبة (دلاة) تعتوره بسيوفها الحادة الماضية.

قال بصوت يحمل رنة رجاء:

- مقدرش، سامحيني عشان خاطر ابننا مراد.
- طلقني، وإن لم تفعل، سأوزع الصدقات والأموال على مجاذيب ودراويش أولياء
الله، كي يدعون عليك ألا تعود من منفاك، وأن تموت وحيدا، بلا أهل ولا أحباب.
- ليه كل ده؟
- أضافت: وسأطوف بكل السحرة والمشايخ لتحل عليك اللعنة.

في الصباح الباكر غادر قصر السلحدار (باتجاه القصر العيني بالقاهرة)، ضابط من
سلاح الصواري يمتطي جواده، يتبعه ابن الخولي الشاويش مسعد مصطفى الرفاعي،
يقود عربة تحمل أمتعة قائده، ويجواره جلست عروسه ابنة سانس الخيول، منكسة
الرأس لا تدرى أي مستقبل ينتظرها، بين سيدها المتيمة به، وزوجها المغرم بها.

* * * *

وقف مبهورا وسط أعمدة معبد الكرنك، يتأمل الإزميل الذي نحت اللغة المصرية القديمة بدقة تفوق الكمال، سار في طريق الكباش يتأمل تماثيل أبو الهول الرابضة مثل حرس أسطوري لبوابات العالم الغامض، ومسلتان شاهقتان من الجرانيت، تتصدران الصرح الهائل للمعبد، لمحا تقف منحنية أمام تمثال عملاق للملك رمسيس الثاني، ترسم واجهة المعبد، وهي تزجر صبي من أبناء الأقصر كي يتوقف عن الحركة.

- مدموازيل فرانسوا دي سابل؟

أومات وهي تضرب بفرشاتها لوحاتها: "ماذا تريدون مسيو، هل أعترض طريقكم؟".

- ملازم أول عبد الغفار.

أجابت بنبرة حادة وهي لا تزال منحنية منهمكة في لوحاتها: "وبعد؟".

- لدى أوامر بنقلكم إلى مديرية خط الاستواء

التفتت نحوه، سامقة مثل شجرة سرو، وتساءلت بغضب:

- هل أنا مقبوض على؟ ما هي رتبك؟ خطيبي كازاتي كابتن.

هاجمه نبرة صوتها المثير؛ خليط من الفيوليت الثقيل وتون السي على بيانو مفخم بالأساس، جذبته من ساعده إلى مكان الصبي، حدثته برجاء:

- "من فضلك قف هنا للحظات، أحتاج رسم وجهك على تمثال رمسيس".

وقف غاضبا وقد انطبعت في ذهنه حمرة شفيتها الغليظتين، وجهها الأبيض المشوب بالحمرة، زرقة عينيها، ساقاها النبالان. استقامت وأشارت بأنها انتهت: "تقدر تمر على في الفندق، لو لم يكن لديك مانع، وعادت للوحتها. سألها: "متى يمكنها الرحيل"، قالت بلامبالاة: "سأخبرك الليلة".

* * * *

في بهو أحد فنادق مدينة الأقصر، جلست مع أصدقاء لها في حالة سُكر بين، وبصحبتها الفتى الذي جعلته "موديل" لرسومها، كسيدة تمتلك الروح الكولونيالية، لاحظ المفارقة بين سمرته الشديدة وجلبابه الناصع البياض، ورأسه الملفوف بلاسة من الحرير المقصب، شعر بالفضاء يخيم عليه ثقلاً، وأن شيئاً يدور بين الفرنسية والفتى، لمح يدها أسفل المنضدة تعبت بجسده، تحاشى النظر، وعندما استقام جذعها، وجد أن الوقت مناسب للرحيل، استأذن، وأخبرهما أنه سيرسل من يقلها.

شعرت الفرنسية بالإهانة، سألته إلى أين يرحل في هذا الوقت المبكر، أخبرها أنه عائد للحملة المخيمة على مرسى الدير البحرى، ابتسمت وألقت رأسها للخلف وقالت بالفرنسية:

- "أنه لا ينوى أن يخبر خطيبها بأنها تخونه".

هتف: ماذا؟

ركنت بجذعها على صدر الفتى، وهمست بصوت ثقيل جعل الرعدة تسري في أوصاله: "طالما أننا سنكون معاً في هذه الرحلة الطويلة على أن أخبرك بأمري".

- تحت أمرك.

- "ليس بمقدوري مقاومة المراهقين، يشعلون في الرغبة".

أصيب بالخرس وحار جواباً، وهو مشدوها بصراحتها، ووقاحتها، كان أصدقائها مشغولون بمداعبه راقصات شرقيات، انحنى باحترام، وتحرك منسحباً، لم تتوقف عن الابتسام، وعند الباب لوحته له قائلة:

- بزتكَ العسكرية تثير في حكتي.

"À part ce défaut là, je suis parfait" (50)

* * * *

في صباح يوم دافئ من أيام مدينة الأقصر صعدت مدموازيل فرانسوا دي سابل الباخرة النيل، شاهدها تميل بجذعها، وهي تحمل لوحاتها الزيتية، يتبعها الفتى يحمل حقائبها، وعلى كتفه حامل للرسم، تولى النوتية

50) فيما عدا ذلك أنا كاملة

إرشادها إلى قمرتها، من الطابق العلوي تصاعد صراخها مستنكرة إذا ما كان هذا أفضل ما يقدمونه على ظهر هذه السفينة، هبط يسألها سبب صياحها، قالت: "وتستطيع أن تفهم الفرنسية؟".

- وما علاقة الفرنسية بمكان نومك؟

- لا بد وأن يكون لديك مكان أفضل من هذا؟

- أنسة أنت على ظهر باخرة حربية.

- وكيف أرسم في هذا المكان الضيق؟

- لم يذكر كولونيل ستواريت أن علينا أن نوفر لك استديو للرسم.

- "لماذا تقول هذا؟".

- كي أذكرك بأننا لسنا في مونت ماتر.

- ماذا؟ هل تحاول أن تؤثر في؟

أطلت رؤوس النسوة من قمرات عائلات الضباط، يتابعن المشادة الجارية أمامهن، قال:

- "أنسة يمكنك استخدام السطح، على الأقل ستجدين ما ترسميه".

- "وأحمل اللوحات والحامل والألوان صعودا وهبوطا".

- "افرغى حقائبك الآن، وسوف أجد حلا".

على السطح وقف الملازم أحمد سليمان يشرح لعدد من الجنود قواعد تبادل الإشارات بين السفن، موضحا ضرورة احتلال جندي الإشارة موقع واضح لزملائه، ووقوف كلا من المرسل والمستقبل في وضع متقابل، لرؤية حركة الأعلام بوضوح، وضرورة استخدام المنظار المكبر أثناء الضباب أو بعد المسافة، وأن لون العلم يجب أن يكون مختلف عن المنظر الخلفي للمرسل، وأضاف بابتسامته المتألقة "يعنى أيه يا نفر أنت وهو؟ مش ممكن تستخدم علم أزرق وخلفك البحر، أو علم أخضر وأنت في حقل برسيم، والا تكون بهيم، يلا انصرف".

في الصباح الباكر نصبت الفرنسية حامل اللوحات، في مكان قصي على سطح الباخرة، قبل أن يقفز إلى قارب التفتيش على بقية السفن وجدها منهمكة في لوحة معبد الكرنك، تبادل النظر، وفي المساء عرض عليها أن تترك أشياءها في مخزن على سطح الباخرة.

في أسوان تسلم برقية تفيد بأن السفينتين الصافية والمنصورة غادرتا بولاق وعلى متنها الأسلحة المخصصة للمديرية الاستوائية.

* * * *

شقت القافلة طريقها فوق النيل النوبي⁽⁵¹⁾، وأمام جزيرة فيلة ظهرت معابد الإلهة إيزيس، عند وادي كلابشة ضاق النيل وتحول شفيره إلى صخور، ظهر معبدان نجتا في الجبل، أشرقت واجهتهما بتماثيل هائلة لرمسيس الثاني وزوجته نفرتاري، أصابها مس من جنون، سألته أن يسمح لها بالنزول، خمن أنها ستمضي وقتا طويلا، أعطاهما إحدى القياسات، وعندما لحقت بالقافلة في نهاية اليوم كانت تحمل له مشاعر الامتنان.

ذات صباح وجد بورتيه لوجهه ملقى على فراشه، متى اقتحمت قمرة؟ قبل أفول الشمس اقتحمت قمرة القيادة وألقت أمامه كتيبا ملونا للإشارات التخاطب بالأعلام البحرية، كان واضحا بسيطا، صنعته من كرتون مقوى، وزخرفت حواشيه، في كل ركن تركت مربعا للحروف العربية، شكرها بعزفان، واستدعى خطاط الحملة كي يكتب بقلم البوص الحروف بخط نسخ، فبدأ وهو يعرضه على طاولة العشاء تحفة فنية، طلب من ملازم حليم رسم كتيبات مماثلة، وتوزيعها على جنود الإشارة، لكنه لن ينسى السخرية التي حملتها زاوية فمها اليسرى.

أبحرت الحملة فوق الهضبة النوبية، وعلى مرمى الأفق امتدت الصخور عارية من الكساء النباتي، والنهر قويا شابا يقتحم الشلالات والجنادل، عند وادي حلفا انبسط النيل واتسع، وفي اليوم السادس عشر لمغادرة ثكنات القناطر، وصلت من المقدمة إشارات تطلب من السفن التوقف، لقد بلغت الحملة جنادل (عمكة)⁽⁵²⁾.

51) النيل النوبي: يمتد بين خطى عرض {31°}، و{30:15°}، تصب فيه روافد النهر الوافدة من جبال الحبشة، التي تمنحه القدرة على مواصلة رحلته في الصحراء الإفريقية الحارة نحو الشمال.

52) شلالات عمكة: تقع ضمن الجندل الثاني لنهر النيل قبل موقع بلدة حلفا بمسافة قليلة.

أفرغت السفن أحمالها، لتتنقل على ظهور الإبل إلى حيث يعود المجري صالحا للملاحة، وعكف الجنود على تطهير المجري، وحفره إلى عمق يسمح بتعويم السفن.

ارتفع غاطس السفن، وجرها الجنود بالحبال، والنوتية يراقبون قاعها من الاحتكاك بقاع النهر، في نهاية اليوم انتهى الميكانيكية من فك محركات ومراجل الوابورين، ونقلها إلى البر، ثم قام العسكر بجرحهما ضد التيار بعد ارتفاع غاطسيهما.

عشرة أيام مضت في عبور الجنادل، وفي اليوم الحادي عشر أعيد تحميل السفن بالموّن والمهمات، وتركيب المحركات والمراجل، مع غروب الشمس رأى النوتي أسرع في الأفق، رفع منظاره المقرب، صاح منبأ باقتراب سفينتين.

رست السفينتان الصافية والمنصورة بجوار الباخرة، طويت الأشرعة، ألقى البحارة بالحبال إلى سطح الوابور، وقاموا بربطها بأوتاد الباخرة الحديدية، قفز الضابطان العاشر والحادي عشر من الضباط الاثني عشر إلى سطح الباخرة النيل، وخلفهما الشاويش مسعد الرفاعي يحمل أمتعة سيده، وخلفه زوجته الصغيرة تحمل بقجة ملابسها، وتتعثر على ظهر الباخرة الخرطوم، وقد أصابها الدوار. في قمرة القيادة تقدا إلى قائد الحملة:

- ملازم محمد الفولى سلاح الصواري، حملة خط الاستواء، تمام افندم.
- ملازم محمد فوزي سلاح الصواري، حملة خط الاستواء، تمام افندم.

تسلم الملازم أول الحسيني عبد الغفار بيان الأسلحة والذخيرة⁽⁵³⁾، وخطابات موجهة للجنود والضباط وأسرههم، تضمن بريد اليوزياشي خطاب موجه إلى حكمدار الخرطوم، وخطابا من خاله البك يدعوله بالتوفيق،

(53) ضمت أسلحة الحملة اثنين وخمسين صندوقا يحوي خمسمائة وعشرين بندقية "ريمجتون، Remington"، ومائة وستين صندوقا تحوي مائة وستين ألف خرطوش، وثلاثمائة قاذفة ذات كبسول، وثلاثمائة صندوق تحوي ثلاثين ألف حشوة للقاذفات، وستين صندوقا تحوي ستمائة قنبلة يدوية، ثلاثة مدافع جبلية عيار 80 مم، ثلاث آلات لقذف اللهب، وخمسة وعشرين صندوقا تحوي خمسة آلاف كبسول، ألف قذيفة مدفع، وثلاثمائة صاروخ ناري.

ويعاتبه لعدم اصطحابه زوجة من بنات أعمامه، وينبئه بوجود خطاب خاص به من نظارة الحربية، يتضمن توصية رئيس الوزراء شريف باشا بإعادة رتبته العسكرية التي سحبت منه.

في الليل كان الضباط وعائلاتهم في انتظاره، على الجانب الآخر من القاعة وقفت فرانسوا سامقة ممشوقة، ترتدى فستان سهرة أسود يكشف عن مطلع نهديها، وأسدت شعرها طويلا على كتفيها، تابعت الشابة الفرنسية نساء صغيرات، يرتدين ملابس السهرة، يتقدمن بصحبة أزواجهن يهنئن قائدهن في المنفى، افتتحت ألفت هانم الحديث، بصوت سمعه الجميع:

- مبروك يا حضرة اليوزباشي، أول ترقية لضابط في الثورة بعد هزيمة عرابي باشا، وأضافت: "إن شاء الله ربنا ح ينصرنا".

صفق الجميع بحماسة، وكان الثورة توشك على دخول قصر عابدين، التقطت فرانسوا أحد أشهر الأسماء المصرية "عراي باشا"، أيهرطق هؤلاء، أم أنها في ألا تابع لجيش العصيان، في منتصف القاعة وضعت مائدة طعام مغطاة بالملفارش البيضاء، وتقدم التذلل⁽⁵⁴⁾ يصفون أدوات المائدة المصنوعة من الخزف الصيني والفضة، وكأنهم في قصور القاهرة.

استرعى الملازم بحري أحمد سليمان انتباه الحضور، وضحكته تشرق من بريق عينيه، دفعت زوجته نحوه بصندوق فاخر، توسطه التاج السلطاني، أخرج منه طربوشا من الجوخ الأسود مزينا بشريط ورز ذهبيين، وقدمه للحسيني، وهو يقول: حباب قالت لي ما يصير أن قومندان الحملة يسير بين الجنود من غير طربوش جديد".

حاول الحسيني الرفض، لكن الملازم أحمد سليمان قال بمودة:

- "افتدم، النبي قبل الهدية".

- "مقدرش، قريب تيجي ترقيتك".

- "كل شيء بوقته، حضرة اليوزباشي، سأحكي لك قصة هذا

الطربوش، كانت مهمتنا في حرب القرم غلق مضيق (كيرتش)⁽⁵⁵⁾، وعدم

54 (التادل: من يقوم على خدمة القوم في الأكل أو الشراب. والجمع: التادل. المعجم الوسيط.

55 (كيرتش: Kerch

السماح للبحرية الروسية للخروج من بحر (أزوف)⁽⁵⁶⁾ إلى البحر الأسود، وبعد ليلتين اكتشفنا أننا محاصرون، وكلما حاولنا الهجوم صبت مدافع قلاع الموانئ الروسية نيرانها فوق رؤوسنا، سألت القبودان قائمقام (قورقماز أرسلان)، حضرة افندم من يحاصر من؟.

هرش قفاه وقال: "كلام جميل سليمان أفندي، من يحاصر من؟ هذا سؤال كبير لن أنام حتى أرسل (ططرى)⁽⁵⁷⁾ إلى اسطانبول، لكنه أرسل توصية بترقيتي إلى رتبة يوزباشي"، في اسطانبول، أنعم علي السلطان عبد الحميد خان الثاني بنيشان مجيدي، دورت في بازرات اسطانبول على أفخم طربوش واشتريته، ورجعت أخوض معركة جديدة، وأشار إلى حباب واستطرد: هذه المرة استوليت على مينائي الذي رسوت عليه أخيرا.

قاطعته وهي تهز رأسها نفيا: "لا، لا، أنت بس مو واخذ بالك، أنت ما تعرف أنك كنت معركتي من زمن واجد".

ابتسم بحيرة، استطردت تتحدث إلى الجالسين:

- "لما حضر إلينا وأبوه من إسكندرية، وأنا كنت صغيرة، اللي صار في الدار ما حدث من قبل، شهران قعد في دارنا، قلب حياة الشكرية، موائد وولائم، وأمي تقول: "علينا نفعل شنو، ونسوى شنو، وأنا أسألها لشنويا أمة تاعبة نفسك"، تقول: "يا حباب من أجل خاطر عيون الولد الزين أحمد، وأنا أسألها شنو أحمد هذا؟ تقول لي ابن عمك سليمان، أنظره من خلف الباب ألاقه يجلس بجوار أبيه متعاضما وكأنه الزير سالم. لما سافر قلت لنفسى يا حباب هذا الولد الزين بيصير لك"، وأشارت نحوه: "هذا اللي يقول أنا معركته، لا يدري أنى قلت لبوى يا بوى، يقول أبوي نعم يا حباب، أقول نسافر إسكندرية والابناتها يخطفون الولد الزين ابن أخيك سليمان".

لمعت عيناه باللق سعيد، وقالت وهي تنظر في عينيه:

- "أنت قومندان البحر، وأنا قومندان البر".

56 (بحر أزوف: SEA OF AZOV
57 (ططرى: رسول يحمل مراسلات الدولة والباب العالي

قام الملازم محمود العجيمى صاحب الدور المشهود في أنشاء تحصينات الدفاع عن قلعة (يلفنة)⁽⁵⁸⁾ في حرب القرم الثانية، وقدم لليوزباشى علية أنيقة وهو يقول: "من أجمل ما وجدت في ضاحية" تقسيم" باسطنبول.

رفع غطائها وأخرج شارتين للكتف لرتبة اليوزباشى مشغولتين بخيوط الذهب، قال: أية رأيكم افندم؟ كان الأميرلاي محمد عبيد سيعلقهما على كتفي، ولكن تعلمون ما جرى.

شرع يثبتهما على كتفي الحسيني وهو يقول: "وأريد القول إن زوجتي سنية هانم، قالت لي، ميصحش أن يسير وعلى كتفه رتبة ملازم أول، وعندما انتهى ابتسم وقال: "أنت الآن قائدنا".

صفق الضباط، وعندما حل الهدوء قدم له سالم الفولى طاقما من الأزرار النحاسية اللامعة، وتبعته صفية هانم زوجة مصطفى العجيمى وقدمت له سجادة صلاة أحضرها والدها من مكة المكرمة، أميرة هانم زوجة حسن سليمان قدمت قفازين من الصوف صنعتها بيدها، وقالت إنها صنعتها من أجل زوجها، لكنه أحق بهما الآن، دفع الملازم عبد المبين زوجته سهيلة، تقدمت بصعوبة من فرط خجلها، وبين يديها سلة مغطاة بشرشف أبيض ناصع، وعندما وضعتها أمامه، قالت "هذا بخور يحرسك من الحسد".

هرج قليل اختفت بعده النسوة، ودون عمد أدار الملازم على شمروخ وجهه ناحية المرأة الفرنسية، وهو يربت على معدته: "أنا جعان"، وقال بحيرة إنه ليس لديه ما يقدمه. انحنت إليه وهمست بابتسامة قاتلة: "لديك أنا". - بتقولي إيه حضرتك؟

غمزت عينيها بتواطؤ: "قدمني إليه، هدية فاخرة؟"، أصدر صيحات تعجب ضاعت وسط النساء اللاتي دخلن وخلفهن عساكر الخدمة يحملن الطعام، وألفت هانم تطلب من الجميع العودة إلى المائدة، انهمكوا في تناول الطعام، وهم يتبادلون الحديث.

(58) موقعة يلفنة: وقعت في 20 يوليو 1877، أثناء حصار (يلفنة - Pleven) التي تقع شمال شرق العاصمة البلغارية صوفيا، قرب الحدود الرومانية، قاد الدفاع عنها عثمان باشا، ضد الحصار الروسي بقيادة جنرال تودلين، ونتج عنها هزيمة الجيش العثماني واستسلام عثمان باشا، للجنرال الروسي والقيصر إسكندر الثاني. (محمد فريد بك المحامي - تاريخ الدولة العلية صفحة 629 - الناشر دار النفائس - الطبعة الأولى 1881).

قبل أن ينتهي الطعام جاء صوت الملازم شمروخ: "أفندم عندي لحضرتك هدية" تطلع الجميع نحوه وهو ينظر إلى فرانسوا، قال لا أعرف إن كانت تروقكم أم لا؟، صفق بيده وهو يشير ناحيتها: "أقدم لكم الآنسة فرانسوا. لوهلة بدت الهدية تحمل معاني كثيرة، لكنه أضاف: "ستعزف لكم مقطوعة خاصة". نظروا حيث انهمكت المرأة الفرنسية في اللعب بأصابع البيانو قبل أن تنتظم ضرباتها لتعزف مقطوعة لشوبان، عندما انتهت وقفت وقالت:

- "كان على أن أقدم لك أنا الأخرى تهنئة ما، هل هي مناسبة؟".

- من كل بد"، رفعت فستانها قليلا وانحنت تبادلته التحية، وقالت بصوت يحوي جرسا خاصا: "سأعزف لك أخرى"، وفي هدوء شرع الضباط يستأذونه الانسحاب.

سألته: "أسمعتها من قبل؟".

- نعم، ضوء القمر لبيتهوفن"، عزفتها أوبرا القاهرة.

جلسا يتبادلان الحديث، قالت: أنت تترك في كل من حولك انطباع جيد، لدى أيضا.

- يجب أن أعترف، هذه أفضل ليلة مرت علي منذ زمن طويل. أرجو أن تكون مشكلة اللوحات قد حلت.

ضحكت: "كابتن سأقبل بغرفة مخزن على سطح الباخرة، كانت لا تزال جالسة على مقعد البيانو تضم ساقها، وتحركهما يمنة ويسرى، أجاب: "ستجهز لك صباحا". وكأنهما يعقدان صلحا.

- "تعلمين، اللوحات التي رسمتها عن الصبية والنهر بها عنف وقسوة".

انعقد وجهها بغضب: "هل تتلصص علي؟ من أعطاك الحق؟".

نظرها صامتا، وقام، قال: "سوف نتحرك باكرا، يجب أن أذهب". تركها تضم فستانها الواسع على ساقها وهي تتابعه يغادر القاعة بغيظ.

في الصباح اعترضته وهو في طريقه إلى قمرة القيادة، كانت تجلس أمام لوحاتها، قدمت له مقعدا وقالت: "هل تمكني من أن أقدم لك نفسي".

وقفت ثم انحنت تقدم نفسها بطريقة احتفالية، ثم استقامت، امرأة تنتمي إلى قبائل الغال القديمة، سامقة، جسد من رخام، ووجه بيضاوي،

دارت نصف دورة وكأنها تستعرض جسدها، فدرات معها خصلات شعرها
تكشف عن عنق عريض همست بصوت دافئ:

- "فرانسوا دى سابل، رسامة من مونتماتر، لأب كان قسيسا من
القساوسة الثوريين، التقى أُمي في روما وهو في رحلة إلى الفاتيكان،
وانخرط سويًا في الدفاع عن كميونة باريس، خلال متاريسها عاشا قصة
حب كنت نتيجه، فلما مات بالسل عادت أُمي تعمل موديل للرسامين،
لقاء متع دنيوية ورضاء ذاتي، أما أنا فكبرت بين أرصفة مونتماتر، والحي
اللاتيني، تسكعت في باريس، وفلورنسا، وتنقلت في أرجاء مدينة
فينيسيا المترعة بفنون عصر النهضة، الذي انتصر للروح الفردية، وفي روما
تعرفت على مايكل أنجلو، ودافنشي، وكابتن رودولفو كازاتي،
وحانته الرخيصة، هذا أنا؛ هل فهمتي؟"

- أنتعقدي أن من السهل على المرء أن يفهمك؟

- "تعتقد أنى شخصية متقلبة المزاج."

- بقدر ما تعتقدي أنك فنانة.

شهقت: أهذا مدح أم قدح؟

- أرجوك لا تبدئي الشجار.

تابعته وهو يرحل ، تقاوم خروج سيل الشتائم التي أصلته بها إلى العلن.

صعد الجند إلى السفن، وخفقت الأشرعة، وعازم أن يحتفظ بمسافة
بينهما، لكنها دست له على العشاء، كتيب يشبه كتيب الإشارة، ضم
رسوم لراقصة الكان كان، تحمل علمين من أعلام الإشارة، تشير في
كل وضع من أوضاعها الراقصة، لحرف لاتيني، عندما قرأها رفع رأسه
نحوها، كانت تحرك شفتيها الغليظتين، تعيد ما كتبتة:
- "هذه أنا."

في اليوم التالي أعطته كتيب لرجل شبه عار، يشير في كل صورة
بالأعلام لحرف لاتيني، عندما قرأها، أشارت إليه هذه المرة دون أن تهتم
بالآخرين وهمست بابتسامة عليها ملامح الطيبة:
- "هذا أنت."

لم يتمكن من رفع رأسه، في اليوم الثالث ألقت على الطاولة أمام الجميع، (وهي تبتسم باغواء)، مجموعة ثالثة، تحمل عبارة: - "كابتن، متى تضاجعني؟".

اعتقد أن علاقة خاصة نشأت بينهما، لكن سرعان ما أفاق وهو يلمحها تحقق جامدة الملامح، في ذكورة صبية نوبيين يسبحون عراة في النهر، عندما لمحته، ابتسمت بعينين خاملتين، وأشارت نحوهم دون خجل: - "لا تلومني، سبق وحذرتك، أنا حددت شروطي".

استغرقته الصدمة، وفاته أن يلاحظ أنها كانت تتابع عينين جاحظتين بالشهوة للشباب اليوناني الذي كان يراقب بنهم الفتية العراة.

* * * *



خط عرض 18°



المك نمر
(ملك شندي وآخر ملوك السعداب)

-8-

صار النيل أسير جرف من صخور نارية أعطت له اسمه "بطن الحجر"، على البر شيد المصريون القدماء قلعتا (سمنة) و(كوما) للدفاع عن الحدود الجنوبية لدولة الفراعنة، ونقشوا على الشفير الصخري مناسيب النيل، بعد الشلال الثالث اتسع النهر وأصبح وعرا، تنبثق من قاعه آلاف الجزر والكتل الجرانيتية الصلبة، تكسب تياره سرعة وتدفقا واندفاعا.

أبحرت الحملة على ظهر ثعبان خرافي، تلوى في بحر الرمال اللانهائي، مخترقا بقايا قلاع شهدت المعارك التي دارت بين إسماعيل باشا⁽⁵⁹⁾ الذي قتله تهوره، وملوك الشايقية⁽⁶⁰⁾، أرسل مقدمته، لناوشة فرسان الشايقية، فأطبقوا عليهم كالضواري، وقتلوهم شر مقتلة، فطار صوابه، وتقدم في جيشه إلى حلة "أم بقر" الواقعة قرب "كورتي" الواقعة قرب خط عرض {18⁰}، فامتطت مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ بادية (السوارب) هجينها، وهتفت في قومها: "هيا بنا للدفاع عن بلادنا".

قاتل الخصمان قتال الأبطال، واقتحم مشاة الشايقية خطوط النيران المصرية، يعتقدون أن الأحجية التي تدلت من أعناقهم ستحميهم من الموت، وبعد ثلاث ساعات كان قد سقط منهم ثمانمائة قتيل، في الصباح احتوى

59 (إسماعيل باشا: ثالث أبناء محمد علي باشا، الكبير، وقائد أول حملة للسودان في العصر الحديث، جردها عام 1820 لضم السودان تحت السيادة المصرية، وكان الأمير إسماعيل في السابعة والعشرين من عمره، قتل مختنقا بالدخان في ديسمبر 1822، في مؤامرة أعد لها الملك نمر ملك شندي، ردا على إهانته وجهها له إسماعيل. الرافي، عبد الرحمن "فتح السودان". تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم، ج3 عصر محمد علي، مكتبة الأسرة. القاهرة: (2000) مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 170-171

60 (موقعة الشايقية: جرت في 4 نوفمبر 1820، أمام قلعة كورتى، بين مقدمة الجيش المصري بقيادة إسماعيل باشا وضمت ثمانمائة فارس، وقبيلة الشايقية، وضمت ألف فارس، وألفان وخمسمائة من المشاة المسلحين بالسيوف والحراب، يتقدمهم رؤسائهم مسلحون بالبنادق والسيوف والدرق، دعاهم إلى الطاعة ودفع الجزية، وتسليم السلاح والخيول، أجابوه أنهم يقبلون الجزية بلا حرب، وأما السلاح والخيول فلا يسلمونها إلا بالحرب، علمهم يفوزون وتبقى لهم.. نعوذ شقيرتاريخ السودان الناشر دار الجيل 1981

النهر عشرات الجثث وخضب بالدماء، وبعث إسماعيل باشا إلى نجوع السودان يعلن الأمان لكل من يأت مسلما، ومن لم يأت سيحل به الانتقام. ثم تقدم إلى كورتى فأحرقها، وأقام على تخومها بانتظار المدد حتى جاءه الجنود والمدافع، فشرع في مطاردتهم ودمر قلاعهم واحدة بعد الأخرى، عندما أسرت قواته ابنة الملك "صبير" أكرمها إسماعيل باشا وردها إليه، فجاء لتلك المكرمة مسلما طائعا، واستسلم بعده الملك عمر، وفر الملك جاويش برجاله إلى "التمتة" واستسلم هناك.

* * * *

عند محلة "أبو حمد" التوى المجرى عائدا إلى الجنوب، أبجرت السفن في مواجهة التيار المتدفق بقوة الرياح، قرب محلة "بربر" قام الصول عطية وش الفار بجلد عددا من الجنود، بسبب تقاعسهم عن الخدمة، وعند نهر عطبرة انتشرت عقوبة الجلد، هذه المرة قال وش الفار أن الفلاحين كسالى، ودواؤهم طعم السياط، لحظتها ينعدل السايب، ويخاف المربوط، أثار نواح أحد المعاقبين إئتياه شلعى وهو يبكي تحت ضربات السياط: - "آه يا ابا، دم في (خرأى)، ومغص في جنبي، ويضربوني ضرب البهايم في السواقي".

أمسك به من ياقته وهو يصرخ عليه أن يتوقف عن البكاء، وأن يكون رجلا، أجابه: "رجاله يا افندم، بس المرض مالوش كبير". كان يعاني من ارتفاع درجة الحرارة، ويشكو من إسهال مخلوط بالدم والمخاط، فرز طبيب الحملة المرضى فبلغوا ثلاثة وأربعين مصابون بالدوسنتاريا، أقيم معزلا طبيا في سفن السلاح، وقد بلغ عدد الإصابات مائة وثلاثين جنديا، مات ثلاثة عشر بفعل التسمم.

* * * *

شندي على سور الطابق العلوى للباخرة النيل تابع الملازم فوزي المرأة الصغيرة تلتحف بأخر أضواء الليل، وهي تنسحب أمام الصباح، وتعبير هاربة إلى قارب صغير، نقلها إلى الباخرة الخرطوم، حيث يقيم ضباط الصف، التفتت نحوه بنظرة ذعر، ثم تورات في غلائل الفجر.

منذ غادرت الحملة جنادل عبكة تحاشت الالتقاء به، وكان قد ضاجعها مرتين، منذ غادرت سفينتي السلاح مرفأ القصر العيني، هذه المرة كانت غاضبة، بكت، رجته ألا يدعوها إلى قمرته ثانية:

- أنا امرأة متزوجة.

- "هي العفة حطت عليك فجأة؟".

انطوت على نفسها كما فعلت كل مرة ضاجعها من قبل، وتركته يرحل وحيدا داخل جسدها، فلما بلغ مرامييه، جمعت ذاتها المنكسرة، ولملمت عريها، وهي تود لو تواتيها الجرأة أن تقول له، إنها ما سلمت له نفسها إلا شفقة بوحده، وهي ترى الخاتون تصده عن فراشها، وتغلق على نفسها باب مخدعها، ليبق وحيدا في ردهات القصر...

ودت لو تقول للسيد الذي تربت منذ نعومة أظافرها وسط خدم وعبيد لا يعرفون أمامه كلمة "لا"... الآن أنا زوجة تحاشت زوجها خوفا من أن يكتشف أن بكارتها أريقته في مداود الخيول... استدارت إلى الخلف، تراه يقف أعلى السفينة، تطلعت إليه بعينين صافيتين مغرورقين بالدموع، ورحلت في صمت.

في ضوء الصباح الشفيف بزغت "شندي"، بمبانيها ذات الطابق الواحد، ألقت الباخرة الخرطوم مراسيها على مشرع⁽⁶¹⁾ شندي، ويجوارها ماعون التمساح، ووقفت بقية السفن في عرض النيل، استقبل الأهالي عسكر الجهادية بمشاعر عدائية، وسمعت تكبيرات على المآذن في غير أوانها، شددت الحراسات، وقام الملازم طوبجي محمود العجيمي بتدريع جانبي الوابورين، ونصبت المدافع خلف الدروع، وانزل المرضى على نقالات في

61 (مشرع: مرفأ نهري

هدوء، تابعهم الأهالي يعبرون سوق الرقيق، إلى مشفى شندي الحكومي، حيث استقبلوا بصمت مريب.

شق الملازم محمد فوزي المدي، وهو يسير في طرقات شندي، يتبعه الشاويش مسعد الرفاعي، يبحث عن قصر الملك "نمر" ذي الطابقين، عليه يرى المكان الذي قتل فيه جده الأكبر يلماز⁽⁶²⁾ بك السلحدار، والذي عبر فيها عن مثل نادر للولاء للعائلة العلوية، عندما ألقى بجسده على إسماعيل باشا⁽⁶³⁾ كي يقيه الموت محترقا، فمات كلاهما مختنقان بالدخان.

في الغسق بلغا قلعة "عبد الرحيم شنان"، سأل عن صديق قديم لشوكت باشا، أمام بوابتها الشرقية التقى بالشيخ ريجان الطيب ود سالم، استمع الشيخ العجوز الموهل في القدم متوجسا لحديث الضابط الشاب، وقد بداله مثل جده "يلماز بك" غافلا عن ما يجري في السودان، وبين فينة وأخرى كان يسأله إذا كان أحد لاحظ قدومه، قال الملازم، وهو يقدم للشيخ كيسا من النقود، أن جده شوكت باشا أوصاه ببناء قبر لأبيه "يلماز بك"، وقراءة ختمة القرآن الكريم، رحمة على روحه.

تناولا القهوة، ونفثا الدخان، وحمله الشيخ تحياته للباشا، وطلب ألا يذكر اسمه إذا استخدم البرق، سأله الملازم: متى يمكن أن يعود للقائه، فاستنكر الشيخ، ونعته بالجاهل، وطلب منه أن يرحل وألا يعود ثانية، وودعه وهو على يقين من أن الحفيد سيلقى مصير الجد.

رحل الشاب حائرا، وطوال الطريق إلى المرفأ لاحظ الحقد يشع في نظرات الأهالي، وكان التاريخ يعيد نفسه... تذكر حكايات أبيه وجده شوكت باشا عن المدينة الواقعة على خط عرض {16:7⁰}؛ "شندي" عاصمة مملكة (السعداب) أحد بطون قبائل (الجعليين)، والتي قامت على أنقاض مملكة مروى القديمة، انتقم المك⁽⁶⁴⁾ "نمر" من إهانة الأمير الذي ألقى في وجهه بغليونه، بعد أن فرض عليه جزية قدرها ألف أوقية من الذهب، وألف جمل أصهب، وألف ناقة منتجة، وألف بقرة، وألف شاة وألف عبد وألف جارية، وهو ما لم يكن بمقدوره، إذ أن جيش الباشا كان قد

62 يلماز : لا يستم، قوي الإرادة Yimaz

63 جاء على ذكر سيرته في حاشية سابقة

64 المك: تعنى الملك في اللهجة العامية السودانية

سلب غالبية ممتلكاتهم، الغليون الذي ألقاه إسماعيل باشا في وجه الملك الذي تمسك في عزه وفخار بانتسابه إلى العباسيين انتهى بمذبحة، في البداية أظهر الملك الامتثال، وأضمر الغدر للابن الوحيد الباقي على قيد الحياة لمحمد علي باشا، والذي كان مفخرة أبيه بين الأوروبيين كرجل دولة شاب، لكن لله في شؤون عباده علات، في اليوم الذي سبق موته أنشد الشيخ عبود شيخ بادية السوارب⁽⁶⁵⁾ للأمير:

أيا راكبا يسرى على متن ضامرا	إلى صاحب العلياء والمجد والبر
وطوى إليه شقة البعد والنوى	وتقحم الأوعار في المهمة القفر
وينهض من مصر وشاطئ نيلها	وأزهرها ⁽⁶⁶⁾ المعمور بالعلم والذكر
لك الخير أن وافيت شندي ⁽⁶⁷⁾ قف بها	وقوف محب وانتهاز فرصة الدهر
وألقي عصا التسيار فصيح أنساها	تجد كل ما تهوى النفوس من البشر

فاعتقد أن القصيدة كتبت في مديحه، ما جعله يدخل على ملك السعداب ويهينه، وكان الملك نمرقد علم بما قاله الشيخ عبود السوارب للأمير إسماعيل، فأنشد يقول ما أنشده رجل حصيف:

يا راقدا الليل مسرورا بأوله	أن الكاره قد بطرق أسحارا
لا تفرح بليل طاب أوله	فرب آخر ليل أجج النار ⁽⁶⁸⁾

في مساء ذاك اليوم أقام ملك السعداب مأدبة عشاء وحفل بالدلوكة على شرف الأمير المصري الذي سبق وأن هزمه غروره، فأكل وأصحابه وشربوا الخمر، وأثناء الحفل حاصردار الضيافة ثلاثمائة فارس وأربعون

65 (قصيدة ألقاها الشيخ عمر المغربي في مدح الملك "بإدى أبوذقن ملك فونج وسنار" الذي حكم في القرن السابع عشر بعد غزوته التي فتك فيها بقبائل الشلك، وجبال تقلى- نعيم شقير. تاريخ السودان، الناشر دار الجيل 1981، صفحة 105.

66 يقصد الأزهر الشريف: المصدر السابق

67 البيت في الأصل: "لك الخير أن وافيت سنار قف بها.. وقوف محب وانتهاز فرصة الدهر" المصدر السابق

68 قيلت الأبيات للشيخ عدلان شيخ الشكرية اللاهي عن المكاند التي يديرها له أخوه وأعوانه عام 1804: المصدر السابق صفحة 119

عبدا من خاصة رجال الملك، وأحاطوها بالقصب وأشعلوا بها النيران، فاجتمع عليه أعوانه يقوه الموت حرقا، فمات مختنقا، ومن نجا نكل به الجعليون وخوزق، في انتقام مريع.

قوبل النبأ في القاهرة بالذعر والغضب الشديد، وانطلقت رياح الانتقام، وشن محمد بك الدفتردار يعاونه "محبوبك" حربا ضد الجعليين توججها شياطين الدمار، فطاردهم وقاتلهم، وقطع الأيدي والأرجل، وجدع الأذان، وقتل الآلاف وحرق "التممة" و"بربر"، و"توتى"، ولم ينج الأسرى من الانتقام، وخملت نساؤهم الأحرار سبايا إلى القاهرة، وتحالفت قبائل الشكرية مع الدفتردار، وطاردت الفارين من أعوان الملك الهارب، وتعقبت قبائل الشايقية الجعليين طمعا في أراضيهم.

وجازى الباشا محمد على حلفاءه؛ فأعطى الشكرية منطقة البطانة، وجعلوا سوق أبوسن، القريبة من "القضارف" عاصمة لهم، ومنح الشايقية أراض للجعليين، وفي 1857م أصدر الخديوي سعيد عفوا عاما عن كل من حمل السلاح ضد الغزو المصري، بمن فيهم عائلة الملك نمر.

* * * *

غسل العسكر ماعون الجنود وسفينته السلاح بالمحاليل المطهرة، ونبه على الجنود ضرورة الاهتمام الشديد بالنظافة، وغسل اليد قبل الطعام وبعده، وفي رواح اليوم الثالث سأل فتى عن شخص يدعى يلماظ، فخرج إليه فوزي، فألقى إليه ببجعة بها ملابس سودانية، استدعي الشاويش مسعد والشيخ عبد المعز، وساروا خلف الصبي يرتدون الزي السوداني، والذي لم يخفى بياض وجهه.

أمام قلعة شنان وجد الشيخ يجلس أمام قبر بني حديثا، وسط دراويشه، يقرأون القرآن الكريم، وثلاث ذبائح من الأبقار معلقة من خطاف، رفع عبد المعز كفه، وخلعوا أحذيتهم، وشرعوا في الوضوء، وأم الشيخ عبد المعز صلاة الجنازة على يلماز بك، فلما انتهوا من الصلاة والدعاء للموتى بالرحمة، وزع الشيخ لحم الذبائح على اليتامى وذوى السبيل، وأسرع

مسعد في همة إلى مساعدته، ورتل الشيخ عبد المعز آيات الذكر البينات، صمت الحضور، واستمعوا لحلاوة صوته، وجمال تلاوته.

مال الشيخ ريحان على الملازم وهمس:

- "يا زول عساكركم بالشفخانة، تاخدوهم معاكم ولا تتركونهم".

- "صعب يا شيخ، يموتوا منا في الطريق".

- "يموتوا في الطريق، يموتوا بقطع الرقاب، يموتوا في الحريق، كله موت مقدر عند ربك ذو الجلال".

ضاق عيناها مصعوقا، في الطريق حاول أن يعرف من الفتى ما يخفيه، لاحظ عيناها لا تغيبان عن الخنجر الذي يتدلى من خصر الشاويش مسعد، أخذه عنوة، وأعطاه له، ومسعد ينبهه: يا سعادة الباشا دا عهد ميري. أمسك به الفتى، يقلبه بين يديه، قبض الملازم بأصابعه الحديدية على كتفه، ونظراته الصقرية تخترقان عيني الصبي، همس في أذنه:

- "ممك جدك يكون قتل جدي؟".

- "وين جدي شاف جدك يا زول".

- "قول إيه اللي بيحصل؟".

- "الأنصار⁽⁶⁹⁾ تبي تدخل الاستبالة وتقطع رقاب العسكر".

- "وايه اللي مانعهم؟".

- "الأهالي يخافون منكم".

أعلنت حالة الاستنفار، وجمعت العساكر واخلى البر، وفي عتمة الليل احتل الجنود الطريق الواصل بين مشرع شندي والمشفى، تسلل شمروخ وحسن في جلباب وعمامة سودانيين، وفي هدوء غادر المرضي من عسكر الجهادية المشفى، عاندين إلى معزلهم في سفينة السلاح الصافية.

قبل الغلس⁽⁷⁰⁾ دارت ماكينات الوابورين، وضرب الهواء بطون الأشرعة، وخرجت القافلة إلى عرض النهر، وقد أصبحت على بعد يوم من الخرطوم.

* * * *

69 (الأنصار: عندما أعلن محمد أحمد بن عبد الله أنه الإمام المهدي، انضم أتباع ومشاعين في أرجاء السودان، كان يشكلون في مواطنهم تحت قيادة الفقهاء جماعات من الأنصار والأتباع للدعوة المهدية.

70 (الغلس: ظلام آخر الليل قبيل البلجة).

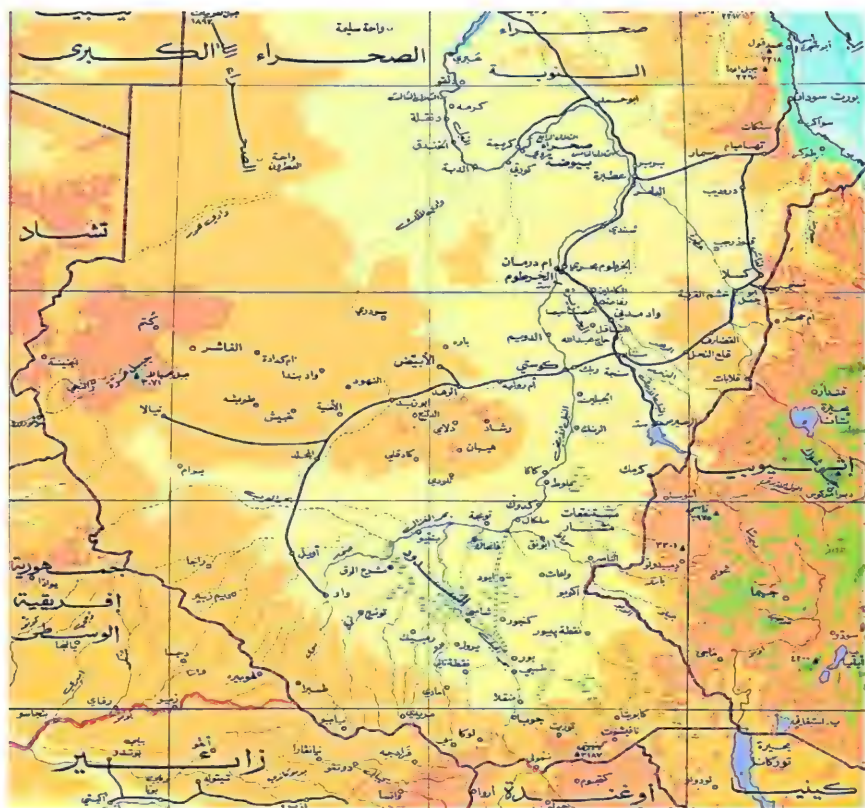


ذهبية على النيل

الصفحة الثانية

البرزخ

.. يأتيه الليل حيث نافذة
تكنم على أنفاسه .. يختنق ..
يرفعها عنه دون جدوى ..
وبانتظار الموت .. لا يجد سوى النيل ملاد



السودان

-9-

الخزطوم

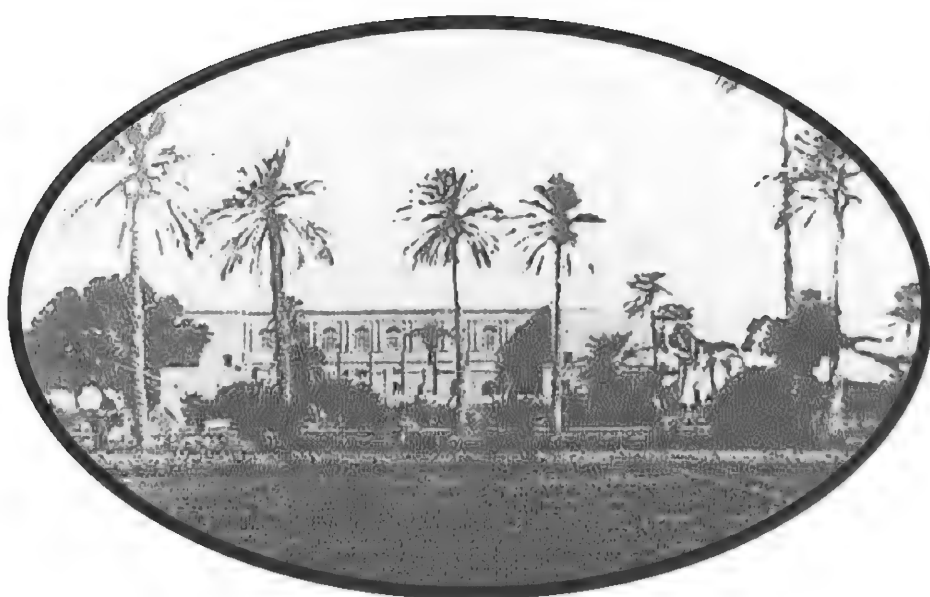
فبراير 1883

أطفأت المراجل، وطوت السفن أشرعتها، بانتظار
دخول الميناء، شدت حباب على يد ابنها، ووقفت
تشهد مسقط رأسها، وقد طفا وسط مرج من
الألوان؛ ذهبية مصفورة بشمس الصباح، رمادية من
الطين الذي خلق الله منه البشر، صفراء من صحراء القبائل العربية التي
استوطنتها، سوداء من لون سكانها الأصليين.

تهادى قارب بجوار الباخرة، وصعد منه معاون الميناء، يتبعه شيخ يرتدى
جلبابا وعمامة ناصعتين البياض، بدا مثل نخلة في وادي النيل، تشهد
التاريخ ولا تهتز بمجرياته، قدم الحسيني التحية العسكرية للصاغ،
وتوجها إلى قمرة القيادة، ووقف الشيخ يتفرس في الأرجاء، يسأل النساء:
- "يا بنتي، وين مرة أحمد أفندي سليمان".

اندفعت حباب، تقبل يد والدها الشيخ إدريس الدغيم أبوسن، حط
بكفه الرخصة على رأسها، فسقطت على الأرض تقبل أقدامه، وصوتها
يشنخ بالبكاء، طفرت الدموع من عيون النساء، وقد جذبهن طعم
الضحكة العالية، التي تفيض بحلم وورع، لا يملكه سوى أهل السودان،
ربت على كتف ابنته، فحل بها الأمان، أسرعت تقدم ابنها، وهي توشوش
في أذنه: "بوس أيد جدك يا جعفر". نظر الصبي لسحر هذا الشيخ الذي غير
حال أمه، وتقدم بخجل، رفعه إلى صدره، واحتضنه بحنان:
- "تعال يا ابن الغاليين".

أسرع ملازم يقبل يد الشيخ، ويهتف: "عمى، أنا حسن ود سليمان
أخوك"، رنت ضحكة الشيخ واحتضنه:
- "ابن الحبايب، تعال في حضني".



1880

قصر الحاكم المصري في الخرطوم

غادر الملازم أحمد سليمان قمرة القيادة، ليلتقي عمه وحماه، احتضن كل منهما الآخر، كان يجمعهما طول القامة، وقهوجية اللون، وسحر

ابتسامة السودان، وقبل أحمد يده، سأل الأب
ابنته بعتاب:

- "وين مرة حسن؟"

كانت تتوارى خلف النسوة، تخفي خجلها، جذبتها حباب عنوة:

- "بسم الله ما شاء الله تبارك ما

خلق، هادي زوجتك يا حسن، زين ما

اخترت، أهلا يا بنت الكريم، أبوك

الشيخ عبد الواحد البيطاش له فضل

علينا، فتح لنا داره يوم كنا أغراب،

ندور ورا الشيخ أحمد أبوسن⁽¹⁾ وهو

بالسجن، وهسه أنت مرة ابننا، بارك

الله فيك.

ومن القرآن إلا اسمهم.

1) في 16 يناير 1857 زار سعيد باشا والى مصر السودان، ولم تعجبه الأوضاع، فأقر إخلاء السودان، والتخلي عنها، لكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه بالحاج أن يعدل عن رأيه، وقالوا إذا أخليت البلاد عمت الفوضى، وربما لحق أذاها مصر، فعدل عن رأيه وأمر بعودة إصلاحات، فضم الخرطوم وجزيرة سنار في مديرية واحدة، ونظم البريد بين الخرطوم ومصر وسيرها على الهجن على طريق (كورسكو)، وخفف ضرائب الأطيان والسواقي، ومنع الجند من جمعها، وأناط ذلك بمشايخ البلاد، وقرر جمعها بعد الحصاد وليس قبله، وأمر بعتد ناد من الأعيان في الخرطوم للنظر في راحة البلاد، وأعلن عند وصوله (بربر) أبطال تجارة الرقيق، وأنشأ محطة عسكرية على نهر (شبت) لمراقبة تجارة الرقيق وقطع دابر النخاسين، وقد رأى ضرورة لزوم تقريب السودان إلى مصر، فقرر إنشاء خط للسكك الحديدية بين حلفا والخرطوم، إلا أن ميزانية مصر لم تمكنه من إخراج المشروع إلى حيز الوجود.

كان سعيد باشا قد اصطحب معه أراكيل بك الأرمني، وعندما نظم المديريات، عزل على باشا شركس وعين أراكيل بك حاكما للخرطوم، وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة، وقد أنكر مشايخ الشكرية وغيرهم على سعيد باشا تعيين نصراني من غير دينهم حاكما عليهم، فأبو مقابله وجمعوا جموعهم للثورة عليه، فركب أراكيل بك هجينه وسار وحده حتى أناخ بين يدهم، وقال "أن كنت أنا السبب في عصيانكم فما أنا بين أيديكم افعلوا بي ما شئتم، على أن تعودوا إلى الولاء، إذ يعز علي أن تخرجوا عن طاعة ولي أمركم بسببي، فعجب زعماء الثورة على جرأته وحسن أسلوبه وطابت نفوسهم، ورجعوا عما عزموا عليه، وصحبوه إلى الخرطوم، وعلم سعيد باشا خبر الحادثة، فبعث في طلب زعماء الثورة، فأرسل له الشيخ أحمد أبا سن شيخ الشكرية، والفقير إبراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار، فسجنهما في الإسكندرية مدة ثم أفرج عنهما وأرجعهما إلى السودان بعد أن حلفا يمين الطاعة. ناعوم شقي، تاريخ السودان، دار الجبل، بيروت، طبعة 1981، صفحة {229/228 / 221}

- "العفو يا ابا". قبلت يده، وقد أوجد العالم لها أبا حين عز الأب.
- جهزوا أغراضكم وتعالوا. استطرد موجهاً حديثه لزوجها:
- "كلم مرتك يا حسن".
- حالاً يا عمى.

تبادلَت النسوة الوداع، وبكين، وحباب تقول: "وين أروح أنا، هسه أجي؟".

سأل الشيخ ابنته: "هادول نسوان الضباط العراقيين". ونادى زوج ابنته:
- "يا احمد يا ود سليمان، كلهن ينزلوا في ضيافة الشكرية"، وأضاف
مشدداً: "ما يرحن ثكنات الجيش، هسه نبعت الحنطور يجيبهن.
انطلقت العربية تشق شوارع الخرطوم، وفي حي "حلة الصبابي" المخيم
بالأشجار، اقتحمت حباب بوابة الدار الكبيرة، وهي تولول وتنادى أمها:
"وينك يا أمي".

جمع البكاء والضحك والعناق والقبلات فرح العائلة، والأب يشاهد
زوجته وأبنائه ويضحك.

من الدار الواقعة في الحي الذي يرتوى بريح الصبا، خرجت عربتان
مطهمتان إلى الميناء، لتحمل عائلات الضباط من المرفأ، لتنزل في ضيافة
كرم القبائل العربية العريقة.

* * * *

شقت الأورطة التاسعة شوارع الخرطوم، التي اختارها الميرلاى عثمان بك
جر كس البرنجى مقراً للأورطة الخامسة التابعة لحملة محمد على باشا،
لموقعها الكائن على رأس دلتا النيلين الأزرق والأبيض، ثم جعلها خورشيد
باشا عاصمة للسودان، فأحضر المهندسين والحرفيين من مصر لإعمارها،
وأقام الجسور لحمايتها من الفيضان، وأعاد تخطيط أحيائها، وتشبيد
أبنيتها الحكومية على نمط المدن الحديثة.

سار العسكر في صفوف متراصة إلى ثكنات الجنود بحى
العرضي⁽²⁾، تتقدمهم الأعلام والموسيقى، وسط زغاريد النساء، وتهليل

(2) العرضي: الجيش

الأطفال، يقلدون سير العسكر على الطبول والنقارات، وعلى سلالم الميناء الحجرية جلس المرضى، بانتظار عربات تقلهم إلى مستشفى الخرطوم العسكري، والخلق تفر من حولهم، وكأنهم يحملون الطاعون، في الظهيرة حضر شعبي وشمروخ ومعهما عربات تجرها البغال.

قبل مغادرة القوات ماعون الجند، أنتحى الشاويش مسعد بالباشا الصغير، وطلب منه وهو يضحك أنه يريد ألا يقضي فترة إقامة الأورطة في الخرطوم، وسط ثكنات الجند.

- عاوز تقعد فين؟
- عاوز أخذ بيت أنا ومبروكتة.
- لية؟
- يا افندم أنا لسة مدخلتش دنيا، البت "معصلجة" مش عارف لية؟
- طب والبيت ح يعملك آيه؟
- أهه.. نروق ونستريح، والباقي على الله.
- شعر فوزى بأوداجه تنتفخ، وفكر أن هذا سيسهل عليه أيضا اتصاله بالمرأة الصغيرة:
- وماله.. طيب ح أشوف يا مسعد.
- الله يعمر بيتك يا سعادة الباشا، ويعلى مراتبك كمان وكمان.

* * * *

أمام بوابة المستشفى الذي غص بالجرحى من محاربي القبائل الموالية للحكومة، رفض الحرس السماح لهم بالدخول قبل موافقة المدير، في مكتب القومندان تلقى شلعي من البكباشى طبيب يوسف الدمهوري رفضا قاطعا، قال إنه لا ينقصه وسط الحرب الدائرة، سوى أن يسمح بدخول الشفخانة⁽³⁾ جيش من الدوسنطاريا، رجاء شلعي أن يجد حلا لعلاج جنوده، نصحه القومندان بإقامة معزل طبي في ماعون الجند، وسوف يوفر له الأطباء والأدوية اللازمة.

(3) شفخانة: شفاء خانة، مستشفى في اللغة التركية.

في مكتب الأفراد لاحظ شمروخ أن الصول الجالس على المكتب ينظر إلى شلعي بتمعن، وبؤبؤ عينيه يدور في محجريهما، وكأنه يرى الموت يصعد من مقابره، أنهى كتابة الأدوية المطلوب صرفها، وقام يدور حول نفسه في حاله مشوشة، سأله شلعي بجفاء:

- مالك يا حضرة الصول فيه حاجة غلط؟ خلصني عاوز أرجع الأشلاق.
- قدم الصول كرسيًا للملازم وطلب منه الجلوس:
- "صنقريا زول"⁽⁴⁾، هسه قاعد؟.
- ما أنا قاعد قدامك.
- من وين تجي؟
- جرى أيه يا حضرة الصول حتفتح معاي تحقيق؟
- "أعذرني يا زول واشرب الجبنة"⁽⁵⁾.
- عبد الميبن أفندي شلعي. هذا اسم حضرتكم؟
- أيوه.
- عبد الميبن أفندي أنتم من السودان؟

* * * *

4) صنقريا زول: تعني في اللهجة العامية السودانية اجلس يا رجل.
5) الجبنة: تعني القهوة في اللهجة العامية السودانية.

الدار الكبيرة

بعد أن أصبح حاكما للخرطوم، شيد أحمد بيه أبوسن ناظر نظار الشكرية الدار الكبيرة من الطوب الأجر المنقول من بقايا مدينة سوبا، والأخشاب التي وزعها موسى باشا حمدي⁽⁶⁾ على الأهالي، استنكر إخوته الأمر، فقال بسخرية "ما عاد يليق العيش في زرايب، صار الشكرية أرباب حكم، ولازم يا زول يكون لهم دار في العاصمة"، عندما وافته المنية أوصى أخيه الأصغر عوض الكريم⁽⁷⁾ باستكمال بنائها.

في صحن الدار الكبيرة نُحِرت الإبل، وسط صراخ الأطفال وعراكمهم، وصخب النساء الصغيرات وضحكاتهن، وارتفع دخان المواقد، وانهمكت الإماء تحت إشراف سيدة الدار "أم الزين"، في صنع الطعام⁽⁸⁾.

تغمض مريم عيونها وتبكي فريدة وهما تريان فورات الدم تنطلق غزيرة من نحور البقر، تطيب أميرة من خاطر ابنتها، وتجري فريدة غاضبة تدفن رأسها في صدر أمها، وهي تشير إلى خوار بقرة ذبيحة وتقول: "سامعة يا أمي تبكي، البقرة تبكي"، تمسح ألفت دموع ابنتها، بينما تهدل الدموع من عيونها.

وفي زرائب الدار الخلفية يقف جعفر وسط أبناء عمومته فخورا بنفسه، وبأبيه القوم ندان البحري، يكأيدهم بأنه المسافر إلى البراري والغابات، ليصطاد الوعول والغزلان، ويقاتل الأسود والنمور، وأنهم ليسوا سوى رعاة بقر وأبل، ما يتسبب له عن أذى شديد، فعدلان ابن خاله عوض الله لا يقبل بأن يهدد غريب زعامته لأطفال الدار، يتقاتلان، يقاوم جعفر بضراوة خصمه الذي يكبره بأعوام، يأمرهم عدلان بأن يجتمعوا عليه، تدافع عنه مريم وفريدة، ليأتي دورهما في العقاب، يطلب جعفر أن يتحملة عنهما:

6 (موسى باشا حمدي: حكام السودان السادس عشر (1863-1865) قدم خدمات جمة، وقابله أهل البلاد باحتفال عظيم، وأرسل إلى المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها فعقد معهم مجلسا وسن قوانين جديدة، فجعل منهم نظار أقسام ومعاونين، وأعطى كل فلاح "سركيا" بيده ليعلم ما عليه من ضرائب، فتحسنت جباية الأموال، وقمع عدة ثورات في كردفان ونقلي، وأوقف تعدى الأحباش على الحدود، وحصن مدينة (القلابات) وأقام حولها استحكامات منيعة وحصنها بالمدافع وأورطتين من عسكر الجهادية. نعوم شقير، تاريخ السودان، دار الجيل، بيروت، طبعة 1981، صفحة 230

7 (عوض الكريم أبوسن: حصل على رتبة الباشوية عام 1872، وكان له الفضل في تأمين سنار من تمرد أنصار المهدي الذي قاده الشريف أحمد طاه، وهدد به "أبو حراز" في مايو 1882.

8 (أطباق الطعام سودانية: مقزوك واللاينوق والويكة والروب، والكمونية والجقاجق والشفناش:

- يا ود الشكرية الكثرة تغلب الشجاعة.
- "وشنوفيه يا ابن المصري؟".
- "أنا من ود الشكرية، وجدي جعفر الطيار، يا عدلان يا ابن عوض
الله".

يظهر شبح لشخص قادم، يختفي الفتیان، يكتم جعفر ألامه، ويطلب
من الطفلتين ألا تخبرا أمه، ترى حباب أبنها يخفي دموعه، ويمشي وهو
يتأرجح كمن يسير على الجمر، تصاب بالخبل، توشك أن تقتل الجميع،
يتوارى أبناء العمومة من شراسة عمتهم، وهم يتوعدونه بالعقاب، وهم
يعبرونه بمن يحتمى بالنسوان.

يفادر الرجال إلى الشكنات، تدفع "أم الزين" ابنتها إلى الشونة، تهدر فيها:
- "إيش تسوى يا بنية؟".
- شنو يا أامي.

- خدي صحباتك السوق، اشترى اللي يعز عليك تلاقيه في بلاد السود،
خديهن "ضوخانة زنانة"⁽⁹⁾، روجي عن نفسك وعن صحباتك.

تابع الملازم أحمد سليمان صيانة سفن الحملة، وقد تحولت المنجرة⁽¹⁰⁾
إلى ساحة عراق، بين ورش النجارة والبورجية⁽¹¹⁾ وورش القلفطة⁽¹²⁾، وقف
يشكو حاله لقومندان الترسانة، الذي عنفه:

- "محدث فاضيلك. شنو! أنت يا زول، أحمد ربنا، أنى سمحت لك تدخل
أحواض الصيانة". وأضاف: "أنت نسيب الشيخ إدريس بيه أبو سن؟".
- نعم حضرتك. جنابك لازم تساعدني، السفن حالتها سيئة.
- "خلص صيانة هياكل السفن هنا، وكمل الباقي في ترسانة (ود
شلعى) القديمة".

* * * *

9 (ضوخانة زنانة: حمام النساء.

10 (المنجرة: ترسانة الخرطوم البحرية أقامها خورشيد باشا لصناعة السفن، أطلق عليها
الأهالي (المنجرة)

11 ورشة البورجية: ورشة ثقب الأخشاب.

12 (القلفطة: حبال قطن منقوع في زيت جوز الهند، توضع بين الألواح الخشبية للسفن لمنع
تسرب المياه.

اقتحمت النساء سوق الخرطوم كإعصار، تجولن بين سوق البلح
والبخور والعطور، وفي سوق القماش ابتعن ثوبا سودانيا من الحرير، في
الظهيرة دلفت حباب بهن إلى حمام النساء، ترددن لكنها زجرتهن:
"شوفيكم يا بنات، ما تريدون فتنة راجلكم؟".

كان استنكارا يصعب مواجهته، جلسن في قاعة الحمام، وحباب
تنبئهم بالهول القادم، هسه تيجى البلانات، حبيباتي الحلوات، من منكم
تبي تدير حلاوة".

- حلاوة! -

قالت بلهجة تعليمية ساخرة: "نحن السودانيات نعمل الحلاوة بطريقة
جميلة، ننظف جسمك وبتعطيك نعومة ولا أحلي.

تدافعت الشقيقتان صفية وسنية جوارها: "أنا.. أنا.."، وحباب تقول:

- "كلكن بإذن الله وبمشيئة الله وعلى بركة الله، من أجل خاطر
الزول المسكين راجلكم".

دخلت الإماء حاملات إناء به سائل له لون العسل الذهبي، دفعت فرانسوا
البلانة عنها، هتفت حباب: حبيبتي أنت اللي خسرات، لك حق، ما أنت
ماليكيش راجل، عشان تصيري حلوة وناعمة.

نهرتها فرانسوا، وطلبت عودة الجارية ثانية، واندمجت معهن، يرحل
الأم وتحل بشرة ناعمة مدرجة بحمرة الورد.

وسط البخار الساخن جلست النسوة في مناشفهن، مستسلمات للارتخاء
الجميل، وحباب تقطع الفاكهة، وتقول بنبرة هادئة:

- "هسه أسوى لكم الدلكة، تخلى بشرتكم كيف رقة الياسمين".

- الضلكة".

- "الدلكة"، شوفي يا حبيباتي الحلوين، ما سمعتن عن المثل السوداني
اللي يقول، "ما في مرة تمت دلكتها".

- "بتقولى إيه يا خالتي؟"

انهمكت حباب في خلط الفواكه، وقد خيم على المكان سحر عالم
ألف ليلة وليلة وقالت: "صلوا على النبي الكريم"، غابت النساء في فتنة
حمامات الشرق، وأجبن: "عليه ألف صلاة وسلام".

- تحكى لكم حباب بنت الشيخ إدريس بيه أبوسن، حفيدة جعفر الطيار، من هاجر الهجرتين، وأقنع نجاشي الحبشة باستقبال المهاجرين، وخسر ذراعيه وقدميه، فأخبره الرسول: إن الله أبدله جناحين يطير بهما في الجنة، صلوا على النبي العدنان.
- عليه ألف صلاة وسلام.

- هسه يا نسوان الضباط العرباين، أحكي لكم كيف المرة السودانية تسحر راجلها، وتخليه يوم الدخلة خاتم سليمان في صابعها، هادي "دلكتة المحلب" من أذكى وأجمل الدلكات، ومستحيل تتزوج مرة سودانية من غير دلكتها، تاخدها معها من بيت أبوها لبيت جنازتها، قصدي عرستها.

وضعت الإناء على النار، تقلب ما فيه: "دلكتة الدخلة" يا حرائر العرب، يا بنات المسلمين أول ما تستخدمه العروس وين ما تدخل غرفتها، ويتمدد العريس في ليلة دخلتها، وهو في شوق لفتنتها، تستحي عنه كيف ما نصحتها خالاتها، وتمد تجيب زبديّة⁽¹³⁾ فيها دلكتة المحلب، تدلك بيها صاحبنا الغلبان، ظهره شوية وصدره شويتين، ويا ويلي على مفعول هادي العطر على المسكين، ما يشم رائحته، ويشعر بأيدين عروسته، نهدها يحتك مرة في صدره، مرتين في ظهره، طبعاً يا بنات من غير تقصد، أيوه ما تكونوا سيئات النوايا يا حلوين.

- يحصل إيه يا خالتي؟

- أصبري يا حبيبتي؟

توزع عليهن الدلكة: هادي (هيبّة)، حاسبي على بدنك يسبح وعضمك يشف يا سنية.

- أزاي يا خالتي؟

- لما تصير بشرتك كيف الزبدة الناعمة، ويحضنك راجلك راح تسخني، وطبعاً ح تسيحي عليه يا عينية.

تنفجر النساء في الضحك، تستفيق سنية من غفوتها، تهمس بصوت ناعس: "كملي يا خالتي".

(13) زبديّة: إناء لتناول الحساء

كان الضحك هذه المرة عارما، فقد استكثرن على تلك المرأة الرقيقة،
الضامرة، الصغيرة العينين، أحلام الشبق الأنثوي، لكنها لم تأبه بهن:
- "يضحكوا على مين، عاملين مؤدبات، الحب مفيهوش أدب يا خالتي".
- يا حنينة يا موزة، يا بخت محمود افندي العجيمى.
أجابتها بنبرة تمثيلية: "تشكرات كثيرات يا خالتي".
- "أما بعد يا بنات الأصول، فإن العروس اللي أوقعت نفسها في شرك
الصيد، وكل ذنبها أنها نفذت وصية خالاتها بلعب دور الضحية، فينقلب
عليها عريسها انقلاب عزيز مقتدر، يأخذها في أحضانها، وقبل أن
تستوعب ما جرى، تسقط الزبديّة من أيدين الصبية، وتندلق بقيّة
الدلكة، وكيف ما قال أهل السودان، ما في عروس تمت دلكتها".

في الليل انفرطت النسوة من حول فرانسوا، تابعتن تتسرين خلصة،
وتختفين داخل القيعان المغلقة، حيث وقف الرجال يخلعون عنهن أثواب
الحريز، تتفتق عن أديم مترع بالعطر، وأبدان مشتعلة باللذة.

خفف أحمد عن جسد زوجته ثوبها، وشرع يخلع قميصها، دفعته،
وقامت تحمل ابنها النائم، وهي تتوعده بألا يغتاله النوم، والاستغتاله هي،
تسللت لتضع الصبي بجوار أمها، سأل أبوها: "منو هذا؟".

قالت والخجل يعتصرها: "جعفريا باتى يبنى ينام في حضن جدته".
في الرواق الخارجي اصطدمت بها أميرة تحمل ابنتها مريم، وهي تسألها
بوقاحة: "أحط البنية دي فين؟".

- هانتها.

أخذتها حباب وعادت إلى حجرة نوم أبيها، طرقت الباب ثانية ودخلت
تضع الطفلة في صمت جوار أمها، لمحت الأسنان اللؤلؤية لأبيها يسألها:
- "ومنو هادى؟".

- مريم بنت حسن.

وخرجت تجرى والخجل يعصف بها، هذه المرة لم تسطع أن تكتم
الضحكة الهادرة التي عصفت بها، كانت ألقت تقف في الرواق الخارجي
تحمل فريدة، أخذتها حباب وهي تردد لنفسها: "يا كسوفك يا حباب شنو
أقول لباتي"، لكنه أعفاها من السؤال، وترك الفراش إلى كنبه مجاورة،
وأدار ظهره وغط في النوم.

في الصباح خرجت النسوة من مضاجعهن وبشرتهن موردة بحمرة الدماء
التي جرت في عروقهن ليلاً، وكل واحدة منهن تحمل الماء الساخن إلى حيث
يتحمم رجلها، وكلما التقت نظراتهن انفجرت في ضحك مكتوم.

* * * *

هذه ليلة المواجهة، فكرت مبروكة ابنة الحاج حسن سائس الخيول أنها
لن تستطيع أن تتفادى المحتوم، سوف يعلم ابن الخولي، وهما على بعد
الدنيا من قريتها أنها ليست الزوجة البكر، التي لم يمسه رجل من قبل.

كان ينهي حمومه، يغني مسروراً، جمعهما ظلام الليل، وبينما
كانت أفكارها المشوشة تأخذها إلى الصدفة التي جعلتها تشاهد سيد
القصر الصغير، يغادر مخدع زوجته مطروداً، لتراه قادماً كل ليلة وهو
يترنج من السكر إلى إسطبل الخيل، لكي يخفي عن الجميع ورطته التي
أوقعه فيها عدم قدرة زوجته الخاتون على تحمل هول ذكورتها.

وفي المرة التي سقط فيها غائباً عن الوعي، كان القين يغمر ملابسه،
أخذته إلى الداخل، ونضت عنه ملابسه، وغسلته، وهى لا تدري هذا الهول
الذي تروح إليه، ليستيقظ الباشا الصغير في أحضان ابنة السائس، وعندما
ولجها تلك الليلة والليالي التي تلتها لم يلقي منها معارضة، كذلك الصراخ
والغضب والألم الذي واجهه من "ورد الجنان"، ظنه رضي وقبول، بينما الأمر لم
يتعدى لدى ابنة السائس سوى الاستسلام لابن الباشا وصاحب السلطان،
الطيب مع خدمه، المهذب مع أبوها، أما الألم فلم يكن سوى مقدار
كستبان⁽¹⁴⁾ من جرة خضوع الخدم لأسيادهم.

لكن أول الليل (وللغرابية) مر على مبروكة بنشوة وسعادة عارمين،
وهى تقلبت بين زراعي شاب، يتناولها كحنطة قمح مغموس في العسل
الإلهي للحب، وعندما أشرق الصباح كانت على استعداد لاستقبال
الفاجعة برضا وقبول، بكل ما ينوي زوجها من الحكم عليها؛ الرجم،
الذبح، أو الموت غرقاً في النيل، لكنه أختفي ليعود في آخر الليل يمسح
عنها دموع الخطيئة بمشاعر الغفران، ونهر المحبة.

14 (كستبان: مقياس في حجم إصبع الإبهام

وطوال الأيام التالية وحتى مغادرة الحملة الخرطوم، لم يتمكن الباشا الصغير من الاتصال بها، وكان جنية العشق أخفتها في جزر "الواق واق السبعة".

* * * *

في الدار الكبيرة حاولت فرانسوا أن تتواري من بهجتهم، في عالم الوحدة، لكنهن لم يتركوها لوحشتها، ففي المساء اجتمعن حولها، أخذنها إلى حمام ساخن، ودهن جسدها بالطيب من البخور والدلكة، وقبل أن تؤذن مآذن الخرطوم لصلاة العشاء، لفت النسوة جسدها العاري في ثوب سوداني من حرير زاهي بألوان البهجة، فبدت مثل شجرة سرو يتوهج على قممتها وجهها الثلجي وعيناها الذكيتان، نظرت فرانسوا إلى المرأة بعجب وقالت بحزن:

- "والآن، هل ستقدموني هدية إلى رجالكم".

ترجمت ألفت عبارتها وهي توشك على الموت ضحكا، أصيبين بالغضب، وألقوها بكل ما تصل إليه أيديهن من وسائل، وهتفت أميرة: - "إذا أكرمت اللئيم!".

طالبتهن بالتوقف وهي تعتذر، طرقت حباب رأسها بطرف أصبعها: - "واياك أن تفكري والا ذبحتك"، تتابعن يهددونها بالويل لو فعلت. - "أحبوهم إلى هذه الدرجة؟"، والآن، ماذا سأفعل بما فعلتموه بي؟".

أعادت أميرة هندامها، وسوت صفيحة خصلات شعرها المطلية من الشوب الذي لف منتصف رأسها، قالت فرانسوا وهي تبتسم بعذاب: - "أخبريني ألفت، ما الذي سأفعله؟".

- إنه يجلس وحيدا في قمرته في الباخرة النيل؟
استطردت وهي تهز ساقها بتوتر: "تقدموني خدمة للقومندان؟".
قاطعتها حباب وقالت بحزم: "لا يا ستي نقدمه خدمة لك".
- أنت صعبانة علينا".

- "هيا الحنطور في انتظارك على البوابة، ياخذك الميناء، قارب بانتظارك، يوصلك الباخرة، والباقي عليك".

دفعته النسوة الصغيرات، والعربة تنطلق إلى الميناء، لاحقها صوت
 حباب ألا تخبره بما فعلن، وبسطت ألفت يديها كمن يبسط بساطا:
 - "مع السلامة يا كليوباترا".
 - "ماذا؟ وهل أنا ذاهبة لأنطونيو".
 - أنطونيو وقيصر ويومباي وكل أباطرة روما.
 - فكرتك عنى وحشة قوى.
 تحت المطر الغزير تسلل شبحا على ضوء النجوم ملتحفا بساري، إلى
 الباخرة، سمع اليوزباشي طرقات خافتة، كانت تخفي وجهها المبلل وتقول:
 - "من فضلك عاملني مثل هدية، جارية أنتك في ساري من الحرير".
 حملها بساعديه وألقى بها إلى الفراش مبقيا على طرف الساري في
 يديه، تدحرجت مغمضة العينين لتنضوي عن عري، حاولت أن تخفي
 بساعديها ما يمكنها منه.
 اقترب هامسا وهو يحتويها بجسده: "دعيني أعطيك".

* * * *



الشيخ المفوي عبد الرحمن

منذ الصباح الباكر تهيأت الدار الكبيرة
 لاستقبال عوض الكريم باشا ناظر نظار
 الشكرية، وحكم دار السودان وسنار السابق،
 انفردت أم الزين بزوجها وطالبت بالتدخل للإبقاء
 على زوج ابنتها في الخرطوم:
 - "قلبي مقبوض واكلمي على البنية، دير شيء
 قبل ما تندم".

انتفض وكان نار لسعته: "شنو زوج بنتك مو
 راجل، تبيه يحتمى في مرته"، نادى ابنته، يطلب منها أن تبقى معهم لحين،
 بكت حباب، هاجمته زوجته بنظراتها، فما بال الرجال بمشاعر النساء،
 ليبقى الندم يعصر القلوب، أمام المصير الذي أعده القدر لرجال الشكرية
 ونسائها.

توارد أعيان الشكرية، وحضر الضباط فى الزي السودانى⁽¹⁵⁾، دار الحديث عن الثورة العربية، قالوا إنهم تعرفوا على بعضهم أثناء انضمامهم للحزب الوطنى السرى⁽¹⁶⁾، بعضهم كان من حرس الشرف الذى حمل الدستور من الحكومة إلى مجلس النواب، وأغلبهم خاض الحرب ضد الغزو البريطانى تحت قيادة الأمير لاي محمد بك عبيد.

وحكى الشيخ "المضوى عبد الرحمن" من زريّة الشيخ إدريس ود الأرباب، ابن الأزهر الشريف، قصته مع المهدي، التي بدأت بعد انتصاره في موقعة جبل قدير، وأبىد فيها جيش الحكومة المؤلف من أربعة آلاف عسكري، الأمر الذي اعتبره الناس تأييد من لدن الله سبحانه، ودليل قطعي على عجائبه ومعجزات، هاجرت إليه كي أقف على الحقيقة، فوجدت حوله خلق من أخلاط الناس، فقهاء وعلماء دين آمنوا بأنه المهدي المنتظر، لا استرابة وارتياب، وخلفهم كافة العوام، ومنهم من رأى أنه ساحر، انتصر في الحرب باتصاله بالعالم السفلى، واستخدام الجن والعفاريت.

سأله حسن: يا فضيلة الشيخ، كيف حسمت أمركم؟

- ارتبت فيه، ما كان بالإمام العادل المنفذ لشرع الله، أبصرته يؤثر أقاربه وأخصاءه عند توزيع الغنائم، وبعض أعوانه عصابات تهاجم قوافل التجار، يقتلون خلق الله وينهبون أموالهم، وهو يعلم الأمر، فلا ينكر عليهم ذلك، ولا يوقع بهم القصاص، ولو اكتفي بأن يؤمن به من يؤمن، ومن لا يفعل فعليه وزره لهان الأمر، لكنه قال إن سيد الوجود أخبره بأن طاعته واجبة، وأن من لم يتبعه، وأنكره فهو كافر، ودمه هدر، وماله غنيمته، وتعلمون أركان الإسلام خمسة، ليس من بينها الإيمان بالمهدي.

سأله اليوزباشي -الذي كان على موعد قريب للقاء عبد القادر باشا- عن رأيه في حاكم السودان.

- رجل زين وعسكري مقدم، أحل الطمأنينة بين الأهالي، وأطفأ الثورات التي قامت في الجزيرة وسنار، يدعو عليه المهديّة بالقول: "اللهم يا قوى يا قادر أكفنا عبد القادر".

15 (الزي السودانى للرجال: جلباب أبيض وعمامة، وملفحة ومركوب.

16 (الحزب الوطنى السرى: تأسس فى حلوان وضم أغلب زعماء الثورة العربية، وأطلق أولى منشوراته فى 1878، طالب بإعادة الأملاك الخديوية إلى الحكومة المصرية، وإلغاء تخصيص عائدات السكة الحديدية للقروض الممتازة، وضم سائر الديون فى دين واحد تضمنه وتراقبه الأمة، ورفض التدخل الأجنبي فى الشأن الداخلى

على مدخل القاعة ظهر رجل ضخم مهيب الطلعة، وحوله عدد من المسلحين، تدافع أبناء الشكرية يقبلون يديه، قال الباشا:

- "شنويا إدريس تدير على "حزازير"⁽¹⁷⁾، صاروا جميعا سودانيين، وين ولاد أخوك؟

تقدم الملازمان يقبلان يده، مسد رأسيهما بمودة:

- "مرحلين على المديرية الاستوائية؟".

- "نعم يا سعادة الباشا".

- "مرحلين ولا منفيين يا ود سليمان".

- "يا سعادة الباشا ما يخفي عليك شيء".

- وأنت شنو رتبتك؟

قال أحمد سليمان بابتسامة ثقيلة تخفي شعوره بالحرج: ملازم.

- "شنو زوج بنتك هذا؟ يتقدم ولا يتأخر، مو قلت صار يوزباشي؟".

- "الثورة العربية يا باشا ما تركت له شيء".

تجهم ناظر الشكرية وسأل عن ابن أخيه الآخر، فقال الشيخ:

- نفس الطينة، شنو تقول في ود سليمان، شطار كيف أبوهم.

- "ومين في الشكرية (كد) أبوهم سليمان!، وهسه خبروني ليش الجيش يتمرّد على مولانا الخديوي؟

لاحظ الباشا النظرات المتبادلة بين الشقيقتين، فقال للأكبر:

- "اسمع يا أبني، اليوم ما في كبير ولا صغير، بدى أسمع جميع ولاد الشكرية، ها يا حسن إيش بدك تقول؟".

- يا سعادة الباشا العالم أتغير، والناس عندها رغبة في التخلص من الاستبداد، وبناء دولة حديثة، تنبذ سلطة الفرد، وتديرها سلطة منتخبة من عموم الناس، ولها مرجع أعلى فوق السلطات.

- يعنى إيه يا ود سليمان مرجع فوق السلطات؟

- يا عمى، في الدولة الحديثة المواطنون أحرار متساوون، جميعهم تحت القانون سواء. والدستور أسمى القوانين، حتى الخديوي عليه الانصياح له.

- وشنو دخل الجيش؟

- أحنا لا أتراك ولا عبيد مجلوبين، إحنا ولاد الشعب.

(17) حزازير: الغاز

- ها، أولاد الشعب، والدستور هذا سلطته فوق السلطان أمير المؤمنين،
وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

- "خليفة رسول الله إنسان يجوز له الصواب وعليه الخطأ.

ضحك الباشا ضحكة مجلجلة، يرى الأمر كطرفه:

- "يعنى أنتم يا ولاد سليمان تبودولة مفيهاش كبير!، هدا خطأكم
يا إدريس، ليش تركتم أخوكم يتزوج مصرية؟".

- "ما أنت تعرف يا باشا، كنا ندور في أبونا الشيخ أحمد أبوسن شيخ
الشكرية والفكي إبراهيم عبد الدافع، والناس ضيفونا وأكرمونا حتى
وقع سليمان في غرام الإسكندرية، ونسوان إسكندرية، شو نسوى أنا".

- "شنو أسوى أنا مع ابن أخوك الثورجى هذا، يريد تدمير أي سلطان، هذا
يحكموا عليه بالإعدام مو بالنفي".

- يا باشا أنت الكبير، وأمرك واجب النفاذ.

دخل العبيد يحملون العشاء، انكبوا يأكلون، والعقول مشغولة بما
سوف يأتي عقب العشاء، الذي بدأ بشجار، هاجم فيه الشيخ عبد الله ناظر
شكرية "القصارف" الحسيني، عندما أعاد المرة تلو المرة أن عرابي كان
مشغولا في مواجهة حصار البحرية البريطانية للإسكندرية.
- "يا زول، معقول هذا؟"

- الخديوي والسلطان رفضا مطالب الثورة برفع عدد الجيش.

حاول الشيخ إدريس التأكد من مخاوف بزغت لتوها:

- وهسه إذا الإنجليز يحتلون مصر، وين الجيش المصري؟

- بعد هزيمة الثورة أصدر الخديوي مرسوما عاليا بإلغاء الجيش المصري.

تراجع الباشا وهو يلقي برأسه إلى الخلف:

- أنتم منو؟ شو تسوون؟

خيم الحرج على العربابين، خطر لخلاف أن يقول: "نحن فلول جيش
مهزوم"، لكنه اكتفى بالقول إن ما يشغل مصر والسودان هو تحديث
البلاد، وبناء سكك حديدية تربط شمال الوادي بالبحيرات العظمى.

القولى هرب من الجدل الدائر، ومال على عوض الله ابن الشيخ إدريس،
وسأله بابتسامته التائهة أن يدلّه على ما خور يعج بالنساء، أجابه بتواطؤ،
"أن حي الحريمات يزدحم بالموخير".

فوزي هرُكتفيه متجاهلا الأمر، وتذرع بالقول إن السودان أكثر
غموضا من الثورة العرابية، هاجم ناظر شكرية القصارف الحسيني
- "حضرة اليوزباشي، هسه تقول مفيش جيش مصري يحمى السودان".
- لما استقرت الأمور أعاد الخديوي استدعاء الجيش، وأرسل إلى سواكن
خمسة أليات مصحوبة بطوبجية الصواري.
صاح الباشا: "أهه، عرابي باشا نسي السودان، وسمو الخديوي ما نسي".
شعر الضباط العرابيون بالأزمة، وكلما أوغل الليل ساد الوجوم، وبدأت
النهايات السعيدة بعيدة المنال، فالسودان لم يكن في حسابان الثورة، ولا
في اعتبار قادتها، كانوا منشغلين في بعث الفلاحين من شرنقة التاريخ.
فيما بعد غاب العزاب عن دار الشكرية، وأقام الحسيني في عرض
النهر، وأقنع الفولى حليم ومقلد بقضاء الليل معه وسط غوان يشتعن
بمجرد الملامسة، وصدرت الأوامر إلى فوزي وشلعى وشمروخ بالإبحار بخمس
سفن إلى الترسانة القديمة في مشرع "ود شلعى"، ما أعفا الجميع الإجابة
عن الاتهام الموجه إلى الحكومة المصرية بالتخلي عن السودان.

* * * *

على إيقاع دقات الدفوف، ارتفع ذكر الله في ساحة إحدى الخلاوي
بقريّة (الغيلفون)، تمايل ظلال المجاذيب والدراويش تحت المشاعل،
يهتفون بذكر الله الحي القيوم، والمنشد يهيم عشقا في مديح رسول الله
صلى الله عليه وسلم، تصدر الشيخ عمر الشلح في ردائه الأزهرى ضبط
الإيقاع، تقديرا لنزوله في ضيافة صديقه، ورفيق دراسته في الأزهر
الشريف الشيخ المضوي عبد الرحمن، وكان قد عاد إلى قريته هو وأسرتة
هاربا، بعد أن التحق بالمهدي فيما أسماه دار الهجرة في (قدير)، بعد انتصاره
على حملة الشلالى، ثم تراجع عن ذلك.

كان الشيخ عمر الشلح، قد اصطحب معه زملاءه من أئمة الحملة،
وكانوا يتيهون بالذكر وقد بلغوا من النشوة في الوجد الإلهي منتهاه،
وخاصة أن مضيفهم غمرهم من كرم السودان فيض من المحبة، ومائدة
عامرة بالذبائح، وهو لا يتوقف عن استدعاء ذكرياته عن حيته مجاورا

للأزهر الشريف، ورواق المالكية، والحياة في دروب القاهرة المعز لدين الله، حتى دخل عليهم رسول من الشيخ أحمد عبد الغفار من عرب كنانة (كركوج)، وكان أحد اتباع المهدي، فنهروهم عن فعل المعاصي، واتباع البدع التي نهى عنها خليفة رسول الله الإمام المهدي، وانتحي بالشيخ المضوي في حجرة، ينقل له دعوة شيخه للعودة عن مخالفة الإمام المهدي والهرب من صحبته.

دار حديث طويل وجد الشيخ عمر الشلح نفسه متورطاً فيه، ارتفع الصياح في ساحة الذكر قادمًا من الداخل، توقف الحضور، ووقف المشايخ على باب الحجرة يستمعون إلى الجدل الدائر بين الرسول وكبير مشايخ الحملة:

- كيف بالله تدعوا المسلمين للامتناع عن ذكر الله.

أجاب الرسول موجهًا حديثه للواقفين على الباب: نعرفكم أيها الحباب أن الإمام المهدي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاتم الأولياء على الإطلاق عند أهل الظاهر والباطن، ومعلوم عند جميع أهل البصائر، يأمركم بترك الطرق والامتناع عن البدع.

قاطعته الشيخ عمر، فمن هو الذي يعلم شيخ أزهرى حاصل على العالمية الأزهرية صحيح الدين؟

- لو أمعنتم النظر لعلمتم أن الأمر واضح كالشمس، فمولانا وإمامنا على نور من الله وتأييد من رسوله، وموعود بأنه من يرفع المذاهب ويظهر الأرض من الخلاف، ويعمل بالسنة، حتي لا يبقى إلا الدين الخالص فتنبهوا، وافتحوا قلوبكم وتوقفوا عن جميع الطرق والبدع الشيطانية، وتوسلوا بالإمام المهدي عليه السلام، وعضوا عليه بالنواجذ.

- أعلم أن ما تقوله أنت هو الرجز عينيه، فليس لديكم على المسلمين حجة، والدعوي بأن شيخكم تلقى الأمر من الرسول في المنام، مخالف لظاهر الشرع، والمهدية ليست نبوة أو رسالة وغايتها الخلافة، فأنكارها لا يوجب كفرًا ولا خروج عن الإسلام.

انفجر الرسول بالغضب: يا علماء سوء تصومون وتصلون وتتصدقون وتدرسون ما لا تفعلون، فما سوء ما تحكمون، تتباهون بالقول، وتعملون

بالهوي وجلودكم وقلوبكم دنسة، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقطع عنها رغبته، بحق أقول لك، أفسدتم آخرتكم بفساد دنياكم

تدخل الشيخ عبد المعز يهدئ الشيخين، ويوزع مسكرات، على الحضور، وهو يقول: يا عمنا، يا مولانا الدين دين الناس، والإسلام دين الدنيا والآخرة، وعلى الدعاة أن ييسروا ولا ينفروا، يا سيدى فيها فيه أية لما نذكر الله، فيها أية لم واحد يسلم روحه في محبة الله، أنا أحاسبه؟ أنت تحاسبه؟ لا يا مولانا.. الحساب حساب المولى عز وجل.

- يا صغير ح تعمل شيخ بجد.
- الكلام ملافظ.
- أنا أقول الحق، والحق ما فيه حلو ووحش.
- كده، طيب، سمعت حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، "لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارا، ولا الناس إلا شحا، ولا تقوم الساعة ولا على شرار الناس، ولا مهدي معصوم إلا عيسى بن مريم"
- يعنى لا مهدي إلا عيسى، ويمكن لا يوجد مهدي مطلقا.

* * * *



يوم وطأت أقدامه الخرطوم في 11 مايو 1882، كان أول ما شاهده رأس الشيخ الشريف أحمد ود طه السمانى، معلق على أبوابها، والمدينة خاوية من الجنود، عارية بلا دفاع ولا تحصينات، تفتشر حولها الثورة كالحشيم، يترصد بها الذئاب للانقضاض، والخوف والرعب يعصف بأهاليها، بعد أن أرسل جيكلر باشا حكامدار السودان السابق حاميات العاصمة والجزيرة وسنار، لدعم حملة الشلال.

وسط هذا البحر الهائج فتح الفريق عبيد قادر باشا حلمى خرائطه، يبحث عن مكان مناسب لتحسين موطأ أقدامه، استدعى من شرق السودان ست أورط من الجنود النظامية، وأنشأ ست أخرى من السود، دربها بنفسه، بعد أيام حمل البرق نبأ رفع الشيخ محمد الزين فكى⁽¹⁸⁾ التكارنة راية المهدي، وزحفه في جموع هائلة من عربان "رفاعة الهوى" على سنار، فأرسل السر سوارى على أغا كاشف ومعه ألف من العسكر المدربة، فأوقع به في أبو شوكة هزيمة قاسية، وعاد برأس الشيخ محمد الزين إلى سنار.

كانت تلك أول انتصاراته، لكن البرق حمل هزيمة يوسف باشا الشلال في جبل الجراد، والتي خسرها الجيش ثلاثة عشر بلوكا من العساكر النظامية وألف وخمسمائة من

(18) فكى: فقيه



الإمام المهدي

محمد بن أحمد بن عبد الله بن فحل

الباشبوزق⁽¹⁹⁾ والخطرية، وكان المهدي قد خرج في فجر الاثنين 29 مايو 1882 شاهرا سيفه، يكبر ويقول، "أتانا الخبر من سيد الوجود بأن توجه الجيش للحرب، وأن نكون يد الله ومشيمته في قتل أعدائه"، وهاجم زريبة الشلال بخمسة عشر ألف من أنصاره فتمكنوا من أخذ عسكر الحكومة وهم مستغرقين في النوم، بعد أن أمضوا ليلتهم في بناء الخنادق والتحصينات، واستيقظوا والأنصار يعملون فيهم قتلا.

هوفن التحصينات المنيعه الذي برعت فيه العسكرية المصرية، وجغرافيا الخرطوم الواقعة على رأس مثلث ضلعاه النيلين الأزرق والأبيض، رأى قاعدته الجنوبية مفتوحة على الخطر، فأعطى أوامره إلى بوزباشي أركان حرب خليل فؤاد بخلق هذا الجرح المفتوح، بإنشاء خندق يصل النيلين، وحصنه بأبراج مساحه بالمدافع والحرس، وفي اليوم الذي أنهى تحصيناته، ذهب الخوف عن قلوب الأهالي وعادت الطمأنينة والأمن للمدينة.

وإزاء رغبة اتباع المهدي التي تهدأ في الاستيلاء على مدينة السودان الأكبر والأقدم، قرر تحصين سنار، فأرسل خليل أفندي فؤاد على متن الوابور "البردوين"⁽²⁰⁾ ومعه عشرات البنائين وأدواتهم، وقام بإنشاء سور عريض يضم مزاحل لإطلاق النار، وخندقاً عمقه ثلاثة أمتار وعرضه متران، وخلفه زرباً⁽²¹⁾ قويا من الشوك، ثم أعفى الأتراك من القيادة، لعدم تحملهم المسؤولية، ووضع بدلا منهم أبناء السودان.

19) الباشبوزق: عناصر تألف منها الجيش قبل قيام محمد علي باشا بتحديث الجيش المصري، معظمهم من الأكراد والألبان والشراكسة الذين يطلق عليهم (باشبوزق) أي، الجنود غير النظاميين، كانوا يميلون إلى الشغب والفوضى، غير خاضعين لنظام عام أو تدريب ثابت، وإنما كانت أعمالهم عبارة عن حرب عصابات وكر وفر، كان تنظيمهم خاضعا للانقلابات السياسية التي أملت الشورات في الولايات العثمانية، والمعارك والاختلافات التي الفتها حياة الممالك أثناء القرن الثامن عشر.

20) البردوين: أول سفينة بخارية تابعة للحكومة المصرية عملت في السودان، وفي أعالي النيل

21) زربا: سباح أو سور.



الفريق عبد القادر باشا حلمي

كان الدفاع عن سنار معركة الفريق عبد القادر حلمي الكبير، وعندما زحف عليها الشيخ أحمد المكاشف في عشرة آلاف من الأنصار، راعه تحصيناتها، فراجع متوجها إلى مشرع الداعي علي بعد 20 ميلا من سنار، فحاصرها وقطع عنها خطوط التلغراف والبريد .

وأمام الحرائق المشتعلة غادر عبد القادر باشا الخرطوم في 2 يناير 1883 على رأس ألف وستمائة من العساكر النظامية، وألف من الباشيزوق، فالتقى الفقيه فضل الله ود كريف عند غابة قرب معشوق، وأوقع به هزيمة نكراء، وقطع الجزيرة إلى "كوة" على النيل الأبيض، وأرسل قواتها برا إلى ود مدني على النيل الأزرق، ونزل في الوابور إلى الخرطوم، فضم العسكر الذين درهم من السود، وصعد النيل الأزرق في الوابور حتى بلغ مشرع الداعي في 24 فبراير .

خرج الشيخ أحمد المكاشف المقاتل، فوجد القوات الحكومية في انتظاره، كبر الأنصار، وهجموا يرفعون سيوفهم ورماحهم، وقد تجاوزت أعدادهم خمسة عشر ألفا، تلقى القوات الحكومية برابطة جأش، وتبادلت صفوف العسكر إطلاق النار بانضباط تام، والأنصار يتساقطون، وخلال ثلاث ساعات بلغت خسائرهم الآلاف بين قتيل وجريح، فأطلق الشيخ المكاشف نفي الانسحاب وتراجع مهزوما إلى جبلي (سقي ومويه)، وانتصرت القوات الحكومية وكانت خسائر عبد القادر باشا سبعة وعشرين جرحا، ولم يقتل أحد .

أمر عبد القادر باشا نائبه صالح بك المك بمطاردة الشيخ أحمد المكاشف فقصدته في جبلي (سقي ومويه)، ودارت في 2 مارس 1883 معركة تلقى فيها أنصار المهدي هزيمة ثقيلة قتل فيها المئات، وحملت القوات الحكومية رأس الشيخ

عامر المكاشف وصهره على رؤوس السناكى، وعلقت في سوق سنار، وفر أحمد
المكاشف ومعه من فر الوادي برحوب في الجبلين، وهم يدعون الله:
- "يا رب يا قادر أعفنا عبد القادر".

وهو ما كان، فقد استجاب الله لدعاء الأنصار، وجرى عزله، وتعين علاء
الدين باشا حكامدارا للسودان.

* * * *

غادر الحسيني الميناء، لاهيا عن طرقات سنابك الخيل، وقرقعات العجل،
يفكر في لقائه المرتقب مع حكامدار السودان، أفضل قادة فن التكتيك
والتحصينات، ما جعل الكثيرين يتساءلون عما دفع الحكومة إلى نقله
إلى الخرطوم، والبلاد على حافة حرب مع بريطانيا، ولماذا قررت عودته من
السودان، والمهدية يوشكون على دخول الخرطوم.

عبر سوق القش⁽²²⁾، وحي الحريمات، والجامع القديم وسوق الشمس
المغطى بالرواكب⁽²³⁾، حتى بلغ حي موسى بك⁽²⁴⁾، حيث ظهر العلم
المصري⁽²⁵⁾، يرفرف على سراي الحكومة⁽²⁶⁾، التي كانت أعجوبة
الخرطوم، والذي جزم زوارها من العرب، بأن الجن شارك المصريين في بنائها.

سلم اليوزباشي البريد للفريق، ولم يمض وقت حتى اكتشف أن الباشا
مثل جميع من التقاهم في الخرطوم، يبحث عن إجابات شافية لأسئلة
يصعب الإجابة عليها؛ ما هي نوايا الحكومة المصرية تجاه السودان؟ وفي

22 (سوق القش: يضم تجارة أعلاف الخيول وسلاح الصواري

23 (الرواكب: المظلل بخشب النخيل والدوم

24 (حي موسى بك: أقدم أحياء المدينة، سكنى الطبقة الراقية من الموظفين المصريين
والترك والأجانب، يضم القنصليات وإرسالية التبشير الكاثوليكية

25 (العلم المصري: علم أحمر، بوسطه الأهلة الثلاثة ونجومها البيضاء ترمز إلى
مصر والنوبة والسودان.

26 (سراي الحكومة: شيدها خورشيد باشا، وأعاد الحكمدار عبد اللطيف باشا بناءها
بالأجر المنقول من بقايا مدينة سوبا.

النهاية أمسك الباشا رأسه متعبا، وغمغم يحدث نفسه، أن الخديوي الذليل ضحى بالدماء المصرية الغزيرة التي سالت على أرض السودان، وأضاف بنبرة أبوية: "حسيني أفندي، عليك أن تسافر إلى أعالي النيل وأنت مؤهل لخوض المعارك، وإذا هزمت في معركة، فلا تتخلى عن النصر في المعركة التالية".

وأضاف: "هذا الوادي شماله وجنوبه ملك أبناؤه، مصريون وسودانيون سواء كانوا عرب أو أفارقة، هذه الحقيقة سوف تعلمها عندما تقف على خط الاستواء، سوف تشهد، بينما الجميع مستغرق في النوم، أغمص الباشا عينه متعبا، وقد جلى الحزن وقاره، وقف اليوزباشي حائرا، سمعه يهمس: "أنت لسه هنا".

- بانتظار أوامر سعادتكم -

- يلا يا أفندي انصرف -

رحل وسط ضباب الأسى، وقد زادت كلمات الفريق همومه، لا يوجد لدى المحاربين خيارات سوى النصر أو الموت، وهو الآن مهزوم فأين هو الموت؟

لم يجد بانتظاره
رايات خفاقة ولا برجي يصدح في
الفضاء بنوبة اللواء.
ولا تلك الطواير التي تقامر على شرف
قادة الثورات المهزومة ينظرهم التاريخ
بفتحة النبالة والتكريم وهم على
منصات الإعدام،
لينم تجريدة من سيفه المثلوم المكمل
بعار الجهل العسكري، ثم ألقوا به في
غرف الثكنات الخلفية دون اهتمام
يذكر، لنبق يبارق الهزيمة تخفق على
صفحات التاريخ.

هاجمه السؤال المعلق على رقبة
التاريخ؛ لماذا عاد عرابي باشا بعد ساعات
قليلة ليطلق ثكنات العباسية ويسلم
سيفه إلى قائد الخيالة البريطانية؟ هل
كان يعول على الشرف الأوروبي الذي
نسجت حوله النخبة من المتعلمين أحلام
التقدم والانعتاق الوطني، وأين هو الفارق
بين زعيم الثورة وبين الخديوي؟ هكذا
سيدي الفريق، أنا ضابط يحمل على
كاهله عار الهزيمة.

- وهذا نير ثقيل يا بنى، اذهب، ليكن الله في عونك.

* * * *

قبل الغروب أقلعت خمس سفن من ترسانة الخرطوم، متوجهة إلى ترسانة
"ود شلعي" القديمة، على مبعدة ظهرت ذهبيته تتبعها، وقد حلق على

قلاعها شبح يخفي وجه في وشاح أسود، وكأنه ملاك الموت، شعر شلعى برعدة، وهو يستعيد تلك الأطياف التي تطارده.

أمطره شمروخ بوابل من السخرية لوقوعه أسير ظنونه، لاحظا أن الملازم فوزي يستمع إليهما، وقد أخذه التفكير في أشياء غامضة.

في محلة "الجمالاب" اصطدم قاع السفينة "الأمير طوسن" بقاع النهر، ألقى الملازم عبد المبين شلعى جام غضبه على المعلم قناوي، جوارهم توقفت الذهبية التي تلاحقهم، سأل الشبح الذي أثار مخاوف شلعى، الرئيس قناوي: "على وين مبحريا زول؟".

- "بإذن الله على "ود شلعى".

- "في أمان الله، وعلى بركة الله".

* * * *

في بهيم الليل سمعت طرقات عنيفة على بوابة الخارجية للدار الكبيرة، بعد دقائق وقفت "أم الزين" تطرق باب ابنتها، تطلب منها أن توقظ زوجها وأخيه حسن، عندما أفقا وجدا ابن عمهما يطلب منهما أن يلحقا به.

نهبت عربية تجرها الخيول الطريق المحاذي للنيل الأزرق، عند محلة الكاملين عبرت النيل على متن معدية صغيرة، وعلى تخوم محلة (رفاعة الهوى) أوقفتها جماعة من المثلثين، وأشارت عليهم بتفادي دخول القرية، والعبور في حماية فصيلة من فرسان (الباشبوزق)⁽²⁷⁾ وصلوا "ود مدني" في الصباح الباكر، تناولوا الإفطار في خان على الطريق، ثم تحركت العربية باتجاه الشرق، فدخلت حلة "القضارف" عاصمة الشكرية في أول الليل.

كان هناك اجتماع يضم كبار أعيان ووجهاء مشايخ الشكرية، وعلى رأسهم جلس الرجال الكبار الثلاثة، عوض الكريم باشا ناظر نظار الشكرية، وأخوه علي أبوسن ناظر شكرية رفاعة، وأخوه عبد الله ناظر شكرية القضارف، شعر الضابطان بالحيرة: - سعادة الباشا إحنا مش عارفين إحنا هنا ليه؟

(27) الباشبوزق: خيالة من الأتراك غير النظاميين.

أزاح عبد الله أبوسن الشكوك، وقال إنه رأى أن حضورهما ينور الحاضرين. نظر الباشا إلى أخيه بنظرة غاضبة، وقال لهما:
- خلاص أنتم جيتم، وجودكم يفيد أهلكم.

كان السؤال المطروح على الشكرية؛ أي الجانبين يختارون؛ الحكومة المصرية التي جعلت للشكرية موقعا عظيما في الحكم، أو مسaire ثورة المهديّة الناهضة في عموم السودان.

قال الباشا إن التحالف مع الدرويش ليس مجرد اعتراف بنبوة المهدي، معناه الحرب ضد قوات الحكومة. قاطعه عبد الله ناظر شكرية القصارف: "والتحالف مع الحكومة المصرية معناه الحرب ضد السودان".

- وأنا ما نخسر دينيتي وأخرتي، وأتحالف مع كذاب، هذا ضد الدين.
- يا أخوي قبائل كثيره انضمت إلى المهدي.

- الحكومة المصرية أرسلت ثلاثة عشر ألف من العسكر للسودان.

- يا باشا، عبد القادر باشا يزحف على كراعيه يطلب استعفاءه، وقرار استعفاءه وقع الخديوي وأرسل بالفعل، حدث أحمد سليمان:

- "موهيك يا ود العم؟".
- "نعم، وتم تعيين علاء الدين باشا حكاما عام للسودان".

ساد الصمت، تنحنج ناظر رفاعته، وقال: "هسه مصير الشكرية كيف لعب القمار، إذا اخترنا الحكومة المصرية وانتصر المهديّة، ح ينكلوا بالشكرية، ح يبيعوا أطفالنا رقيق، وياخدوا نسوانا سبايا، وإذا انضمينا إلى المهديّة وانتصرت الحكومة المصرية نخسر موقعنا اللي بناه أجدادنا في ظل الحكم المصري، شنو نختر، على إيش نقامر؟".

أضاف ناظر القصارف: "وخصوصا إذا كان فرسان الشكرية سبب هزيمة الشريف أحمد ود طاها السمانى وتعليق رأسه على أسوار سنار".

صرخ الباشا: "تلومني يا ود أبوي، الحرب حرب، والقتل قتل، وإذا خرج السيف من غمده صار أعمى، ما يفرق بين الرقاب اللي يطولها، ولا الرؤوس اللي يحصدها، هسه أنت تشيع في صدور الشكرية الجبن".

مسد الباشا ذقنه، يحاول أن يهدئ من ثورته، أشار إلى الملازم حسن:
- "إيش تقول يا ود سليمان؟".

ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجه أحمد سليمان، وطلب من الباشا أن يهدئ من ثورته، لكن الباشا قاطعه، وقال باستياء:
- "أنا نحدث في أخوك الصغير. شنو اسمك؟".
- حسن يا سعادة الباشا.
- شنو تنصحن يا حسن، أعرف أنك ما تخاف تقول الحق.

كان اختيار الباشا لحسن غير مفهوم للجميع، وبدأ وكأنه يبحث عن نصير في حرب اختلطت فيها العقيدة الدينية بالعقيدة الوطنية، وصراع بين العمام والقبعات العسكرية، تحدث حسن سليمان دون مواربة:
- "مفيش قمار، لأنه مفيش اختيار بين دولة دينية ودولة مدنية".

لم يفهم أحد ما يقوله، استطرد بحماس: الدولة الدينية من الماضي، والدولة المدنية من المستقبل، وإذا اخترت لأولادي مستقبل ح يكون مع الدولة المدنية، لا دولة المشايخ ولا الفقهاء.

سأله عبد الله ناظر رفاعة بسخط: شنو الدولة هادي اللي ما فيها فكي، وشيخ وعالم دين، شنو كافر أنت؟!

طلعت عيني الباشا بالشرر: "أحسن القول يا ود أبوي، ما تنسى إنهم ضيفونا، وما تنسى حضوري"، وأضاف بتهديد: "والاتبى أقوم".

اهتز الحضور، وعنف على أبوسن ناظر شكرية رفاعة، أخوه عبد الله ناظر شكرية القضايف، الذي جلس ورأسه في الأرض، تحدث الباشا بغضب: "الكافر هذا اللي يدعى النبوة، ويتاجر في الرقيق، ويترك عصابته تسرق خلق الله، الكافر هذا تريد تزحف على كراعيك وتحط رقبتك ورقبة خوتك وولاد عمك ونسوانهم وعيالهم تحت مركوبه".

تدخل أحمد سليمان وتحدث في رزانة وحكمة: يا سعادة باشا ما في دولة خالية من فقيه وعالم دين، لكن أخي حسن يقصد موضوع مش واضح في القضايف، أنا وأخي شاركنا في الحرب الروسية، والواقع اللي عشناه في الحرب، يقول إن الإمبراطورية العثمانية ضعيفة وتنفكك، اكتشفنا أن داء بلادنا الاستبداد، وأن قوة الدول في حرية أولادها. وتحدث للجميع:

- السؤال المطروح هنا في القضايف، مالوش علاقة بالماضي ولا بالمستقبل زي ما أخوي حسن يظن، السؤال يخص الحاضر، يخص المأزق اللي ح يحول السودان إلى جحيم خلال السنوات القادمة، كيف ما قال الشيخ على أبو سن، على مين يراهن الشكرية، الحكومة المصرية ولا المهدية.

استطرد: "أنا ملازم بحري أحمد سليمان، اللي جدي جعفر الطيار ابن عم رسول الله، يقدر يقول بمسئولية، أن الخديوي توفيق رفع أيده عن السودان، ومفيش جيش يقدر يدافع عن السودان، مفيش حكومة مصرية تقدر تدافع عن مصالحها في شمال الوادي، عشان تشيل مسئولية جنوبه".

ساد الوجوم والإحباط والجميع يحاول استيعاب ما يقوله، سقط الأخ الأصغر عبد الله أمام الباشا على ركبتيه، وأمسك يديه يقبلهما، وعيناه مغرورقان بالدموع، أمسك الباشا برأسه وهو يقول:

- "شوى أسوى فيك يا ود أبوي".

- ما تسوى شى يا أخوي، أتركنى أمد حبال الود مع الدنقلاوى.

- مد كل حبالك يا عوض الله.

- من دون موافقتك ورضاك، هذه تصير خيانة، وأنا ما أخونك ولو أموت ويسيل دمي فداك يا ود أبوي، أتركنى أحمي الولاد من النخاسين، ونسوان الشكرية يصرن سبايا عند العويل.

* * * *

في صباح اليوم التالي، ودع الضابطان الباشا الذي ستتحقق نبوءته بعد سنوات قليلة، ويموت قهرا في سجون المهدي، عندما يجرد المهدي عليهم أنصاره، فيقتلهم ويسبى نساءهم وأبناءهم ويغنمهم.

تلقاهما الباشا على رأس حقول القطن بابتسامة واسعة بشوشة، وقال:

- "حق النبي سليمان أبوكم ما مات، وأضاف وهو يقلب أعواد القطن: توا أنا عرفت حكمة ربنا لما سعيد باشا حبس جدكم أحمد بيه أبو سن في الإسكندرية.

تقدمهم نحو مبنى كبير ترتفع من داخله صوت آلات حلج القطن وهو يتحدث: "لما أبوكم بعث يقول ليح تجوز مصرية، وأظن في

الإسكندرية، قلت له ما يخالف ما دامت بنت ناس، إحنا جذورنا من الحجاز، وهسه نعيش على النيل في جنوبه، وأنت تعيش في شماله، لما بعت يقول لي يا باشا الولاد عاوزين يدخلوا جيش الخديوي، قلت له وماله يا سليمان، بيش يصير لنا عزوة وقادة على رأس الجيش، ويجي وقت يحكموا وادي النيل، ولما عمك إدريس قال الولد يريد يتزوج البنية، والبنية تريده، وايش اسوى يا باشا، قلت له نسوان الشكرية يصبين على كراعتهم ورا رجالتهم لأخر الأرض".

على بوابة المحلج قال وهو ينظر إلى الحقول: "زراعة القطن هادى علمنا إياها مصريين، والمصنع أول من أداره مصريين"... "اشربوا فنجان قهوة قبل ما تغيبوا عنى يا ود سليمان، نادى الميكانيكي: "عم حسن شنو الأخبار". - ممتازة يا باشا.

تمتم بوجه كهل يفيض بالغيوم: قلبي يحدثني أن المهدي ح يخلق ود أبوي عبد الله كيف تخنق العرسة الفرخ الصغير"، هيا يا ود سليمان، ارفعوا رؤوسنا ومعاكم السلامة.

في "ود مدني" تسلمنا برقية تطلب منهما التوجه إلى محلة "ود شلعي"، للقاء الحملة التي ستغادر الخرطوم صباح الغد، عبر الثلاثة النيل الأزرق وتوجهوا برا قاطعين الجزيرة باتجاه الدويم.

* * * *

غادرت السفن محلة "الجبلاّب" واقتربت من مشرع "ود شلعي"، على مقدمة السفينة "سواكن" جلس الملازم محمد فوزي السلحدار منفرج الساقين، يدخن غليونيه وينظر في منظاره المكبر إلى النيل الأبيض يطوى الأفق، نادى على الرئيس آدم الزنديق، وطلب منه أن يستدعى الملازم شلعي، وبقي غارق في حلقات دخانه، يحاول أن يخترق الضباب، يصيغ السمع إلى الأصوات البعيدة التي تحملها الرياح، شعر بشلعي يقف وراءه بخطوة، قال دون أن يلتفت إليه:

- يا عبد المبين أنا فكرت في مشكلتك.

- مشكلة إيه يا فوزي افندي؟ أنت شايف عندي مشكلة!

- الأحلام اللي بتحكى عنها والشبح اللي خرب دماغك.
- تمام، جنابك عقلك كبير، يلم عفاريت وأشباح وجن وأنس، وكافة
مخاليق ربنا؟

تدخل شمروخ يناكفه: أنت ح تتريق على فوزي بك يا افندي.
- أنا! نظر إلى شمروخ بغل واستطرد: أتفضل حضرتك، أزاى قريحة
سعادتك فكرت في مشكلتي.
- محدش عندنا في مصر اسمه شلعى.
قاطعهما شمروخ: بالضبط يا فوزي أفندى، طول عمري أقول له أنت بنى
آدم معندوش أصل.

نظر شلعى إلى صديقه باستياء: وبعدين يا فوزي افندي.
هز الملازم فوزي ساقيه الثقيلتين، واستدار يقيسه بعينه، نقر صدره
بأصابعه وهو يقول: "يعنى ده ميخلكش تفكر في حاجة؟".
- زي إيه؟

تلاشت إجابة الملازم فوزي وسط الضجيج الهائل المنبعث من النيل،
استدار منزعجا: إيه ده؟ وقفز شاهرا سلاحه إلى مقدمة السفينة، وبجواره
وقف عبد المبين يشهدان عشرات القوارب الصغيرة محملة بالأهالي يلوحون
لهم، وهم يعزفون الموسيقى وينشدون الأغاني تقطعها زغاريد النسوة.

في المقدمة وقف الصول الذي لاقاه عبد المبين شلعى في مستشفى
الخرطوم يشير نحوه وهو يهتف:

- "يا زول .. هذا عبد المبين أفندي ود ريحان جاد الحق ود شلعى".
- الغايب رجع بلده يا ولاد.

بهت شلعى وهو يتنصت للغناء القادم من القوارب الصغيرة:

يا الطال غيابه، وغابت معاه الشمس
ياما سألت عليك النيل
ياما سألت السكك والمارين
عزت طيوفك... عزت دموع الحبيب
من يومر ما فننا ضاع السنا
والقلب عن طيفك ديمة السؤال عليك

جملة وحيدة قالها الملازم محمد فوزي وهو يطرق صدر الملازم عبد المبين شلعى بظاهر كف يده:

- "هه، مش قلت لك مفيش اسم شلعى في مصر، يلا يا عم، أهلك أهم؟"

لم يكن لدى عبد المبين شلعى إجابة، كان يحاول أن يبقى على جسده متماسكا، بينما روحه تفر فرذبيحة، وهو يغمغم: "هو أنا مين؟".

كان أقسى ما يثير الرعدة في قلبه، أن يكون عبد ساقه النخاسين من السودان وباعوه للجيش الذي بناه محمد على وأحفاده.

سار عبد المبين وسط أبناء محلة ود شلعى منوما، يعبرون به مساكنها ودورها المصنوعة من أعواد البوص وجلد البقر، وتاريخه ينبعث في ذاكرته لحظات من الوهج، وقفوا به أمام دار صغيرة، وتركوه وحيدا، حيث جلست عجوز عمياء، اقترب منها ببطء والتوتر يخنقه، وعندما شعرت به، مدت أصابعها المعروقة تتلمس وجهه، وهي تهمس:

- منو تكون؟

- عبد المبين ولدك.

- عبد المبين؟ عبد المبين أخذته السلطة يا زول، وغاب.

- وهسه رجع الغايب.

* * * *

في السابع عشر من مارس أبحرت وسط دموع الخرطوم السفن المتبقية من الحملة، وقد انضم إليها الضابط الثاني عشر من الضباط العراقيين ملازم طلعت عبد الوهاب ومعه زوجته بثينة وأطفاله الثلاثة؛ الميرغنى، وزينب، وعرابي، وخمسون جنديا من الجنود غير النظامية من الخطرية.

وسط النحيب والبكاء وقف على المرفأ رجال ونساء الشكرية يودعون أبنائهم، جرى جعفر يعتكف في قمرة مطلقا العنان لدموعه، توارت السفن عائدة للتعق النيلين الأبيض والأزرق، لتستدير مقدماتها واحدة بعد الأخرى نحو الجنوب صاعدة النيل البيض.

على البر الشرقي وقف أطفال الشكرية يصرخون على السفن الراحلة، ينادون جعفر ومريم وفريدة، انتبه الطفل على طرقات أمه، تدعوه

للخروج إلى سطح الباخرة التي أوقفها اليوزباشي الحسيني لأجل خاطر سرية
الخيالة المشكلة من صبية وقفوا على شفير النيل الأبيض يرتدون زي
محاربين العصور الوسطى، ويحملون السيوف والدروع، يتقدمهم "عدلان"
ود عوض الله أبو سن.

وقف جعفر على سطح الباخرة التي اقتربت من جسر النيل، صرخ عدلان
في رفاقه من الصبية:
- سرية انتباه.

طرقت الخيول بأقدامها الأرض، وجرى عدلان ود عوض الله على جواده،
يستعرض فرسانه الذين سيقاتلون وراءه الحكومة المصرية بعد سنوات
قليلة، ويقتلون أمام الجيش الإنجليزي المصري أثناء غزوه إلى السودان تحت
قيادة جنرال كيتشنر، وسيوارون التراب.

صرخ عدلان:
- "سرية تحية للقومندان بحري جعفرود أحمد سليمان أبو سن".

امتشق الصبية سيوفهم ووضعوا النصال أمام أنوفهم.

أطلق اليوزباشي الحسيني صفارة الوابور ثلاث مرات، وجعفر الصغير
يؤدي التحية العسكرية لابن خالة عدلان ود عوض الله.

ببطء شديد تحركت الباخرة النيل وكأنها تنتزع العظام من لحم
الطفلين اللذين حلق ملاك الموت فوقهما، ليحصد رأس الأول سيوف قبائل
(اللورين) على مناقع بحر الزراف، بينما سترشق طلقات المدافع الرشاشة
الحديثة للجيشين البريطانيين المصري صدر الثاني في معركة
كررى⁽²⁸⁾ على تخوم أم درمان.

طوال كيلومترين ركضت الخيول على شفير النهر، وقد ساد الهرج
وهم ينادون على مريم بت حسن ود سليمان أبو سن، وفريدة بت سالم
خلاف، ويحيون ابن عمهم جعفرود أحمد ود سليمان أبو سن، حتى غابت

28 (معركة كبرى: تقع كبرى شمال أم درمان عاصمة الدولة المهدية، دارت المعركة في
فجر الثاني من سبتمبر 1898 بين قوات المهدية والقوات البريطانية المصرية المسلحة بالمدافع
الرشاشة الحديثة والبواخر الحربية، بلغت قوات المهدية 52 ألف جندي، وشن الأنصار هجوما
شاملا في الفجر، ولم يستطع أي من عساكرهم بلوغ خطوط العدو لكثافة النيران، بعد
ساعتين من بداية المعركة تجاوزت خسائرهم بين عشرة آلاف قتيل و 30 ألف جريح.

السفن فوق النيل الأبيض، في فضاء من كثبان ذهبية تتخللها أجمات من عقيق أخضر، ترعى بين جنباته جنيات لماعز أبيض، تعيسها⁽²⁹⁾ سراييل بيضاء تلتحف سمرة داكنة، وعلى شفير النهر مدت عماليق الجان أعناقها ترتوي من الماء، وقد تقمصت سمة الإبل والبقر.

بين الجبلين ترامت أعداد هائلة من طيور تسربت بالريش الأبيض، لا تعرف من الذي اختار لون الآخر، الطيور أم الرجال، وعلى ضفتي (بحر العبيد)⁽³⁰⁾ ترامت الملائكة تصدح أجنتها بصوت الفيولينا، والآلات الوترية والنحاسية، تسأل الدخلاء أسباب قدومهم.

في الثامن والعشرين من مارس عبرت الحملة (ملاكال)، وتوقفت في محطة التوفيقية العسكرية، وضمت عددا من الإدلاء التراجمة⁽³¹⁾، وعندما أقلعت واجهت تيار نهر السوبات القوي.

* * * *

29 (تعيسها: ترعاها).

30 (بحر العبيد: Baher El Abiad

31 (التراجمة: الوطنيون من أبناء البلاد الأصليين الذين عملوا مع الجيش المصري كأدلاء، والترجمة إلى لهجات القبائل المحلية).



خط العرض 10°

بحيرة نو

- .. بحيرة "نو" ..
- الماء الزلي الذي انبثق منه الوجود الأول ..
- هنا ظهرت البيضة الأولى ..
- وخرجت منها الروزة "الصانحة الكبرى" ..
- وانفتق الليل عن النهار ..
- وانبثق التل الزلي ..
- ها هو الملقى، يأخذه إلى برزخ من نعيم الرب ..
- وفردوسه ..
- تلامس ميلاده البني ..
- يا له من نهر، ويا له من رب يسكن علياه ..



هوض بحر الجبل وملحقاته



ولجت الحملة بحر الغزال، في طريقها إلى بحر الماء الأزلي التي انفتق فيه النور عن الظلام، وانبثقت الأرض من العماء، وتوغلت داخل بحيرة "نو"⁽³²⁾ حيث كل شيء ينم عن اتساع هادئ، انعطف ثوران ميكانيكيان إلى مدخل بحر الجبل، ينخران أنفاسهما الفضية قربان للسماء، تنهادى خلفهما على سطح المياه المترامية طيور خرافية عملاقة، تسبح في طبيعة أخفت عريها البكر، تحت عباءة ثقيلة من ضباب أرخى سدله، على بطائح بحر الجبل.

من قلب المياه الأزلية صعدت الشمس من الأفق، تكشف عن ثعبان خرافي يتمدد بارتغاء لانهاثي، يشق طريقه بطرق غامضة لا يعلمها إلا هو، وقد ستر ضفافه بالمياه البدئي، على ظهره انبثقت جزر عشبية تسبح في العماء الأول، تطلعت ألفت إلى الأفق، حيث كل شيء يصعد نحو السماء، وهمست وهي تستند برأسها على كتف زوجها:

- يا رب سبحانه، أحنأ في طريقنا للجنة.

على مقدمة السفن وقف الجميع يشهد ما يكشف عنه الضباب، كنبوءة تهبط من السماء، سرت الرعدة في الأجساد، وقد بزغ من حصن الضباب أشباحاً أسطورية ترفع قرونها إلى السماء، وتطفو في فضاء ينعم ببياض لم يسبق رؤيته، وقد تحلق حولها قطعان غزلان وحممر وحشية، فإذا انزاح الضباب وصفا، بدت السفن تسبح وسط أسراب مؤلفة من آلاف الطيور تحملها على طيات السحاب.

(32) بحيرة نو: NO تقع على خط عرض {90:30}

في البقاع الموحلة وعلى رمال الجزر الذهبية، وقف البجع يجس المياه بأقدامه، يغازل أسراب الكركي الواقفة بشموخ، وتندفع حلقة في خط طويل يميل بلا توقف، فتميل الأرض معها عن قبول ورضا.

أصيب الأطفال بالخيال، وهم يرون أبو معلقة يغوص برأسه في المياه ويرتفع بمنقاره ذي الكرة محملاً بالسماك، همس محمود العيمي:

- "يا ترى، نهر للسماء أو برزخ للموت؟"

قال الحسيني: يمكن عتبات الجنة اللي حكى عنها الجدة.

سُمت السيدة حباب تقول: "هذا معلوم".

سأل زوجها بدهشة: شنو اللي معلوم؟

- يا زول شنو أنت ما مسلم؟ النيل ينبع من تحت سدرة المنتهي، ويفيض من حافة الجنة، هكي تحكى الحكاية.

تمتم إبراهيم حليم: لو ينول البنو آدم منيته هنا؟

علق صديقه: "صبرا جميلا، لن ننال إلا ما قدر الله".

غام الوجود بالفرنسية، قفزت في النهر: أنشئ تقدم نفسها لرجل. انتبه الوقوف على صوت ارتطام المياه، تبعها الجميع، وحل الصخب والضجيج.

* * * *

عبرت القافلة خط عرض {9⁰} وأمامها مجرى بلا معالم، متبعة الخرائط المساحية التي رسمت بمعرفة أركان حرب الجيش المصري بين عامي 1840 و1880، على مقدمات السفن وقف جنود سرية المساحة يسبرون غور المياه بالقائمة⁽³³⁾، يتفادون جسور وجزر لا ترى. ويعلنون قراءات الأعماق.

وقف الأطفال مسحورين بقطعان زراف وغزلان تطفو فوق الماء، وفيلة تترىض في الفضاء، تابعوا جزر عائمة تسبح باتجاه الشمال، وعلى ظهرها تمددت عائلة من الأرانب البرية تطلق ضغيبها⁽³⁴⁾، وحولها اللقلق

33 (قائمة: وحدة قياس طولها ست أقدام تستخدم عادة في قياس أعماق البحر
34 (ضغيب: صوت الأرانب

والشحرور الذهبي يقفز فوق البردي، وسربا من النسور مجتمع حول فريسة
يمزقون لحمها أربا، ونمرا أرقطا يريض في المنتصف، ينظر نحوهم بعيون
تشيع الرعب.

فتحت أفراس النهر أفواهها الحمراء للأطفال، ألقوا إليها بالطعام،
فأجابتهم بتحية من خوار فرح، وأطلت رؤوس التماسيح بأنيابها الحادة،
تراجع الأطفال فزعا، ورحلوا إلى نوم مضطرب، يحمل معه عيون زجاجية
مكورة تنظرهم من تحت تيار الماء بتهديد.

يشهد فلاح الشمال منافع شاسعة، سلسلة من بحيرات، نيلا بلا معالم،
منبسطة بلا ضفاف، يمتد من خط عرض $\{10^0\}$ وحتى $\{5^0\}$ ، وقد اختفي
البران، يتحول الوجود إلى سكون أزلى، يستره الماء.

قاد قومندان الحملة قافلته وهو يبحث عن مسار النيل، يرى الجسور
الطينية محملة بسافانا البراري؛ بردي، وبوص، و(عنبج)⁽³⁵⁾، يكثر
البردي وتجتمع الحمأة⁽³⁶⁾، والصوالة⁽³⁷⁾، تنهاوى منهارة تحت ثقل الرياح،
واندفاع التيار، وغزارة الأمطار، يمتزج الطحلب بالأعشاب مكونا كتل
عائمة.

تندفع الكتل العشبية وقد بلغ سمكها سبعة أمتار، تحمل داخلها
أسماك وتماسيح وأبقار الماء، تخنقها في شراك الطبيعة المتوحشة، يتابعها
الأطفال، يترقبون اصطدامها عند المنعطفات بحافة النهر، تقفز من فوقها
إلى البر خنازير برية وثعالب وسحالي كانت مختفيه في أجماقتها، يستقر
بعضها عند أركان منحنياته الملتوية، تتراكم وتتكدس، تلتحم
وتكبر وتتسع، تتحول مع الوقت إلى حواجز أو (أسداد) كما يسميها
العرب، ومرة بعد أخرى يختنق المجرى الأصلي، ويوصد بسد يناوئه.

ومن حيث لا يتوقع تأتي الليلة التالية بريح معاكسة تمزق تلك الجزر
والسدود إلى أشلاء متفرقة، ويسترد النيل حريته، ليعود الصراع الكوني

35 (العنبج: نبات مائي على هيئة شجر صغير يتألف من غيضات سريعة النمو، يجاوز ارتفاعه ستة أمتار أعلى المياه، ويبلغ سمكه عضد الإنسان، يتكون من خشب إسفنجي ولب ليفي له أشواك خفيفة الانحناء وأوراق مبعثرة، معرش من جميع جوانبه بأزهار زرق، يصنع منه الأهالي أطواف بالغة الخفة، يستطيع الرجل حمله على كتفه، ويحتمل خمسة رجال.

36 الحمأة: الطين.

37 الصوالة: ما أخرج من الحنطة ونحوها، كناسة نواحي البيدر

من جديد بين الأرض والماء والرياح، تتخلق مزق من تراب، تشكل جزائر جديدة، وسدود نباتية مدهشة، وتفتح قنوات وتغلق أخرى.

يطعم الأطفال الفيلة، يربتون على خراطيمها بكفوفهم الرقيقة، تتابع الفيلة القافلة ما ظلت السفن قريبة من البر، فإذا غابت انهمرت دموع الطفلتين، واعتصم جعفر بالتماسك، يصعد أعلى الباخرة مرسلات تحيات الوداع، ترفع الفيلة خراطيمها، وتطلق نهيماً⁽³⁸⁾ حزينا يحمل لوعة الفراق.

تستمر القافلة في سيرها تتابعها قطعان الحمر الوحشية، تقف على أسوار السفن، تمتد خطومها إلى الجنود مرحبة، نفث ثورا وحشيا من منخاريه ضبابا كثيفا، وهرش الأرض بحافريه، جذبت أميرة الأطفال الثلاثة من أمام قرنيه، لتترك طعجة غائرة في سور الباخرة الحديدي.

تتحرك السفن وسط الجزر تخاتلها أشعة الأصيل، والنوتية يقفزون بين سطح السفن والجزر القريبة، انتبه الرجال على صراخ النسوة، وقد اكتشفن اختفاء الأطفال، انهارت الأمهات، قاد الحسيني الباخرة الخرطوم عائدا في الاتجاه المعاكس، والأمهات تنادى أطفالها.

دخل النهار العشية، وأطل الشفق، وعلى مبعدة كيلومتر وقف الأطفال الثلاثة يلقمون طائر أبو معلقة الطعام، وهو مستسلم للكسل الذي أوجده تلك الكائنات الودودة، عندما عادوا إلى القافلة كانت النساء تبكي أطفالهن، وأطفالهن ينظرون إلى الوراء يبتكون صديقتهم أبو معلقة، الذي وقف يتابعهم بدهشة وهم يبتعدون عنه دونما سبب مفهوم.

حمل الرجال نسائهم مسئولية سلامة الأطفال، وقاطع الأطفال أمهاتهم، وقاد جعفر العصيان، وكلما انهارت طفلة في حضن أمها، أتى ولوح لها، تقفز من صدر أمها وتنطلق تجاهه، والتصقت الطفلتان بفرانسوا، أعطتهما لوحة وفرشاة، وجلس جعفر على كمر القيادة متجاهلا أبيه، وعندما اشتكى لزوجته، ضمته في عريها الدافئ، وعزمت أن تلقن ابنها درسا يعرفه الفارق بين أبيه والآخرين.

(38) نهيم: صوت الفيلة.

لمحه اليوزباشي يقف على مقدمة الباخرة، ويجواره الطفلتين يلقيون بحبوب الذرة إلى طيور النورس، بعد قرابة الساعة لاحظ اليوزباشي المقدمة التي تحولت إلى حديقة من طيور الجنة، نالت السعادة الطفلتين، شعرت فريدة وهي تنحني على الأرض لتحمل حبوباً وقعت منها، بأحد طيور النورس يقف على ظهرها، ظلت منحنية لدقائق حتى لا تثير فزعها، لاحظ الحسيني جعفر يلتفت نحوه خلسته، غادر الكمرة وهو يقول للملازم أحمد سليمان: "ابنك عنيد".

- ورثه عن أمه.

لمح الأطفال قدمين طويلتين تبرزان قبالتهم، رفعوا رؤوسهم لأعلى، سمع اليوزباشي يقول بصوت لا تنقصه الصرامة: "مالك يا جعفر، حد مزعلك؟". قال الفتى بجرأة: "أنا! لا، حد مزعلك أنت؟". - لا، عندي لك مأمورية.

انتبه الفتى أشار الفتى لنفسه: "تقول بجد".

قال الحسيني: "طبعاً أنت وهم".

- شنو، سعادتك بتهزر، مفيش بنات في العسكرية.

- دلوقت فيه بنات في العسكرية وأنت مسئول عنهم؟

ابتسم الصبي وعاد يرى الأمر لا يتجاوز اللعب: "فاهم يا أفندم.

- طيب أدى التحية العسكرية لقائدك.

شاهد الأب ابنه يؤدي التحية برصانة، وعندما استدار اليوزباشي عائداً إلى قمرة القيادة، استوقفه الطفل:

- سعادتك مقلتش أيه هي المهمة؟

فكر اليوزباشي للحظات يتفرس فيما حوله، ثم قال بطريقة احتفالية:

- "الطيور، أنت ضابط سرايا الطيور".

- الطيور، ياه!

قفز الطفل في الفضاء سعيداً بمهمته، وهو يصيح

- "الطيور أنا ضابط سرايا الطيور".

بعد يومين شاهد المقيمون في الباخرة النيل طفلاً يقف على مقدمتها فارداً ساعده وهو مغطى تماماً بطيور النورس والحسون والزرزار.

في ذلك الصباح شوهدت غزال تقف منصاعة لكفوف الأطفال الصغيرة، حل صمت تام قبل أن تقفز مبتعدة إلى البرارى، في تلك الليلة نام الجميع على حكاية الغزال الذي قدم نفسه إلى الأطفال، فرانسوا لم تنم، وفي الصباح كانت على سطح الباخرة تغط في النوم، وبجوارها لوحة لغزال يرعى العشب في سلام، وحوله الأطفال الثلاثة تربت أياديهم عليه، تجمع الأطفال يتيهون بغزالهم ووجوههم المرسومة على لوحاتها.

سارت السفن في مسار ثعباني، وكأنها تدور حول تلك الكائنات الغريبة، لا تطرف لها طرف، عند المساء الرابع⁽³⁹⁾ الواقع عند الكيلو 1050 من المنابع، ظهرت أشباح ملساء بلا فروع، خمنوا أنها جذوع أشجار نصبها بشر، أشار الفولى متهمكما إلى خلو البطاح من الناس شجربلا بشرا⁽⁴⁰⁾، وأصرت سهيلة أن لتلك الجذوع عيوننا، وسخرت النسوة وقلن بل ملائكة سود تراقبهم، قالت صفيّة تحسم الأمر: إنهم حراس الجنة. أوليس للجنة من حراس؟

حمل المساك السادس أعدادا كثيرا، طلب اليوزباشي من شمروخ أن يذهب للتعرف على ملائكة الله في جنته، فانطلق مسلحا بمسدسه وسيفه، يخوض في الضحاضح⁽⁴⁰⁾، أو تميد الأرض من تحته، فيكمل طريقه سباحة.

على بعد كيلومتر شاهد رجلا أسود باسق العود يقف على قدم واحدة، ممسكا بحريته دون أن تبدر منه حركة، حاول الملازم أن يتبادل معه حوارا دون جدوى، وعاد يحكى ما قابله، على التخوم القريبة ظهرت أعداد متزايدة من محاربي الشلك، لم تكن تشكل تهديدا، لكن طبولا بدأت تسمع في الفضاء، وتصاحبهم في الطريق نحو الجنوب.

39 (المساك أو السد النباتي: ظاهرة طبيعية في نهر النيل، منعت الملاحة في بحر الجبل عقودا طويلة، تحدث نتيجة اجتماع الرياح والأمطار والعواصف، وقوة التيار في مجرى النيل، تؤدي معا إلى حدوث انهيارات في جسور النهر، وتندفع كتل الطين المنهارة، بما تحمله من البوص والعنبر والبردى وتخلط بقطع الأشجار والأغصان الطافية على مجرى النهر، مكونة كتلا طافية يصل سمكها أحيانا إلى سبعة أمتار، لا تلبث أن تتجمع عند المنحنيات، وتزداد كثافتها وسعتها حتى تسد المجرى الملاحي للنيل تماما، ولمسافات طويلة تتجاوز عشرات الكيلومترات.

40 (الضحاضح: جمع ضحضح، وهو الماء اليسير أو القريب القعر

أمسكت البراري بخناق القافلة عند المساء العاشر، وتوقفت السفن عاجزة عن الحركة، خلع الضباط بزاتهم، ووقفوا يقودون فرق العمل، وجنود المساحة يقسمون السد الطافي إلى مربعات، جز القصب والبردي بسيوف قصيرة، ويتولى آخرون حفر مربعات من الخنادق بالمعاول والبلط، يتبعهم النجارون يدقون أوتادا خشبية عميقة في الخنادق التي تم حفرها، وقام النوتية بربطها بحبال القلوس⁽⁴¹⁾ وقيدوها إلى جسد الباخرتين.

غاص العسكر تحت الماء بسرأويلهم الكتان، وانهاوا على الكتلة العشبية الطافية، يفتحون ممرات مربعة في الجهة السفلية من المسالك، تنطلق الصافرة محذرة الجميع، يندفع الوابور بقوة مقتلعا قطعة من السد، يحل الجنود أوتادهم، ويصعد الغطاسون إلى ظهر الباخرة، ويرتمون على ظهورهم منهكين وهم يرشحون عرقا وطينا.

تقدمت القافلة ببطء، اقترح شمروخ تلغيم السد، تمنع اليوزباشي فيه، وقال لا ينبغي استخدام ذخيرة الحملة في تكسير سد لا يعرف أحد طوله، لام شمروخ نفسه لأنه لم يخبره أنه يفقد جنوده، بسبب انهيار الكتل الطينية، وانقضاظ التماسيح.

في كون من خلاء، وفي غفلة عن الخطر الكامن في البرية، قفز الجنود إلى أحد السدود الذي مزقوه لتوهم إربا، وافترشوا العشب منهكي القوى، سُمعت خششة صادرة من أكمة مجاورة، ربما أرنب أو سحلية، لينتبهوا على فهد يقف بينهم، ساد الفزع وتعباً الفضاء برائحة الخوف، والمفترس يعاين طرائده، قفز جندي يحاول الفرار، فاندفع نحوه، وبعد غرز أنيابه في نحره، وضع قدمه الأمامية على الجثة، يتحدى من ينازعه.

تعالص صيحات الذعر، خطف الملازم فوزي بندقية وقفز إلى السد، ارتكز على قدميه الثقيلتين مصوباً باتجاه الفهد، تلاقى عينا الصقر والفهد، استدار الأخير ناشراً رأسه لأسفل، مد قدميه الأماميتين إلى الأمام، برزت عظام كتفيه، يتحركان لأعلى وأسفل، وعندما باغت بالهجوم أطلق فوزي النيران، ليسقط الفهد على بعد أمتار منه.

(41) القلوس: جمع القلس وهو جبل للسفينة ضخمة.

في الثامن عشر من إبريل استيقظت القافلة على عشرات من محاربي الشلك يقفون على التلال القريبة، أطلق البروجي نفير الخطر، واستدعى اليوزباشي ضباطه، وأعطى أوامره بتشديد الحراسة على السفن، وربط السفن الشراعية بالباخرتين بسلاسل الجر، والتقدم أعلى النهر دون توقف.

* * * *

شقت السفن طريقها وسط ضباب كثيف، سمع جندي الإشارة الواقف أعلى سارى دمياط خريشات وزمجرات دعتة أن يحدق إلى السطح، ليرى قطيعا من الضباع تنهش فريسة تفور بالدماء الحارة، تحشرج صوته من الرعب، ليكشف الضباب عن "مساك" يسد مجرى النهر بأكمله. استيقظ الضباط على طلقات النيران التي طارد بها جنديان قطيع الضباع، وكلاهما محميا بظهر الآخر، صدمة قوية أطاحت بالجندي من فوق سارى السفينة ليسقط في ظلام النهر حيث انتظره تمساح يغفو.

ارتطمت الباخرة النيل في المساك، وغاصت فيه، أوقدت المشاعل، وأسرعوا يحذرون بقية السفن التي تدافعت تصطدم واحدة بعد أخرى بمؤخرات السفن التي تتقدمها.

قفز الضباط فوق "المساك"، وأسرع أحمد سليمان يكشف عن الأضرار التي لحقت بالسفن، كانت مقدمة الوابور الخرطوم تشق قاع السفينة دمياط، العبارة الوحيدة التي قالها الملازم "يجب إنقاذ الحمولة".

أطلق البروجي نوبة استدعاء، وقاد الريسان مكي وصديق الحرامي رسو المنصورة ورشيد على جانبي السفينة المنكوبة، وضعت السقالات، وتحت أضواء المشاعل حمل طابوران من الجنود جوالات الحبوب إمن جوف دمياط إلى السفينتين المجاورتين.

خلال إبحاره في بحر الجبل واجهته بقايا أربعة عشر من "المساكات والسدود"، تغلب عليها جميعا، والآن وهو قرب "حلة النوير"⁽⁴²⁾، يواجه سد يقبض على مجرى النهر، ويمسك بخناق الرجال، كانت الرياح لا تكل عن إشعال نار الحرب بين الأرض والماء كي تقذف في مجرى النهر الأصلي

(42) حلة النوير: تقع على النيل الأبيض على بعد 950.00 كم من منابع النيل.

كتل هائلة من الأحواض العشبية، تذكر نصيحة اللواء محمد رءوف⁽⁴³⁾ "السدود والمسالكات تجعل مجرى النهر ممتنع على الملاحة، ومواقع ينطلق منها اللصوص لشن غارتهم على السفن.

تحت مطر غزير قطرت السفينة المنكوبة إلى محلة "النوير"، لرأب الأضرار التي لحقت بها، وأقيم مخيم للجند خارج القرية، وتقرر عمل صيانة سريعة لسفن هُشمت السدود أجانبها، وفتق قعرها بسبب شحطها في قاع النهر الرمل، وطلب من الملازم فوزي وضع قناصة على صواري السفن لمواجهة خطر الصواري والتمايح.

في محلة النوير قام المعلم نقد بضبط أراضي السفن وفك الرمانات، وإعادة لفها بحبال التيل، ورأب فتوق جسم السفن وقلطتها⁽⁴⁴⁾، واستبدل بكرات القلاع المهشمة، وتولى المعلم سيد الدمياطي، الذي عبر المالح في أسفاره بين إسطنبول وجدة وصيدا، رتق الأشربة التي تمزقت تحت ضغط الرياح القوية لمراكب تصعد ضد تيار النهر، وفي جميع السفن أخذ أحمد سليمان على عاتقه ضبط ميول الصواري والدناقل، ودساتيرها.

حملت الرياح قرع الطبول، وارتفعت في البطاح السنة النيران، وتنامت الريبة باقتراب الخطر، وتحت ثقل شعوره بأنه سيكون ضحية هجوم قريب، أضاف وردية للعمل ليلا تحت المشاعل، ثم استدعى الملازم شمروخ وقال "حان وقت اللغمجية".

تقدم شمروخ فصيلة اللغمجية، يحملون الغامهم، حيث كل شيء أسطوريا، النهر الذي اكتسى بخضرة زاهية، براري ترصعها آجام البردي، بطاح ممتدة بمناقع المياه، تقف على صفحتها طيور أبو أبيس بمهابة تنظر العابرين في برزخ بداقاب قوسين أو أدنى من السماء.

على بعد كيلومترين، غاص شمروخ وفضل الله الدنقلاوي والجنود أسفل الهويش الملغم بالخطر، وانبروا يزرعون الألغام في باطن الكتلة الطافية، من بعيد سُمع بانتظام دوى انفجارات، وبدأ النهر يكشف عن نفسه، في المساء ظهرت سرية اللغمجية على أطراف المعسكر، وقد فقدت

43 (اللواء محمد رءوف: قاد حملة 1871 تحت أمرة صمويل بيكر، وكان برتبة قائمقام، تمكن من إزالة ستين ميلا من السدود.

44 (القلطة: هي عملية سد شقوق السفن الشراعية بالقطن المنقوع في زيت جوز الهند

خمسة من جنودها، نتيجة احتباس بعضهم داخل كتل العشب، أو افتراس التماسيح، سقطوا متهالكين، تناولوا طعام ساخن أعد لهم على عجل، وغطوا في نوم عميق.

في منتصف الليل شعر اليوزياشي برعدة تسري في أوصاله وهو يحدد البعد الزاوي للقطب الشمالي عن خط الأفق، وارتفاع نجم الحسان، عندما رفع رأسه كانت الشابة الفرنسية تقف أمامه، تسأله عن علاقته بالنجوم.

- سبع درجات تفصلنا عن خط الاستواء.

- "وكم درجة تفصل بيني وبينك؟"

- "الفلاحون يكتفون بعشر درجات من العالم، بينما الإنجليز لا يملون

عن ابتلاع الكرة الأرضية، هذا هو الفارق بيننا وبين.

- هذه أفكار ضباط ثوريين.

ضحك وقال وهو يجمع أدواته: بينما أنتم الفرنسيون تعفون عن ملذات

الدنيا، ولا ترغبون من العالم بشيء.

- اللعنة، أنت لا تكف عن السخرية.

- مدموازيل عمت مساء.

قالت بصوت به لوعة وإغراء: "تعال إلى غرفتي الليلة. لماذا لا تفعل؟

- آنسة، أنت تنتمين لرجل آخر، سوف التقى به وجها لوجه بعد أيام.

- ماذا هل استيقظ ضميرك، هل أقف أمام مزاء؟

- المفروض أن أسلمك لمسيو كازاتي، سليمة دون أن يلحق بك ضرر.

- "سيد الأخلاق، لست طرد بريد"، وأضافت بحنق:

- "أذهب إلى الجحيم".

- أشكرك.

* * * *

مدخل

أبحر شمروخ يرافقه جنديين للبحث عن مدخل
بيكر⁽⁴⁵⁾، مع نهاية الكتلة الطافية، ظهر ملتقى
البحرين؛ الزراف والجبل، واتسع المجرى ليلبغ الأفق، رقت غلالات الضباب
لتكشف في طياتها عن أشباح سامقة للوئك من عصور غابرة، وصوتا
خافتا لقرع الطبول، تحسس مسدسه، وقفز يستكشف المكان، تسلق
دغل يكشف عن زريبة تتوارى في وهدة من البطيحة.

عبر البوابة إلى ساحة ينتصب بها شجرة طلح عملاقة، ثمّة باب يفضي
لدرج، أوقد مشعلا وهبط إلى ممر سفلى، هاجمته رائحة نتنة، على
الجانبين توالى غرف خالية من النوافذ، ثبت على جدرانها حلقات حديدية
صدئة، وبقايا دماء، كانت زرائب لحيوانات بشرية.

صعد متحاملا على نفسه، حيث عاد المطرينهم، على حافة الجرف رأى
أعدادا من رجال القبائل، مجتمعون حول قرد يرقص رقصات تعطى إيعاء لا
يدري كنهه، تحرك عائدا وهو يفكر، إذا ما كان مدخل بيكر
سيكون الموقع الملائم للهجوم.

عند شفير النهر شاهد القارب يتلصقا في خور جانبي. سبح حتى بلغه،
وجد أحد الجنديين قد شطرت رقبتة، والثاني مصابا بسهم في صدره، نزع
السهم، وأسرع يجدف بالقارب حتى بلغ البر، حمل الجندي على ظهره،
واندفع يبلغ قومندان الحملة بنذر الحرب.

(45) مدخل بيكر: يقع عند نقطة التقاء بحر الزراف مع بحر الجبل، على خط عرض {7:20} درجات شمال خط الاستواء، وعلى بعد 800 كيلومتر من منابع النيل، سميت باسم سير صمويل بيكر Samuel Baker

قبل الغروب أطلق البروجي نفير الجمع، أعطى اليوزباشي أمرا بإخلاء
المعسكر، على أن يكون الجنود في وضع محتل منذ الفجر.
في تلك الليلة دخل الحسيني قمرته وأخرج دفاتر المساحة، وبسط
رسومات القطاعات العرضية لمجرى النهر، وشرع يكتب بريشة على شرك
القيد المساحي:

اليوم: الثلاثون من شهر إبريل 1883
الموقع: خط عرض 7 درجات و 25 دقيقة خط طول 30 درجة و 43 دقيقة
800 كيلومتر من منابع النيل
مدخل بيكر نقطة تلاقي بحر الجبل وبحر الزراف
وشرع يرسم قطاعا عرضيا للنهر، وعندما انتهى بعد ساعتين من العمل المرهق، وقع على
كروت القياس والرسومات، وأضاف:
رفعت القياسات والرسومات بمعرفة:
يوزباشي أركان حرب الحسيني عبد الغفار
الأورطة التاسعة
الجيش المصري

* * * *

في الفجر نفخ البروجي نوبة يقظان، زعقت المحركات، أعطيت أوامر
التحرك، كانت الفرنسية لا تزال في القرية، أرسل من يستدعيها.
في ببطء ابتعدت الباخرة عن المرفأ تحت المطر الغزير، يدفعها الرفاص إلى
المياه العميقة، صافرة طويلة، تقدم بعدها وابور النيل صاعدا النهر تتبعه
بقية الحملة ترفرف على أشرعتها رايات وبيارق القوات.

* * * *

الطوفان

شق البرق وضرب الرعد السماء، وفتح الكون بواباته، اندفعت شلالات المطر الغزير والسيول، وارتفع الماء من ينابيع الغمر، وتلاشت نتوءات الأرض في المناقع، ليبق الماء سيدا للكون.

في قمرة القيادة وقف يتابع فلكه العجيبة، تسبح وسط الطوفان العظيم، حيث العالم سماء مترامية الأطراف، ومطر لا يتوقف عن الانهمار، ونهر يتسع بلا توقف، وكل شيء يشي بسلام تام، حتى أخذه الظن أنه يسير في المكان الذي جمع منه النبي نوح عليه السلام زوج من كل ذكر وأنثى من خلق الله في أرضه.

تتساءل إذا كان ما تراه وهما، أم أنك في عالم أسطوري...

.. ها أنت تقف في الأرض التي أطلق الله منها طوفانه على عبيده العصاة، لكن تريث ولا تأخذك الأوهام، فلا أنت بالبار الذي هو نوح، ولا تحمل على ظهر فلكك الصالحين، ولا سراياك التي تغوص في الوحل جماعات من الخطاة، وليس ثمّة من يوقظك من حلمك الأسطوري سوى جنودك يبحرون في المناقع، وقد اجتمعت عليهم فورات الأرض وماء السماء، يسبحون بين السماء وبحر المياه البدئية، تعبهم قطعان الزراف، تلتقط أوراق الشجر وتلوّكها بتمهل، وضبا يتشاءب على صوت الوابور، وقردة تضحك، وقطعان أفيال تطفو وسط أجناس بشر، يرقصون على هيئات لها رؤوس الطير وأبناء أوى، ترتفع من مؤخراتهم ذيول مشعرة.

يأخذك المشهد إلى حكايات جدتك عن الرجل الذي صلب في القديم الغابر على صاري بلغ ارتفاعه السحاب، تسبح به سفينة خرافية إلى عين الشمس.

تعود من هلوسات الماضي وسحر الواقع، والفرنسية تعبر أمامك بغضب، ستلومك لأنك لم تذهب لإحضارها، تحديق ببصرك، ترى جنى يلوح لك مهددا، صدمة عنيفة تجعلك تفيق من غفوتك على صوت الملازم شمروخ يقف أمام مقدمة الباخرة، يلوح لك ويصرخ عليك بالتوقف، تغادر قمرة

القيادة مسرعا، ينكشف الشاطئ بمئات الرماح، وقد طوق السفن شرك الطبيعة، ومحاربي القبائل.

صرخ الرجل المجنح ذو الرأس الملون بمنقار طائر خرافي، وقفز على الكتلة الطافية، هز حريته في وجه اليوزباشي، وأطلقها قوية أصابته في كتفه الأيسر، قبل أن يسقطه صريعا برصاص مسدسه، كان أول قتلاه في العالم الجديد، بعدها انطلقت مئات السهام تطلب الثأر.

حمل اليوزباشي إلى المستشفى المقام في الطابق السفلى، حيث عكفت زوجات الضباط والجنود على العناية بالجرحى، وما أن انتهى من تضييد جراحه حتى تحامل على نفسه، وعاد إلى قمرة القيادة.

داخل مرمى السهام اندفع عشرات الجنود يحملون البلط والمعاول والسيوف، يخلصون مقدمة الباخرة من المساك الذي تعلق به، وثب المحاربون في النهر تحت نيران البنادق، يسبحون تجاه سفينة جانحة، وصعدوا إلى السطح ليدور قتال متلاحم بين المهاجمين والمدافعين.

في الماعون وقف طابوران من الجنود واحدا خلف الآخر، يتناوبان تعمير بنادقهم وإطلاق النار، أوقع الانضباط الصارم لضابطي البيادة؛ حسن سليمان وعبد المبين شلعي خسائر فادحة بين المهاجمين.

أضمرت سهامها مشتعلة النيران في السفينتين بولاق والسلطانة، اجتمع الجنود يطفئون الحرائق، ساد الارتباك في الحملة، لكن حسن وشلعي حافظا على وتيرة منتظمة للنيران.

مد البلوكان الثالث والرابع الحبال إلى السفينة الجانحة، وغاصوا في الأوحال يشدونها، جمع فتى صغير شتات نفسه، وحسن من هندام بذته، وجرى حاملا نقارته ليتقدم وسط الجثث الطافية طوابير الجنود، بعثت ضرباته المنتظمة الحماس، وتقدموا بالسفينة إلى الأمام.

قفز محارب على الكتلة الطافية، يلوح بحريته، لكن انفجارا قذف به عشرات الأمتار، قبل أن يسقط أمامك مباشرة على زجاج قمرة القيادة، وعيناه اللامعتان بين الأسود الفاحم والأبيض الشاهق تنظرانك، صافيتان خاليتان من الغضب، مثل طبيعة تولد من بحر العماء، حملة الجنود وألقوا به في النهر، وكان الميلاد يفسد.

من خلف تدريع الباخرتين فاجأت سرية الطوبجية المحاربين بقذائف مدافعها، توقف الوجود وساد السكون بانتظار أن يخف اللهب المشتعل على صفحة النهر، من مقدمة الوابور قفز الملازمان سالم خلاف وفوزي يقودان سرية من عسكر الجهادية يحملون الفؤوس والبلط، ويحطمون بقايا الكتل الطافية التي تعوق تقدم الوابور.

شقت الحملة طريقها وسط صمت مطبق، يقطع الصوت الرتيب للمحرك، وصوت الرفاعي يعلن عن أعماق النهر، على حافة المراكب ارتكز الجنود شاهري السلاح، وعلى الضفة الشرقية وقف محاربي القبائل مأخوذين، وهم يشاهدون البراكين تنشق بالنيران من باطن النهر وجانب الباخرتين، تحمل محاربيهم إلى السماء.

على مرمى الأفق لاح مدخل بيكر، صدرت الأوامر إلى الجنود باعتلاء ظهور السفن، التي كانت تتقدم ببطء وانتظام، مخلفة وراءها عشرات الجثث تنتشر على صفحة النهر.

أعطى الملازم أحمد سليمان تعليماته باستعادة سرعة الباخرة، لتبحر متحررة من البرزخ الكائن بين الموت والميلاد، إلى النهر الصاعد في طقوس العبادة، يطرق عتبات الجنة، يستأذن بالدخول.

عبرت القافلة مدخل بيكر حيث المياه سمنت الكون، قاموا بإداء صلاة الجنازة على سبعة عشر جندياً قتلوا على ظهر السفن، وأثناء الدفن أطلق حرس الشرف الرصاص، ويات الجميع بانتظار بلوغ أولى مواقع الحاميات المصرية في مديرية خط الاستواء صباح الغد.

* * * *

توقف المطر وعم الهدوء، تتمدد على مقدمة السفينة، تلمس بأنفاسك النجوم الزاهرة، هو البراح الفسيح الموشى بالبكارة، تستعيد رحلتك التي بدأت من ثكنات القناطر، تصعد على ظهر النيل، إلى الفاطر في عليائه، لتقول في حضرته؛ كنا نعيش بقايا عصر الإمبراطوريات الكبرى، تدهس بأقدامها نثار الثورات التي فجرتها الثورة الفرنسية... يا ألهي، تلازمي الوحدة، ويسكنني الموت.

وقف شبحها جوارك، تغمغم وهي تقبض بيدها على مقبض سور
الباخرة، والرياح تعبت بشعرها:
- هذا الجمال الساحر.

تجيب بالصمت، يظهر ديمتري كاتب الحملة مترنحا، يعدل من
ملابسه وعويناته، لا يحاول اليوناني أن يخفي نفسه، مضى زمن على
الاعتقاد بأنه عشيق الفرنسية، وتبين ميله للتواجد وسط الجنود.

على ضوء النجوم اللامعة تتسلل إلى قمرتك، تتابع طريقة اقتحامها
فراشك، ها هي تخلع مشدها، ثم تنحني وتخلع سروالها في سرعة، تطويهما
بطريقة مرتبة، تقوم على دفنهما أسفل الوسادة بطريقة فظة، يسيئك ألا
تلقى بهما كيفما اتفق، أو يخيفك كونك غارقا في مخاوف العنة،
تقتحم الفراش، وتندس جوارك.

تلمح على ضوء القنديل جسدها الرخامي؛ جريما⁽⁴⁶⁾، سامقا، تتجانس
مؤخرتها مع مسحة ظهرها، زرافة تعبر منافع بحر الجبل، تلتفت نحوك
بعينيها الدعجاوين⁽⁴⁷⁾، تنطويان على ذكاء وغضب، والتماع ببريق
الحياة، لماذا تصر على اقتحام حياتك الخربة؟ تود تناول جرعتها الأخيرة،
حتى ولو كانت "لادو" حيث ينتظرها خطيبها قد اقتربت، تستميلك،
ترجوها ألا تفعل، تتمعنك بحلق، وأنت ممسك بكاس البر اندى، تنتصب
نصف انتصاب وتطيح بالكأس وهي تلعنك.
- ماذا بك، ماذا حدث؟

تتهمك بالوقاحة: "كيف لا تقدم لي كأسا؟ كيف تتجاهل وجودي؟
وتتحدث باعتذار، تغفو وتغرق في كوابيسك، تقاوم جثث نافقة،
وتصحو لتغوص في جوائيم⁽⁴⁸⁾ ليلية، بحثا عن صفاء يمكنك من فهم
مصيرك الغامض، يطل شبح يمتطى جوادا حديديا ينخر منخاراه صهدا،
يركض على سطح مستنقعات معتمة، وحقولا خربة تتناثر على بيادرها
مواقد حجرية تتقد بالسنة النيران، يرقص حولها ماعز بلا رؤوس، أنت
ضابط غارق في تاريخ بلا تاريخ، صبي يسكن ماضيه هالة سوداء لشجرة

46 (جريم: عظيم الجسم، المعجم: الرائد
47 (دعاء: عينان شديدتني السواد مع سعة المقلة.
48 (جوائيم: كوابيس

عملاقة تسكن زواياها غيلان وشياطين، وعلى أطرافها تبرق عيون
جنيات، وترفرف أجنحة العصافير بألوان قزح.

- "كل رجل يغرق في كوابيسه يجد شبحا يسعفه من الغرق".

تدفس رأسها في جسدك، تأخذك من أفكار تشغلك عن الاستمتاع بها.

- خذ ما بين يديك الآن، واترك ما تفكر فيه للغد.

- كيف وأنا ملبوس بشرف ضابط سرح جيشه.

- "لا تبكي ماضيك كامرأة مغتصبة، فليس هكذا يصيغ القادة

العسكريون أساطيرهم".

يؤجج قولها ضحك صاخب وسخط عارمين، تلثم جبينها، تود لو تقول
إن أساطير القادة العظام لا تتخلق في زرائب العبودية، كيف قيد القدر لي
هذه السخرية، أغادر وطني على رأس حملة عسكرية، بعد أن احتلت
أراضيه قوة أجنبية.

تلمحها تقف وهي ترتدى على عريها قميصك العسكري، تكشف
عن ساقين إغريقيتين طويلتين، ترسم لوجهك بورتريها من ظلال أرجوانية
وتقول بصوت ارتفعت فيه غلظة التشيللو:

- "لو نظرت بروح التفاؤل ستجد نواح مشرقة".

- "مثل؟"

- "بإمكانك أن تفعل ما فعله هانيبال بروما، غادر قرطاج، وأعبر
بجيشك إسبانيا على ظهور الأفيال، وسدد لبريطانيا ضربة عسكرية
موجعة، يحلم بها كل القادة العباقرة".

تضحك وأنت تتجرع كأس الإهانة، متغاضيا عن مواطن السخرية،
تنحني تطبع على وجهك قبلة من شفيتين غليظتين، وتغمز بعينيها
الرحبتين وتهمس بصوت "الفيول" الرخيم:

- "هناك جانب مشرق، لديك فرق عسكرية، بلاد بكر خاوية، تسأل
كل عابر أن يصير ملكا عليها، فكر في الأمر، وأصنع مصيرك. على
الأقل أنت الآن في بلاد الأفيال؟".

- تسخرين بجلالة، ما الذي تريديه؟

- "ما الذي أريده؟". تطرق بإصبعها جبينه وتستطرد: "استخدم عقلك".

- "تريدين أن أتوجه بهذا الهراء لاحتلال لوندرة".

- "أنا أكثر حقيقة من لوندرة أو باريس، أنا هنا، تعال واحتلني".
- أرجوك خذي لوحاتك وارحلي إلى قمرتك، واسترخي في النوم، بعد أيام
ستلتقين بخطيبك مسيو كازاتى.

تهمس بصوت رخيم ناعم مثل ضربات أصابع البيانو:
- "توقف عن هذا اللغو وأغزو جسدي، ضاجعني، أرجوك".

تغادر جسدك وترحل، تفكر في الإمبراطوريات والقادة العظام الذين
يقاتلون لإنشائها، وأولئك الذين يعكفون بصبر وإرادة صلبة على
توسيعها، وأشباه الرجال الذين يفعلون كل ما في وسعهم لهدمها...

الآن تمارسان الجنس بآلية مفرطة، ستفضي بها إلى ذروة النشوة، دون
أن تبلغها أنت، عاملين منفصلين، تتوقف عن التفكير فيما يمكن أن
تصبح عليه علاقة عابرة، رفيقة رحلة المنفى، لحظات مفعمة بنزيف
التمزق، بانتظار اقتراب شوط المضاجعة الطويل من نهاياته، تكون قد
امتلات بالرضا، لينبهها حدسها أنه اقتراب من بلوغ خواتيمه، تنتفض وتهرع
مسعورة، وعيناها مغشيتان بالهلع، والخشية أن يفوتها ما تصبو إليه:

- "c'est bon, Je vais le boire... Je vais le boire... Je vais le boire..."

تهز رأسك والأسى يخيم على وجهك، تاركاً مهرة ترتعد مكشوفة
للغزاة، ماراثون طويل تلتهمك بنهم، رعدة طويلة تبزغ من جذع مارة
بعمودك الفقري، وهي لا تتوقف دون رحمة، ولا أنت ترغب في أن تتوقف،
ينفجر سائل الحياة كشلال تلعه، تفتش في ثناياه، تنظفه مثل قطعة
تنظف أطفالها.

متعة مفرطة، أنتم الفرنسيون لا تعرفون الرأفة، فترات طويلة قبل أن
تستدير إليه ترغب في تقبيله، لكنه يأنف أن يفعل، يلثم جبينها، تدس
نهديةا العامرين في صدره، تهمدان ويناما متعانقان، وقد هدهما التعب،
قبل بزوغ أشعة الصباح يتابعها تكور مشدها، وسروالها الداخلي في
راحتيها وتتسلل مغادرة قمرته.

* * * *

شامبي

على خط عرض {7:10⁰}، وقف عسكر الجهادية
على متون السفن، يشاهدون أعداد كبيرة من النساء
والأطفال يهرعون إلى البر مذعورين، وقد أمسك بتلابيبهم الروع
والفرع، يلوحون إلى الجند، ويستنجدون بهم، يتقدمهم شيخ ملتحي ينادى
ويصرخ: "يا مصري.. يا مصري.. بالله عليك أنقذنا".

ها هي "شامبي"⁽⁴⁹⁾ تستقبلك بحرائقها كما ودعتك الإسكندرية
بحرائقها، ترسل قاربا يأتي بالشيخ منهارا، تعلم منه أنه أمام مسجد
الحامية، ومعلم كتابها⁽⁵⁰⁾، وأن من معه هم الناجين من أراميل ويتامى
عسكر الحامية، الذين ذبحوا ومثل بجثثهم في هجوم محاربي الآجار، وأن
بقية الحامية وموظفيها وأسرههم لازالوا تحت الحصار.

تهادى وابور الخرطوم إلى البر، يقطر خلفه ماعون نقل الجند، مدت
السقالات، وأطلق النفير معلنا وصول النجدة، قفز عسكر الجهادية
شاكي السلاح، وتقدموا نحو الحامية، حيث شوهد العلم المصري يرتفع
محترقا أعلى سارية الثكنة.

في أرجاء القرية اشتعلت النيران في الأكواخ، وتناثرت في الطرقات
الموحلة جثث بقرت أحشاؤها، واقتلعت رؤوسها، وعلقت على أسوار
المعسكر، طارد الجنود محاربي الآجار الذين كانوا يقومون بأعمال نهب
وسلب مخازن الحامية، ويهربون بها إلى الأدغال.

فتح المحاصرون أبواب الحصن، وهم يهللون للنجدة غير المتوقعة، وقد
بدت عليهم معالم الانهيار والجوع الناجم عن الحصار، وكان قومندان
الحامية اليوزباشي عبد النور أغا السوداني قد قتل، ومعه خمسة وثلاثين
من العسكر، أثناء محاولات لفك الحصار.

على الأراضي المنبسطة وسط حقول الفول والسمسم التي زرعها
المصريون من عسكر الحامية، ركضت سرايا المطاردة لقطع الطريق
على المهاجمين، وعلى حدود الأفق انتصبت في وقار وسكون أبدى،

49 (شامبي: Shambe، تقع على خط عرض {7:10⁰}.. وهي أولى المحطات العسكرية التي
أقامها الجيش المصري على بحر الجبل.
50 (الكتاب: مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة، والكتابة، وتحفيظهم القرآن

عشرات من تماثيل مهيبة، نحتت من الجرانيت الأسود، ينبثق من مقدمات رؤوسها قرون شديدة الصلابة.

في العراء توارت القرية، وأطلت غابة "شامبي" ببهاء خلف سلاسل من الغدران والجداول، وعشرات من محاربي القبائل يرتدون البزات العسكرية التي نهبت من جثث القتلى، ويلوحون بالبنادق التي غنموها، أطلق البروجي نفيره، فتخندق العسكر مصوبين بنادقهم، بينما استمر الخطيرة في المطاردة، التفت المطاردون إلى الخلف مأخوذون بصوته.

غاص الملازم فوزي فوق بساط من العشب الفاتح الخضرة، وظلال وارفة بعباءة الترفق، تسأله أن يحرق أفكاره ويترك لها العنان، حيث تنبض الحياة شامخة، في عالم من عذرية النظرة، تمتد أشجارها السامقة عشرات الأمتار نحو سماء الله دون تيه ولا غرور.

شاهد ساحرا يرفع ساعديه ويرقص بأقدامه، مغطى بأساور وحلقات من الريش والعظام، كان يشير نحوه وهو يصرخ بصحبات غير مفهومة، مر سهم بجوار وجهه، تمنى فوزي لو يستطيع الحديث معه، أو إجراء تفاوض يستعيد به البنادق التي استولى عليها محاربوه من سلاحليك الحامية.

ضاق عينا الصقر، وصوب بندقيته وهو يركز على مقدمة فخذه الثقيلين، يبدو مثل وحيد القرن في ثقله، وأطلق النار، سقط رجل المطر صريعا، لحظتها توقف كل شيء، لم تعد هناك معركة، بل فارون بالرعب، والدناقلة ينقضون عليهم، يقيدونهم في الأغلال، نادى رئيس الخطيرة وأخبره أنه ليس من شأنه أن يأخذ أسرى، سأله أن كان يريد قتلهم، طلب منه أن يتركهم كي يعودوا إلى قراهم، أجاب الخطيرة باضطراب أنهم يقيدونهم حتى لا يتمكنوا من مطاردتهم فيما بعد.

* * * *

جمع الجنود الجثث والأشلاء، وقاموا بصلاة الجنازة قبل دفنها في مقبرة جماعية، وفي مكتب قومندان شامبي القتييل جلس رجلان ملوثان بالدماء، يرتديان الزي العسكري المصري، أحدهما مصري والثاني من الوطنيين، كاد الجنود أن يقتلوا الثاني، وقد ظنوا أنه أحد محاربي الأجار.

يمثل بجثث القتلى وينهبها، لكن المصري دافع عنه باستماته، موضحاً أنه الصول الذي يشرف على مزارع المحطة، وأن الرجل هو مساعده "مانيبا" شاويش في الجيش المصري، ألقى بجسده عليه ليحميه من موت محقق، وهو الذي يعرف مكان عدد كبير من أهالي الحامية المختبئين في الأدغال.

وقفت النسوة على ظهر الباخرة النيل يستمعن إلى الحوار الدائر حول تشكيل بعثة إنقاذ، كان غالبيتهم يرغبون في الرحيل، فعلى البر الشرقي عادت أصوات الطبول ترتفع، وبدأ أن هناك تحركات عدائية مريبة، ظهر الهلع على وجوه المدنيين الذين التقوا بهم على مدخل شامبي، حسم الشيخ جاد الحق الأمر عندما قال وهو ينظر بقلق ناحية الخطرية، أنه لا يوجد أسرى في حروب المديرية الاستوائية، الخاسريباع لتجار رقيق.

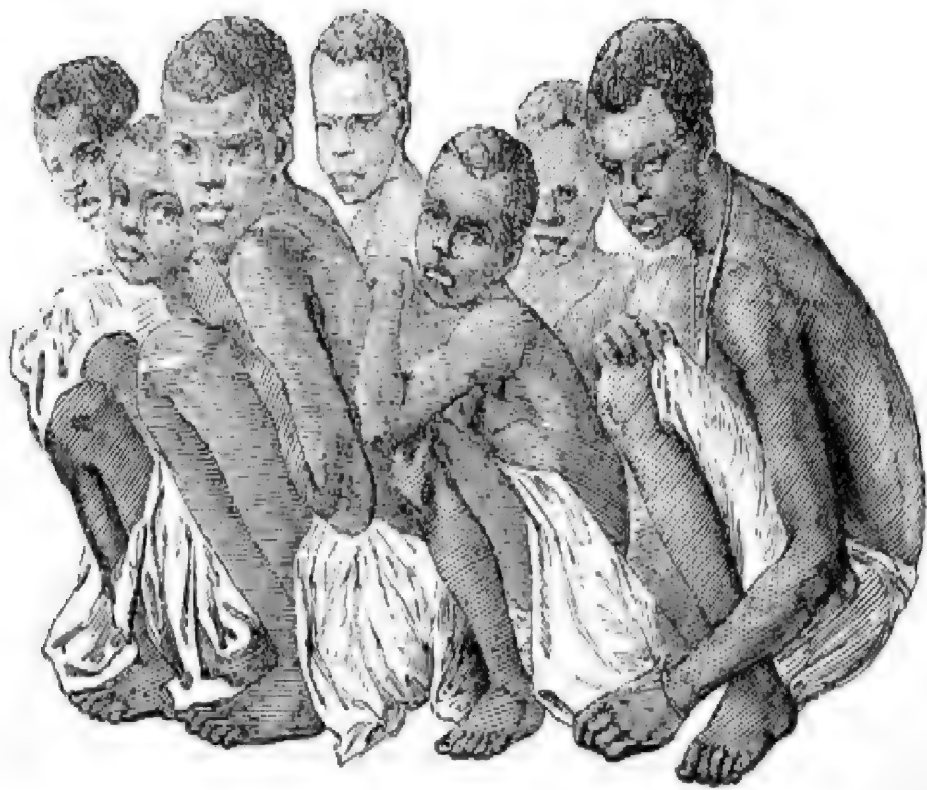
وسط الأحرار تقدم الشاويش "مانيمبا" سرية الإنقاذ، تراقبهم عيون بومها الساكن بالحكمة فوق فروع أشجارها العملاقة، وتودعهم بصوتها المقبض بالشؤم، على بعد سبعمائة متر في عمق الغابة انقشع المكان عن بقعة عارية تحيط بدغل كثيف، قلد مانيمبا ضحكات البابون، ولم تمض لحظات حتى ظهر من فتحة مخبأة عشرات النسوة والأطفال تنطق ملامحهم بالرعب والهزال، وكان المذابح التي شاهدوها منذ أيام قليلة بانتظارهم، حمل العسكر الأطفال على ظهورهم واتكأت النساء على أكتافهم، وأسرعوا باتجاه المرفأ، وهم ينظرون إلى الخطرية بقلق.

خيم الغروب على شامبي، أطلق وابور النيل صفارات الرحيل، وأسرع الناجون يصعدون ظهور السفن، أخذ اليوزباشي تمام الجنود، وأعطى أوامره بالمضي قدماً، ولم يمض الوقت حتى غادرت القافلة باتجاه الجنوب، وصوت الثورين الميكانيكيين ينخران الصمت الأبدي.

أثناء تناول العشاء اقتحم شمروخ القاعة وهو يدفع أمامه أحد عساكر التراجمة، كان يرتجف وهو يخبرهم أن العسكر غير النظامية من الدناقلة يقايضون الحاج سليمان الأسود على الأسرى الذين قبض عليهم في غابة شامبي، مقابل بنادق ريمنجتون⁽⁵¹⁾.

إذا كانوا بنوون النمر
أيضا؟

(51) ريمنجتون: Remington



سأل اليوزباشي إن كان يعرف موقعهم، قال شيئاً عن مدخل بيكر،
أزاح العشاء من أمامه وهو يردد:
- "لن أدخل لادو وعلى جبين الحملة عاربيع أسراها رقيقاً".
أوضح شمروخ إنه يعرف الزريبة التي سيأخذون إليها الأسرى، وأضاف:
حضرة اليوزباشي، أستطيع القيام بالمهمة.

* * * *

شارف بلوك المطاردة مدخل بيكر، كان المطريهطل بشدة، والعتمة
تنتشر في البراري، أوقف الوابور في عرض النهر، وتسلسل متقدماً جنوده،
باتجاه الزريبة التي اكتشفها وهو يبحث عن مدخل بيكر، سَمع صوت
إطلاق نار قادم من ناحيتها، اندفع الجنود يقتحمونها، شاهدوا عدداً من
الأسرى معلق من أقدامه في شجرة الطلح، وقد جعل منهم صيادو العبيد
هدفاً للتدريب على إصابة الأهداف.

أطبق الجنود على عصاة الرقيق، ودفعوهم تحت تهديد السلاح إلى
حجرة جانبية، خرج سليمان الأسود عامل الحاج أبو السعود، يقبل يد
الملازم، ويرجوه العفو، موضحاً أن قافلته قادمة من قرية "ولسى" التي لا تتبع
المديرية، دفعه جانباً، حمل مشعل، ونزل الدرج وتاجر الرقيق يتبعه، توالى
القيعان مكدسة بحدقات سوداء لامعة، تومض بزعر وحيرة مروعين،
وعلى رؤوسهم وقف رجال عصاة الرقيق يهددونهم بالسيوف المعكوفة
بالصمت المطبق، لحين رحيل المصريين.

في الزريبة الأخيرة اصطدم بومض وحشي، عينان من نهر ساكن لا
عواصف ولا أعاصير، تجريان على طبقات عميقة من الغرين، وألق من
صفاء يبرق ذعرا، كانت تجلس هناك مقيدة بالأغلال إلى الجدران المخشرة
بالدماء، ترفع رأسها بكبرياء بين الفتيات؛ أميرة قبائل "المبورو" التي تقطن
المنطقة الشمالية لهضبة الكونغو، كل ما استطاع فهمه من ذاكرة
تتهاوى أمام لعنة التاريخ ولا نهائية الجغرافيا، أن الفتيات اللاتي يجلسن
وحيدات في نهاية الزريبة كن مكرسات للعبودية.

أدار وجهه عن الوهج الذي لسعه، صرخ تاجر الرقيق وقد وجد حبل
خلاصه: "عجبتك؟، دي هديتي لملك أو أمير، مخبيش عليك، طلبها منى

عمنا الكبير الحاج مسعود هدية للإمام المهدي، يا أخي خذ نصيبك من هذه التجارة الحلال ولا تسبب لي المشاكل يرحم والديك.

عاد ينظرها، أنثى مكتملة في الرابعة عشرة من عمرها، تحيط بها أربع صبايا أنكار، تنتصب بينهم في قيودها برفعة، حليقة الشعر، تحيط رقبتها حلقات من الفضة، تتدلى من أذنيها حلقات كثيرة، بشرتها الأبنوسية، ووجهها الماهوجني، اندلع كالحرائق، شيء لم يسبق له اختبار، ومضت عينها اللامعتان بالشرر ثنائية، شعرها تزوم بزئير الهررة المتوحشة.

لم يكن هؤلاء من يسعى وراءهم، كان يريد محاربو الآجار الذين استسلموا لقواته من الخطرية، وكان التاجر عثر على طوق آخر للنجاة، نفي أي علاقة بأسرى شامبي، وأضاف أنه أمضى أسابيع يسوق هذه القافلة التي جمعها من القرى الواقعة على نهرويلي شمال حوض نهر الكونغو، حتى الحكومة ليس لها شأن فهو عابر سبيل، وأخرج المصحف من صدره مقسما أنه لا يخالف الشرع الحنيف، "بذلت جهدا ونضحت وعرقا وأنا أعبّر بهم الغابات والمستنقعات، مات الكثير، وكلفوني الكثير، يا ريتنى أخذتهم لمشرع الرق، ومكنتش وقعت في المصيبة دي".

أصر شمروخ على إخلاء سبيل الرقيق، تركه الأسود وعاد مسرعا يحمل كيسا ممتلئ بالريالات، وضعه بين يديه، كان يضحك، وفمه الغليظ يكشف عن أنياب تننت: "لا غالب ولا مغلوب، خذ المال اللي يكفيك، نبيع الصبي بثلاثة دست ظروف جبخانة"⁽⁵²⁾، وخمس نبات ببندقية ريمنجتون".

تابع حرس الوابور عدد من القوارب تحمل أسرى محاربي محطة شامبي نحو الزريبة، وقد أوثقت أعناقهم بحبل غليظ، وأقدامهم بسلسلة حديدية ليدخلوا ساحة الزريبة تحت ضربات السياط.

وجدوا عسكر الجهادية بانتظارهم، وقد ركبوا أسوار الزريبة، خرج شاهرا سيفه، ليسمع للمرة الأولى النغم الرتيب لصرير سلاسل العبودية، وهي تغل سيقان المظلومين، أهذا ما يبحث عنهم؛ أسرى شامبي؟!.

52 جبخانه: كلمة تركية (Cephane) تعني الذخيرة، جبخانلك Cephanelik تعني مخزن الذخيرة. جبخانة: مخزن العتاد الحربي والمواد الحربية كالمفتجرات.

في منتصف ساحة الزريبة وقفت فصيلة الإعدام تنفذ حكما بالموت
على عسكر الخطيرة بتهمة الخيانة، وقف الرقيق كالأصنام، ينظرون
المحارب ينفذ حكمه على نخاسيهم؟

أمضى شمروخ الليل يكتب للبائسين صكوك
حريتهم، وعندما بدأت السنة النار تخبو، كان لا
يزال منكبا على طاولة صغيرة وهو يستمع
بصبر لحكايات المختطفين وعذاباتهم،
كانت الوجوه التي حررها لتوه، تشرق بطاقة
شمس الحرية، رحلت النساء في جماعات،
حاملات على رؤوسهن سلال بمؤن الطعام
وزعها بنفسه، ويتطلعن له بشكروعرفان،
تابعهم يرحلون واحدا خلف آخر عائدين لقراهم،
أرواح تتألق بمعنى الوجود الحي للسعادة البشرية، الحرية،

هبة بكر قدم من
أشجار الكاكاو
قدمت من أعالي فط
الاستواء لتسلم
جسدها لك وانت
غافل عنها..

العبودية، الرقيق، النفوس التي تباع وتشتري، روح النخاسة، شراصة
النخاسين، تجارة البشر، حججهم الشرعية، حرية النفس الإنسانية.

تنفس الطبيعة الممتدة لغابات ومراعى السافانا الأفريقية، أشرقت
روحه بألق العيون وبشر الوجوه التي تجد السير عائدة إلى قراها، وهي تحمل
في جوانحها روح الحرية.

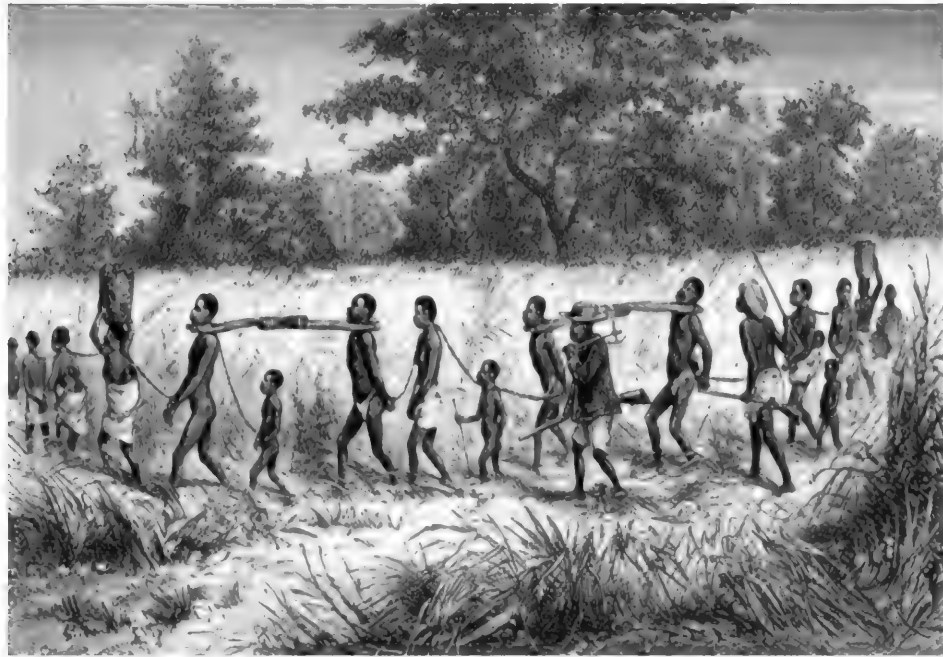
على ظهر الباخرة وقف الملازم الذي تعدى التاسعة عشرة، منتصب
القامة، ينظرهم يجلسون القرفصاء صفوفًا وجماعات، وعقله لا يتوقف
عن التساؤل؛ ما الذي يحدث؟ أتشهد مسرحية هزلية؟ أم قدر لك أن يقذف بك
مصيرك إلى مملكة العجائب، ترى ما لا يستوعبه عقلك، محفة تتهاذى
بتبطل كامرأة مغناج، تصعد من شفير النهر إلى سطح الوابور، يحملها
عدد من فتية غطيت أجسادهم العارية لبدة الأسود، لمظهرهم نبالة الأمراء،
تحط على سطح الوابور ببطء يشير زعيمهم، ويطلق لغة لا تفهمها.

في نهاية الوابور أنزل الشباب المحفة وتراجعوا باحترام، تبزغ
انعكاسات ضوء الصباح محمل ببريق الأبنوس اللامع، مركا العلقم أربع
صبايا يافعات، وجهت كل منهن وجهها بكبرياء إلى الجهات الأربع، وقد
ضفرن شعرهن الخشن في جدائل رفيعة تدلت على الجانب الأيسر من

وجوههن بأسلاك الذهب والفضة، كانت تربض وسطهن بشموخ؛ ابنة شيخ قبائل المبورو تجلس في منتصف الدائرة بين وصيفاتها، تنظر حولها مختالة، لا ترى أحدا، والكون لا يحتوى سواها، تلاقى عيناها، غدران صافية، مجدولة بوحشية الغابات، لبؤة صغيرة تتقرب في غموض بعينين واسعتين عالم الأنوثة، لبؤة لم تلمسها مخالب تليق بها.

والشمس تصعد من الأفق غادر الوابور مدخل بيكر، في طريقه إلى اللحاق بالحملات، وعلى سطحه جلس عشرات العبيد المحررين الذين ينتمون إلى نهر ويلي شمال حوض الكونغو.

توارى مدخل بيكر خلف أسنة النيران والدخان المتصاعد من زريبة العبيد، لتبزع أسطورة الملازم على شمروخ التي صكها على ضفاف بحر الزراف لتحلق مع العبيد المحررين إلى أفاق المديرية الاستوائية.



* * * *

الصفحة الثالثة

الحظير



بحر الجبل

الجدور

على تخوم خط عرض {5⁰}، رست السفن في
عرض النيل بانتظار دخول "لادو" عاصمة المديرية
الاستوائية، على سطح السفن وقف الضباط العرباؤون
وعائلاتهم والجنود يشهدون العلم المصري يخفق عاليا في سماء
الاستوائية، تشير نجومه وأهله إلى مكونات مصر الثلاثة؛ مصر، النوبة،
السودان بعرقية العربي والزنجي، سرت
القشعريرة في الوجدان، لكز شمروخ كتف
صديقه، وأشار إلى السماء:



- شايف يا وله، العلم المصري.

داخل قمرة القيادة شد اليوزباشي على أيدي ضباطه وقال:

- "مبروك يا حضرات، إحنا على خط عرض خمسة، بفضل مهارة أحمد
أفندي سليمان"، قال خلاف:

- "رحلة طويلة من ثكنات القناطر الخيرية حتى لادو".

وعقب مصطفى العجيمي: "وصلنا، ألف حمد وألف شكر لك يا رب".

تقدموا يحيون قائدهم، ومساعدته، ويتبادلون العناق والتهنئة بسلامة
الوصول.

تهادي ماعون التمساح مقتربا من المرفأ، على متنه وقف عسكري
الجهادية حاملين بنادقهم، في انتظار الأوامر بالنزول إلى البر، في منتصف
الماعون وقف حول الشيخ عمر الشلح جهاديون من نوع آخر، جهاديون
يرتدون الجبة والقفطان، ويعتمدون على رؤوسهم عمامة الأزهر الشريف،

جهاديون لا يحملون البنادق ولا السيوف، وإنما كتاب الله، يدعون إليه بالحسني والموعظة الحسنة.

تطلع المشايخ إلى جموع الأهالي، يستقبلونهم عراة عري آدم وحواء، بعضهم غلبه الخجل، وبعضهم غطي عينيه وهو يتعيز بالله من الشيطان الرجيم، شعروا جميعاً بأن مهمة عظيمة أقيت على عاتقهم، هداية جماعات من الوثنيين الكفرة، والزنادقة المفسدين الذين لم يطلعوا بعد على الدعوة لدين الإسلام الحنيف، ولم تصل قلوبهم رسالة التوحيد، وحده الشيخ عبد المعز الذي رأي عالم جديد من البكارة، عالم بدائي من قبائل وشعوب تعيش براءة الفطرة، وأن واجبه يدعوه كعالم لمد يد العون.

كان كابتن رودولفو كازاتي أول من صعد الباخرة، أشقر شاهق البياض، بدين يتدلى أمامه كرش صغير، اقتحم قمرة القيادة في معطف جلدي أسود ارتداه على الزي العسكري الخاص بالجيش المصري، اندفع إلى قمرة القيادة وغادرها متجاهلاً اليوزباشي، وهو يردد باستعلاء "ليس الآن كابتن"، واندفع يهبط درجات السلم المؤدى للطابق الأول، وهو يصيح:

- عزيزتي فرانسوا.. عزيزتي فرانسوا.

وجدها تقف بين نساء الحملة، ضمها بين ذراعيه، وأقسم بالرب يسوع أن أعصابه تحطمت في انتظارها، الآن هي بين يديه قطعة واحدة، وهمس بصوت سمعته النسوة:

- تحفة فنية وصلت لتوها من "غاليريا بورغيزي"⁽¹⁾.

أشار للجمالين بحمل أغراضها، تركته وذهبت تحيي النساء بحرارة، أمسك بساعدها وجذبها نحو السطح، من إحدى القمرات طاردها صوت فريدة: "فرانسوا".

التفت وراءها فوجدت الأطفال الثلاثة يقفون في الممر، عادت تجري نحوهم، احتضنتهم، سألتها مريم أين تذهب؟ قال جعفر بصوت واطئ كشخص مطلع: رايحة لجوزها.

نظرت إليه بعتاب، قال بانزعاج: "فيه إيه أنا غلط؟".

- أبدا، معاك حق.

(1) معرض بورغيزي: بالإيطالية: (غاليريا بورغيزي) معرض فني يقع في روما، إيطاليا.

همست فريدة: "هو أنت ح تسيبي اليوزباشي؟".
زم جعفر فمه محذرا: "أنت أجنت، ح توديهيا في داهية".
اتسعت حدقتا فرانسوا بابتسامة، ومالت تقبل الصبي من فمه، وقالت:
- أنا بكلم جنتلمان، واستدارت تقبل الفتاتين وتحدث أمه حباب:
- سيدة حباب أنت محظوظة، لديك رجلين.

بكت الطفلتان يطالبونها بالأ تتركهم، جذبتها ألفت ودفعتهما ناحية
كازاتى، وهي تبتسم بمودة، انصاعت وعيناها تختلجان بأسى الفراق،
تعانقت المرأتان، وألفت تقول: فيه إيه، هو إحناح نروح فين؟ ما أحناح
نعيش في غابة واحدة.

كررت النسوة وهن يضحكن: "غابة واحدة؟".
صاحت أميرة: "يلا يلا يا ولاد، نشوف لنا قفص نعيش فيه".
وعقبت سنية بصوتها الناعم: "يلا يا ستات، يلا يا هوانم، كل واحد
يدور على قفصه". سألت فريدة أمها وهي تحملها على صدرها:
- "ماما، هو إحناح نعيش في قفص؟"
قالت ألفت وهي تفتح يديها عن سعتيهما: "قفص كبيبيبيبيير..."
فتحت الطفلة ساعديها بفرح: هيبويه، قفص كبيبيبيير...
على سطح الباخرة تبادلن النسوة الغمز والضحكات المكتومة، وهن
يتابعن فرانسوا تأخذ بيد خطيبها ناحية الحسينى وتقدمه له.
- "شوفوا يا أخواتي الولية البجعة".
- "بجعة!! دى فاجرة!!".
- "يا عينى على الراجل المدهول الغلبان، من أولها كده!".
- مشهد دراما كلاسيكى؛ زوج وزوجة وعشيق.
سمعوا فرانسوا تقول: "صديقى، يوزباشى الحسينى قومندان الحملة،
وعقبت: "صنف نادر من الرجال".
همست ألفت: "شفتم بتقول إيه؟! صديقى".

تغير سلوك كازاتى، رفع حاجبيه واستعاد سلوك الجنتلمان، وانحنى
يقدم نفسه:

- كابتن رودولفو كازاتى مساعد الحكمدار. وأضاف: "ألست صغيرا
على رتبة يوزباشى؟"، ولم ينتظر إجابة، أسرع يحملها بين ساعديه متوجها

إلى سلم الباخرة، دفعته بلطف، وعادت إلى الحسينى تودعه، ضمته
بحرارة، وقبلته من وجنتيه، وهي تهمس في أذنه:
- عزيزى لا تتوقع أن تتخلص منى سريعا، إياك
هز رأسه جامد الملامح: مين؟ "أنا؟"
لوحت له وهي تختفي وراء سور الباخرة وهي تصيح: "من تعتقد؟".

أطلقت الباخرتان صافراتها، وتبادل جنود الإشارة بالأعلام نقل أوامر
دخول الميناء، نزلت الأورطة التاسعة إلى البر تتقدمها فرقة الموسيقى تعزف
مارشا عسكريا، والمدفعية تستقبلها بإحدى وعشرين طلقة، رأى الجنود
العلم المصري يرفرف في السماء، فكأن الوطن يتخلق من جديد، بجواره
خفت عشر رايات، يتوسط كل منها حيوان يرمز
إلى أقاليم مديريةية خط الاستواء العشرة⁽²⁾.



البكباشى عثمان أفندي لطيف
وكيل المديرية الاستوائية

تصدر أمين بك⁽³⁾ حكمدار مديريةية خط
الاستواء المستقبلين؛ متوسط القامة، تهيمن على
وجهه عيون نفاذة، ولحية سوداء غزيرة، عن يمينه
وقف البكباشى عثمان لطيف وكيل المديرية،
والقائمقام النور بك محمد⁽⁴⁾ قائد قوات محطة
لادو، وبجواره قائم مقام بخيت بك بتراكى⁽⁵⁾

2 (الأقاليم العشرة التى تتكون منها مديريةية خط الاستواء: إقليم الرول Roll ، إقليم بور Bor ، إقليم مكرাকা Makraka ، إقليم لادو Lado ، إقليم كيري Kiri ، إقليم دوفيلي Dufile ، إقليم فويرا Fauvera ، إقليم لاتوك Latuka ، إقليم فاديبك Fadibek ، إقليم مونبوتو Monbuttu .

3) محمد أمين باشا Emin Pasha (28 مارس 1840 - 1892) اسمه إيزاك إدوارد شنيترز Isaak Eduard Schnitzer ، ولد في أويلن في سيليزيا "Schlesien" ، ذكر بعض المؤرخين أنه ابن لتاجر بروتستانتى وأم يهودية، عمل طبيباً في ميناء ألباني خاضع لتركيا. تعلم اللغة العربية. غير اسمه إلى "محمد أمين" وادعى أنه تركي واتجه إلى سوريا ومصر ثم السودان، دخل الخرطوم مغلماً في ديسمبر سنة 1875م، قدمه جيغلر باشا كتابياً إلى كولونيل تشارلز غوردون باشا حكمدار السودان، استدعاه عام 1876م للعمل كطبيب للاستوائية، في 10 يوليو سنة 1878 طلب غوردون إطلاق يده في تعيين وفصل مديري أقاليم السودان دون الرجوع إلى الحكومة المصرية، وافقت مصر في 12 يوليو بشروط معينة، ولكن غوردون أكد رغبته في تغيير جميع المديرين المصريين والعرب بأوروبيين بحجة خوف تجار الرقيق من الأوروبيين، واقترح غوردون تعيين الدكتور أمين بخط الاستواء ومسيو جسى ببحر الغزال ومسيو فردريك روسيت (الذي عمل قنصلاً لألمانيا بالخرطوم) بدارفور، أبرقت مصر في 20 يوليو 1878 بموافقتها علي تعيين الأوروبيين الثلاثة في مناصبهم المذكورة.

4) قائمقام النور بك محمد: سوداني الأصل، ولد في سنار - التحق بالجيش المصري، عمل مع بعثة بيكر بالمديرية الاستوائية من 1869 إلى 1873 واشترك في العمليات الحربية بإقليم تاكمه استدعى للخرطوم في سنة 1886م، شارك في القتال ضد المهديّة في حملة لموطنه الأصلي سنار سنة 1884م.

5) قائمقام بخيت بك بتراكى: زنجي مسقط رأسه تاجالا Tagala ، ذو قريحة وقادة وشهامة فائقة، اشترك في حملة الجيش المصري في المكسيك بين عامي 1863 - 1867م وحين عاد عين ملازماً ثانياً ثم نقل إلى السودان، حيث عمل بالمديرية الاستوائية في عهد إدارة بيكر، رقى إلى رتبة قائمقام بالجيش المصري، وعين مأموراً لإقليم مكرাকা في 1878م.

واليوزباشى رودولفو كازاتى، يمسك يد خطيبته فرانسوا دى سابل، خلفهم الضباط والموظفين العاملين في المديرية⁽⁶⁾.

على المنصة جلست السيدة سارة زوجة الحكمدار، وابنة زعيم قبائل المكراكا، قصيرة بدينة، ترتدى فستانا من الكتان الأبيض، يكشف عن نحرها، يطل شعرها من أطراف عمامة لفت بها رأسها في إشارة إلى كونها امرأة مسلمة، بجوارها جلست زوجات الضباط، لوحت زوجتا الملازمين محمود ومصطفى العجيمى لزوجيهما بمناديل بيضاء، كانتا سعيدتين باستقبال لم تتوقعاه.

على الأرض جلس شيوخ قبائل الدينكا، والمكراكا، والباري، وحولهم احتشد الوطنيون يلوحون بالتحية، وسمعت زغاريد النساء بألحانها الثلاثة؛ مصرية وسودانية عربية وزنجية.

وقف الحسينى منتصب القامة، تضى بذته العسكرية أزرار نحاسية تبرق بلون الذهب، يتدلى من خاصرته سيف وغدادة، وقد وشى بنطاله الناصع البياض بشريطين من الحرير الأحمر، وخلفه أثني عشر ضابطا شاركوا في الثورة الدستورية الأولى، بعضهم درس العلوم العسكرية في باريس، بعضهم شارك حروب الدولة العثمانية، جميعهم مسه الحلم بمجد مصر القديم، جميعهم أصابه حلم محمد عبيد بإقامة الجمهورية:

- أشرطة - انتباه -

- أشرطة كتفا سلاح -

- أشرطة جنباً سلاح -

دقت أقدام الجنود، فاهتزت الأرض، رفع سيفه أمامه ووضعها باستقامة رأسه، وتقدم بخطوة منتظمة ليقف أمام الحكمدار.

تحدث أمين بك معبرا عن سعادته، بقدوم الحملة، مقدرا الجهد الذي بذله قادتها للإبحار ضد التيار، وضد الجنادل والسدود والمساكات، لكن القاصى والدانى يعلم معدن الجيش المصري وقدرته على تحمل الصعاب.

سلطان

(6) موظفى المديرية في ذلك الوقت: أحمد رائف معاون المديرية الأول، والبكباشى عثمان لطيف وكيل المديرية، والقاضى الشيخ عثمان أرياب، والشيخ عثمان حميد أمام مسجد لادو، ومعلم المدرسة الحكومية، بقطر أفندي باسيلي رئيس قلم المستخدمين، فيتا حسان الصيدلانى.



محمد أمين باشا

ايزاك إدوارد شنيترز Isaak Eduard Schnitzer

حكمدار المديرية الاستوائية

1888 – 1878

وذكر أن الأورطة التاسعة حملت معها البذور والتقاوى لزراعة
محاصيل جديدة، فالقوات المصرية دأبت على استصلاح الأرض وزراعتها،
حتى لا تقاسم الوطنيين طعامهم، وانتشرت بفضلها بساتين الليمون
والبرتقال وأشجار الرمان، وقد جعلت من مقاومة تجارة الرقيق هدفا نبيلًا،
فوفرت فرص عمل للدناقلة الذين يعملون في عصابات الرقيق، لكفهم
عن الشر، وسيشهد التاريخ أن الحكومة المصرية لم يكن لديها مطامع في
خيرات البلاد التي فتحها، وسيدان لها بالفضل بأنها كانت أول دولة
متحضرة في العالم ترسل قوات عسكرية، للقضاء على تجارة الرقيق.
حيوا معى الضباط والجنود الذين جعلوا الحرية أهم من الغنائم، وأرسل
قائدهم قواته لتحرير من قدر لهم الاسترقاق، وقال لهم اذهبوا فأنتم الأحرار،
فقدموا الدليل على المهمة التي حملها الجيش المصري على عاتقه من أجل
القارة السوداء، والتي أوكلنا بها مولانا وسيدنا سعادة الخديوى توفيق
المعظم، حيوا معى خديوى مصر المعظم.
هتف نور بك محمد قومندان لادو وتبعته القوات ثلاثا:
- يحيا الخديوى المعظم.

* * * *

.. أين أنا؟

وما الذي يجري

أما هي؟

له.. يا طيور من

زيرجد.. يا نيل من جنة

..يا فضاء لا نهاية

فضة.. يا سماء من

حكى عنه المصلوب على صارى يطال السحاب.. أهو الجحيم؟ أم النعيم؟

.. أين أنا؟ وما الذي أشهده؟ وما هذا العلم الذي يثير شعورا بالرفعة، أو

يخلف انطبعا بالشفقة، وهم يعبث بعقلك؟ تأتي القبائل تنحنى

صاغرة، تقدم لجيشك عرابين الولاء، أى مصير مضمخ بالرثاء؟

من أنا؟ من أكون؟ تعتورك أيام فاضت بالفخار، لتستيقظ على صباح

ترفرف على سمائه رايات بالخيانة.

يطل السؤال المعلق على رقبة التاريخ.. لماذا تجنب البريطانيون اقتفاء

أثر حملة فريزر، وقاد الثورة زعماء لم يتعلموا من الفن العسكرى سوى

السير بانضباط، ليكتشفوا أثناء المعارك جهلهم،

النظام دليل البلهاء

فالنظام.. كما قال المارشال فوش.. دليل البلهاء.

هنا على مبعدة آلاف الأميال من خط النار الذي تهاوى في التل الكبير،

تتفتح حواسك على واقع جديد، برق يخطف الأبصار، دقات طبول، حلقات

الراقصين، حشود غفيرة من القبائل يلوحون بالرماح، رجال

ع: عرى

ونساء وطيور وحيوانات جميعهم عراة كما خلق

مثل نهر.. مثل غابات..

الله كائناته في نعيمه.

□ سهول.. برارى..

مثل عصافير الزرزار..

غزلان وعول البرية

في فقاعة من زمن البكارة تحلق مع العلم

الذي ارتفع خفاقا في سماء الفردوس الذي اصطفاه

الرب لأوائل خلقه، توقظك من غفوتك رقصات

وحشية لنساء ومحاربى قبائل المكاركا.

يطل على المشهد رسول قبائل "المبورو" يغطى رأسه

لبدة أسد، تحدث مع أمين بك الذي كان يستمع إليه باهتمام، وكلاهما يشيران بالأيدى والنظرات نحو الملازم على شمروخ، ينتهي الحديث، يتقدم الزعيم نحو الملازم على شمروخ وينحنى الرسول انحناء قصيرة، يهمس أمين بك في أذن شمروخ، قائلاً:

- "شمروخ أفندي، عندما نجلس الليلة على العشاء سوف تحكى لى ما حدث في زريبة بيكر؟".

* * * *

في المساء استقبل الحكمدار ضباط الحملة ونساءهم، كان يتحدث عربية ركيكة، قيل إنه تركي وقيل إنه ألماني الأصل، يحمل جنسية البانية، وهو الآن موظف لدى الحكومة المصرية، جواره جلست زوجته، التى تولت بنفسها استقبال زوجات الضباط منذ وطأت أقدامهن مرفأ لادو، وقامت على رعايتهن بحنان أموى لنساء حديثات العهد بالزواج وأمهات صغيرات يصارعن الحنين إلى الوطن، أعطت لكل زوجة كوخاً للإقامة وسط عائلات الضباط، وعندما قدم للعشاء كن يشعرن بألفة بالغة للسيدة سارة محمد أمين بك.

.. عبيد في الوطن،
سادة بين الأمم..
أم حشراء في نعيم ممنوع؟

دارت أحاديث كثيرة، زواج الأخوين العجيمى من أختين هما ابنتى العم، وكيف التحقت ألفت هانم السلحدار بزوجها إلى أقاصى المعمورة، والدور الذي لعبه القدر في إنجاز زواج السيدة سهيلة من الملازم شلعى، وعندما عرج الأمر على أحداث شامبى وتمرد قبائل الأجار، قال الحكمدار إنه يتحمل الذنب، لأنه وضع على قيادة إقليم الرول ضابطاً من قبائل البارى، بلا خبرة سوى أنه من الوطنيين، ويعمل ترجماناً في الجيش. استمع الضباط لأمين بك، وهو ينتقد نفسه ويلومها وكأنه يعذبها، كان يستمتع وهو يروى حكاياته، بأن يشار إليه كمحرر للعبيد، أشار إلى شمروخ موضحاً أن الدناقلة قوم خطرين لا يؤتمنون، يقطعون اليد التى تحسن إليهم، وقال إن ما فعله في زريبة بيكر كان صواباً، سيعود على المديرية بنتائج طيبة، خاصة أن الصاغ منتصر يستعد لضم إقليم مونبوتو،

وقال إنه واجه الأمر نفسه فى محطة جوك الحسن، عندما كان فى زيارة تفتيشية على إقليم الرول.

أثناء الطعام أعرب عن نيته فى السفر على الباخرة "تل حوين"، ليلتقى زعيم قبائل البارى فى الرجاف، وأنه حالما يعود سوف يناقش مع البكباشى نور بك محمد توزيعهم على الأقاليم، نظروا إليه بامتنان، وبدا لهم أن المدير يتمتع بالطيبة، قدم اليوزباشى امتنان ضباطه وشكرهم على حسن استقبال المديرية لهم، تجاهله ثم قال بغتة:

- "ألن تسألوا عن نوع اللحم الذى نتناوله الآن؟

رفعوا رؤوسهم مبدين إعجابهم بمذاقه، قال الحكمدار بصوت بارد:

- حتى ولو كان لحما بشريا؟

حل الصمت، وتوقفت الأفواه عن المضغ، وتجاهل فوزي وشمروخ ما سمعاه، جرى بعضهم يقى ما فى جوفه، وتطلع أحمد سليمان لزوجته، صفق بأمين بك مستغرقا فى ضحك، وهو يشير إلى فوزي وشمروخ:

- "أنتما من أصحاب القلب البارد، سترحلان إلى إقليم مونبوتو، لمواجهة تمرد قبائل (الأبراموس)، وهز رأسه سعيدا وكأنه رجل يفهم:

- "ح تروحوا مع منتصر، إلى قبائل تأكل لحوم البشر، عموما رئيسكم الجديد بيحبه".

نظرت زوجته إليه بعتاب، وقالت كسيدة محنكة:

- "لا تسيء لسمعة منتصر أفندي"، وأضافت: "إذا كنت تريد أن تختبر ضباطك، فلا تفعل أمام النساء، لقد أثرت ذعرهن".

- طيب طيب، أعتذر.

- "الآن تعرفون من يحكم خط الاستواء، هذا سر أحب ألا يعلم به أحد خارج هذه القاعة".

عادوا يتناولون الطعام، وقد فقدوا حماسهم، وعندما انتهوا من تناول الشرابات المسكر، أشارت السيدة سارة لهن، تلفت انتباههن كى يستمعن إليها، وهمست تحذر النساء من أن تغفل عيونهن عن أطفالهن، وأضافت مشددة: "لحظة واحدة، ولن تجدوهم".

قالت حباب: "شنووين يروحوا".

- فين تروح الطيور المذبوحة، فين يروح لحم العجول، حباب هانم: "هنا".
وربتت على بطنها، وقفت سنية من هول الفكرة، وهي تشير إليها برعب:
"هو أنت بتاكل الأطفال؟"
صرخت تنفى: "لا، لا، لا، لا، سيدة، أنتم حديثى العهد بقبائل المديرية
الاستوائية، يصعب عليكم التفريق بين من يأكلها ومن لا يأكلها
وسط هلع النسوة، ومخاوف الضباط، تبادل خلاف وزوجته ألفت نظرات
مليئة بالكراهية، وعيناه تعنفانها... لماذا جئت معى، أنت وابنتك؟"
طلب اليوزباشي من الحكمدار أن يأمر بوضع حراسة على أكواخ
عائلات الضباط، استدار إليه ونقره بأصبعه في صدره قائلاً: "جيد،
وأنصحك أن تكون الحراسة من عسكر الجهادية المصري أو السوداني".

* * * *

أمام قادة المديرية قال الحكمدار لليوزباشي الحسيني "أطلعنا على
ملفكم، وهو ممتلئ بالجد والاجتهاد"، وأضاف ضاحكاً: "والتمرد
والعصيان، هل هذا بسبب سفركم باريكس، باريكس تترك لمن يزورها ثلاث
لعات؟ النبيذ، والنساء، والثورة، هل درستهم حقاً فن الحرب؟".
- تاريخ الفن العسكري، واستراتيجيات الحروب النابليونية.
- أين؟
- أكاديمية سان العسكرية.
زام الحكمدار وقال باهتمام إن لديه توصية من سعادتلورئيس النظار
شريف باشا يثنى عليكم، ويطلب العناية بكم، هل لديكم به قرابة؟
- هو أبى الروحى.
- هاها. أعرب الحكمدار عن رغبته في إنشاء مدرسة لتدريس الفن
العسكري، وقال إنه الشخص المناسب لإدارتها، فأجاب بأن لديه مهمة
أوكلتها إليه قيادة أركان الجيش ونظارة الأشغال خاصة برفع قياسات
مجرى نهر النيل وتدفعاته.
ضحك، وقال: سستبقى معى، وأشار إلى شمروخ: "وأرسل هذا الشاب
الصغير إلى قدره، سيلتهمونه في مونبوتو".

وقف ضابط في الخمسين من عمره، يؤدي التحية العسكرية بجديّة مسرّفة، وصرخ: "تمام ضابط همام، لأجل خاطر عيون سيدنا ومولانا الحكمدار، كلنا فداك وتحت أمرك"، أخذ يمسح عن كتفيه غبارا غير موجود، نهره الحكمدار:

- "أقعد يا إبراهيم أفندي، أنت إيه جابك، سايب محطة مكراكا ملين؟".

انحنى قومندان مكراكا اليوزباشي إبراهيم جورجورى بدوئية، وأخرج منديلا من الدمور يمسح به جزمة الحكمدار، وهو يقول:

- "نعل سعادتك فوق رقبتى، إحنا هنا خدامين جزمة سيادتك".

أشار عليه الحكمدار بالصمت، ومال على وكيل المديرية عثمان أفندي لطيف يسأله بحرص: "أين يقيم حضرة اليوزباشي؟".

- على وابور النيل؟

سأل بغضب، كيف تتركون الضباط دون تقديم الراحة الواجبة لهم، وأضاف بسخرية وهو يشير إلى الحسينى، "هذا موصى عليه من سعادتو شريف باشا، ماذا بعد ناظر النظار؟ لا يوجد سوى أفندينا يا حضرات".

وجه حديثه إلى البكباشى النور محمد:

- أين بنات المبورو؟

- في الثكنات.

- جهز قوه تصحبهم إلى مونبوتو، وأرسل مكتوب لمنتصر أفندي كى

يسلمهم بنفسه إلى الشيخ مبورو.

اعترض كازاتى وطلب أن يقوم بهذه المهمة بنفسه.

تساءل الحكمدار: "لماذا كابتن كازاتى، احتاجك بجانبى".

انحنى كازاتى يهمس لأمين بك ينبهه إلى أن هذا يقوى شوكة منتصر فى حوض نهر الكونغو.

خلع الحكمدار عويناته ينظفها، وقبل أن يوافق على طلب كازاتى،

تدخل النور بك وهو ينظر اليوزباشي:

- "لنعطى المهمة لصاحبها".

- "ها إيه رأيك؟".

قاطع كازاتى الحكمدار: "هذه ليست مهمة اليوزباشي سعادتك".

- مهمة من كابتن كازاتى؟

أشار إلى الملازم شمروخ، تبادل العراقيون النظرات، قالوا إن شمروخ حديث العهد على مأمورية مثل هذه، لكن كازاتى قاطعهم وقال:

- "هذا قاتل، أعدم عساكره من الخطيرة وهو بعد على حدود المديرية".

ضيق شمروخ من عينيه، ولم ينبس بكلمة سوى القول إنه تحت أمر الحكمدار، الذي دعاه للجلوس بجانبه، يتخيل جثته ممزقة بين الضواري وعصابات الرقيق، سأله: "أنت اللي حررت الرقيق في زريبة مدخل بيكر؟".

- نعم افندم.

- وأعدمت الخطيرة اللي تاجرت في الأسرى؟

- نعم افندم.

طرق المنضدة معلنا بنبرة ساخرة، أنه سيتولى شخصيا راحة شمروخ أفندي، لأنه تصرف بشجاعة، وعليه أن يعيد للشيخ "مبورو" بناته بالاحترام الواجب، وأضاف بنبرة ودودة: "والآن هل ستتطفون عليّ ببريد الحكومة؟".

قدم اليوزباشي صندوقا يحوي اثنين وخمسين ألف ريال، دفعت الحكمدار كى يعلن أن الحكومة المصرية أرسلت الرواتب المتأخرة منذ عام 1879، ساد الفرح القاعة، وانكب الحكمدار يقرأ خطابه.

المكتوب الأول من شريف باشا ناظر النظار ينبئه بتقدير الحكومة المصرية لمشروعات استزراع محاصيل وفواكه جديدة، يعمر بها المديرية الاستوائية، وتطور الإقليم.

المكتوب الثانى من الجنرال أستون باشا، يعتذر مع تقديره الشخصى لمشاريعه، عن مده بما يطلبه من تقاوي، بسبب الحوادث التى تمر بها البلاد.

المكتوب الثالث من رئاسة أركان الجيش، خاص بالمهمة الموكلة إلى اليوزباشي الحسينى عبد الغفار برفع قطاعات أعالي النيل، وقياس تدفقات المياه، لاستكمال دراسة نظارة الأشغال والرى بإنشاء خزان جنوب أسوان، وتضمنت تعليمات هيئة الأركان أن توفر المديرية لليوزباشى ما يلزمه من أفراد وتسهيلات من وسائل نقل وخلافه.

المكتوب الرابع من اللواء رءوف باشا يقضى بالتأكيد على ترقية حواش منتصر إلى رتبة صاغ.

المكتوب الخامس؛ من سلاطين باشا جاء فيه: "أن من معالم السخرية أن وصولي إلى الخرطوم، جاء وقت ظهور دجال يدعى أنه المهدي المنتظر، ويزعم أنه مختار من الله، وهو يخفى راية العصيان، التي نشرها في ربوع السودان، لكن الحكومة المصرية سوف تحل الأمن والسلام، بفضل الضباط الأورباويون"، وما يملكونه من قوة شخصية، وحنكة عسكرية.

عندما انتهى طلب من عوض أفندي مأمور المخازن وبقطر أفندي رئيس قلم المستخدمين تقديم كشف توزيع مرتبات الجند والمؤن والكساوي على الحاميات العسكرية، وإرسالها في التو والساعة.

في تلك الليلة دارت خلافات على فراش الزوجية بين النساء ورجالهن، سهيلة أعطت ظهرها إلى شلعي، وهي تدفعه بفضاضة، كيف سمح ضميره بأن يأتي بها في بلاد تأكل البشر، حاول أن يأخذ الأمر على محمل الهذر، لكنها أقسمت ألا يمسه شعرة منها، إلا بعد أن يعود بها إلى منقباد. تساءل وهو منزعج: "افرضي قعدنا ثلاث سنين"، قالت وهي تبتعد عنه: "ثلاث سنين، عشر سنين، متقربش مني والسلام".

في الغرفة المجاورة، تابعت أميرة زوجها الملازم حسن سليمان، وهو يطمئن على ابنته مريم، ملاك قمحي اللون يحمل خليطا من بشرته السوداء، وبياض زوجته وشعرها الفاحم السواد، شاهدت القلق يتدفق من عينيه، عندما تمدد جوارها، استدارت نحوه وهمست: "متخافش عليها، والله في سماه لو بياكلوا الجن مش البشر ما يقدرُوا يهوبوا ناحيتها، خد بالك أنت من نفسك يا أخوي وما تقلقش علينا".

حباب لم تنبث بكلمة، انتظرت حتى تمدد جوارها، ضمته بحنان جعله ينفث عن أفكاره: "غلطة ومش عارف ح نعمل فيها إيه؟ فعلا سالم أفندي كان عنده حق"، وأضاف وهو ينظر إلى

السقف: "تعرفي، ح اتصل بعمي إدريس، يشوف

قافلة راجعة الخرطوم، أبعثك معاها أنت وبشير

وأميرة ومريم، لكن المشكلة أميرة مش ح توافق،

ربنا يهديها. دفنت رأسها في صدره، تاركة نهديها

العامرين ينغرزان بثقل جسدها الريان على جسده

العامرين ينغرزان بثقل جسدها الريان على جسده

القوى، وهي تعاتبه في سرها، أخص عليك يا ابن عمى... يعنى أنا اللي ح أرضى أسيبك.

في كوخ مجاور دعي محمود العجيمى أخيه لصلاة ركعتين شكر لله، لم يستفسر أخوه عن السبب، فالله يشكر ويحمد على أى حال، ولما انتهى زاد ركعتين وأربع، وعندما بلغ ثمانية، سأله: "يا أخى قل لى إيه الموضوع؟ ربنا يشكر على كل حال، بس اعرف عاوز تشكره على إيه؟" - "وعاملى ضابط بياده حضرتك".

- خذنى على قد عقلى.

- "نحمد ربنا ونشكره، إن معندناش عيال، قلبنا يتاكل عليهم.

امتلات الغرفة بالضحك، نظر إلى زوجته، وعيناها تغرورقان بالدموع: - "خير اللهم ما اجعله خير"، لكنها لم تتوقف، نظر إليها شذرا، مد يده الخشنة، وأمسك ساعدها: "فيه إيه يا سنية مالك، كلامى مش عاجبك؟" كانت يدا الأختين تمسكان ببطنيهما، وعندما نظر إلى أخيه مصطفى لاحظ أنه يحتضن كتف امرأته، التى جلست مهمومة، أشرق عليه الفهم، وهو ينظر بطن زوجته وينظر لأخيه وزوجته بتساؤل - "الأتنين حامل يا أخوي".

- الأتنين!!

سقط محمود مهزوما، جذبته مصطفى: "قوم بقى نصلّى ركعتين شكر لله على نعمة الطفلين اللى وهبهم لنا، يلا يا أخوي".

وقف الأخوان يصليان، استغفر محمود واستعاذ بالله من الشيطان، ودعى الله أن يغفر غفلته، وأثناء سجوده لم يتوقف عن الدعاء للطفلين بأن يهبهما الله حمايته.

وجد سالم خلاف زوجته نائمة على الأرض تحتضن ابنتهما، أيقظها يدعوها للنوم على الفراش، ونام مكانها كما تقتضى الأصول، دفعته بغضب، وألقت بالوسادة في وجهه، وصرخت تسأله عن الأصول التى جعلها تشعر بأنها امرأة وحيدة على بعد آلاف الأميال من بيت أبيها، لم يجد ما يقوله، سوى أنه جذب الحرام، وافترش الأرض على الجهة الأخرى من الفراش.

* * * *



عاصمة المديرية الاستوائية، تقع على البر الغربى
 لنهر النيل على بعد أربعمائة كيلومترا من خط
 الاستواء، تحيط بها البرارى والمستنقعات، أسوارها
 المستقيمة صنعت من عيدان الغاب، أكوأها مستديرة واسعة بنيت من
 البوص والغاب المغطى بأغصان الأشجار وأوراقها،
 أرضياتها طين مطبوخ بالماء والقش، تفصلها شوارع
 واسعة، عارية من الأشجار، تخلو من الحوانيت، في
 منتصفها شيد مساكن الحكمدارية،
 ومستودعات الحكومة، ومخازن السلاح.

الكود
 ع: عرى
 يا العار.. لقد خدش
 الإنسان المتحضر
 فداحة العرى فى جنه
 الرب.

في يوم السوق يخترق شوارع لادو أهالى القبائل
 المجاورة متوجهين إلى الساحة، عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، على
 رؤوسهم سلال الموز ومنتجات باحات أكوأهم من طيور وحيوانات داجنة،
 يبادلونها بالحبوب والخمر والخرز الملون، حيث البيع والشراء يعتمد على
 المقايضة⁽⁷⁾، كان عريهم يولد لديهم شعورا بالخزى والخجل، فيتسولون
 مزقا من أقمشة يغطون بها عورتهم، وكان المتحضر خدش براءة العرى في
 جنه الفاطر.

تحتوي حوانيت لادو رفوف خاوية وأثواب القطن والدمور وبعض
 المشروبات الروحية، وكمية من المواد الغذائية، لم تكن هناك حاجة
 لأكثر من ذلك، فالحكومة تحتكر التجارة، والإدارة توزع على العاملين
 كافة احتياجاتهم المعيشية، وتخصصها من رواتبهم، بينما الأهالى يقضون
 حوائجهم في عالم بدائى من التبادل العيى.

في الصباح الباكر كان الأهالى يشاهدون الصيد لانى؛ شاب في
 الخامسة والعشرين، يرتدى معطفا أبيض، يحيه الأهالى وهو في طريقه
 إلى كوخ أقيم في منتصف السوق، يستقبل فيه المرضى من القرى
 المجاورة، كان صبورا بشوشا لا يمل من خدمتهم،

(7) كان العاملون في الإدارة المصرية يحصلون على رواتبهم سلعا وبضائع عينية من مستودعات الحكومة.

تموج السوق بعائلات العاملين بالمديرية، تكشف أزياءهم عن جنسياتهم؛ مصريات سافرات، سودانيات ينتمين إلى القبائل العربية ترتدين الساري، ويتسربل الرجال بالدمور والكتان الأبيض، وطنيات دخلن الإسلام الحنيف بزواجهن من المصريين والسودانيين، يكشف عنهن سواد البشرة الفاحم، الشعر القصير الخشن، مع ميل لكشف أجزاء واسعة من نحورهن، أو ترك نصفهن الأعلى عاريا.

يدور الحديث بين الوافدات حديثا والمستوطنات القدامى حول الأهالي، وكيفية التواصل معهم، والكلمات التي تساعدن على شراء احتياجات السوق، حوار دائما ما ينتهي بتحذير حازم: - أحذرن على أطفالكن، فإذا خطف أحدهم فلن تروه ثانية.

عندما يأزف العصر يخلو السوق من مرتاديه، ويتحول المكان إلى بقايا جماعات جاءت ورحلت، يجمع الصيدلاني محاليله وأدويته عائدا نحو الصيدلية. التي كانت مفخرة لادو.

في طريقه إلى المستودعات الحكومية خاض الحسينى وسط الأهالي الذين تجمعوا أمام مستودعات الحكومة، يوردون العاج الذي فرضته الحكومة جزية عليهم، وحمولات ريش النعام⁽⁸⁾، وهم يبذلون ما في وسعهم لاسترجوعهم، رحب به عوض أفندي مأمور المخازن، وبعد أن أنهى معاملاته توجه إلى الصيدلية.

وقف أمامها لا يخفى إعجابه، كانت ذات طابع معمارى ينتمي إلى القاهرة الخديوى إسماعيل الحديثة، شيدت من الطوب الأحمر، وطلبت بالأبيض، وغطت حائطها خزانات خشبية فاخرة، وواجهات ورفوف زجاجية استحضرت من الخرطوم، وصفت بقوارير تحوي محاليل وأدوية طبية.

خلف المنضدة وقف فيتا حسان⁽⁹⁾ صيدلى المديرية وطبيبها، متوسط القامة، ضعيف البنية، يرتدى عوينات طبية، شعره غزير السواد، تميل

(8) كان سعر الرطل من ريش النعام الأبيض صنف "العوام" عالى الجودة ثمانية عشر ريالا للرطل، وأثنى عشر للأسود متوسط القيمة، وثلاثة للأشهب العادى، وكان التجار يحصلون على نصف قيمة الثمن، ويقوم معاون المديرية بحجز النصف الثانى ضريبة عليهم.

(9) فيتا حسان: يهودى ولد لأب يعمل مترجما في قنصلية سردينيا بتونس، بدأ تعليمه بالإسكندرية واضطر لعدم إتمامه بسبب فقر عائلته، التحق كمساعد صيدلى بقصر إحدى الأميرات بمصر، ثم تولى إدارة معمل كيماوى بالقاهرة وله من العمر 19 عاما. ثم عمل في الحكومة المصرية بالقسم الطبى، وفي عام 1880 نقل من العريش إلى السودان ومنها للمديرية الاستوائية، وصل لادو عاصمة المديرية في يناير 1881 حيث بقي عشر سنوات تقريبا مع

ملاحمه لشعوب البحر المتوسط القديمة، كان مستغرقا في عمل مطهر،
لامرأة وطفليها، طرق اليوزباشي الباب:

- فيتا أفندي حسان؟

- وأنت كابتن حسيني، تفصل حضرتكم؟

- قالوا لي أن صيدليتك تؤمن علاج لكل الأمراض.

ضحك الشاب ذو الأنف المعقوف، وقال: "عدا ثلاثة أمراض؛ الطاعون،
والحب، والحنين للوطن، لو كنت مريض بواحد منها، وفر وقتك، وشوف حد
غيري".

- "معاي طلبيتك من القاهرة".

في الخارج وجد صناديق ممتلئة بالأدوية والعقاقير والمحاليل الطبية،
طلب من عماله أن يحملوها إلى الداخل، وعاد بالهجة تسطع على وجهه.

- "أعمل لحضرتك فنجان قهوة". وأضاف وهو يصنعها: "نادر أن يمرض
أحد، مرضهم الوحيد هو داء (الفرانتييت)، وعدد قليل مصاب بالزهري، نقله
الدناقلة إلى نسائهم، ولكن أعذرني فاتني أن أطمئن عن أحوالك، هل
دبرت سكن؟

وأشار إلى الأكواخ: "لما جيت لادو كرهت السكن فيها، تشعرك أنك
تعيش في العراء، أضاف باعتزاز: "بنيت منزل حقيقي، عملت قالب خشبي،
ومعجنة طين، صببت أربعين ألف طوبية، وحرقتهم وبنيت بيت جديد،
والصيدلية، اتفق مع رائف أفندي معاون الحكمدار، يمدك باللى تحتاجه
ويخصمه من راتبك. أيه رأيك؟

- "ما دنا في أفريقيا، نجرب الأكواخ".

- أنت بالذات محتاج منزل من الطوب الحجرى، سبقتك شائعات عن
تورطك في علاقات نسائية، وأضاف: أتعشى معانا النهاردة؟

- "على فكرة عندي لك خطابات، عاوزها؟"

- "طبعا طبعا ولا إيه رأيك؟".

الدكتور أمين وخرج معه ومع ستانلي في عام 1889 إلى بجامويو قرب الساحل الشرقي لإفريقيا، توفى عقب وصوله
وهو صغير السن متأثرا بمرض نقص التغذية والإرهاق البدني الذي أصابه أثناء رحلة العودة الشاقة، كان أمين يقول
عنه "جيد كالذهب"، ألف كتاب عن المديرية الاستوائية سماه "الحقيقة عن أمين". كان الصديق المقرب
للحكمدار يأنس إليه ويصحبه في رحلاته، رغم فارق السن بينهما، كشفت الأحداث عن ميل الحكمدار إلى
تبادل المشورة مع الصيدلانى الشاب فى كل حدث جلل، وكل موقف يصعب عليه مواجهته، وحتى النهاية ظل
الصيدلانى المستشار المقرب من أمين بك. كان من عيوبه تقلب أهوائه وتصرفاته الصبائية أحيانا.

فتح الصيدلانى درج خزانته، وأخرج بملعقة مسحوقا، وطلب من المرأة أن تتناوله لطفليها بعد الطعام، فلما غادرت الصيدلية أخرج قدرا من الأعشاب وأعطاه لليوزباشى، قائلا: "ده ح يقضى على الأرق".
أخرج حافظته: "أدفع كام؟".
- وفرفلوسك حضرة اليوزباشي، أنا ح أفتح لك سجل عندي، وأقدمه لبقطر أفندي يخصصها من راتبك كل ستة أشهر، وأضاف:
- "تعال عندي الليلة، ح يكون فيه ضيوف كثير، على الباب صاح عليه:
- "ح نستناك".

* * * *

- 15 -

وقف اليوزباشي يقرأ آيات من العهد القديم، تحيط بالشمعدان اليهودي، نقش على باب من الأبئوس.

"وقال لي ملا تری؟

بمنارة كلها ذهب
وسبعة سرج⁽¹⁰⁾ عليها
التي على رأسها وزيتوتان"
يا سيدي؟



قلت قد نظرت وإذا
وكوزها على رأسها
وسبع مساكب للسرج
"قلت للملاك: مما هذه

فأجاب: هذه كلمة الرب إلى زربابل
لا بالقدر ولا بالقوة تنجو، بل بروحي قال رب الجنود⁽¹¹⁾

تلقاه صاحب المنزل بحرارة، كان يرتدى على رأسه "يرمولك"⁽¹²⁾ سوداء مزركشة، قال "أن للثورة العرايية أن تشرق على دار فيتا حسان، اعتذر اليوزباشي بعدم استقراره حتى الآن، ضحك المضيف وقال أن مساكن لادو لا تكفي أن توفي دين الثوار. أمام استهجان اليوزباشي نصحه حسان بنسيان كونه في منفى، فهنا رجال يندبون حظهم، ومغامرون يتوهمون أنهم يصنعون التاريخ، وأضاف الصيدلاني الشاب، أنه يعلم أنكم فرغتم

(10) سرج: جمع سراج. قنديل أو مشكاة

(11) العهد القديم: سفر زكريا الإصحاح الرابع، (6.2)

(12) يرمولك: غطاء رأس صغير يرتديه اليهود من المتدينين

لتوكم من محاولة صنعه، ضحك وقال: "أنسى همومك، أنتم الآن في فردوس الرب، دعني أقدمك لمجتمع لادو، إنهم متشوقون لرؤيتك".

تقدم فيتا حسان إلى بهو واسع ضم عددا من ضباط الجيش المصري، وكبار الموظفين في المديرية الاستوائية، أغلبهم كانوا مصريين وسودانيين⁽¹³⁾، والقليل من التراجمة⁽¹⁴⁾، وهم العنصر الثالث المكون للجيش المصري، العنصر الرابع هم الخطرية ويكنون بالناقلة⁽¹⁵⁾، أما العنصر الخامس فكان عدد قليل من الضباط الأوروبيين⁽¹⁶⁾، بين هذا الخليط تناثر عدد من التجار، يرشفون القهوة ويتجرعون الخمرة.

في صدر المجلس جلس البكباشى النور بك محمد قائد محطة لادو، وبجواره الصاغ بخيت بتراكى، يلعبان الشطرنج، بجوارهما جلس عثمان أفندي لطيف سكرتير ثانى المديرية، والتاجر الليبى محمود برى، ومسيو ماركو جسباري التاجر الذي ينتمي إلى الجالية اليونانية، يحتسون القهوة، ويتحدثون حول أحوال التجارة مع سلطان زنبار، ونهر النيجر.

في الجانب الآخر، جلس القاضى عثمان أرباب يتحدث باحترام بالغ إلى أحد الوجهاء، وبينهما جلس الشيخ عثمان حميد، إمام جامع لادو، ومعلم المدرسة، يصغى للحديث الدائر بينهما بتواضع، قدمه حسان لليوزباشى

13) ترجع أصولهم إلى الجيش الذي أنشأه محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر، والذي بدأ بالاستعاضة عن العبيد المجلوبين من أواسط آسيا وشرق أوروبا، بمجلوبين أحضرهم من السودان فى البداية، ثم أنصار لا يختلفون فى حياتهم عن العبيد كثيرا، جمعهم بالقوة من أبناء الفلاحين المصريين، بينما ظلت قيادة الجيش هجينا من ضباط أتراك وشراكسة وألبان، وكان بعضهم من شتات الثورات والحروب الأهلية فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حتى أصدر ابنه سعيد باشا وإلى مصر اللانحة السعيدية فى 1858، التى أعادت حق ملكية الأراضى للفلاحين المصريين، ونصت على التجنيد الإجبارى للجميع، وفتح الطريق أمام المصريين فى الترقى إلى سلك الضباط، منهم من شارك فى الأورطة التى أرسلها سعيدا باشا للحرب مع القوات الفرنسية فى المكسيك، وعادوا بعد أن قلدوا أوسمة الشرف والشجاعة.

14) التراجمة: من أبناء قبائل السودان الجنوبي والهضبة الاستوائية، وشمال حوض نهر الكونغو، عملوا أدلاء ومرجمين فى الجيش المصرى، ومع الوقت أصبحوا جنود وصف ضباط وضباط.

15) الخطرية أو الناقلات: كانوا يعملون فى عصابات الرقيق، قبل قرار الحكومة المصرية بمنعه، ضمتهم الحكومة إلى قطعات الجيش غير النظامية وأعطتهم أجرا شهريا قدره يتراوح بين 30 قرشا و60 قرشا، خلاف الملابس كى تعوضهم عن دخولهم من تجارة الرقيق.

16) كانوا نثار الثورات والحروب الأوروبية والحرب الأهلية الأمريكية، أعذقت عليهم الحكومات المصرية الرواتب والرتب العسكرية والمدنية، ووضعتهم على رأس الإدارات التابعة لها فى السودان، وقد عملوا بدأب على خدمة مصالح بلادهم، وكانوا أحد الدوافع الأخلاقية لنشوب الثورة المهدية على الحكم المصرى التركى فى السودان.

باسم الحاج عبد اللطيف الشريف، شريك أبو السعود⁽¹⁷⁾، وصهر العقاد، والذي تولى تجارته عقب وفاته عام 1870م.

أفسحوا مكانا لليوزباشى، انتبه على سؤال وجهه إليه أحمد أفندي رائف معاون المديرية عما إذا كان الكوخ أعجبه.

- أى كوخل حضرته؟

قال نور بك: "اليوزباشى لا يعرف شيئاً، أمين بك سيغضب".

أكد عثمان أفندي، أن المديرية خصصت له أكبر أكواخ لادو، وفرشته بأثاث منحه أمين بك.

قال قائد الحامية، وهو يفكر في نقلته التالية: "أتوكل على الله وهي تتدبر"، واستدار نحو اليوزباشى متسائلاً: "حتسيب الباخرة أمتي؟" - الليلة.

طرق رودولفو كازاتى أصبعيه، معلناً أنه سيرحل غداً على متنها إلى (بيدن) مصطحباً خطيبته.

حضر بعض الضباط العربيين، سألهم قائد الحامية: "فين أغراضكم؟".

- في الباخرة.

توقف البكباشى النور محمد عن اللعب وسألهم:

- "شنو أنتم هسه على الباخرة؟".

- "نعم حضرتهكم".

- تناولوا عشاءكم، وتكون أكواخكم

الكود

خ: خوف

وهناك قبائل تاكل

اللحم البشرى..

جاهزة خلال ساعة.

نادى ضياء أفندي وكيل قومندان لادو،

وطلب أن تنقل أغراض الضباط إلى أكواخهم

بعد تنظيفها، وطلب من تجار لادو أن يقدموا أفضل ما عندهم من المفارش

والكسوة، واستدار نحو الضباط، وقال بلهجة امرأة:

17) الحاج أبو السعود: ولد أبو السعود في القاهرة وكان زميلاً في المدرسة لمحمد رفوف قائد القوة العسكرية التي رافقت بيكر للمديرية الاستوائية وحاكم هرر والسودان فيما بعد. اشترك مع حميه تاجر العاج والرقيق محمد أحمد العقاد ووريثه، في تجارته وعند وفاته عام 1870م أخذ مكانه في تجارة العاج والرقيق، واصطدمت مصالحه مع اتجاهات مصر الحديثة في إلغاء تجارة الرقيق، ومصادرة تجارة العاج، ما أدى إلى صدام بينه وبين البعثة. أعلن رفضه لسياسة بيكر وشجع القبائل على مواجهتها، استقر في مواجهة البعثة المصرية في غندوكرو، وقام بهجوم بمعاونة القبائل على المعسكر المصري في 21-7-1871 انتهى بالفشل ليقتل رجال القوة. قدم للمحاكمة بمصر، اتهم بيكر بإفساد تجارته لتنفيذ سياسته الجديدة قبل انتهاء عقده، ترتب عليه سقوط الاتهام عنه في عام 1873م. أشيع عنه الكثير من الأعمال الوحشية من بينها التدريب على الرماية على أجسام الأحياء. وكانت أجور العاملين في زرائب أبو السعود تتراوح بين 50 قرشا و55 قرشا شهرياً.

- والآن هلا تجلسون حتى لا تضطروا البعض للوقوف!-

أثناء تناول شواء من لحم الغزلان والعرق المعتق، جذب أسماعهم الرهان الدائر حول طاولة لعب الورق، فيشات ملونة، تستبدل بأرطال من السمن والزيت والبن والشهد، والرهان حول ضحايا تمرد الأجار من المدنيين الذين أبيدوا في محطة (رومبيك)⁽¹⁸⁾ العسكرية في مايو الماضي، اجمع الفريقان على أن القتلى بلغ سبعين جهاديا بما فيهم قائدهم الملازم عبد الله أغا السوداني، لكن الخلاف بقي على عدد المدنيين من موظفي وأسر الحامية⁽¹⁹⁾.

أفتى القاضي بتوزيع قيمة الرهان على الموجودين، لكن اليوزباشي إبراهيم جورجوري، الذي ثمل، أعاد الرهان إلى البداية، عندما تساءل عن عدد الجثث التي دفنت، وتلك التي طهيت.

سرت في جسد الضباط العرباين رعدة، هل انتهت حامية الروميك طعاما في معدة قبائل الأجار، شيء بدأ غريبا، قاطعه النور بك وقال إن الدينكا⁽²⁰⁾ لا يأكلون لحم البشر، وعندما عدد مأمور المخازن اليوزباشي عوض أفندي فضائل محاربي قبائل الكراكا، أشداء في الحرب، مطيعون للحكومة، لا يتمردون ولا يعصون، اختارهم أمين بك حرسه الخاص، وأوكل لهم حراسة مباني الحكمدارية، وأكد بخيت بك ما قاله عوض أفندي بأنهم من الأجناد المعدودين، أضاف اليوزباشي جورجورو وهو يقترب من الضباط:

- هم من أطيب الزنوج وأكثرهم حياء، وأشرسهم نهما للحم البشري.

مرة ثانية اللحم البشري، تبادل الضباط الابتسام بقلق، يفكرون في نسائهم وأطفالهم، وفي اللحظات التي ستأتي عندما يغادرون ويسيرون في عتمة الليل، في دروب قرية يحرسها أكلة لحوم البشر.

دعى فيتا حسان اليوزباشي للجلوس بعيدا عن الصخب، وهو يسأله إذا كان الوقت قد حان ليعطيه بريده، انتبه اليوزباشي واخرج من جيب

18 (رومبيك Rumbek: إحدى محطات إقليم الرول

19) كانت الأسر تتسع بسرعة لكثرة وانتشار زواج الضباط وضباط الصف والجنود، والمدنيين من

موظفي المديرية بنساء القبائل

20) قبائل الأجار أحد فروع قبائل الدينكا

معطفه خطاب من شخص يدعى ماكس تورداو⁽²¹⁾، ظهرت السعادة على وجهه، وهتف: دوناي⁽²²⁾ ماكس تورداو؟

فضه من فوره، ثم توقف: ماكس تورداو صديقي، درسنا معا، هو حصل على الماجستير من باريس، وانا استكملت دراسة الصيدلة، حلمنا واحد، إقامة دولة لليهود، لكننا مختلفان.
- وعلى إيه اختلفتم؟

- هو متحمس أن تكون فلسطين أرض الدولة اليهودية، ويدعوني إلى الهجرة إليها، وأنا أدعوه للهجرة إلى هنا، هو يخشى أن أعلن إسلامي مثلما فعل شيتاي تسفى⁽²³⁾، الذي أعلن نفسه المسيح المنتظر.
- أنبياء في الزمن ده!

- لا لا، الراجل أتجنن، سافر القسطنطينية معلنا نيته على خلع السلطان العثماني، وتخليص العالم من مظالمه.

- خلع السلطان مرة واحدة! ضحك حسان واستطرد: "استقبله الباب العالي مرحبا، وأعلن رغبته في تنفيذ مشيئته، شرط أن يبرهن على قدراته الخارقة التي أعلن أنه يمتلكها، والا تعرض لآلات التعذيب العثمانية، عقل فورا، وتخلي عن نبوته وعن الشعب اليهودي، وأعلن اعتناقه الإسلام، والآن لماذا أوجع رأسك بالحكايات". أخرج الحسيني من معطفه خطاب يفوح بعطر الورد وقدمه له: مش عاوز المكتوب ده؟

تألفت عيني الشاب بالوهج، وهو يقرأ خط دقيق معنونا من الأنسة راحيل يوسف بك قطاوى - حى الأزاريطه - الإسكندرية، مصحوبا بصندوق خشب صغير، خطفه وأسرع إلى الداخل يفضه، لكنه توقف بغتة، وقال يلزم نفسه بالسلوك المهدب: "ما الذي أفعله!، أشكرك حضرة اليوزباشي، الخطاب ده انتظرتة زى المجنون".

استغرق اليوزباشي ملامح الفرح التي شع بها وجه الشاب والذي جلس أمامه يلف عنقه (بطاليت)⁽²⁴⁾ جميل ذى شراشب زرقاء، تبادلا نظرات جعلت الأخير يضحك.

21) ماكس تورداو: مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية.

22) دوناي: إلهي بالعبرية.

23) شيتاي تسفى: من سميرنا ببولندا، حصل على فرمان من الباب العالي ببناء مدينة لليهود على بحيرة طبرية، وكان يدخل أورشليم على أتان معلنا نفسه ملكا على اليهود، وأمن به الكثير وتبعوه من كل أنحاء العالم، معلنا نهاية عصر التعاسة التي تحملها الشعب اليهودي منذ الخروج من مصر، وقرب قدوم العصر الألفى، الذي سيكون بداية بزوغ المستقبل المشرق للشعب اليهودي.

- بتحبيها؟

- مبارك أنت يا إلهنا، ملك الدنيا، يا من قدستنا بوصاياك العشر،
أدوناي. أموت عشقا، نسمة يا حضرة اليوزباشي، أخوها يوسف بك قطاوى
من أثرياء الإسكندرية، وأنا زى ما أنت شايف صيدلى على قده.

- لا يعيب الإنسان وضعه الاجتماعى.

- أخوها حاول يفرقنا، لكن هي كده بتحبنى.

- متأكد؟

أمسك فيتا حسان بطرف الشال الذي لف به عنقه، وهمس:

- "ده شال العرس في الدين بتاعنا، هي بتقولى احتفظ بيه ليوم زفافنا"،
وقف الفتى بانفعال ومال على اليوزباشي يحتضنه، ثم جلس يحاول أن
يتمالك أعصابه وهو يقول:

- "أنا كنت خلاص بفكر في الموت".

نظر اليوزباشي إلى الشاب بإشفاق تحول إلى دفقة من المحبة:

- "يا بختك بتحب"،

- "وحضرتكم؟ المديرية كلها عارفة".

- عارفة أيه؟

- مدموازيل فرانسوا.

قال بإنكار: "مستحيل طبعاً".

شعر اليوزباشي بنقرات أصابع على ظهره، استدأر ليجد مسيو ماركو
جسباري يدعوه لاستضافته ومدموازيل دى سابل في مزرعته الشهيرة، التى
تضم أشجار فاكهة من كل الأنواع، ادخل زراعتها بنفسه.
تفادى اليوزباشي النظر إلى الصيدلانى الشاب الذي اتسع وجهه
بابتسامة متواطئة، نظر إلى مسيو ماركو غير قادر على هضم دعوته
الغامضة، لكن ابتسامة اليونانى وغمزة عينه، لم يتركها مجالا للشك.

* * * *

الرق

حمل الملازم شمروخ والكريخ كأسا من الروم،
وانتحي مكانا قصيا ليجد نفسه بجوار
الحاج عبد اللطيف الشريف، كان يجلس بتباه في عباءة مقصبة، تبرق
أصابه بخواتم مرصعة بأحجار كريمة، يعبث بخنجره المرصع بفصوص
الياقوت والزمرد، بين قدميه جلس تابعه القرفصاء، يقوم على خدمة
نرجيله، أخذ نفسا طويلا ثم قال باستعلاء، أن هذا الخنجر سمي لخنجر
السلطان سليم.

تبادلته الحاضرون، يتطلعون في غمده المصنوع من المخمل والفضة،
حملة إبراهيم جورجور وقومندان مكراكا بين يديه الاثنتين، وأعاد
باحترام معلنا أن وجود مثل هذا التحفة في هذا المكان إساءة لها.

قال النور بك محمد يزدرى تباهيه: "من تجارة العاج يا حاج ولا من تجارة
الرقيق".

- وأيه المشكلة؟

- أوامر مولانا واضحة.

- "بتراكي بك، مولانا لا يمنع تجارة الرقيق عن اقتناع، فهو والعائلة

الخدوية من أكبر زبائن.

تدخل عثمان لطيف: آمال بيمنعها ليه؟

- أصل الأمر ومنتهاه رغبته في الظهور بمظهر الأمير الأوروبي المتحضر،

يتمثل بالكفار، ويستجديهم أن يهبوه مملكة مستقلة عن الخلافة
العثمانية السنية.

تدخل القاضي: "حاشا لله ليس هذا مقصد الأمير، إنما هي ألعاب للإبقاء على عرش مصر في الأسرة العلوية".
 اعترض اليوزباشي وقال: "خطف النساء والأطفال لا يقره الدين".
 - "أى دين تقصد حضرتكم؟"
 تدخل بخيت بك: الدين الحنيف يا حاج عبد اللطيف.
 - فلماذا كانت قصور الخلفاء تعمربهم.
 - لكل زمن أحواله.
 - لا يا بخيت بك أنت رجل عاقل، وهذه سياسة أوروبية، غرضها إضعاف الجيوش الإسلامية، التي تقوم على عنصر العبيد والمجلوبين، من هزم التتار؟ ومن طرد الصليبيين؟

الكود

ط: طرائد

وهناك من يطارد في

□ البراري

فرائس بشرية.. فالحدود..

تراجع بتراكى الضابط المسلم الذي ينتمي إلى السودان الأسود، لا يملك أن يخوض جدالاً شرعياً، وأبقى الشيخ حميد على ابتسامة محايدة، ووقف إبراهيم جورجورو، يترنح أمام طاولة القمار وهو يرفع كأسه ويقول: "على الحرام من دين الإسلام أن ما تفعله المديرية باطل في باطل، وخاطب التاجر: "وأيامانات المسلمين كلامكم موزون بميزان ذهب، لكن يا زول كلنا عبد المأمور".

رأى نظرات الامتعاض في وجوه العربايون، فقرر أن يجعلهم وليمة السهرة، ضرب الأرض بقوة، رافعا يده بالتحية العسكرية نحو الملازم شمروخ وصرخ:

- "انتباه يا عسكري أنت وهو، حضرة الملازم شمروخ زعلان منا ليه؟"، واستدار نحو التاجريواسيه: "ما تزعلش على اللي راح منك يا حاج".
 التفت التاجر نحو شمروخ، وطرق كتفيه بمقبض منشته المصنوعة من العاج المطهّم بالصدف: "هو أنت اللي أعدم الخطرية؟".
 انتبه العربايين وساد توتر في الجو، بانتظار رد فعل الملازم على الإهانة التي وجهها تاجر إلى ضابط في الجيش، تابعوه يستدير نحوه، يسأله بابتسامة: أيه اللي خلاهم يسرقوا أسراى ويبيعوهم رقيق؟

- "سمعتم الجنان ده؟ يا افندي قبائل الآجار ذبحت حامية شامبي، وأنت تعدم عشان خاطر عيونهم خمستاشر نفر، هل دمر الغرب والإلحاد عقولكم أيها المصريون؟".

تدخل القاضى: "قتل النفس بدون وجه حق محرم، بينما الرق مباح في الإسلام، ولا تزر وازرة وزر أخرى"، شمروخ أفندي وزرهم يقع على عنقك.

- "بتقول إيه فضيلتكم؟".

- أقول الحق، ولا أخشى في الحق لومة لائم.

- اسمع يا مولانا حديثى عن الحق والمستحق، في بلادنا بنشوف الرق وكأنه أحد سنن الكون، الفلاح فلاح، والباشا باشا، والعبد عبد، يباع العبد ويشترى زى البهيمة، فنظن أن الله خلقهم على ما نعتقد، وأن العبد مجبور أن يكون عبدا، ونستمتع بكوننا أحرارا، وهم عبيد ملك أيماننا، فكيف يمكن أن نفهم ونعرف أن ده مش طبيعى، وأنه ليس سنة من سنن الكون، أو أنه سوء وشر مطلق؟!.

- أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفق بهم، وحبذ عتقهم؟

- عتق العبد حسنة يثاب عليها المؤمن، لكن الرق لم يحرم، ولا تجارته.

- شوية فضيلتكم؟ هنا في برارى أفريقيا الأمر أصبح واضح، لى على الأقل، أمسك شمروخ بخنجر التاجر ووضع أمام بخيت بك بتراكى، وقال هذا الخنجر الثمين ملك بخيت بك، ثم أخذه وأعطاه لإبراهيم افندي جورجورو، وقال: لكن حضرة اليوزباشى سرقه.

أعطى الخنجر إلى القاضى وأضاف لكن اللص جورجورو أفندي باعه إلى لقاضى، الذي اشتراه بحر ماله، وتناول من أمامه رزمة من فيشات اللعب، وألقى بها لإبراهيم جورجورو.

هز القاضى رأسه سعيدا بالخنجر، أضاف شمروخ:

- رغم ذلك فأن الخنجر هو ملك بخيت بك، وأى قاض نزيه سيعيده له.

أخرج مسدسه، وحرر زناده، وأضاف مهددا يوزباشى إبراهيم جورجورو:

- "هذا إذ لم استرده بنفسى بصفتى الضابط المسؤول عن الأمن، حتى ولو أصبح اللص جثة هامدة، فالقاعدة أن الشيء المسروق، هو مسروق حتى يستعيده مالكه الأصلى، والسارق هو لص يلزم إقامة الحد عليه".

لاحق العرابيون الدائرة الطويلة التي مربها الملازم شمروخ، وقد حل
الوجوم على الجميع، تابعوه يستطرد:

- وزى ما أنت شايف يا مولانا القاضى، أن البشر الذين يطاردهم الحاج
عبد اللطيف، وتحملهم قوافله إلى أسواق النخاسة، هم أحرار، سرقوا من
قراهم، الحاج عبد اللطيف يملك خنجره الذي تتباهى به من حرماله، وهم
يملكون حريتهم بالفطرة، وهبها لهم من هو أعلى منك ومنى.

تساءل التاجر ممتقع الوجه: "قصدك أيه؟".

- "الله وحده الخالق، الله وحده يملكنا، وأنتم تسرقون الله في حرما
يملكه، ولهذا إذا قابلنا رجالك مرة ثانية سنقوم على إعدامهم".

تدخل فوزي: "لو أن سيدنا محمد عليه السلام شاهد ما تفعله، بهؤلاء
الناس لأقام عليك حد السرقة، ولحزم الرق من فوره".

وأمسك شمروخ مقبض النرجيلة، وطرق كتف التاجر، وقال:

- "واحذر أن تحدث ضابطا دون الاحترام اللائق".

باغت شمروخ القاضى، الذي سيقود بعد عام حربا ضد الجيش المصري،
وطلب منه أن يصدر فتوى بتحريم الرق، قال:

- "كيف أحرم ما شرعه الدين".

- "لو ارتديت جبة القاضى وعمامته، لأفتيت بتحريم خطف النساء
والأطفال، وصيد الرجال في البرارى، وحرمت التجارة في بنى الإنسان الذين
كرمهم الله وخلقهم على هيئته الجليلة".

طلق الشرر من عيون القاضى، وهو يتابع الملازم يخاطبه: "يا فضيلة
القاضى، إذا كان الإسلام لم يحرم الرق، فقد حرم السرقة، وسرقة الناس
وحرمانهم حريتهم التى خلقهم الله عليها باطل، السرقة تسبق بيع الناس
عبيدا، وما بنى على باطل فهو باطل

... هذا ضابط يتعين اغتياله..."

* * * *

المنطقة الاستوائية

قبائلها وأهم بلادها



في الهزيع الأخير من الليل غادر شمروخ
منزل فيتا حسان إلى كوخه، سار وحيدا
وسط صمت مروع، وقد أحال الضباب
طرقات القريسة إلى مرتع لأرواح هائمة،
أزعجه عدم قدرته على معرفة الاتجاهات،
وهو نصف سكران بطعم المارتينى وقوة
الروم. عصفت برأسه أفكار متفرقة، ما الذي
يمكن أن ينتظرك، أتعود إلى قمرتك على الباخرة، وتؤجل الاستلقاء
بجسدك في فراش مفتوح على عقارب وأفاعى وعناكب للدغتها طعم
الهلاك، مرق جواره بخفة شبحا ضاريا، انتصب شعر رأسه، لا يعلم إذا كان
ما يراه حقيقة أم أوهام، لمح أضواء صفراء تهوى في الظلمات، ثم تعود
وكأنها تدله إلى طريقه، تمالك نفسك يا ابن عمدة منقباد وتقدم إلى
كوخك المقام على أطراف العامية العسكرية، تطل من وراء برارى لادو،
وهو مشرع الأبواب، غير ممتنع عن غيلان الغابات وجنياتها.

تراقص ضوء المشاعل من الباب المفتوح، خيل إليه أن أحد ضواري البرارى
يربض بانتظاره، خفق قلبه وتحسس مسدسه، وعبر مدخل كوخه، وتقدم
نحو الفراش، تجرد من ملابسه بصعوبة، ألقى بنفسه عاريا وغط في نوم
عميق تحول لكابوس، تخاتل عيناه المغمضتان لبؤة منتصب، تربض
جواره على الفراش، وبين حين وآخر تلتقي عيناها دونما معنى.

فتح عينين متعبتين، هاجمه وهج الأبنوس الساكن جسد صبية
حليقة الرأس، متوحشة التكوين؛ تملك وجهها يشبه وجه لبؤة فتية في زمن
الأبيض؛ عيناها تنتمي لفضيلة القطط، تضيقان وتتسعان بين مدارج
الحس ورموز الخطر، فم ناتي، وجه مدور، فكين عريضين لثدييات
أكلات اللحوم، فماذا عليك أن تفعل؟

يأتى الصباح ينزع عقله من كوابيس الليل، يشعر بحركة مباغتة،
ينتصب في فراشه، يلمحهن؛ عذارى قبيلة المبورو اللائي حرره في زريبة
مدخل بيكر، لماذا تركن مستودع العبيد المحررين، وجئن إلى كوخك،
قام غاضبا يستر جسده، وهو يتفادى النظر إلى عريهن الفاضح، لا يأبهن
به، لوح إليهن كى يرحلن، كشرن في وجهه، يكشفن عن أنياب

الكود

١: رعب

في البرارى كركدن..

قطعان للثاب..

قطعان للضواري..

مفتترسة، وهريريقارب الزئير، هشهين بيديه، فقممن غاضبات، وغادرن إلى
العراء، ثم اختفين في ضباب الأحراش.

همس الملازم فوزي بعينيه اللتين تحاكين عينى الصقر: "كل ده
مش ح يشفع لك، مضغ لحملك آت لا ريب فيه".

أوضح فيتا حسان أنهم لا يبحثون في ضحاياهم عن اللحم، ويتساءل
شمروخ عما يبحثون؟ يجيبه حسان "عن قوة الروح التى ستنتقل إليهم"،
يعقب فوزي: "شفت، بذورك لن تكفي المهمة المقدسة"، يسأل شمروخ
حسان: "أنت دقته؟".

لاك فمه بلسانه، وابتسم، نظر إليه مذهول: "دقت اللحم البشرى؟"، نفى
حسان: يا صديقى، أكل البشر موجود في تاريخ البشرية منذ القدم،
تقديم أضحية بشرية لرضاء الآلهة واتقاء لغضبها، وبعدين استبدلت
بأضحية حيوانية، قصة سيدنا إبراهيم وإسحاق تتكرر.

- قصدك سيدنا إسماعيل.

الكود

غ: خوف

- نفس القصة، لكن أكل اللحم البشرى

فى الغابات تقبع البداءة

عادة منتشر، ولها جمعيات سرية في العالم.

الأولى..

- وبعدين؟

روح الغرائز الوحشية..

- مفيش حاجة، بص للموضوع بسخرية

الخوف العظيم..

ممكن ده يخفف عنك.

- أزاى؟

- زى نظرة الأطفال إلى الجنيات، والنساء إلى السحرة.

- بضحكنى.

- كويس، أضحكك أفضل ما أخوفك.

يأتى الليل حاملا معه الخطر، ها هن مجتمعات بانتظارك،

روح القمر

أيا لاكا شجرة السماء

لولا با روح النهر

أبراهو المعاربة

جنجي روح الغابة

تنظر نحوهم ببلاهة، يخطفك الوجه الفهدي للصبيّة التي تجلس في المنتصف بشموخ الأميرات، تتجاهل وجودهن العارى الثقيل، وتختفي في ركن الكوخ خلف غلالات البخور الطيب الرائحة.

في الصباح طلب شمروخ من قومندان لادو أن يلحقه بالقوات التي تواجه تمرد قبائل المونبوتو، يرفض، يسأله أن يلتحق بالقوات التي تقاتل تمرد الأجار، يضحك، ويقول بطريقة قاطعة، "أنت الضابط المسئول عن تسليم العبيد المحررين إلى الشيخ "مبورو".

يتركه النور بك ليحكى بلذّة إلى كبار رجال المديرية قصة الضابط الشاب الذي يهرب من الموت إلى الموت، ويضيف: "سمعتم عن غبي يهرب من الموت بين أنياب النساء، ليتعجل الموت بحراب المحاريين؟!".
تحت المطر الغزير طرق كوخه شبح الملازم فوزي وهمس بوجه عبوس:
- "هات بندقيتك وتعال وراي".

تعبّران القرية إلى الأحراش، ترى على امتداد يوم كامل حفلة اقتناص قطيع من الأسود لذكر زراف، يبدأ النزال بمطاردة خمس من اللبؤات للفريسة، يحطن به من كل جهة ويدفعنه بعيدا عن الأشجار إلى منطقة عشبية، وهناك يتبادلن الهجوم عليه، كن يقتصدن في قواهن، تشاهد ضربات قدمه الخلفية مثل مطرقة تفادتها اللبؤات بليوننة ومهارة، حتى تمكنت إحداهن منه، قفزت تنشب مغالبها وأنيابها في مؤخرته، لكنه يستدير ليطيح بها بعيدا، بعدها هدا الجميع، ووقف ذكر الزراف في المنتصف يدور حول نفسه، قال الملازم فوزي إن الجميع يأخذ هدنة.

في منتصف النهار طل أربعة ليوث لتبدأ حفلة صيد مريعة، اعتلى ثلاثة عشر من الأسود واللبؤات ظهر الزراف ورقبته، ينشبون مغالبهم وأنيابهم في لحمه. قلت بحزن:

- هذه خسة لم أتوقعها، كنت أظن أن الأسد ملك وحيد فريد، أنه يتصرف مثل قطيع من الضباع، أين النبيل في طعنة الظهر

* * * *

أمام خرائط المديرية⁽²⁵⁾ قبض على قلوب وعقول العربايون حالة من الاستغراب والذهول، تابعوا البكباشى النور محمد يشير برأس عصاه الفضية، إلى مواقع المحطات العسكرية المنتشرة في أرجاءها، ويدور بها في دائرة واسعة تضم أحواض الأنهار التى تغذى نهر النيل، محددًا الأراضى التابعة للحكومة المصرية⁽²⁶⁾.

شاهد الحسينى خط الاستواء مثل خط سحرى، منقوش كحكاية خرافية، بجار عبرها سندباد على بساط سحرى، سفن شراعية تحلق إلى السماوات العلاء، جزر سحيقة يحكمها ملوك الجان، وبناتهم اللائى يفعلن المستحيل لعشاقهن من الإنس، ويتقبلن هجرهن كمصير قدرى.

الآن يا أيها المصلوب على شراع بالنيل، راحلا إلى مصيرك القاتم، ها هو حفيدك يصل إلى معنى غامض لجذوره، قد يكون منتصف الأرض وجبلها السرى، قد يكون منبع النيل العظيم، قد يكون المكان الذي طرد الله أبنائه العصاة من جنته.

أشار النور بك بعصاه الفضية، إلى نقطة على نهر "ويلي"⁽²⁷⁾:

- هنا وسط قبائل الأبراموس أقام الصاغ حواش منتصر محطة باسمه، وإلى هذه البلاد ينتمي العبيد الذين حررتهم.

حدق شمروخ في نقطة صغيرة، تقع على نهر غامض، وكأنه يبحث عن قدره الذي سيؤول له، طرق أمين بك كتفه:

- "ستمائة كيلومتر غرب النيل، امتى ح تكون مستعد؟".

- أى وقت حضرتكم؟

- يومين شمروخ أفندي؟

- تمام سعادة الحكمدار.

25) رسمت بمعرفة هيئة الأركان عام 1875، اليوزباشى أركان حرب مصطفى صدقى،

26) مديرية خط الاستواء: تمتد بين خطى طول {027 غربا إلى 036 شرقا}، وخطى عرض {09:30} شمالا وحتى خط عرض {صفر0} جنوبا. تبدأ حدودها الشمالية من بحر الغزال، وتنتهي فى خط الاستواء، وضمت تحت الحكم المصرى {1871 – 1890} جمهورية جنوب السودان، وأجزاء من شمال أوغندا وشمال غرب كينا، وغرب جمهورية أفريقيا الوسطى، وأجزاء واسعة من شمال غرب حوض نهر الكونجو، وضمت أحواض أنهار بحر الزراف والجبل والغزال، وفى الجنوب مضبة البحيرات الاستوائية، ومملكة أوغندا وايزنيورو. فى الشرق مرتفعات لاتوكا، فى الغرب أحواض أنهار "لاو" و"النعام" اللذان يصبان فى مستنقعات ومناقع البحيرات، وأحواض أنهار "كيبالى" و"بوموكاندى" و"يلي" الذين يصبون فى المحيط الأطلسى.

27) نهر ويلي: WELLE

طلب الحسينى من الحكمدار أن يأذن له البدء في مهمته، مسد الحكمدار لحيته، وفى نهاية الاجتماع طلب منه الانتظار، وعندما أصبحا وحيدين، أشار إلى أن أوضاع التمرد تتطور بسرعة في السودان، والرجل الذي يدعوا نفسه بالمهدى يحشد الأتباع من حوله، أريد مدرسة لتدريس فن الحرب، أجاب اليوزباشي أنه على استعداد لأن يقدم كل ما تعلمه من الفن العسكري لضباط المديرية.

- تمام حسينى أفندي.

- تمام افندم.

- "أريد أن تبدأ محاضراتك قبل توزيع الضباط على أقاليم المديرية، دعنى أرى قدراتك حسينى أفندي".

في الخارج هطل المطر كالسيل، قرب كوخه داهم اليوزباشي الارتياح، دخل متوجسا، فوجئ بحامل رسم ينتصب فى منتصف الكوخ، وبجواره تناثرت قوارير ألوان، ألقي بجسده على فراشه منهكا وقد اعتملته الحيرة، غابت الشمس، ولم ينقطع المطر، غط فى النوم ليستيقظ على طرقات شديدة على الباب، قام يفتحه ليجدها قبالتها تسبح فى شلالات المياه السماوية، وخلفها المبوريات، وقف مشلولا لا يدري ماذا يتعين عليه فعله، صرخت به: "معندكش ذوق! ستركنى هكذا؟".

همس بضجر: "ما الذي تفعلينه هنا؟".

دفعته جانبا مقتحمة المكان، وهي تدعو المبوريات للدخول، وتحدث دون توقف، تخبره بأنها عادت إلى لادوبالأمس، ولم يكلف نفسه السؤال عنها، فجاءت إليه، ورغم ذلك يبدو أنه فقد لياقة التصرف كجنتلمان، سألته أن يشعل النار من أجل ققطها الوحشية المسكينة، وبينما يشعل النار، أخذتهن وأجلستهن أمام لوحتها، تستعد لاستكمال رسمها.

- ها مسيو حسينى، أنا جئت إذن، ألا تلقى بالتحية؟ أأفعل أنا؟ ... مرحبا.

- "الاجتماع انتهى، وكابتن كازاتى، سيبحث عنك؟".

- لماذا؟ هل أصبحت أحد موظفى المديرية؟

- لا أعرف.

- "يا عزيزى تركته وعدت أبحث عنك، ألا ترى، لقد انفصلنا".

- لم؟

- أنت ماما ولا بابا، أنا حرة، تصرف كرجل مهذب؟
- أنا، أم أنت؟
- تلومنى لأنني جئت، تلومنى لأنني لم أرغب فى تركك فريسة لهن؟
نظرت بغل ناحية المبوريات: "أحمق، مخدوع، سيأكلونك على صحن من
كبد ببغاوات غابات تنجازى مغموس بدماء تماسيح بحر الزراف".
- أجننت ما علاقتى بهن، وما علاقة بحر الزراف بتنجازى.
- حسنا ما هو النهر القريب من تنجازى؟
- أنا عارف، كيبالى، بوموكاندى.
ضحكت وقالت بإصرار: كما تشاء، سيأكلونك على صحن من
كبد ببغاوات غابات تنجازى مغموس بدماء تماسيح نهر كيبالى،
ليجعلوا منك يخنى من أفاعى نهر بوموكاندى، هل يعجبك هذا؟
- يعجبنى، ومن أين أتيت بهن؟
- وما يهكم؟
- ثم ما علاقتى بهن، إذا كانوا جائعين؟ يتفضلوا عندهم شمروخ،
يأكلوه حتى آخر قطعة عظم.
- مسكين شمروخ.
- لو سمحت أعيدهن من حيث جاءوا.
- يا حبيبى لازم أنتهى من الرسم قبل سفرهن، وبعدين الدنيا مطرت.
سألته من وراء حاملها أن يقدم لها كأسا من الروم. صب كأسين، وقف
ينظر ما ترسمه، سألها إذا كانت تخشى عليه أن يكون طعاما لهن،
استدارت تغرز نهدين عامرين فى صدره، وتنيح ذقتها على كتفه، وهي
تؤكد أن هذه نهاية محتومة لكل ضابط طيب الطعم، يسكن وسط
نساء يتناولن صباح ومساء اللحم البشرى.
همست: "لو شئت أن يطهوك أحد، أرجوك دعنى أفعل"، اصططكت
أسنانها واستطردت: "أقسم بيسوع لو خيلت أوهامك خيانتى لأجعل منك
طعاما لوحوش المديرية الاستوائية".
- "وكانى استمع، لعظة من السيدة العذراء البتول".

فى لحظة عابرة رآهن يفترشن خرائطه، صرخ فى غضب، تطلعن نحوه
بدهشة، لا يدركن سبب صراخه، ازدادت ثورته وهو يرى صوراً من كتيب
الإشارة ممزق بين يديها.

عندما شعرن بالخطر، كشرن عن أنيابهن، وبدأ يسمع هريز، تقدم
يدفعهن بعيداً عن الخرائط، وهن متشبثات بها، لا يرغبن التحرك قيد أنملة،
حاول أن يستعيد من إحداهن كتيب الاتصال الذي رسمته فرانسوا في
جنادل (عمكة)، نهشته بأنيابها، تراجع ساخطاً، نظر إلى فرانسوا، رآها
تستمع بالجدال الجارى، لحظتها أدرك أنها من قدمه لهن.

وقف عاجزاً تسيل الدماء من ساعده، قالت وهي تضمده أنها ستصبع
لوحتها بدمائه، وتعهه بأن تعيد رسم كتيبات الإشارات، بعد أن عمد بدمه
لوحتها، عادت إلى لوحاتها تستكمل رسمها تحت المشاعل، وتسلسل مغادراً
كوخه بحثاً عن مكان يقضى فيه ليلته.

* * * *

أسطورة خط الاسنوا

على طاولة الرمل بدا النيل ثعبانا
أسطوريا، يزحف بعنفوان، هابطا من
بحيرات السماء العظمى إلى أراض الله
البكر، انحنى يغرس نماذج تحمل سمات
الوطنيين؛ زنوج نقاه، ونيليين تحمل ملامحهم أثار
العنصر القوقازي، وحاميين وأنصاف حاميين، وقفت فرانسوا على الناحية
الأخرى تلون بحيرة إبراهيم باللون الأزرق النيلي.
- "كابتن، لديك ساحة للمعارك تستطيع أن تقاتل فوقها، كنت
أتمنى أن يكفيك جسدى شرها".
- "من زعم أنك أقل شرا من حرب شعواء".
- متأكد!

حملت الرياح صوت طبول ونقارات ومزامير وأبواق نفير، هرعوا إلى
النافذة، تابعوا عددا كبيرا من أطفال لادويهرولون في صخب، ويتبادلون
الضحك والمرح، وخلفهم أعداد من الوطنيين يتسابقون في اتجاه النهر،
ويصيحون بلغتهم المحلية "الأسد المصري، الأسد المصري". شعرت به خلفها،
أراحت ظهرها على صدره، فاحتواها.

من مطلع الدرب ظهرت الموسيقى العسكرية يحيط بها الأطفال في
صخب، وخلفها سرايا عسكرية يتقدمها ضابط متجهما بدا عليه مهابة
القادة العظام وخيالاتهم؛ كان نحيف الجسد، طويل النجاد، قوى البنية،
تشوبه سمرة، ينم مظهره عن الغلظة، له شارب سميك، يرتدي جلبابا احمر
قصيرا من القطن يتدلى من نطاقه سيف وغدادة.

تجمع العربايون على قارعة الطريق يتابعون ما يجرى، نظرة تهديد
نفاذة جعلت الملازمين شمروخ وشلعى يقفان انتباها وهما يؤديان التحية
العسكرية للضابط الذي خلا كتفيه من رتب عسكرية، ردها بصلف.

سار في خطوة عسكرية صارمة، متقدما قواته، وخلفه ثيران تحمل
على ظهورها مدافع جبلية، مشايخ قرى متمردة مقيدون بالأغلال، سرايا
نظامية يحملون على ظهورهم مهماتهم وينادقهم، سريتان من الخطرية،
تسيران في فوضى وخليط من ملابس متنافرة، طابورين من الثيران تحمل
أقفاصا لطيور وبغاوات نادرة وشمبانزي ناطقة، قافلة أفيال تحمل
حمولات العاج، وريش النعام، وفي المؤخرة سار المحاربين التابعين للصاغ
يلوحون برماحهم ويدقون بقبضاتهم على دروعهم.

الضجة التي صاحبت دخول لادو أصابت الحكمدار بالذعر، احتار وهو
يسأل الجلوس عن القوات المهاجمة؛ أن تكون تمردا للقبائل، أم انتقام
الدناقلة، عندما علم أن الواقف يطلب الإذن بالمثل أمامه، ليس سوى حواش
منتصر، أغضبه الروع الذي أصابه، سمعه منتصر وهو يدخل عليه يقول:

- "اللعنة عليك يا حواش، هذا الضابط ماذا يظن نفسه؟"

استطرد، موجه حديثه (هذه المرة) إلى منتصر:

"قائد جيوش البر والبحر! فاتح القسطنطينية! أنا من شاهدت أمير
أصفهان، أوقيصر يدخل فرساي، وتتقدمه مثل هذه الموسيقى، لماذا تتظاهر
بمظهر الملك، عليك اللعنة."

عقب كازاتي بالألمانية: "أنت تدفع ثمن طيبتك، أنا أرسلت خطابا إلى
رعوف باشا أوصى بأن يعيده إلى الزريبة التي ولد بها، وأنت تطلب له ترقية".

دافع الحكمدار عن اتهام كازاتي له بالضعف، وقال إنه لم يطلب
لحواش ترقية، كل ما فعله أنه أرسل إلى رعوف باشا حاكم السودان
السابق، شكواه مع خطاب الطبيب جونكر، أنت توصى بعزله، وجونكر
يوصى بترقيته، فتجاهلك، وتبع جونكر.

- حسنا لا تلومن إلا نفسك سيدي الحكمدار، نظر إليه أمين بك بعتاب
وكانه يقول له لا ينقصنى سواك.

وقف الصاغ منتصبا كتمثال حجرى، وأمين بك يمسد لحيته، يحاول
أن يبدو صارما، وأخيرا سأله سؤال غير ذى معنى:
- "أقدمت؟".

- نعم يا صاحب السعادة.

- وما الذي أتيت به؟

- خمسة عشر من مشايخ القرى المتمردة وحمولات عاج وريش نعام .

- أكان العاج في مستودعات مكراكا أم غنمته بنفسك؟

- غنمته بنفسى يا صاحب السعادة، ولكن ما كنت أفعل، لولا شمول الحكومة لى بحمايتها، وجنابكم بالرعاية.

- هل أتيت منه بشيء كثير؟

- خمسمائة حمل من العاج، ومائة من ريش النعام.

- من الصنف الجيد أم الرديء؟

- أكثرها من النوع الجيد، كما أحضرت خمور وعطور، ومائة وخمسة وثلاثين بندقية ريمنجتون.

قاطعه كازاتى عن عمد، مظهر الفارق بين صرامته وضعف الحكمدار:

- كيف تزعم حضرتكم، أنكم أحضرتم بنادق هي عهدتك.

تحول الوجه الذي كان ينظر إلى الحكمدار بتواضع، إلى وجه شديد الصلف والكبرياء:

- "يوزباشى كازاتى هل كنت تنام معى في حضنى وسط حريمى ونسائى والخولات الذين أضاجعهم، وأنا لا أعلم؟".

- "لا ولكن".

- هل لديك مستندات تخص عهدتى يوزباشى كازاتى.

- لا، حضرة الصاغقول حواش منتصر.

- عندما توجه الحديث لضابط عظيم يجب عليك، أن تقف وتوجه له التحية، سوف أعفو عنك لأجل خاطر أمين بك.

استنجد كازاتى بالحكمدار لكنه تجاهله بقرف، ووجه الشكر إلى الصاغ منتصر:

- "أحسنت حواش أفندي، تفضل فاجلس وأشرب قدحا من القهوة".

صفق الصاغ، فاندفع الزوج، بطريقة أثارت زعر الحكمدار ثانية، وضعوا بين يديه قدورا من الجوز والباتنجو، ومزاريق دقيقة الصنع، وأقفاص بها ببغاوات مكراكا الذهبية، ونسورا مونبوتو، وطيورا عجيبة، وحيوانات ذوات خمس، وغوريلا في حجم طفل يوشك على النطق.

كان الصاغ يعلم غواية الحكمدار بغرائب الحيوانات والنباتات باسم العلم، فالضوء لم يكن ينطفئ من نوافذه، حيث يشاهد منكبا بعزم جرمانى على تسجيلها بعد دراستها، وإرسالها مرفقة بشروح كاملة إلى الجمعية الملكية الألمانية للعلوم والأحياء الطبيعية، وإذا كان لديه نماذج مكررة، أرسلها إلى متاحف وحدائق أوروبا.

لذلك رغم المفاجأة التى أثارت فزعه للمرة الثانية، ألجمته السعادة بالهدايا التى قدمها له رجل يثير غيظه وحنقه وخوفه معا.

استدعى الحكمدار بقطر افندى باسيلي، ليسجل كل ما جاء به الصاغ في دفاتر المخازن الحكومية، يقدر أسعارها ويخصم أثمانها من راتبه كموظف لا يقبل الخلط بين مال الحكومة وممتلكاته الخاصة، وعندما تأكد بأن مفاجآت منتصرا انتهت، سأله عن حوادث مونبوتو وعن العلاقات الجيدة التى أقامها مع رؤساء الزوج، وسأله عن دور الملك مامبا نجا في التمرد الجارى في مونبوتو، أنهى الصاغ قهوته، واستأذن في الانصراف، فهز أمين بك رأسه والتفت إلى حسان وقال:

- "اذهب برفقة حواش أفندى ليعطيك الهدايا والأعشاب الطبية التى أحضرها لك". "لحظة، اليوزباشي جاء لك بترقية من الخرطوم".

ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء، وغادر المجلس بصحبة فيتا حسان، والعراييون منبهرون بحضوره الطاغى، يستعيدون ما سمعوه في سهرات فيتا حسان عن أسطوره التى جابت خط الاستواء.

* * * *

منذ سنوات طارد منتصر قافلة رقيق تقود خمسمائة أفريقى مقيدين بالأغلال، توجهت بعد مشرع الرق إلى طريق الأربعين الصحراوي، أمام مدينة "دابة" وقع في مواجهة مع خيالة حرس سلطان دارفور، الذي يتشكل من نساء حاسرات الرؤوس، شاكيات السلاح، غزا الشيب رؤوسهن، توقف توقيرا لهن حتى سمحن له بالدخول، حيث وجد السلطان مرعش حاكم دارفور يجلس القرفصاء، لا يكلم أحدا إلا عن طريق وسيط.

سأله السماح له بمطاردة قافلة لتجار الرقيق، وسلطان دارفور يستمع لترجمانه، ويسأله أسئلة لا يفهمها سواهما، أطرق طويلاً وهو يرشقه بنظراته الحادة، ثم أخذ يترنح يمنة ويسرى وأطلق سيلاً من البصاق، تساقطت حاشيته يجمعون بصاق سلطانهم بحرص شديد، فلما عطس سمع جوقته من العطس.

غضب منتصر من توقفه عن المطاردة، وتأخره عن اللحاق باللصوص، فرد على السلطان بعطس طويل مصحوب ببصاق ومخاط، جمعه في منديل ضخم، جعل السلطان ينظر إليه مذهولاً، للطريقة التي حافظ بها المصري على مائه المبارك، ولما رأى الاستحسان على وجه السلطان، قدم له في اليوم التالي صندوقاً يحوي دسنة من مناديل دمور مزركشة، عندها حصل الصاغ على مراده، تراجعت خيالة السلطان النسائية، وتقدم قواته إلى سوق الرقيق في مشرع السفوف⁽²⁸⁾ بمدينة "الفاشر".

بعد خمسة عشر يوماً شهدت مكراكا عودة المخطوفين، تحيط بهم قوات منتصر وقد علق رؤوس تجار الرقيق على أسنة الرماح.

منذ تلك الرحلة الدموية، والاستعراض الذي صاحبها، تطايرت قسوة الضابط المصري على طول الطريق الذي سلكه غرب النيل بدأ من دارفور وحتى خط الاستواء، استقبلته قبائل الدينكا، والنوير، والمكراكا استقبال الأبطال، وتطايرت أسطورته في بلاد النيام نيام وقبائل الأزاندى.

* * * *

صعدت الزغاريد من كوخ الملازم سر الختم الميرغنى، صبي وافر الصحة للونه رائحة الكاكاو، وإشراقة أمه التي تنتمي لقبائل الزغاوة العربية، أطلق عليه اسم جده "ريحان"، وجلس المشايخ يختمون القرآن الكريم، وفى الليلة التالية غنى الشيخ عبد المعز أبو المكارم على أنغام الدفوف والناي برودة البوصيري، فأجاد وامتع الحضور.

احتفل الجميع وقدموا هداياهم، في سهرة ذبح فيها خروفين، قدما على صوانى من الفتة والأرز، وأطباق ضمت أرانب وأزواج البط، أهدت فرانسوا

(28) منطقة السفوف

صورة للمولود، وقدم اليوزباشي وفيتا حسان وكازاتي النقود، وعندما عاد شمروخ إلى كوخه وجد بطاقة موجهة له من فرانسوا ومعها لوحة غامضة.

عزيرى الملازم شمروخ

انظر إلى اللوحة واختر بين اسمين؛

"الخصير"، أو "روح الأربعة"

فرانسوا دي سابل

ملحوظة: هذه اللوحة رسمتها هيئة لله

فض اللوحة لي شاهد رؤيا يصعب إدراك كنهها، أربعة أعمدة
فرعونية من البازلت، تجلس على قمة كل منها وصيفات أميرة ميبورو
الأربع، رسمن على هيئة الآلهة الحوريين، وقد استقر على رؤوسهن حية
وصقرو وبومة وقرد، تحمل عيونهن استعلاء على الوجود، بينهم كتلة
وحشية من الألوان، يستغرقه جسد غامض يجلس على وركيه بهدوء
حيوان وحشي، ممتلئ بالشبع في غابة ممعنة في الغموض، رأس مدور
حليق، فك نأتى إلى الأمام، شفاه غليظة، وجه قبيح لفصيلة القطط
الوحشية، لا تدرك المسافة بين إنسانيته وغرائز بدائية.

* * * *

المصتبة الرابعة

مهر البراءة

كلمة حواشي



أسطورة خط الاستواء
القائم مقام حواش منتصر

بين ظلال السحر ووحشة البرارى شق الملازم على شمروخ طريقه سيرا على الأقدام، يدفع بالعبيد المحررين أمامه، تتوسطهم أميرات عشيرة المبورو، باتجاه المحطة العسكرية التي أقامها الصاغ حواش منتصر علي ضفاف نهر "ويلي"⁽¹⁾، والتي انقطعت أخبارها منذ فصل الربيع، ولم يصل منها سوى استغاثة، تقول إن قبائل الأبراموس أتباع "مامبا نجا" ملك مونبوتو، يمارسون أعمال عدائية خطيرة، ويستعدون للاستيلاء على المحطة.

غاص فى الطبيعة البكر، يتبع الممرات العشبية التي مهدتها قطعان الأفيال والغرثيت، وقد حولها المطر إلى مزالق موحلة، تكشف مع كل خطوة عن أنيابها الشرسة، سلم نفسه إلى أفريقيا، يشهد ذاته تغوص فى عالم الطبيعة البكر، بطاح وأودية غمرتها الظلمة، مناقع ومستنقعات شاسعة، برارى تناثرت فى أرجائها أشجار السنط العملاقة؛ جذوع ضاربة إلى الحمرة، أوراق خضراء نيرة، وعناقيد تحمل رائحة التين.

توقف المطر وأطلت شمس الصباح تكشف عن السهب الساطع، تتموج على ظهره ذوائب العشب، وقد أخذت جماعها الرياح، تخطر فيلة عملاقة وسط مراعى الكلا، تروى عن ملوك أبيين، وقطعان غزلان مغرة⁽²⁾، ووعول ترتفع خطومها إلى الفضاء تتشمم الخطر، وفى القبة الزرقاء تحلق أسراب لمالك الحزين.

عبر المناقع فى جو عدائي، تحيط به أفراس النهر تتشاءب فى ارتقاء آمن، وزواحف سامية تنزلق بالهلاك، وتماسيح عملاقة فغرت أفواهها بانتظار فريسة شاردة، تنقض على الحمالين والخطيرة، تغوص بهم فى فوضى

(1) نهر ويلي: WELLE
(2) المغرة: الطين الأحمر يصبغ به

عارمة، يلوح التذمر على الحمّالين، وينظره الخطرية باستهانة، وعلى
تّبّة مرتفعة يشير عليه الدليل بالتوقف للمبيت.

فى صباح اليوم الثاني أخذ موقعه فى المقدمة، وبجواره القناصة، تقدم
تحت ظل أسراب الكركي، وحيثما تقفز الغزلان فوق الغدائر، وتقف
الخنازير البرية فى مواجهة السائرين بعناد، تطل عشائر الأسود بإباء، لا
يتوقف ذهنه عن التفكير؛ المحفة التي تعتليها أميرات المبورو تحمل لبؤات
وحشية تنظر حولها بكبرياء الملوك، وتهرب بالخطر، تمد أعناقها إلى الأمام،
وعضلاتها القاتلة تتحرك أسفل جلودها مثل حية تنساب تحت سطح المياه.

..تبقى أسوأ كوابيسك، عدم موافقة أمين بك على ضم سرية البيادة
السودانية التي تعلق مؤخرتها بكسل فى حامية "صيادين"، تدهمك
الشكوك، تسأله إذا كان يريد إرسالك لحتفك، ينفجر الصاغ منتصر
بالضحك أمام الصدمة التي ظهرت على وجه الحكمدار:

- لو كنت خائف من الدناقلة فأبشر، سيفتالونك غيلة، أو يتخلوا عنك
ويهربوا، وينضموا لتجار العبيد، فرصة تتأمل مصيرك فى مجاهل أفريقيا.
- "يا افندم أى أرض يرتفع عليها العلم المصري، هي موقع خدمة للمضابط
المصري".

يتدخل الحكمدار: "طب ما أنت كويس أهويا افندى، زعلان ليه؟".

تود لو تذكره أن قبائل الأبراموس ذبحوا الخطرية، تود لو تقول يا
سعادة الحكمدار عندما تطلب مواجهة تمرد، فمن الواجب أن تمدني
بأفضل عساكرك، أنت تضحي برجالك، لكنك تفضل الصمت
مكتفيا بالقول: "تحت أمرك يا افندم".

يضرب منتصر رقبة حذائه الجلدي اللامع بعصاه، ويرحل بعظمته،
تاركاً إياك فى صحبة أسوء مخاوفك أن تصير وحيداً فى مجاهل
الاستوائية، يعيدك من أفكارك إلى ليل البرارى، عواء الضباع، فلا تلق
بالا، لأن أهم ما يشغلك بلوغ محطة الصاغ حواش منتصر ببارود لم يصبه
البلل، وموّن جافة وطعام لقواتك حتى لا يقتلوك من الجوع.

* * * *

تحت سيول المطر تبلغ محطة "واندى"⁽³⁾ عاصمة "مكراكا"؛ يلقاك على أسوارها بشير أفندي مساعد قومندان معلنا رفضه دخول الحمّالين القريبة، تضطر للتخيم بقواتك فى العراء، يخبرك إبراهيم جورجورى قومندان مكراكا أثناء تناوله القهوة، أنك غير مرحب بك، وأن أمهات "واندى" حبسن أطفالهن لحين رحيل حمّالك، من أكلة لحوم البشر، تطلب الانصراف، وتغادر فى الصباح الباكر.

فى اليوم التاسع وقفت القافلة على تخوم محطة "حقوة"، بعد عودته من لقاء قومندان المحطة، لمح الملازم الحمّالين مجتمعين حول قدر ضخم وضعت فوق النار، حيوه بدمائة ودعاه كبيرهم بمودة إلى الطعام، تذكر أحاديث سهرات الصيدلاني عن سمعة قبائل المكراكا الطيبة مع الحكومة المصرية، لا تمرد ولا ثورات كتلك التي تنتشر في الشمال.

فى الصباح علم أن الأهالي يتربصون بالقافلة، أسرع إلى قواته المرابطة فى العراء، وناذى شاويش السرية مختار الجعلي، يسأله سبب تحرشه بالأهالي، أقسم الشاويش أن أحدا من الخطرية لم يغادر المخيم، انهال عليه ضربا بالقايش، والدليل يحاول الفصل بينهما، توارى الشاويش بين رجاله، وسط طوفان من الكراهية، ودون أن يتجاسر أحدهم على التدخل.

انفرد به الدليل، أخبره أن الأهالي فقدوا أطفالا، ضرب رأسه على تسرعه، ها أنت توفر الأسباب للعداء، كل شيء كان واضحا منذ لحظة دخولك المعسكر، والوليمة التي دُعيت إليها بأدب كانت على جثث أطفال حقوة.

يستكمل

خرج وسط المناقع يلوم نفسه.. بتعمل إيه فى بلاد متعرفش عنها حاجة، بتعمل إيه وأنت داخل بلاد النيام نيام، كيف تفقد أعصابك وأنت فى بيئة معادية من الطبيعة والبشر، وعاد ثائرا، وطلب من البروجي أن يطلق نوبة الجمع، وقام على تفتيش خيم الجنود ومأوى الحمّالين.

غفى منهكا، تهاجمه كوابيسه، يضاء باب الخيمة بضربات البرق، يكشف عن لبؤة شابة، بزغ فكها بعقد من لؤلؤ، مكشرا بالهلاك، ونظرة تتوعدك في فيافي الصمت الجائر، زئير ينبع من الخطر الجاثم فى

(3) واندى: Wandi. عاصمة أقاليم مكراكا Makraka، الإقليم التاسع للمديرية الاستوائية.

المراعى، ينبض جسدها اللوحي برتم نافث بين البطن والجنبين، تنظرك
بعيون تتواتر بين التوهج والانفعال، بين نشوة الشبع وزجر الجوع، ينسل
من الباب المفتوح على العراء خيال يكشف عنه البرق، تنكره، تلقى به
من عقلك المريض، تستيقظ كالملدوغ، حيث تجثم جوارك على الفراش
لبؤة تحرق فيك فى سكون.

جن فى بلاد
الأكا
تعود الكوابيس تحمل عيوننا تلمع فى
الظلام، وأضواء نجوم تعكس جسدا صغيرا
وعيون لوزية يتسلل إلى الخيمة، يبحث عن
غدارته، يصوبها نحو شبح عار لا يستتره شيء،
ينظر إليه بعينين محملتين بالعناد والحذر الشديدين، يحملق كل
منهما فى الآخر، وشمروخ يتساءل إذا كان الله يعاقبه على إنكاره وجود
الجن، ها هو يرسل أحدهم، فمن أى صنف أنت يا سيدي، الغيلان أم
العفاريات؟! لا يتجاوز طولك ساعدا، أجعد البشرة، يغطى وجهك شعر
كستنائي نابت ضارب إلى صفرة، فم كبير ولحية طويلة تبلغ صرة
بطنك الباجرة⁽⁴⁾..تساءل عن اللغة التي يتسامر بها الجن مع البشر، وقال:
- "عاوز إيه؟ أتفضل أقعد".

استجاب الجنى لدعوته، رأى طعاما، خطفه وانكب يلتهمه، وعندما
انتهى أشار إلى الغليون، قدمه له، لوح إلى قعر الغليون الفارغ، ابتسم لأول
مرة، أخرج كيس تبغ، ملأه، أشعل قداحته، تراجع الجنى مذهولا، ودار
حول القداحة، مدد قدماء وشرع يتنفس التبغ بمتعة.

ينادى الدليل، يخبره أن الجنى هو كبير أقزام الأكا⁽⁵⁾، وصديق
الساحر العظيم منتصر، وهو يريد أن يدلّه على ما يبحث عنه، يستعيد
روايات لادو عن الصاغ، الذي أخضع أقزام الأكا لمسيرة خمسة عشر يوما
فى الغابة، ها هو يوجد بأسطورتته.

4 (الباجر من البطون : ما انتفخ منها.
5) قبائل الأكا: Akka، ويدعون بالباكو

فى صمت يقطع هدير اليمام وقرقرته انسلا إلى الأحراش، تفاديا
أكواخا قليلة، بين أكمات البردي كشف له عن مخلة تضم أعضاء
بشرية، تراجع يقىء ما فى جوفه، والجنى ينظره بحذر شديد، ردد الجنى
كلمات فهم منها أنها تعنى، "الزعيم العظيم، منتصر" واختفى.

فى الصباح قدم جوالين من الذرة لشيخ محلة "حقوة" دية للقبيلة،
واعذارا عما حدث، ثم رحل على عجل، والشمس لم تبزغ بعد، يأمل ألا
يلحق به محاربو "الجور" للانتقام.

* * * *

على حافة نهر "ويلي" خيم الحمّالون، واندفع العسكر يروون عطشهم،
اقشعر جسده وهو يبصر قاع نهر يرصعه بيوض⁽⁶⁾ لطيور عملاقة، إلى من
ستلجأ؟ سيتخلى الدناقلة عنك قريبا، ويلتحقون بعصابات الرقيق،
سيذبحونك وأنت تغط فى نومك، أو يداهمونك بطلقة فى الظهر، لتسقط
وحيدا فى الأحراش، وربما يسبقهم إليك أكلة لحوم البشر.
تأكل الحيرة روحك، تتذكر الأسطورة التي تجوب المديرية عن مقتل
الصاغ منتصر فى مونبوتو، وارتفاع روحه إلى السماء، وأن الذي بينهم ليس
بشرا، وإنما روح لساحر عظيم، هكذا قال جنى الآكا، وهو ما تحقق؛ ألم
يرسل كاهنه ليدلك على سرقة أطفال "حقوة".

تسقط الشمس وراء المطر الكثيف، تعبر القافلة الحاجز الذي يفصل
بين حوض نهر النيل، وحوض نهر الكونغو، ترتفع سيقان الغاب الغليظة
لأمتار، تجرحك حواف أوراقها الحادة، تجذبك ألوان شجر الخلنج الأحمر
الشائك الذي يفوق القصب علوا، يتماوج بين الوردي الضارب إلى الزرقة،
تستره طحالب مزججة بألوان خضراء وبرتقالية تزهو بالأرجوان، والشمس
شظايا من بلورات تتألق فى نهاية الأفق
.. يا الله.. من أين يأتي هذا الجمال؟!

(6) بيوض : جمع بيض وبيض : معجم اللغة العربية المعاصر، المعجم: الرائد

تطل الغابات الاستوائية محفوفة بالهلاك، يعترض شاويش السرية على عبور الأدغال ليلاً، يفكر الملازم للحظات، يمكنك بلوغ غابة الأكا في منتصف الليل، لتدخل محطة منتصر في الصباح الباكر.

تحمل لك نظرات الشاويش تهديداً بالويل والثبور، هذه الليلة ستكون ضحيتهم المشتهاة، لماذا تتكبد المخاطرة وحدك، لتكن الأدغال خطراً يلهي الجميع.

نفخ البروجي نوبة استدعاء، قفز الخطيئة، وقد أخذتهم المباغنة، اصطفوا أمامه في ثلاثة طوابير متلاحمة، وقف في بنطاله تحت وابل المطر عارى الصدر، يتدلى مسدسه وسيف البيادة من خصره، أزاح خصلات شعره، وأعطى أوامره بالتقدم بالخطوة السريعة، وعدم التوقف حتى بلوغ محطة الصاغ حواش منتصر، وأضاف بتهديد؛ أنه لن يلقى بالالهي عسكري أو زنجي يسقط في الأدغال.

مثل سهم، اقتحمت القافلة غابات ماء السماء الأزلى وعواصفه الرعدية، يتقدمها الضابط الشاب، تتوارى الممرات العشبية الموحلة، وتتلاشى آثار الإنسان؛ ويحل تنوع مذهل من أشجار تنتصب كمسلات مصرية سامقة، ونباتات هواء متسلقة، تبرز السحليبات والسرخسيات الملونة في أراضي موحشة، وطقس حار رطب، تتلاحق أشجار الأبنوس، والكولا، والمطاط، والماهوجني، والورد الإفريقي الأحمر المبرقش بخطوط داكنة، وكلما تقدم ازدادت كثافة أوراق الشجر العريضة جداً لا يعود يسمح بنفاذ أشعة الشمس، تسود الظلمة وتحل كآبة العتمة.

على نور هذا السفر الرمادي تنجلي الغابة البكر عن فيونها وأشباح الأسلاف، تتعلق جذور الدوح بأسلافها الموتى، وبين الظلال المعتمة تسعى على دواليها⁽⁷⁾ الإسفنجي حيوانات البرية، ربابيح⁽⁸⁾ وشمبانزي وغوريلا، خنازير برية تجرى متئدة خافضة الرأس بين الخوف والشجاعة، وعول وأرانب وثابة تتربص بها هررة وحشية، ونمور وضباع ضارية، تهدر طيور

7) دويال: تربة الغابات الاستوائية المطيرة والتي تتكون عبر مئات السنين من طبقات رسوبية إسفنجية، وتكون مزيج من الأوراق والبذور والثمار الرطبة
8) الربابيح: جمع الرباح وهو الفرد الذكر، وهو النسناس

الثمرة بألوانها الضاربة إلى خضرة، تصعد إلى هامات الأشجار بحثا عن العسل الإلهي.

.. يا الله ما أعظم شأنك وما أعظم خلقك!!

تدور حول نفسك، تصعد فوق ذوابات العشب الشائك، تسبح وسط طلقات المدفعية، لتطل عليك معركة كفر الدوار⁽⁹⁾، يحيط بك دخان البارود، تطارد مشرعا سيفك الكتيبة الثانية "لدوق أوف كورنول"، تتبعثر الكتيبة البريطانية الثالثة تحت وطأة القصف المدفعي، وهجوم الخيالة المصرية الساحق، وتنسحب على طريق ترعة المحمودية، والخيالة المصرية تحصد أعناقها، تشهد الطابور الأيمن لجيش الإمبراطورية يركب القطار تحت ستار سحب الدخان الذي غطى ساحة المعركة، منسحبا إلى موقع الرمل لتتوارى في الظلام.

.. أه يا على يا شمروخ.. في معركة كفر الدوار كنت تطارد أعدائك.. الآن أنت مطارد من قواتك، وقد جعلت من نفسك فريسة، تعدو على أرض ندية مذبولة ببقايا نباتات وحيوانات ترسبت عبر مئات القرون الغابرة، يشم رائحة جسدك الحمائلون من قبائل المكراكا، تشعر بمنجل الموت يقترب من وريدك، وأنت تلمح في عيني شاويش الخطيرة مختار الجعلي، النية المبيتة لاغتيالك.

. هاجس يترعرع في عقلك مثل جنينة ليل. اقتله، اقتل رأس الحية تبقى القوات في حوزتك، أيها الساحر الكبير، هل ترمى إلى بأفكارك، أم هي الهضبة الاستوائية حيث يستوي كل شيء؛ الخير والشر، الحياة والموت، البشر وكائنات الله الحية، المطر، والأنهار، الهائجة، البراري، والأدغال القاتلة، ليبقى أصل الوجود وجوهره، تنمو عليه الحياة والموت؛ من يقتل من؟ من يحصل على عمر أطول في الفردوس الإلهي أو في جحيمه.

تقفز متسلقا أغصان شجرة الأبنوس، يعبر شاويش الخطيرة أسفلك، مصوبا بندقيته إلى الأمام بحثا عنك، تهبط من أعلي الغابة مطيحا برأسه،

9) معركة كفر الدوار: بعد احتلال مدينة الإسكندرية، توجهت القوات البريطانية بزا بقيادة جنرال أليسون إلى مدينة كفر الدوار والبيضا وخور شيد. فواجهت مقاومة عنيفة من القوات المصرية لمدة شهرين على المحور الرئيسي بالجبهة الشمالية الغربية لدلتا النيل. تعاونها طوابي مدفعية السواحل، واستقر معظم الجيش بقيادة طلحة عصمت في كفر الدوار ومعه مدفعية الميدان، قاتل العريان على خيولهم، وبعد قتال عنيف خسرت بريطانيا المعركة مما أجبر الجنرال أليسون على الانسحاب للإسكندرية لتمرد قواته للأسطول، والتوجه إلى الجبهة الشرقية لاقتحام البلاد من قناة السويس.

تدحرج بين قدميك، وتنطلق ثانية دون توقف حتى حواف غابات المطاط
المرصعة بأشجار الكولا العملاقة، وقد خضبت وجهك الدماء، لا تجد من
العسكر سوى طاعة عمياء، وطوال طريقك ينفذ الزنوج المحررون عن
القافلة عائدين إلى قراهم المتناثرة في ربوع مونبوتو.

* * * *



حوض نهر الكونغو محطة الصاغ حواش منتصر على نهر ويلي {Uele}

دخلت القوة محطة حواش منتصر العسكرية، فوجدوها مهجورة خاوية على عروشها، غادر العبيد المحررون عائدين إلى قراهم، وشونت المؤن والسلاح فى المخازن، فى طابور المساء أعلن أن الغد هو يوم إعادة النظام للمحطة، وتأهيلها للحياة.

استيقظ فى صباح اليوم التالي على قطرات المطر تطرق زجاج النافذة، متى يطلق البروجي نوبة الصحيان. قام ينظر من النافذة، رأى ساحة المعسكر مرتعا للسعادين والخنازير البرية، ولا أثر لأحد، ارتدى زيّه العسكري وسار يتعثر فى الأرناب والسحالي، ليتبين جليا أن نبوءة الصاغ لم تنتظر طويلا.

فتش أكواخ الإيواء والمخازن والسلاحليك، جميعها خاوية، حملوا ما تمكنوا من حمله، وتسللوا هاريين، وقف فى منتصف ساحة الثكنة وحيدا وسط السعادين والرياحين، تنظر إليه طيور الكركي بتجاهل وهو يدور حول نفسه ساخطا، يصرخ ولا مجيب.

- يا ولاد الكلاب ... يا حواش يا منتصر ... لما أنت عارف سبتنى ليه؟

حبس نفسه داخل الثكنة الواقعة على خط طول {27⁰}، يحاول التأقلم مع أوضاعه الجديدة، بزغت الشمس فى الأرجاء، سحرته، ودفعته إلى تفحص عالم جديد عليه أن يتعايش معه.

أخذته قدماه صوب البوابة الخارجية، دار بناظريه يستجلى موقعه، على امتداد البسيطة كان نهر "ويلي" يجرى فى دورة واسعة فى رحاب الغابات الاستوائية المطيرة، بأشجارها العملاقة الفائقة الجمال، ليلتقي فى

الغرب بنهر "أوبانغي"⁽¹⁰⁾، قبل أن يعود نحو الجنوب، ويصب في نهر "لولابا"⁽¹¹⁾ العظيم.

وقف مبهورا يسأل نفسه، والآن ماذا عليك أن تفعل وقد تحولت المحطة التي أقامها الصاغ تتويجا لأسطورته، مأوى للقردة والقوارض، يعيشون فيها فسادا بأريحية أصحاب الدار.

جلس القرفصاء، ورأسه بين يديه، يبحث عن صفاء ذهنه، انحنى على حافة النهر يرتوى ماء زلالا، رفع ناظريه لتسرى الرعدة في أوصاله، وهو يرى لبؤة صغيرة تخرج من الأحراش، عبرت الجنادل، وهي تتطلع إلى الفضاء بكبرياء، اختلط كل شيء فجأة، بدت للحظة تشبه الأميرة المبورية التي رحلت مع وصيفاتها إلى قريتها؛ رأس حليق بلا شعر، وجه صلب يحمل فك ناتي، تابعها تسير على شفير النهر المقابل، تنظر إليه قبل أن تقفز مختفية في قلب الغابة. لتنجلي أولى أسئلته.

يجب وضع حدا فاصلا لمأواك؛ أن تسلك سلوك رجل عسكري يحدد أولوياته؛ إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المؤن، تحصين موقعك، التخلص من الفوضى التي خلفها الخطرية، والبحث عن السلاح.

صنع من البوص والعشب خيال مآته، وألبسه بدلة عسكرية، وطربوشا، تنصبه في منتصف ساحة المحطة، يثير حيرة الرباحين، تصعد أشجار الغابة هاربة، تتوارى بين أغصانها، تراقبك، تتابع تحركاتك وأنت تزرع في أرجاء الثكنة عددا آخر من نفسك، تغلق باب الحصن، تشون المؤن القليلة التي وجدتها؛ جوانات قمح وذررة وبصل وأرز، كانت نهب الخنازير والقوارض.

حمل الخطرية معهم السلاح والذخيرة، تعثر على بطاطين، وصناديق صابون، وصفائح مسلي، وبن، وأقماع سكر، وأكياس تبغ، وسبرتو، تعيد إليك الطمأنينة، ربما لم ينتبهوا لوجودها، وربما أعماهم الله عنها كي لا تموت جوعا، تغلق النوافذ وأبواب المخازن بإحكام، وتعود إلى حجرة نومك حاملا أغذية وملابس وصفائح ومصاييح جاز، ثم تخرج

⁽¹⁰⁾ أوبانغي: Ubangi
⁽¹¹⁾ لولابا: الاسم القديم لنهر الكونغو

تغتسل فى نهر "ويلي"، تسبح فى المياه العذبة، ترقص حولك أسراب البلطي والقرموط، وكأنك تطفو فى نهر من الجنة.

مثل حلم يتكرر، تعبرك لبؤة صغيرة ترتكز بمقعدتها على جذع سابح فوق النهر، يتطلع رأسها الوحشي إلى الفراغ بشموخ الكواسر، يقبض عليك شعور طاغي بتعقبها إلى حيث تغيب، ماذا لو كانت جنية من أرواح الغابة، تناديك إلى عرينها الخفي، أو لبؤة ضارية تحولت بفعل العشق الوحشي إلى حورية مسحورة، أو صبية من بنات المبورو.

تناول إفطاره على شرفة المحطة الخارجية، رشف قدح القهوة، تأمل أوضاعه وهو يتأرجح على مقعد الصاغ حواش منتصر الهزاز المصنوع من خشب الورد الأحمر، شعربهم يرقبونه عن كثب بصبر وأناة من الأشجار القريبة، منتظرين رحيل هذا الزائر الغريب الذي احتل مساكنهم ومرتع مرحهم، يصوب سهامه على خيال المآته، وهو يتمنى داخل سريره أن يجد من يسأله عن حجم الحقد الذي يكنه إلى تلك الخيالات الواقفة فى أرجاء المحطة، الأول للخديوي توفيق، والثاني لعرابي باشا، والثالث لأمين بك

يسمع القروء تضحك كلما أصاب هدفه، يقوم أحدهم برشق أحدها بثمار الجوز، ينبهه بأنه ليس وحده فى الجوار، وأن لديه رفقة خطيرة، تسقط الشمس خلف هامات الأشجار، ويصعد قمريضى سماء صافية، يحدق به طويلا، مرة ثالثة، مثل حلم يتكرر، تعبر الغابة المعتمة شبح صبية يتبعها حيوان ضارى كظللها، تنظر نحوه بصمت، ثم تختفى كطيف يصنعه خيال معتل، أسرع عائدا إلى الثكنة يحتمى داخل أسوارها، ألقى بجسده على الفراش، وغط فى نوم عميق، وعندما استيقظ كان الظلام مخيما فى أرجاء الغرفة، سمع أصواتا غريبة فى الردهات الخارجية، لا يستطيع أن يقيم جسده، أو يفتح عينيه، وقد بدا كل شيء مثل كابوس يأخذه إلى قاع بلا قرار.

فى فجر اليوم السابع استيقظ والتعب يغمره، ثمرة رفقة فى المكان، يخترق العتمة، لمح شبحا يربض فى مؤخرة الفراش، قفز مفزوعا، كشف ضوء الصباح عن رياح يجلس بسكون معتمرا طربوشا، أخذ نفسا عميقا يستعيد جماع ذاته، استجمع جراته وهشه، بادله الرياح هشا بهش، وصياحا بصياح، ارتدى ملابسه وعيناه لا ترتفعان عن الجاثم أمامه يتابعه

بشغف، ويقفز من حوله مبتهجا، فى الخارج وقف مبهوتا، ليرى جمعا من
القردة يقف طابورا فى ساحة المعسكر، تترىض بينهم خمس لبؤات،
تتوقفن عندما يلمحنك، ويجلسن حول سارية العلم فى سكون.
.. "يا حظك يا على شمروخ.. من سلاح البيادة إلى سلاح القروء".

حول بقعة مخضوضره بالمياه تجمعت الحيوانات، تروى عطشها، حلق
طائر بلشون خمري قادما من منبع الشمس، وحام طائر أبو منجل فوق أرتال
السماك، ثمّة عقاب يحلق فى السماء، يطلق صفيه محذرا، وعيناه
الثاقتان تبحث عن فريسة للقنص، يطير عصفور الخضاري بلونه الأصفر
الضارب إلى الخضرة فوق غدائر الغابة مذعورا، كل شيء يحيا حولك،
وسط طبيعة تتجاهلك، كل شيء لوحة من الجنة، كل شيء فى نسق
متناغم يتكافل من أجل البقاء، والرغبة فى الحياة.

* * * *

قواعد الاشتباك
بالقرب من المروى ثمّة قطعة أرض صالحة للزراعة،
ونهر مياهه سلسبيل، سبح فى ضوء القمر عاريا
كالطبيعة مستسلما إلى الصفاء الأسطوري، فيما ظنه روح
السلام الناعم التي تسكن البرارى، سمع خوارا بحث عن مصدره، ليشهد
خرتيت يلمس بقدميه مياه النهر يروى ظمأه، غير آبه بذلك الأسد الذي
تمدد فى الجوار يتشاءب بملل، وهو ينظر نحو الأفق لا يعير العالم من حوله
التفاتا.

من الأدغال تظهر لبؤة، تقترب من الكركدن بتمهل، دارا كل منهما
يتفحص الآخر، وجه من قرنه الصلب ضربة قاسية، تفادتها بمهارة وليونة،
انشق المكان عن أعداد متزايدة من الهررة الوحشية، يدهمك الذعر، يتسع
حجم المناوشات حول الخرتيت الوحيد.

تناور الهررة الوحشية بخسة، تنشب برائنها وأنيابها، تشق فى جلده
الشخين مجاري للدماء، تتحول المناورات التي استمرت طيلة الليل إلى قتل،
ويجب ظهر الخرتيت أعداد متنامية من اللبؤات.

يؤلمك ممارسة قواعد الاشتباك بقانون «الكثرة تغلب الشجاعة»،
وافتراد ملك الغابة النبل، وأن الخريت المغطى بثقل الهررة الوحشية، ينزف
بغزارة من جروح أوغرتها مخالب اللبؤات وأنيابها، يعاني الوهن، وتنهار قواه.

وجه أسد ثقيل الحجم إليه دفعات قوية، قلبته على جنبه، وسقط على
الأرض، تعقص اللبؤة الأولى عنقه، وتجتمع البقية عليه بوحشية، بينما
تمدد الذكور فى الجوار ينتظرون فى تكاسل الإهاز عليه.

مشهد يدفعك إلى كهف الرهبة، يعيد لوعيك ضرورة بناء عالم آمن،
ويبلور أفكارك، فى عالم الضواري لن يبقى عليك سوى انضباطك
العسكري، وتنفيذ المهام التي أوكلها إليك الجيش.

تبدأ يومك بارتداء زيك العسكري، تستبدل العلم القديم، الذي تحول
إلى مزق بأخر جديد، ترفعه أعلى سارية الحصن، تحي العلم بانضباط
تهتف بأعلى صوتك، تناوبك القردة ضحكاتها.

تأخذ بلطتك، ترمم أسوار الحامية، يتابعك جيرانك الرياحين، وأنت
تقطع فروع الأشجار التي تعبر بهم أسوار المحطة إلى عالمك، يعوون عليك
ويصرخون، تنظرهم بتهديد ووعيد. تشهد عددا من النسور تحلق فى
السماء فى حلقات متتابعة.

أفشت مذبحة الأمس أن العالم خلق ليقا تل بعضه بعضا، وعليك أن
تبحث عن شيء يساعدك على البقاء، تجد عددا من فخاخ الصيد، وجوالات
البذور التي أعطاها لك أمين بك لزراعتها، وهوىذكرك بمهمتك؛ التوسع
نحو منابع النيل، نشر العمران والحضارة وأسباب التمدين، استباب الأمن،
مقاومة تجارة الرقيق، الاكتفاء الذاتي من الإنتاج الزراعي، وعدم تلبية
احتياجات الجيش من المؤن باغتصاب محاصيل الأهالي، واتباع الطريق الذي
بدأه الصاغ حواش منتصر فى نشر الزراعة والخضراوات والفواكه فى أرجاء
المديرية الاستوائية.

تمام سعادة الحكم دار.. أوامرك مطاعة.. تمام حضرة الصاغ حواش
منتصر.. سنسير على خطاك الميمونة.

سلطان



غادر الثكنة إلى الأرض التي رآها بالأمس، يراقبه عدد من الرباحين،
صلى ركعتين لله، يدعو أن يعينه في مهمته المستحيلة، حفر أخدودا
وأشعل النار في العشب، على امتداد الأفق السماوي راقبته الطبيعة؛ أنشد
دود الأرض وضفادعها وبنات وردان⁽¹²⁾ أغنياتهم، تاركين الغضب للنمل
الأبيض التي دهس أوكارها، والزنابير وجماعات النحل التي أطاح
بأعشاشها، والتي سوف تلهج بحمده، وهي ترشف زهر زراعته.

بعزيمة ضابط خانة رجاله أمضى يومه يمد خطوطها ويقسمها
أحواضا، ويعزق طينها ويقلبه، وعندما انتهى من عمله، أرسلت السماء
مائها، سارت تحت المطر حاملا مخللا معبأة ببذور الذرة البيضاء، بذرها على
امتداد الحقل، تاركها مساحة لزراعة الخضر، من بعيد وقفت جماعات
الزراف والوعول والظباء ترقبه باهتمام، وهو يتساءل إذا ما كان في حاجة
إلى سياج لحماية الحقل.

أيام أمضاها يحيط به الرباحين والخنازير البرية وأبناء آوى، وهو غارقا
في وحدته، مسحورا بعالم الغابات الاستوائية، وقد أخذته شمس تفسى
أسرار الكون، أي هبة أعطاها لك الرب، تمضي كل صباح أسير طبيعة
أسرة، تستمع إلى مئات من هزاز⁽¹³⁾ الشرق، تسري ألحانها في الفضاء
كقيثارة عاشق، يبادل حزنه الرزين سجع القمر⁽¹⁴⁾ وريشه الملون بين
الوردي والرمادي، وسط صفير الزرزار المختلف الألوان، تسمع تغريد
الذعرة⁽¹⁵⁾ تحرك ذنبها في انسجام صوتي ولوني باهر، تتدفق الأصوات
والألوان داخل الشفق الكوني، تحملك وحيدا نحو الله.

* * * *

بعد يوم شاق تمدد يرجو النوم، سرت الرعدة في
جسده، وهو يستيقظ على عيني شبح تبرقان في الظلام،
نظر نحوه، واستقام يستند بظهره إلى الخلف، على الباب لبوة
طقوس التلامس

(12) بنات وردان: الصرصور.

(13) الهزاز: الليل والعندليب

(14) القمر: جمع القمرى وهو ضرب من الحمام حسن الصوت

(15) الذعرة: طائر صغير يكثر تحريك ذنبه ويتلفت كأنه مذعور

يا فعة تترىض، ترفع رأسها تتشمم الفضاء، قام من فراشه بهدوء وروية
منسحبا إلى خزانته، أوقد مشعلا أضاء الغرفة بالسنة لهب خافت، هرت
بصوت أشاع الرعب، صب كأسا من الروم وعيناه تزوغان، ليجد صحبتها
الضارية يتمددن بكسل فى الزوايا، تابعها تصعد فراشه، تتمدد
باسترخاء، وقد عزمت على البقاء.



فرانسوا ولوحتها
تكشف تكويننا من الآلهة
الحورسية الأربعة، يقفون
بخيلاء ينظرون الجهات
الأربع، تتوسطهم لبؤة
تربض فى المنتصف، حوار
دار فى عقله المنهك، بين
الدراما التي مثلت على حافة
النهر، والدراما التي ستدور
على ساحة الفراش، تدق مطرقة الرأس.

ينازعه الخروج إلى العراء بحثا عن سلام، وماوي يضم جسده المتعب، أو
الاستسلام لمغامرة تلقى إلى التهلكة، استسلم لغريزته، تقوده إلى
المجهول. تسلل عائدا نحو الفراش، واقتطع حيزا صغيرا منه، رأى وجهها
يتشاءب بالملل، لا شيء يحدث، لا حوار، لا إيماءات، لا عراك، لا جروح، لا
خدوش، لا أثار لأنياب، ولا دوائر حمراء، فقط نوم عميق، تغادر قبيل السحر
تتبعها وليقاتها، شاهدين يختفين، وهن يقفزن بمرح بين الأحرار.

اكتفى من يومه ما وقع بليله، سار نحو
موقعة الأمس، وقد التهم الكواسر لحم
الكركدن، وتركوا هيكل عظمى وقرن
وجلد سميك، تجمع بقاياها وتعود به إلى
الحامية، تنشره فى ساحة المعسكر تحت
الشمس.

طقوس

ن: لذوق

لذوق الجسد.. الطريق

المدهل لاكتشاف جسد أثنى

من الضواري..

يأتي الليل وقد ألفن المبيت فى فراشك،
وحدها تمتلك حق التمدد عليه بتبطل، تتجول

الباقيات فى أرجاء المحطة، يتناوشن بمرح، ويعدن يتمددن بارتخاء على جلد الكركدن، فى المرة التي قفزت إحداهن بغتة نحوك، زارت فى وجهها، فتراجعت مخلصة أثار مخالبتها على صفحة صدرك تنز بالدماء، ترتجف برائحة الدماء، يدهمك الرعب وأنت تفكر إذا ما كانت هذه هي البداية لحفلة التهام لحملك البشرى.

تتشمم جسدك وتعلق دماءك، تهروهي تقاوم رغبتها العارمة فى النهش، لكنها ترحل وتأخذهن معها، تمر لياالى قبل أن يعدن ثانية، تتابعهن كل صباح يغادرن باب حجرة نومك، خمس لبؤات فى زمن الأيض، يلعبن فى الأحراش لاهيات عن الخطر.

على فراش الليل يعبرك شعور فاتربألق الأبنوس يشع من جسدها، حليقة الرأس وحشية التكوين، وجه فهدى مدور، فك نأتى لفصائل الضواري من أكالات اللحوم، تدهشك الرشاقة التي تحلين بها، ليونة قدت من حيوية شرسة، تغوص فى نوم يقودك إلى كوايبس غامضة.

تعييك الحيل للتخلص من الرياحين، تخرج إلى ساحة الحصن، وقد عزمت أن تعيد إصلاح أسواره وأبوابه للمرة الرابعة، ليكون عصيا عليهم، تفشل، وفى النهاية تستسلم إلى القبول بوجودهم، وبدلا من الصياح والتشويح الغاضب، تشرع فى بناء صلات للتفاهم.

تضع سباطة موز أمام بوابة المحطة، وتشير إليهم أن يهبطوا ليتسلموا هديتهم، توقفوا عن الصياح، وهبط كبير الرياحين مقتربا من الموز، ولما أمن الخداع، نظر لقومه ورفعها بين يديه، عم الصخب الغابطة، وهبطوا يجتمعون حول الموز، يقشرونه ويأكلونه وينظرون نحوك برضا.

تبذل جهدك للتفاهم، إشارات وإيماءات، وصراخ بعدم تجاوز فواصل أرضك المستصلحة، خيالات مآته، وأعلام حمراء، وعلامات تحذير على مدخل حجرتك، هدية تقدمها كل صباح، يتوقفون عن الغوط فى حقلك، وتقليع نباتاتك التي نمت لتوها، تخفت مشاكلك، وتصل إلى تفاهم مع زعيم الرياحين، يتوقف عن مضايقتك وتخريب أشيائك.

يصبح وزعيم الرياحين صديقين، تتحول العلاقة العشوائية إلى تفاهم بين الإنسان وأصدقائه، ودرس يعيد للذاكرة تاريخ الحياة الاجتماعية؛

إذا دخلت صراعا مع قطيع فاقتل قائده، وإذا أردت أن تجاور قبيلة فاعقد صلحا مع زعيمها، أو تزوج إناثها.

تزرع ما طلبته المديرية، تزرع الخضر، وعلى حدود الحقل أشجار الليمون والبرتقال، وتجلس آخر الليل تكتب تقرير عنه إلى الحكمдар.

تفكر وأنت في الطريق إلى مهجعك كيف تجد حلا لمشكلة البريد مع إدارة العاصمة "لادو"، لودعوت رئيس الرباحين للعمل لديك، ماذا لو أن الوحدة أورثتك الجنون، وأنت ترقد في صحبة ليل ضارية، تتمنى نوما تشوبه الطمأنينة، أضواء تطل من نافذة حجرتك، تجدهن يمرحن على جلد الكركدن، تفوح من أجسادهن رائحة النرجس البري، ومروج السرخس الياضعة الخضرة، وعبق أقحوان المراعي، يتمددن باسترخاء، تتلوى أجسادهن وتطوى بتدفق وسلاسة وخطر الحيات، عاكفات على تدليك أميرتهن بخليط من لبن الحمر الوحشية ودهان العنبر.

يذهبن في نومهن عرايا، عرى مصقول بزيوت زهور الأزاليا، يتعود رؤيته كلما توغل في قلب القارة السوداء، تستسلم عينيه إلى ما حاول نبذه؛ الجنة المستديرة، تفاحة الغواية، يا الله.. هيت لك بالجمال والغبي، لا يبقى سوى الصداغ، وكلما اقترب الليل تناثرت مائدة حافلة بالشموع، بخور زهور الأوركيد والبتونيا، زنبق الماء الخمري، ضربات الطبول الخافتة، ما لم يدركه أن أميرات المبورو شرعن يطلقن سحرهن ترحيبا بعودته.

طقوس القتل والجنس، وجهان للخطر، هذه الليلة يدعوها كي الترويض تشاطره فراش الوحدة، تنظره بارتياح، مد ساعده على امتداد الفراش، ليس ثمة كلام، ليس ثمة ما يشير لعالم من المودة أو الرفقة أو الجنون، قفزت فوق الفراش، لا تحمل عيناها الضيقتان مواثيق أو عهودا، لا سلام بين الضواري والبشر، لا وعود بين بالهجوم على فراش الرغبة، تمددت جواره وقد غشاه النعاس، يدير عنها وجهه إلى الناحية الأخرى، تاركها يده تتسلل إلى وجهها القبيح، يلمسه، يمسه بدءا من الجبين إلى منطقة الخطر، تشم لحمه بمنخاريها، زمن مضى قبل أن تنقض علي كفه تنهشه، صرخة وجع، تدفعها لتحرر سراح كفه

بعد أن كادت تقضمه.. يستل يده حتى يخف الألم، تتصاعد الرغبة داخله بحثاً عن طقوس الألم والرغبة؟

بعد برهة أعاد الكرة، تعاود غرر أنيابها بقسوة، يمضي الوقت يقاوم الوجع، تنطلق صرخة، تفتح فكها تاركة أثار أنياب دامية، تتكرر اللعبة، حتى تصل إلى تلك المرة التي يعطيها كفه وكلاهما ينظر إلى الآخر، تضيق عينا اللبوة، تحدقان فيه، تغوصان بحثاً عما تتوقعه فريستها. يبرز صفيين من لؤلؤ، يشهد في عينيها تواتر الصراع الدائريين الغريزة والعقل، لحن الغواية بقضم اللحم، أو الزجر أو النهر عن القتل.

تعجز عن كبج غريزتها، أمام رائحة اللحم الطازج، تنقض تقضم حد الكف، ينغرز صفيين من الأنياب الحادة، تلمح عمق الألم الذي يفيض منه، تشربه في رعشات دمه المتدفقة عبر شفاها المذمومة، عاج الأنياب، لحم اللثة الوردي، لسانها الحرشوفي.

يمضي ليل القنص؛ لدغات، لسعات، تنقض بشكل خاطف على أنحاء جسده، يتجول في فضاء الحجرة، تلتقي عيناها، يعود مستسلماً للنعاس وكوابيسه تتحول لقضبات أنياب تنغرز في العنق، ما بين الكتفين، صفحة الصدر المتسع كسهب من البراري تعدو فوقه الضواري، وهو لا يعرف إذا كان يود أن يعلن لنفسه أن أحداث الليل التي جمعتهم بأكالات اللحوم وهم أم حقيقة.

تتحول ليالي المهارشة، من الرغبة في نهش خالص إلى انتظار العابه، لبوة تطل من مريضها الساكن جواره، تتشمم، تلامس لحمه بصفى اللؤلؤ، لحظات ثم تنقض تغرز أنيابها دون رحمة، تطول لحظات العض، لحد النهش والتمزق، تخرج صيحة الوجع،

يدعوها كي تحرر لحمه، وهي عاجزة عن الاستجابة، زمن طويل يمضي قبل أن تستسلم وهي نافرة بالغضب.

الكود

أ: اسنان

حادة فاطمة لامعة تشع كاللؤلؤ

من عينيها يبرق الحنق، تود أن تعلن أن هذه الألعاب تدليس، يتحول التبرم إلى شفقة، ومع كل مرة تشعر بألمه، سوف تترك كفه مرغمة،

يتحول الإرغام إلى جزع، تلتقي عيناها، تعبرهما أمواج من لذة التناول،
تدقق مشاعر التوحد المشترك، تتشابك طقوس الترويض بطقوس التذوق.

فإذا استسلمت إلى النعاس، تستيقظ وقد غرست أنيابها على نحو
مفاجئ، في عرق الودج⁽¹⁶⁾ الذي تهواه الضواري، لمص الدماء وقتل الفرائس،
تطبق فكها؛ تصبر للحد الأقصى، تتجاوز حدود الألم، تقا تل كينونتها
كي تتخلى عن غريزة اقترنت دوما بلذة الشبع، وشهوة الجنس الخالص.

تطل عليه وقد سيطر على وجهها الارتباك، يمد يده يمسك رأسها
الحليق، تقاومه يجذبه ببطء ليتوسد صفحة صدره، ترفض، يضغط،
تقاوم، يدفع صفحة وجهها بقوة ليتوسد صدره، تستسلم، تروح فى سبات
عميق، يتركها طويلا قبل أن يغامر باستثارتها، تتسلل أصابعه إلى
فكها، ترتعد بالتوتر، هنا كهوف مغلقة فى البدائية، حيث التهم الإنسان
القديم لحم أخيه الإنسان، لا تعوزه رحمة أو شفقة.

يسبح بين شاطئى الميلاد والموت، يعرك بأنامله ثغرها، ثقل الشفاه
المقطوع من لحم الأنثى، يعبر غريزة الموت إلى كهف الرعب، حيث تنتصب
أنياب الكواسر.

يتجول بين أنيابها، يتلمس بحذر صفيين القواطع، تنهش أصابعه،
تتلاحق أمواج التوتر فى جسدها، تشد عليهم،
تقضمهم، عاجزة على فتح فمها، تبتعد
غاضبة، ترفض العابه، لكنه يعيد
رأسها الفهدي إلى الملاذ الذي سيصبح
ملجأها الذي تهوى اللجوء إليه.

الكود

ش: شفاه

شفاه من توت يرى.. شفاه من
زبرجد.. شفاه من ياقوت..
شفاه من زمرد..
شفاه من لحم الإناث
الذي خلق منه الشهوة

بين أعلى الساعد الثقيل،
وهضبة الصدر، تجد طريقها لنوم
عميق، يعاود محاوله اقتحام فكها
الكاسر، ترفض، تزمها بشدة،
معلنة أنها لم تألف تلامس أنياب

⁽¹⁶⁾ الودج: عرق في العنق عند العرب ينتفخ عند الغضب، وفى الطب الشريان السباتى وهو أحد
الشرايين الرئيسية الذي يجري جانب الرقبة ليزود الرأس والدماغ بالدم.

الضواري مع لحم الفرائس عن طيب خاطر، هذا خارج قانون الطبيعة، مرة
تلم مرة تستجيب، مرو هو يشعر بالخطر على حواف أسنانها القاطعة،
تتراجع برأسها، وجسدها يهتز بين الكبح والرغبة، يحترق داخلها بألم لم
تعرفه من قبل، ألم الكبح عن تناول المشتى من لحم البشر.

لسعة القنص مر بأنامله على لثتها الثخينة، انتفضت، وقفزت من
الفرش، تكتوي عيناها بألم مطلق، وقد تأجج نار الكوى
الحساسة من جسدها، توارى وجه اللبوة الوحشي، يشرق وجهها الأسود
بحسن، وجاذبية طاغية، تبرق عيناها بالألم المبرح، تسأله الرأفة.

كيف نعى أن اللذة والألم جدل الحياة، حطت نهديها على صفحة
صدره، وألقت بساقها على ساقه، تسلم جسدها، تتماس أوتار الشهوة،
ينفتح الصراع الدامي فى ساحات القنص واللذة، على أدغال أفريقيا.

يتوسد الثقل الماهوجنى لجسدها الفاتر، صفيحة جسده الذي بدت
عريضة كنهري، يمر الليل طويلا مشبعا بالنشوة، تجثم جواره، رأسها
يتوسد كتفه، نهذاها مزروعان فى صدره، ساقها
متلاحمان بساقيه.

و د :

ع: عض

فرصة النحل- لسعة الأفعى-

نهشة أنياب الضواري

لعنق الضحية ..

لماذا يجتمع طريق اللذة والقتل معا

لماذا يجتمع طريقا الشهيد والشهوة..

وقت طويل يمضي قبل أن تسمح لثغرها
السفلى أن يتوسد شفثيه، يطبق عليه،
وسادة من لحم أنثوي، لا توصف حلاوته،
فصوص من عنب الجنة، ينظر وجهها
الفهدي، تزدهر خشونته بفتنة خلاية، أين
كان هذا الجمال الأنثوي الأخاذ مختبئا؟

لا تنام وغريزتك تدفعك

للمخاطرة، تلوك ثغرها بصبر لا ينفد،

ترشفه ماء فراتا، وعطرا شبقا، ونشوة لا

تدوى، الآن تدرك أن ثغرها شهوة مطلقة، ذروة ممتدة، لا تنقضي ولا
تتلاشى، حقيقة تفوق العالم المادي، لتجاوز حدود الموت والحياة، تقام
بسببها الحروب، وتندثر الممالك، وتنجز الجرائم، تلوكه وترشف رحيقه، لا

ملل ولا كلل، ولا شبع ولا ارتواء، وإنما متعة خالصة تسبح فى حيواتها حتى ضفاف الموت.

من يعرف علم القدماء عندما تفوق ما لا نعلمه، وما يصعب فهمه، إذا لم تكن غير مجازات وأساطير، تكشف دلالات غامضة عن حقائق يصعب إدراك كنهها.. الآن تعلم أن عنب الجنة وحصرها، ليس سوى حلاوة الشفاه التي أطبق عليها الإنسان وهو يركع على عتبات أنشاه، الآن تعلم أن العالم جوهره لحم أنثى، خلقه الله ليقهر رجال العالم بجاذبيته الأسرة.

يأتي البكور والحياة لها أرجوانيا، جسدها يتوسد جسده، ونهداها مزروعين فى صدره، وروح الصبية ينساب إلى روحه، تستيقظ بابتسامة رضا، أن وقت الرحيل، تستقيم بنصفها لأعلى، تنظره بعينين باردتين، تفكر فيما إذا ما كانت قد ضيعت على نفسها ووليفاتها فرصة التهامه، أو أنها تتدبره ليلية من ألف ليلية، ليلية لم تأتى بعد، تابعها، يحاول أن يخمن ما يجرى داخل عقلها، لكنها تعفو عنه.

قبل أن ترحل تهبط بنظراتها أسفل وجهه، تتألق عيناها شزرا، وتنقض مثل عقرب، تقنص بأنيابها الحادة شفته السفلى، توشك على قضمها، يكبح الوجع مشدوها للمفاجأة ولسرعة القنص ودقته، تتراجع إلى الخلف، تحديق عيناها به بلا عواصف بلا أعاصير، نهر مثقل بالغرين ونظرة متوجة بالأبدية، تقفز من الفراش قفزة لبوة، تابعها تختفي، وخلفها وليقاتها، قبل أن يعبرن خط الأفق، يستديرون نحوه، ينظرونه بصمت، يختفين فى الأدغال الموحشة، وقد تركت وراءها نهدين لشجرتين أبينوس مغروسين فى صدره؛ ووهجا زمنيا سيلازمه طول العمر، وهو يتساءل:

- من يضاجع لبوة؟

من يضاجع روح القمر؟ الروح التي تغادر المكان، بعد أن تغفو فى كوابيسك، تتعطر للقمر، ترفع يديها نحوه وقد اكتمل بهاءة، ترقص، ثم تركع على جسر نهر "ويلي"، تغتسل وتصلى، تبتهل له أن يرسل قوته كي تملك أميرها الذي اختارته.

* * * *

يأتي الخريف ناعما مثل "أوكابي"⁽¹⁷⁾ يخطو مستغرقا في خجله،



وتمضى الأيام على وتيرة واحدة،
تتشابه الأنهر والليالي، مطر رعي
يأتي من قلب الأزلية، وغابة مسكونة
بظلال أشباح سادرة فى عتمة الرعب،
وظلام يستحضر سحرته وشياطينه،
وقد راهن الضابط الشاب للنجاة من
الجنون ألا يتوقف عن تحية الراية التي
تخفق أعلى سارية الثكنة.

يجلس فى سرواله الدمور حافيا على شرفة الحامية، وقد طال شعره
وذقنه، وحاله حال إنسان الغابة البدائي، لا يختلف عن الجالس جواره؛ إيه
اللى تقدر تعمله يا شمروخ، جنبك قاعد زعيم الرياحين⁽¹⁸⁾، وعشيرته
معتصمة فى الساحة بانتظار تعيينها اليومي، الذى تقدمه لهم منذ عهد
الصداقة الموقع بينكما، تربت على كتفه بمودة، تشرح له بأن الفول
السودانى خلاص نفد، والموز خلص، خلاص يا عم رباح، بح، مفيش، معدش
فيه أكل خالص.

بعد أن أعيالك الشرح، تظل ترتسم على وجهه الرياح أسارير بعدم
الفهم، تدخل مبنى المحطة، وتعود وفى يدك طربوشك العسكري، تقدمه
إلى زعيم القردة، تحدثه برجاء أنك لم تعد تملك سواه، يأخذه بتمعن،
يلوكة فى فمه، تستعيده وتضعه على رأسه، ينبعث الهياج بين
الرياحين، يدقوا صدورهم تحية لزعيمهم الذى وقف فى طربوشه أعلى

17) أوكابيا: Okapia حيوان نادر من فصيلة الزراف يعيش فقط فى غابات الكونغو، رأسه رأس
زرافة، وجسده لحسان، وموسوم يخطوط حمار وحشي
18) الرياح: نوع من القرود فى حجم الإنسان وأكثر شراسة.

الشرفة ملوفا لعشيرته، وهو يصرخ، ويدق صدره مختالا، يغادر ساحة
الحامية بكبرياء تتبعه عشيرته فى طابور منتظم، يتقدمه الأقوياء من
الذكور، وخلف كل منهم إناثه، يحملن صغارهن، وعلى وجوههم سيماء
الخضوع للزعيم.

كان السعادين ثانى الراحلين، اختفوا بهدوء ودون جلبية، وكأنهم
أكثر فهمًا لأحواله، تبعهم الرتبة، يمضي الوقت حتى اختفى نقيق
الضفادع، ورحلت السحالي، وتلاشت القوارض.

تراقبه أميرات المبورو، وقد نفذ الطعام من السلال، وجف السمن فى
القدور، ورحلت كائنات العالم عن المحطة واحدة بعد أخرى، نفذت قواه،
سائل القدر عما هيا له من مقادير على بعد آلاف الكيلومترات من
مسقط رأسه، وإذا ما قدر أن تكون حامية حواش منتصر مقبرة لعظامه،
وأيّن سيكون مآل روحه، بينما لحمه من نصيب اللاحمات، لوح لهن غاضبا
يطالبهن بأن يرحلن بعيدا عنه، ويتركوه لوحده:

- بره، بره.

تراجعن إلى درجات شرفة المحطة الخارجية وتوقفن، واستدرن يتطلعن
نحوه بتمعن، ينظرونه والاستغراب على وجوههن، وهن يعلن أن هذه
الدرجات الثلاث هي الحدود الأخيرة لنهايات غضبه، وحالهن مثل الهرة
تعاود التسلل إلى الداخل ثانية، يشتاظ غضبا، وينهال عليهن ركلا
وصراخا، يهرولن بعيدا، ثم يستدرن نحوه يزمجرن كاشفات فى تهديد عن
أنيابهن الحادة، داهمته ثورة واختبال، دفع بهن دفعا خارج أسوار المحطة.

أغلق البوابة وعاد يجر قدميه والحمى تأكل جسده، سقط مغشيا
عليه، وقد فقد الزمن. كم مضى عليك وأنت محموم؟ لا تعلم.

استعاد وعيه، شعر بالراحة فى وحدته، مضت الأيام تباعا، تمسك
بتلابيبه الوحشة، خاطب أشباحا من ماض بعيد، يأتي الليل وكل ليل
يمضي، يسأل الله ويرجوه شافعا، ألا يكن قد عزم على رحيل أبدي.

فى مطلع صباح ممطر هلت أشباحهن، يحملن سلالا تحوي طيور
ذبيحة، وبيض، وقدر من عسل النحل، تماسك، رسم على وجهه معالم
النفور، محاولا الامتناع عن البكاء.

نفدت آخر ثمرات الباذ نجان، وصرخ الجوع فى البطون، لم يبق أمام المبوريات سوى التهامه حيا، يقدر صبرهن على الغواية، ويستسلم لنوم ملعون بالشكوك، يحلم بهن وقد اجتمعن حوله مكشرات الأنياب، وفى عيونهن خواء، تتداخل الأشياء وتتوه الدلالات بين رهاب الجوع وهوس الجنس، الآن تكورت بطون ثلاث منهن، بينما الصغيرتان تنظرانه بترقب.

تتمدد روح القمر وأختها الأميرة أيا لكا شجرة السماء التي ولدت فى البقعة المقدسة لإله الرعد، والأميرة لولابا روح النهر تتضوران جوعا، عاجزات عن إخفاء آلامهما بثقل الأجنة التي تدق جذر⁽¹⁹⁾ أرحامهن، يجتمعن حول شعلة النيران، ليدور حوار الليل الصاخب بينهن.

.. لابد من الخروج للصيد، تشير الأميرتان أبرافو⁽²⁰⁾؛ الجلادة المحاربة، وجنحي، روح الغابة، إلى بطن أختهما لولابا، تطالبان ببقائها خوفا من صراع الضواري فى غابة لا تعرف الرحمة، لكنها على أن تصاحبهم، فعدد الأفواه الخرساء التي تطلب بالطعام أصبح معرضا للموت.

يختفين فى الغابة ويعدن، وفى جعبتهن أعواد غاب مجوفة، وأفاع ويساري⁽²¹⁾ سامية، وجذور فتاكة، يفصدن سم الأفاعي ويمزجونه باليساري⁽²¹⁾ والنباتات السامة، ويسحقونه، ويطبخونه فى دهن الخنزير، يصير قوامه شمعيًا، يصنعن سهاما من العظام، يغمسن رؤوسها فى خليط السم، فإذا أعد كل شيء، حملت الأميرات عدة الصيد، وخرجن عدوا إلى الغابة، يشرن إليه كي يتبعهن، فقد حان فيه وقت القنص.

تبقى الأختان؛ روح القمر وأيا لكا فى الحامية وقد انتفخ بطنيهما، تجرعان حزنا مدمج بالخوف من الموت الذي يحوم حول الخارجين للقنص.

أبرافو الأميرة المحاربة تعرف كل شيء عن الحيوانات والطيور والزواحف، سلوكها، مسالكها فى الأحراج، طرق صيدها، ينفذ بصرها خلال تنكرات الطبيعة. تتلمس أثر الطرائد، تتبعها من خلال علامات عارضة ضئيلة، تستدل إذا كانت جريحة، ومدى خطورة جرحها، تقتفى أثارها لمسافات طويلة، دون أن تصرفها عنه أى آثار أخرى قد تختلط به.

(19) الجذاز: الخائطة، والجمع: جذر.

(20) أبرافو: ABRAFO المحاربة

(21) يساري: جمع يسروع، دود بيض حمر الرؤوس تتغذى بالأوراق والأثمار.



يبدو بينهم طفل أحمر، يرتسم الحنق على وجه أبرافو، يتلقى منها نظرات الغضب، وضربات التحذير، لينتهي اليوم بمشادة طويلة بينها وبين روح القمر، طالبتها بأن تبقى الضابط الشاب فى الحامية، وألا تسمح له بالخروج للصيد، وإلا سوف يقتل، وتظل تردد عدة مرات "سوف يقتل".

تتطلع روح القمر نحوه بشفقة، وتهمس: "الصيد مهمة الرجال، والزرع والعناية بالكوخ مهمة النساء، وأن رجلهم سوف يتعلم القنص"، تنتفض المحاربة بالغضب، تلوح لها، تخبرها أن قلبها يسيء إلى عقلها، وأن الهلاك المحتوم ينتظر رجلهم فى الغابة.

طاردوا ضفادع الأشجار والحرايب، ويرقات الغابة، وأمسكت أبرافو بحرياء أثار دهشته، كيف تمكنت من اكتشافها فى عالم الألوان الذي تماهت معه، وعندما حان موعد الإياب كن يحملن من الغابة أوراقا، وقدورا من شحم الخنزير وطينا أزرقا، وعددا كبيرا من الحرايب، وطفادع الأشجار، وسحالي تعددت ألوانها، عكفت روح القمر ولولابا على سلخها وتنظيف أحشائها، وسلقتهم فى قدور فخارية، وبين فترة وأخرى كانتا تسحقهم بقوة، بعد أيام وقفت الأميرات الخمس حول قدورا يتصاعد منها البخار، يرقصن تحت أشعة القمر رقصة طقوسية.

أيقظته الرابعة ودفعته إلى نهر "ويلي"، غسلته جيدا تحت أشعة القمر، وعادت به حجرته المضاءة المشاعل، التي صيرن من جدرانها كهفا قديما لإنسان بدائي، نظر مبهوتا إلى الرسوم الدقيقة التي لونت صف من رؤوس الطباء تقفز واحدة خلف أخرى، وخرتيت جريح تدلت أحشاؤه.

استغرقه البحث فى رسوماتهن البدائية عن صياد ضائع الملامح يقف حاملا رمحه فى مكان ما من الجدران، دفعته أبرافو بفضاضة، وقف حانقا لا يصدق أن تلك اليراعة⁽²²⁾ التي لا يتجاوز حجمها ظبي صغير تستفز به هذه الوقاحة، أمسك بخناقها، وحملها لأعلى مثل ريشة لطائر الكركي فارتفعت تجدف بقدميها وساعديها تضربه فى أى مكان تصله من جسده، نظر إلى روح القمر، وجدها تدير رأسها تتجاهل ما يحدث، تركها فسقطت تلهث وهي تمسك بعنقه، استعادت أنفاسها.

22) يراعة: حشرة تنتمي إلى أسرة الخنافس غمدية الأجنحة، تتميز بظاهرة الإضاءة الباردة، تنتشر فى معظم المناطق الاستوائية الحارة والغابات.

قامت تمسك بقدر الألوان بتحد، وعكفت بصبر ودقة ترسم جسده
بالوان الغابة، جاب كفها الطفولي جسده مثل ملاح كوني يجوب البحر،
وفى صفحة النهر رأى جسده الملون يختفي وسط الطبيعة.

تبعها إلى الغابة تعدو مثل "تشيتا"⁽²³⁾، تعلم منها كيفية العدو
بسرعة الفهود، وتفادى جذور الأشجار والأحجار الناتئة فى العتمة، كيف
يحفظ توازنه، ولا ينزلق على سطح أوراق السرخس الرطبة، وكيف
يتوارى من الرياح، ولا يكشف رائحته للطرائد، وكيف لا يخطئ
الفريسة، عندما ينفخ سهمه المسموم فى قسبة الغاب المجوفة.

كانت تصرخ عليه: "ألى (على)، لا تفعل كذا، ألى (على)، اخفض
رأسك، ألى (على).... أطلق سهمك، ألى (على)، ح تقتلنا، ألى (على)". ذات
يوما أوقفته أمام حيوان غريب، كان يرعى العشب بهدوء من أغصان
الغابة، أشارت نحوه، وهي تشير إلى نفسها وتقول:

- "كابى"

يقول بغل: "أنت شيتا".

- لا أنا أوكابى.

- أنت شيتا العفريتة.

تضحك وتقول بإصرار: "أنا أوكابى".

* * * *

بلغ الخريف ذروته، يمضي الوقت منعما بالدفء على الضفادع
والسحالي، تقضي الضواري والرياحين والبيبغاوات حياتها بحثا عن الثمار،
تنهمك الطيور الطنانة فى ارتشاف رحيق الأزهار، وتلتمس الفيلة والزراف
والشمبانزي من أرض الغابة أوراقها، وتتأرجح السعادين بين الأغصان.

كُل يأكل من كُل، والأضعف ضحية الأقوى، والغابة تحمل
الجميع على ظهرها، وبين أعطافها، لا تدمر ولا استياء، لا شكوى ولا
نقمة، فعلام السخط؟

(23) تشيتا: حيوان مفترس سريع العدو، الأصغر بين الأربع الكبيرة {الأسد، النمر، الفهد - التشيتا}

عادت السحب الساذرة فى غيها تحمل حلقات الدخان المرتفعة من مواقد
الحامية نحو الشرق البعيد يقتفى أثر بومة ليلية تسبح على سطح قمر فى
سماء صافية، عادت المتعة والرقص والغناء تحت المطر، وشرعت أبرافو
تطارده للمضاجعة، كما يطارد الصياد فريسته.

تلمحهما روح القمر تبسم وتمسك بطنها المنتفخ، سعيدة برجلها
تغازله نساء أخريات، فكلما كثرت نساؤه زاد فخرها به، حين أتى الليل
أحاطت الأخوات برابعتهن، يطيبونها بلبن الحمير الوحشية، ويعطرونها
بالبنفسج، ويضمخونها بالبخور، ويتركونهما معها، لتمضي ليلتها
الأولى فى عالم التكاثر.

فى صباح ضبابي تمكن من إصابة وعل بضربة من حريته، تتعقب
أبرافو الوعل الجريح وسط الغابة، استمرت المطاردة حتى الضحى،
لينكشف الدغل فجأة عن الوعل، وقف مشلولاً على مسافة قريبة ينظر
قرنيه، يوشك أن ينغرزان فى صدره، اعترضته أبرافو لتتلقى ضربة من
قرنه، حملها عدواً إلى الحامية، يهرب بها من براثن الموت.

فى صباح اليوم التالي خرج للصيد مع البقية منهم، وهو عاجز عن الفهم
حيناً، وأحياناً عاجز عن التعبير عما يخالجه من مشاعر، لقد وهبته الرغبة
فى الحياة.

الاتصال الذي كان فى بداياته محض فوضى من تراتيب عشوائية،
وتلبية لغرائز بدائية، أملتها صدف من عالم الضرورة، لا يسعفه بالانشغال
فى البحث عن تفسير لها، إلا عندما حلت الواقعة، وأصبح بعضهم يحملن
نطفه فى أحشائهن، الآن ثمة وشائج من أواصر الدم.

.. لو يعود الزمن إلى بداياته، لتمكنت من عدم التورط فيما أنت فيه
الآن، ولما غامرت، فى عالم لا تحكمه سوى المغامرة؛ المغامرة بالقتل،
المغامرة بالقنص، المغامرة بالجنس، المغامرة بالموت من أجل البقاء.

تراقب الذكور فى جماعات الأسود والرياحين، الثيران والوعول،
وترصدها، يحيط بهم إناثهم وأطفالهم، يقتسمن مهام البقاء؛ للإناث
الإعالة، وللذكور الحماية، تسأل الوجود؛ أي لعنة صبها على رأسك؟ أى
نقمة تحملها على عاتقك؟ الرضوخ لسطوة الجوع، الاستسلام لقسوة

الحاجة إلى وليف، الخضوع لشرائع الغابات، الاندماج القسري فى عالمها البدائى، ما عدد الإناث اللائى عليك أن تعولهن؟ ولماذا يشغلك الأمر وأنت غير قادر على حماية نفسك، فكيف بخمس، ثلاث منهن ستلدن عما قريب أبناءك.

تكبر البطون، تفرض عليك واقعا من الاستسلام، تمضي فى ضوء الغابة الشاحب المنسل من هامات الأشجار إلى أرضيتها المعتمدة عاريا إلا من منزرا يستر عورتك، تتخفى فى تموهات الخضرة الزاهية للسرخسيات والسحلبيات وزهورها الملونة.

على مروي الماء تدهم لولابا أحد صغار الفيلة، يتمرغ فى الوحل، أطلقت عليه سهمها المسموم، وطار دته نصف نهار، حتى تمكن السم منه، شقت الأميرة لولابا بطنه، وتناولت بكلتا يديها الطعام من معدته، وازدرت، كان نصف مهضوم، استرجعت قوتها، وحملت بقيته إلى أختها الثقلات بوطاة حملهما، ثم عادت مسرعة تقطع أوصال الفريسة.

تلقت محطة حواش الصيد السمين بفرح، وأسرعت روح القمر وأختها أيا لالا تشعلان النار، نهيم طويل شق أرجاء الغابة جعل الرعدة تسري فى أوصال الجميع، كانت الأم المكلومة قد ظهرت من دغل قريب، لترى عدوتها تجلس على جثة طفلها، انقضت تدهسها بأقدامها الثقيلة، ثم غرزت نابيها المقوسين فى بطن عدوتها، بقرتها، كانت تثار، عين بعين وسن بسن وجنين بطفل.

أسرع يعدو إلى موقع الصيد، لم يجد سوى دماء تنتشر فى كل مكان، والفيلة الأم تجرى حول نفسها، تدوس عدوا غير مرئي، وهو يبحث عن أم لطفل لم ير النور بعد، حل أمل كاذب بأنها تمكنت من الهرب، تتبعت الأخت الأصغر مسار الدماء، لتجد أشلاء، ورحم دهن بين أحشائها المدلاة، كان مشهدا مروعا، عادا بها إلى الحامية، يبكيان خسارتيهما، لم يبق سواه لإعالة البقية والأخت الأصغر جنجي⁽²⁴⁾ روح الغابة.

تحدثت الأميرات طويلا، أجمعن أنه لا يمكن الوثوق به وحده فى الغابة، أشعلت الأميرات الخمس حلقة واسعة من النار فى ساحة الثكنة،

(24) جنجي: Jengi

ارتفعت حلقات الدخان، تطلب مساعدة عشيرتها، وحول أختهن جلست
الأميرات الثلاث، يحطن جثمانها بالأعشاب والبخور، رقصن حوله رقصات
إيمائية، وعزفن على الطبول طيلة الليل عزفا موحشا.

فى الفجر ظهر عدد قليل من محاربي المبورو، وقفوا أمام جثمان أبنتهم
بإجلال، ومع النهار تزايدت الأعداد؛ رجال ونساء جلسوا على شاطئ النهر،
بانتظار سيدة ضخمة جاءت على محفة، بدت مهابتها ومكانتها الرفيعة
واضحة، جلست أمام جثمان ابنتها، وساحرة القبيلة تقوم بشعائر الموت.

طلب الزعيم مبورو من الملازم أن يصحب القبيلة، لكنه رفض مغادرة
الحامية دون أوامر قيادته، ثار استياؤه وأشار إلى بطون بناته الباجرة.

عندما علمت الأميرات أنه سيبقى وحده، أصابهن الذعر، حاولن إثناءه
عن البقاء بلا طائل، أو يبقين معه، لكن حال أغلبهن كان يعرض حياة
الجميع للخطر.

ترك له الشيخ مبورو عدة للقنص، ورماح، وثمان، وقطعا من لحم الفيل
الذي قتلت ابنته الأميرة لولابا بسببه، وجوالا ممتلأ بالذرة، رفضه الضابط
وأشار إلى بطون بناته، وقال إنهن أكثر منه احتياجا، لكن الشيخ يجيبه
أن هذا جزء من دين عليهم لمن علمهم زراعة الذرة البيضاء.

ستعلم أن الفضل في زراعة الذرة البيضاء فى مونبوتو، يرجع إلى الصاغ
منتصر، وتوقد ذكائه وأصالة رأيه، ها هو الرجل الأسطورة يظله
بحمايته، وكما منح طربوشه لزعيم الرياحين، خلع الشيخ مبورو عليك
معزفة الأسد التي يرتديها، ووضعها على رأسك، محييا فيك الشجاعة،
ليرحل متتبعا ضفاف نهر "ويلي"، وحوله أبنائه وبناته أو إناثك، وخلفه
قبيلته، وللمرة الثالثة تبتلع ظلال الغابة المعتمدة رتل طويل من أصدقائك،
هذه المرة كانوا بشرا حقيقيين.

* * * *

منذ دخوله لادو بقي الصاغ منتصرو حشا كاسرا حبس قفص مفتوح، يجرى عرضه يوميا فى سيرك يرأسه مهرج يدعى أمين بك، لا يعدم فرصة سانحة للتندر بغروره، والمزاح حول صدامه مع العراقيين، والتنديد بهم، لإهانة مولانا الخديوي، يتولى كازاتى دور البهلول الذي ينال من سمعته، ويسرد حكاية اتهامه بسرقة مائة وعشرين بندقية رومنجتون.

فى إحدى سهرات الصيدلى حسان، اتهم الصاغ عرابي والبارودي بخيانة أمير البلاد، لم يكذب ينهى جملته حتى لاحظ الحضور ثلاثة من الضباط العراقيين وقفوا، وكأن تهمة الخيانة موجهة إليهم.

قال الملازم خلاف إنه لا يصح الحديث عن ضباط غائبين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وقاطعه محمود العجيمى: "ليس من حق الذين كانوا يستمتعون بالصيد فى الأدغال، وحولهم الزنجيات العاريات، أن ينتقد ضباط ضحوا بحياتهم وبأسرهم، وفقدوا أملاكهم من أجل حرية الوطن، وإعلان الدستور".

أمسك الملازم مصطفى العجمي ساعد أخيه وجذبه خارجا، وحاول الحسيني أن يخفف من غضب زملائه، فدعى الحضور أن يتقبلوا آراء بعضهم، لكن الغضب لم يكن يحيق بمحمود العجيمى وحده، فقد صرح محمد فوزي موجهها حديثه للصاغ بتحد:

- "على حضرة الصاغ أن يعلم أنه إذا كان عرابي باشا والبارودي باشا غير حاضرين، فإن للثورة العراقية رجالها فى لادو".

كان تصريحا خطيرا، نال استحسان الحضور، نكاية فى منتصر، ما جعله يحيل الضباط الثلاثة لمكتب تحقيق، وأنزل بهم عقابا بالحبس سبعة أيام بتهمة التناول على ضابط عظيم، كانت تهمة مخففة على أية حال، وأفضل من تهمة العصيان.

فى اليوم التالى تقدم إلى مكتب الصاغ الملازمون محمد الفولى،
وابراهيم حليم، وعبد الواحد مقلد، ومصطفى العجيمى وشلعى يطالبون
بأن ينضموا إلى زملائهم فى الحبس.

- أنا ما شفتش حد منكم امبارح، هو أنتم كنتم معنا؟

تقدم الفولى خطوة إلى الأمام وقال بالنيابة عن زملائه: "لا افندم".

- طب جايين ليه؟

- نطلب الانضمام إلى زملائنا افندم.

تفرسهم بنظرات ناريت: "وأنتم إيه دخلكم؟ عاملين رجالة! حد فيكم
صعيدى، حد فيكم دماغه زى الجزمة!

.... -

- جرى أيه يا افنديه، هو الجيش فيه تجمهر، طبعاً ما أنتم ثورية!، تمام
يا حضرات، سبعة أيام حبس انفرادى، كل واحد يختار الزنزانة اللي
يحبها، انصراف أنت وهو، زى الوطن ما انصرف.

عقب إبراهيم حليم: "يا افندم الوطن عمره ما ينصرف".

وأعقبه مقلد: "افندم الوطن أجمل زنزانة".

- الوطن أجمل زنزانة! دا شعر مش عسكرية، يا افندي أنت وهو (ده)
مش البرلمان البريطانى، أو الجمعية الوطنية، دى وحدة عسكرية، إذا
فقدت الانضباط تحولت لعصابات، حضراتكم عاوزين جيش من (أنى)
نوع؟

..... -

- تمام خمستاشر يوم حبس انفرادى، يلا يا حضرات، غوروا من وشى.

دخل الحسيني، كان يعطيه ظهره، ويضرب رقبة حذائه بعصاه:

- أول ما يحضر المتخلفين من عصاباتكم يدخلوا الحبس.

- يا افندم هم مش متخلفين.

- ما أنا عارف، وأنت كمان ضم نفسك للحبس.

- أنا عندى محاضرة.

- هو إحنا بقي عندنا مدرسة للنصب.

- أوامر سعادة الحكمدار.

- "تقدر تأكل بذقن حلاق الصحة حلاوة، لكن تلعبوا معاي يستحيل، أنا عارف أنكم مش ح تهدوا إلا وأنتم متعلقين من المشنقة، وبعدين يعنى مش شايفك ثورجي زي أصحابك، مالك ضابط خرع ولا إيه؟
- أنا ما بتهرش من الحبس.
- أمال ليه مش عايز تعمل فيها (برمجى) وتنضم لهم؟
- الثورة انهزمت خلاص، والبلد محتلة، وأنا بطلت ادفع جزاء عن قادة لم يكونوا أكفاء أو على مستوى المسئولية.
- برضه ح تتحبس يا حضرة اليوزباشي .
- أوامر سعادتك.

انتشر خبر حبس الضباط العراقيين، وأصبح مشار تهكم، ومنذ حضوره الصاخب لم يسبق أن قيلت كلمه مديح فى حقه، كان قادرا على خلق مشاعر عدا، لا يعبرون عنها فى حضوره الطاعى، وانضباطه العسكري الذي يسميه أقرانه "قسوة مفرطة"، ويطلق عليه الخطرية "السفاح".
فى صباح اليوم التالي أخبرت فرانسوا الحسيني، وهي منخرطة فى الضحك، أن مديرية الاستوائية تواجه تمرد العراقيين الثاني.
- بتقولي إيه؟
- نساء الضباط المعتقلين أعلن التمرد.

أسرع إلى مقر المديرية، حيث وجد زوجات العراقيين يطلبن مقابلة الحكمدار، تتقدمهن السيدة سارة زوجة أمين بك، أمام أمين بك أعلنت النساء أنهن قبلن الزواج من ضباط تم نفيهم دون وجه حق، لكنهن لن يقبلن أن يرى أبناؤهن النور وأباؤهم معتقلون.

منطق يصعب رفضه، لكنه يخشى منتصر، أعلن أنه يتفهم مطالبهن، لكنه لا يستطيع التدخل فى شئون عسكرية، واقترح مقابلة الصاغ، وبخته زوجته، واتهمته بالضعف أمام هذا المتوحش، تمسك بموقفه، وقد زاد حنقه، موضحا أنه لو فعل سيكون أمرا شائنا، فالضباط المحبوسون أعلنوا التمرد، ولو لم يعاقبهم منتصر لفعل هو، وأضاف وهو ينظر إلى زوجته محذرا، أن منتصر قد أعفاه من موقف يضع المديرية فى خطر، قالت ألفت:
- "ولو، من أجل أطفالنا سنقابل الشيطان".

اقتحمت مكتب الصاغ تسأله الإفراج عن زوجها، لحقت بها صفية، سمعت منتصريسأل ألفت بسخرية لاذعة، إذا ما كانت تريد اللحاق بزوجها فى الحبس الانفرادي، لكن هذا لن يصبح حبسا انفراديا، استدار يسأل اليوزياشي الحسيني إذا كانت الحملة التي جاء بها من القاهرة تابعة للجيش، أم نزهة بين عشاق على النيل.

- حضرة الصاغ لا يصح إهانة زوجة ضابط فى الجيش.

انتفض ثائرا وقذف بمحبرة أمامه إلى الحائط:

- "ميصحش إهانتها، وميصحش تقتحم مكتب قائد عظيم، وميصحش يتحول الانضباط فى ثكنة عسكرية إلى علاقات عائلية، أضاف مهددا:

- عندك محاضرة عسكرية بكرة؟

- نعم حضرة الصاغ.

- خدhem من قدامى وامشى والاح تندموا كلكم.

استدار الحسيني، وجد النسوة يسددن الباب، والدموع تنساب من عيني صفية، وأختها تمسح الحبر عن صديرتها، وحباب تمسح نثار الحبر عن ألفت، رفعت رأسها فى كبرياء، وابتعدت بلطف عن حباب، وانحنت تحمل المحبرة من البساط، وتقدمت ناحيته، طرفت عين الصاغ، تابعها تفرغ بقايا المحبرة على ثوبها الأبيض، وتحدثه بتحد:

- "واضح أن حضرة الصاغ لا يفهم العلاقة بين المداد والرصاص، واللي يهدر المداد، همجي ميعرفش القيم النبيلة الكامنة فى حروفه، وأشارت بإصبعها إلى رأسها والنساء يحاولن كبح ثورتها:

- زيه زى المدفع؛ يدمر ويقتل، لكنه بلا عقل.

* * * *

المحاضرة والندوة

تألفت أهلة ونجوم ذهبية وفضية، تزين أكتاف كبار ضباط الجيش المصري فى خط الاستواء، ويجوارهم موظفى المديرية، فى الخلف وقف الضباط العربايبين بعد أن أفرج الحكمدار عنهم لحضور المحاضرة، التي كان عنوانها "الصدمة والنار".

أوضح اليوزباشي أن فعل الحرب، يتلخص فى عنصرين؛ "الصدمة" وهي عنصر القتال الأول، تمثلت قديما فى الصراع بين الحيوان والإنسان، ويدور القتال المتلاحم جسدا جسدا، وتستخدم الحيوانات الأنياب والمخالب، ويستعمل الإنسان الهراوات والمدى كأسلحة للقتال المتلاحم، حتى ظهرت الرماح والسهام والمقلاع، والتي كان لها أول تأثير على شكل القتال "باتساع المسافة بين الخصمين"، هذا هو تاريخ القتال بالصدمة.

"النار" هي العنصر الثاني فى الحرب، ظهرت مع اختراع الأسلحة النارية، والذي مكن الجيوش من القتال عن بعد، ارتفعت قيمة عنصر النار مع ظهور المدفعية، واستخدام التمهيد النيرانى الكثيف، ونعرف أن قوة المدفعية العثمانية هي التي شقت الطريق لفتح القسطنطينية.

تحدد كفاءة عنصر النار فى أمرين؛ المدى الفعال للرمل، والثاني سرعة الرماية على الأهداف، ولهذا ألزمت السرايا بالاحتماء خلف السواتر، ومن أنواعها المتاريس والحصون والطوابى العسكرية.

الصراع على احتلال الأرض لا يتم من خلال القتال خلف القلاع، كما تؤدى عمليات الحصار الطويل، إلى إطالة زمن الحرب، وهو ما ينعكس سلبا على احتلال الأرض بالسرعة الكافية، تعرفون أن الجندي فى زمن القلاع والحصون، كان فلاحا يترك أرضه دون زراعة.

لهذا تخلى القادة العسكريون عن الاكتفاء بقوة النيران، والعودة إلى القتال من مبدأ "الصدمة"، لكن بواسطة خلق قدر هائل من الفزع، من هنا ارتفعت الأهمية الهجومية لسلح الخيالة، والتي تظهر فى قوة الصدمة الناجمة عن هجوم الخيالة الثقيلة ضد المشاة، أو الهجوم الصاعق للخيالة الخفيفة، يتضح ذلك فى معارك المغول.

لا تكسب المعارك فقط بواسطة الجيوش الجرارة، لكن قوة عسكرية صغيرة متماسكة تستطيع أن تكسب المعركة باستخدام المفاجأة أو المناورة، هكذا هزم الإسكندر الأكبر جيش الإمبراطور الجرار، وبعده تمكن خالد بن الوليد من هزيمة جيوش الإمبراطورية البيزنطية.

نحن نعلم أن الإنسان قادر على امتصاص كمية معينة من الفزع والذعر، فإن عجز فر من ميدان القتال، ولهذا تتمثل ذروة القتال بين الخيالة

المدرعة ضد المشاة، بالهجوم من موقع الانقضاض، لتحقيق نتيجة حاسمة بزعة صفوف المشاة واختراقها، وتشتيتها، والانتقال بعد ذلك إلى تسديد ضربات فعالة إلى قلب القوات المعادية.

بالطبع هناك طرق تمكن المشاة من مواجهة الصدمة الجبهوية للفرسان، في معركة واترلو كان يكفي حملة الرماح في سلاح المشاة الفرنسي أن يخفضوا رماحهم على زاوية 45 درجة ويثبتون كعوبها في الأرض، لمواجهة انقضاض الخيالة الإنجليزية ليلحقوا بها خسائر فادحة، وكان الجنرال "ماريو" قد قدر الصدمة الحركية بكتلة وزن الفارس والتي تبلغ 370 كجم، وفي ظل سرعة روح الانقضاض، قال ماريو:

- "إن العدو سوف تكنسه ربح الانقضاض".

هذه قيمة الهجوم من الحركة، والصدمة الناجمة عن الانقضاض تكون أسهل عندما يكون القتال بين خيالة ومشاة، وصف "دوبراك" هذه العملية فقال: "انقضوا بسرعة والتفوا حول البلوك الذي تهددونه من كل الجهات كي يضطرب الخصم، وتزعزع خطوطه وتفتح صفوفه، عندها لقموا الأسلحة، واصرخوا بأعلى أصواتكم (أسير) ويمكن فهم هذه الكلمة في كل اللغات، فإذا تزلزل وضعهم واهتز، ادخلوا، فإذا استسلموا أوقفوا ضربات السيوف".

ركل الصاغ حواش منتصر الذي كان يجلس بجوار حاكم دار المديرية وكبار الضباط المنضدة الموضوعة أمامه، وهو يتساءل بلهجة ساخرة عما حدث في التل الكبير، وقال يقلد القوات البريطانية:

- "هل فهم جنود عرابي صرخة الخيالة البريطانية (captive..captive) ..captive)؟ أم أن ضباطه المتعلمون من أمثالك في أوروبا كانوا يتقدمونهم، ويترجمونها للفلاحين البؤساء، (أسير.. أسير.. أسير)؟"

ضح ضباط المديرية بالضحك، وعاد توتر العرابيين، توقف اليوزباشي حتى عاد الصمت، وقال: "معكم حق حضرة الصاغ؛ لم تحتاج الخيالة البريطانية لأن تهتف بأي كلمة، فالخيالة المصرية سقطت في فخ الخيانة قبل دخول المعركة".

أثار عدم معارضة الحسيني منتصر سخط الحكمدار، فكر أن المصلحة توجب التفرقة بينهما، تابع الحسيني: "فى التل الكبير لم يكن هناك ساتر للحماية، فانتشر الهلع والذعر أمام اجتياح الخيالة البريطانية لخطوط المشاة المصرية، خطوط جافة من الجوع، ناشفة من عدم التدريب، يابسة من العتاد العسكري، طافحة بجهل القادة، من وافته الشجاعة للبقاء، تكفلت سيوف الفرسان بالإطاحة برؤوسهم.

استطرد بحزن: "ليتنا قتلنا قبل أن نكتشف أن قدرات قادة الثورة لا تتعدى الخطب المنبرية. وقف الصاغ بقرف مغادرا، وقد حرمه اليوزباشي متعة السخرية، الذي استطرد مستكملا:

"الصدمة والنار فن عسكري لا يتوقف على توفر غزارة النيران ودقتها، أوقوة الصدمة ومفاجأتها، فعلى القادة الاهتمام بالمناوراة بالقوات، بالقتال على الأجنحة والالتفاف حول قوات الخصم، لإرباك العدو، وبعثرة خطوطه، وانهياره المعنوي.

* * * *

فى الخامس عشر من سبتمبر 1883 وصلت العاصمة لادو من الخرطوم أنباء جيدة، جعلت أمين بك يعقد اجتماعا لكبار رجال المديرية، أعلن فيه كابتن كازاتى برصانة وتجهم، أن الجيش المصري بقيادة الجنرال البريطاني العظيم هكس باشا أوقع بجيش الإمام المهدي المزعوم هزيمة قاسية، فى موقعه "كاوه".



هكس باشا

صفق الضباط تحية للانتصارات المصرية، أضاف كازاتى: "ومن الأخبار العظيمة أن الجيش المصري بقيادة الجنرال هكس باشا يقود حملة للقضاء على المهديّة قضاء مبرما"، وأضاف عن قصد: "كما تم القضاء من قبل على عصيان عرابي".

جلس الصاغ منتصر صامتا، وبعد أن أنهى الحكمدار توزيع الرواتب، قام فجأة وطلب من أمين بك أن يعطيه الأمر بالتحرك فى الصباح لإخماد تمرد قبائل المونبوتو.

- "حواش افندي ألت أست ضباط حامية لادو؟"
- "أنا! أراى، هو سعادتك أصدرتم أمرا بكده؟".
انفجر أمين بك، وأشار بإصبعه إلى صدره، متسائلا:
- "ومين اللي دخل نصف ضباط الحامية الحبس الانفرادي، أنا؟! إذا لم
تكن لك صفة عسكرية هنا، فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟".

تجاهل منتصر الأمر، واستطرد محذرا؛ أن زعماء قبائل النيام نيام،
ومشايع موبوتو انصاعوا للعلم المصري منذ عام 1880، وعندما يدعم
"أنجارا" زعيم تنجازى، الملك مامبا نجا فى ذبح حامية تنجازى، فيجب قطع
دابرة الفتنة فى مهدها، وقال برصانة أنه ينصح باستغلال انتصارات الجيش
المصري فى وسط السودان، لضبط الأوضاع فى جنوبه، وأضاف أنه سئم
الانتظار، وأن البرارى والغابات، أريح له من زرائب لادو.

بدا لأمين بك أن رؤية الصاغ ثاقبة، وأنه ينوى الوفاء بما يعتقد صائبا،
وهو ما يتلاءم مع رغبته فى التخلص من وجوده الثقيل، لهذا رأى أن عرضه
بالرحيل طوق نجاة للجميع، ما كان يقلقه هو عدد القوات التي سيضطر
للتخلي عنها لعملة منتصر، وفى النهاية اضطر لمواجهة المحتوم، سأل الصاغ
عن عدد القوات التي يريدها أن ترافقه، أجابه وكأن القرار اتخذ، بأنه
سيعود إلى مقره للاستعداد للرحيل، أما عدد القوات فليكن ما تيسر.

ما أن غادر منتصر القاعة حتى أسرع الشيخ عمر الشلح يطلب من
الحكمдар أن ينضم لعملة موبوتو، لم يستطع أمين بك أن يخفى
امتعاضه:

- مش فاهم أيه حكاية منتصر معاكم، كلكم عاوزين تتعلقوا
في (ديله).

- يا سعادة الحكمдар أنما التحقنا بالجيش من أجل الدعوة للدين
الحنيف، وقد أوصانا شيخ الأزهر بأن نكون فى خدمة عسكري جهادية
الجيش المصري، نقوى إيمانهم، ونشد من أزهرهم، ونقف ضد كل من يفت
من عزيمتهم، وأن نحسن فى قلوبهم الشهادة فى سبيل الله، كما أوصانا
الأمم الأكبر بأن لا ننسى واجبنا الأكبر، والأعظم، وهو الدعوة لدين الله
الحنيف.

- تروح ليه وسط اللي ياكلوا البشر، غاوي تعرض نفسك للخطر، يعجبك لما يغلوك في (قدرة)، ويقطعوك مع البصل والطماطم والفلفل، ويعملوا منك (يخني)، أدعو لدين الله هنا جنبي في لادو.
- يا بك الموت في سبيل الله غاية، عارف حضركم وجودنا نحن مشايخ الأزهر في مجاهل أفريقيا يعني إيه؟
- يعني إيه يا شيخ عمر؟
- قال الشيخ وهو يوشك على البكاء:
- التشبه برسول الله صلي الله عليه وسلم، عندما دعي أهل مكة وهم على دين الجاهلية، للإيمان برب العالمين، ودخول دين الإسلام وسط الكافرين وعبداء الأصنام، والأوثان، والله ما شعرت بأهمية مجيء إلا وأنا أقف على لادو، أشهد الناس عرابا كما ولدتهم أمهاتهم، تائهون في الحياة.
- خلاص، خلاص، متحملنيش ذنبكم شيخ عمر، روح ما طرح ما أنت عاوز.

* * * *

فى الخامس والعشرين من سبتمبر 1883 وجد الحسيني الصاغ منتصر يقف بقامته الشامخة أمام كوخه، يخبره بصوته الأجش ذي الرنين، أن الحكمدار أنعم عليه بخمسين خطريا، هم كل ما جاد به من فسيح إحسانه، عاملني زى زميلكم (أبو شخة) شمروخ، ورغم ذلك فأن هذا لن يمنعني من التحرك الليلة، ونظر فى عينيه يسأله، إن كان يرغب فى السفر معه، وافق الحسيني بلا تردد:

- "سيدي الصاغ، الخدمة تحت قيادتكم شرف كبير".

بزغت ابتسامة نادرة على وجه الصاغ منتصر، وقال: "بعد أيام ستغادر السفينة المنصورة لادو، تقل مؤن وأسلحة، والبلوك الثاني بيادة، ألحق بي، سأنتظرك فى الرجاف".

* * * *

على باب كوخ الملازم سالم خلاف وقف الشاويش مسعد الرفاعي في احتشام، يطلب الإذن بالدخول، وأمام الملازمان سالم خلاف ومحمد فوزي، طلب بأدب شديد أن يلتقي بالسيدة ألفت السلحدار، كي يوصيها خيرا بزوجه. سأل خلاف.

- هو أنت طالع حملة مونبوتو؟

- نعم يا افندم.

نظر نحوه فوزي بتمعن، ثم قال لصديقه: طب أنا ماشي يا سالم.

- ليه؟ إيه اللي حط عليك فجأة، ما أنت قاعد!

- ح اعمل حاجة، قول لألفت تعمل حسابي على العشا.

دخل الملازم سالم وتركه تهاجمه موجة من القلق، جرت فريدة نحوه، تحكي عن صديقها القرد سامبو، خرجت إليه ألفت هانم تصحبها خادماتها تحمل له الشربات، بدا عليه الاضطراب الشديد.

- أيوه يا مسعد عاوز أية؟

وقف من فوره وقال وهو يجمع يديه المتعرقتين:

- يا ست هانم أنا طالع حملة (مونبوتو)، وطالب من جنابك معروف.

- أقعد أشرب الشربات، وهدي نفسك.. وأنا ح أعمل لك اللي عاوزه، خاطر أبوك الحاج مصطفى الرفاعي كبير.

- يا ستي الهانم.. عاوز حضرتك (تاخدي) بالك من مبروكة.. وتحطيتها تحت جناحك، دي وحيدة والغربة صعبة.

- مبروكة بنت الحاج حسن؟ من غير ما تقول يا مسعد، سافر وأنت مطمئن، هو أنت ح تغيب؟

- محدش عارف حاجة يا ست هانم. أمين بك "قالبها" على سعادة الصاغ منتصر، وعاوز يتخلص منه بأي طريقة. ومش مهم يخلص على مين في سكتة، حضرتك عارفة إحنا "ملناش تمن".

- ما أنت كنت مع فوزي بيه، سبتة لية؟

قال بأسى: سعادة الباشا.. أنا زعلان منه؟

بدا أنها فهمت، هزت رأسها ووقفت: "اطمن- يا مسعد أنشاء الله مبروكة
ح تكون في عنية، خد بالك أنت من نفسك، وأرجع لها بالسلامة.

في دروب غابت عنها النجوم تسلل مسعد لكوخه، والقلق يعصف
بوجدانه، كان لا يرد أن يري ما يتوقع رؤيته، كان يريد ألا يواجه بما
يعرفه، وعلى باب كوخه توارى، وهو يشهد شبحة الضخم، يتراقص على
ضوء المشاعل.

لم يستطع الدخول، وسقط جوار باب كوخه منهارا، يضم رأسه بين
يديه وركبتيه، يحاول أن يتوارى من العالم، كان عليه أن يغادر في
الصباح، لكنه ورغم أن الباشا الصغير، لم يأخذ من مبروكة ما يبتغيه،
ولم تشفي غليله بالأسباب التي تبرر امتناعها عنه، سوى تردها بلا توقف
من خلال دموعها "إنها أصبحت زوجة، ولا تستطيع أن تفعل ما يغضب الله،
ويؤذي الرجل الذي تزوجها"، أمر لم يفهمه قط، قال يسترضيها، وعيناه
الصقريتان تشعان بنفاذية، إنه سوف يرسلها للحج كي تمحو كل
ذنوبها، أخرج كيس يحمل عقدا من الذهب، ومدته إليها وهو يلكر
كتفها بلطف، وقال بصوت محب، يؤكد رغبته الصادقة فيما يعدها به:

- خدي متبقيش خايبة، أنت عارفة معزتك عندي.

- يا باشا، معزتي عندك تسيبني في حالي.. أنا لا عايزه دهب ولا
كردان، أعمل بيهم أيه؟ سيبنى في حالي الله يرضي عليك.

تغلبت دموعها الغزيرة على رغبته في إشباع رغبته، ولو فعل
لاستسلمت، وقف وربت على كتفها بحنان:

- خلاص.. خلاص يا مبروكة.

انهمرت تبكي حالها بلوعة، انفرج وجهه عن ابتسامة وهو يكرر
ضاحكا:

- خلاص.. خلاص محدش ح يقرب منك.. يلا امسحي دموعك أنا
مسافر الصبح، ودعيني بابتسامة.

مسحت دموعها ووقفت، وعندما رحل دارت في الكوخ، تنظر إلى
الأرض بانكسار، وطوال الليل انتظرت قدوم زوجها ولم يأتي، كان قد

رحل إلى براري (لادو) متعباً، منهكاً، تعصف أعاصير الأفكار في رأسه،
يتخيل جيدها الشاب الخمري الذي عشقه، يتمرغ بين يدي الباشا الصغير.
فى الأحرش سقط في نوم متقطع، وفى الصباح تسلل إلى الكوخ،
كانت نائمة ودموعها لآلى ترصع خديها، نظر إليها نظرة باردة، ثم حمل
مخلته وأسرع إلى مرفأ لادو، ليلحق ببلوك البيادة المتوجه إلى مونبوتو.

* * * *

المُتَبَّعة الخامسة

طَقُوسُ الدِّم

خط العرض ٥°

وسط بكاء النساء لوداع أزواجهن، وعناق الأطفال لأبائهم الراحلين إلى إقليم موتوتو؛ الإقليم العاشر من أقاليم المديرية الاستوائية التابعة للحكومة المصرية، وقف بلوك البيادة الثاني (المتوجه لقمع تمرد قبائل الأبراموس بقيادة الملك (مامبا نجا))، استعدادا لصعود السفينة المنصورة، تجمع المشايخ يودعون بعضهم بعضا، بعد أن تقرر توزيع ثلاثة منهم إلى محطات (رومبيك)، و(أمادي) و(أياك) العسكرية في الشمال، وتوزيع البقية إلى محطات؛ الإسماعيلية والمسماة (غندوكرو) و(الرجاف) و(دوفلاي)، في الجنوب.

اخترق الجموع شبح لامرأة شابة، تجري على رصيف المرفأ حاسرة الرأس، تبحث في الوجوه، والدموع تنهمر مدرارة، وهي تنادي:

- مسعد يا رفاعي.. أنت فينك.. شفتم الشاويش مسعد يا ولاد.

كانت تقدم فوزي نحوها يطمئننها:

- متخافيش يا مبروكة هو كان هنا.

صرخت في وجهه: مسعد أمانة في رقابتك يا باشا، لو حصل له حاجة ح تكون أنت السبب، أنت المسؤول قدامي وقدام ربنا.

ضحك فوزي: حاضر يا مبروكة حاضر، واستدار يصرخ:

- حد شاف الشاويش مسعد... يا افندي أنت وهو شوفولي الشاويش مسعد.

نادى الجنود على الشاويش الغائب، وبحثوا عنه لكنه لم يظهر، كان يتوارى داخل غاطس السفينة، وهو يتمني لو تغادر المرفأ من فورها.

صعد الجنود سطح المراكب، أطلقت السفن من مراسيها، وتدفقت الحبال على ظهور الصواري تشد خلفها الأشرعة إلى السماء، خفقت القلاع معبأة بالرياح، وغادرت المرفأ والبيارق المصرية ترفرف أعلى صواريها، وعلى متنها سرية البيادة الثانية بقيادة الملازم أول سر الختم الميرغني، وفصيلتي المساحة، وكان الحكمدار قد

أعفى الحسيني في اللحظات الأخيرة من حملة مونبوتو، وجعل مهمته تقتصر على تسليم العتاد للصاغ في محطة الرجاف، على أن يشرع في تنفيذ المهمة الموكلة له من قيادة الأركان.

تذكر الحسيني الكراهية التي علت وجه أمين بك، وهو يواجه حماس العراقيين للالتحاق بحملة منتصر، الملازم الفولى الذي أجابه بأنه جاهز من فوره، واختصر فوزي وشلعى الوقت إلى ثواني تكفيهما للحاق بالصاغ، وعندما سأله عن مصير "المدرسة العسكرية"، فوجئ بوجه آخر لأمين بك، أو إيزاك إدوارد شنيترز، الذي تحول إلى صخرة لرجل ألماني صلد، قال له ببرود وعيناه تحملان الغدر:

- "حسينى أفندى، هو أنت بس اللى بتفهم فى العسكرية".

عبرت عيناه ضفاف النهر، إلى برارى السافانا، ومن الشرق ظهرت جبال "يلينيا" و"الكلب"، شاهد جندى المراقبة ذهبية تتقدم نحوهم باضطراد، وأعلامها تطالبهم بالتوقف، عندما التحمت الذهبيتان تمنى ألا تكون هي، توالى إلقاء الحقائب واللوحات وحامل الرسم، ولم يبق سوى ظهور امرأة يعبث الهواء بذيل ثوبها المصنوع من الدانتيل الأبيض الواسع، وقبعة عريضة من القش، قفزت إلى قوت القلوب، وخلفها نزل فيتا حسان، وديمتري كفاكس، أطل كابتن كازاتى يعطى الحسيني رسالة أمين بك، يطالبه باصطحاب فيتا حسان وكفاكس والأنسة فرانسوا دى سابل مع توفير سبل الراحة لهم.

وقف متبلد الحواس، لا يفطن إلى نظرات كازاتى النارية، سمعه يسأل إذا كان كل شيء واضح، تجاهله مكتفيا بنظرة غل مستترة للمرأة التى تقف الآن بمواجهته، تلقى إلى خطيبها بقبلاتها، سألها كازاتى إذا ما كان هناك ما تريده، قالت: "سوف توحشيني".

عقب الضابط الإيطالى بثقة الذى يعد نفسه الرجل الثانى فى المديرية:

- أعرف عزيزتى، لكنك ستجدين ما يشغلك، تصحبك السلامة.

هتفت تدعوه كى تودعه بقبلة، قبلة طويلة بالقدر الذى جعل الموجودين على ظهر الذهبيتين يديرون رءوسهم بعيدا، عادت السفن للتحرك، تستدير الفرنسية لتصطدم بمقدمة نهديها العامرين به، تسأله فى تجههم أن يوفر لها مكانا جيدا للمبيت، وآخر للوحاتها وأدواتها الفنية.

* * * *

فى الضحى بلغت الحملة خط عرض {5⁰}، حيث النهر بطيحة مترامية الأطراف، ربضت فوق تلالها ضبان زرق ذوات نقط نارنجية⁽¹⁾ تتدفأ بأشعة شمس ناعمة، ورفرف نساف⁽²⁾ بجناحيه، مطلقا صوت أمج خشن، من منقاره الذي يشبه قرن الثور، وحطت شحارير بكسل على أغصان شجرة طلح عملاقة، وزمار⁽³⁾، ينقر الديدان من شقوق اليابسة، تتوقف الكائنات لحظة، ترفع رؤوسها لأعلى بحثا عن مصدر الخطر الذي أطلقه صفير باشق حلق فى الفضاء، يثير الرعب فى البرية.

تابعت المنصورة إبحارها إلى محلة الإسماعلية⁽⁴⁾، وطوت الذهبيتان أشرعتهما وألقتا مرساتهما، نزلت سريتا المساحة على متن قارين، توجهتا إلى شفيرى النهر، يقيسون أعماق القاع.

تابع زنجى على اليابسة رجلين يلقيان بالشاغول حتى يلامس قاع نهر، ويصيحان صيحة عالية، فى طقوس سحرية لأضحية يحاول الغرباء تقديمها لأله النهر "سبك"⁽⁵⁾ الذي انتشر بأعداد ضخمة.

نبه الضابطان جنودهما بعدم وضع رءوسهم فى الماء، جلجلت ضحكات أومباشى فرج الله لتعانق تيار المياه الأسيل وهو يقول: "سلمها لله يا افندم".

الشمس فى الربع الثالث من السماء، أنهى أحد القارين عمله، وانهمك العاملون على القارب الآخر فى قياس قاع النهر الذي يزداد عمقه بشكل حاد ناحية البر الغربى، بقيت قراءتان، بحث الملازم مقلد عن شعلة ليسجلهما، وعندما استدار كان الأومباشى قد اختفى، تاركاً دوامات قليلة، فإذا غابت الشمس شاهد الزنجى الغرباء حاملين المشاعل، ويطلقون صيحات القداسة:

- "واد يا فرج، واد فرج، أنت رحت فىن يا ابن (المفحور)"، لف الصمت الكون، وقد احتلت سطح الماء عيون قرمزية ترقبهم فى سكون وبهاء، ومضى الليل ورحل فرج.

1 (نارنجية: لون فاتح مشرب بحمرة

2 (نساف: طير له منقار كبير

3 (الزمار: طائر

4 (محلة الإسماعلية: (غندوكرو) تقع على خط عرض {04:90}، بنيت على الضفة الشرقية من النيل، كانت عاصمة المديرية القديمة، أطلق عليها أسم الخديوى إسماعيل. هنا تتوقف خطوط الملاحة بين المديرية الاستوائية والخرطوم التى تبلغ 750 كيلومترا، ويصبح النهر غير صالح للملاحة، بعدها تستمر الرحلة برا إلى دوفلاى ليعود النهر صالحا للملاحة حتى بحيرة ألبرت.

5 (سبك: إله مصرى قديم: على هيئة رجل برأس تمساح. أهم مراكز عبادته (الفيوم) وكوم امبو.

سجل الضباط قراءات قطاع النهر، عند خط عرض {5⁰}، بطول ثلاثمائة وتسعين متراً، يأخذ قاعه شكلاً أحذب، يزداد عمقا عند شفيرى النهر.

إذا دنا الليل صبت فرانسوا جام غضبها، كيف يغادر لادو دون علمها، لولا أن كازاتى أخبرها برحيله عرضاً، لما تمكنت من اللحاق به، شرعت تبكي وهي تتساءل إذا كان رحيله مع منتصر هروب منها، وقالت بتهديد إن الحيوانات لم تتضاجع فى أحراش أفريقيا كما فعلت معك، لماذا أقابل بالجحود، لماذا تهجرنى وترحل، وتعرض نفسك للموت مع ضابط متهم بسرقة أموال حكومية، ويحلو له الحياة بين أكلة اللحوم البشرية.

انهارت على صدره تزرّف الدموع، فأخبرته أنها عندما علمت أنه التحق بحملة مونبوتو تيقنت أنها سوف تفقده، لأن حملة مونبوتو أعدت للتخلص من الصاغ المجنون، وأن لادو تعلم أن الدناقلة سيختلون به ويغتالونه، ويدعون موته فى القتال، محققين أمنية انتظرها الكثيرون.

قالت لا تربط مصيرك بهذا المخبول، وأضافت بعد أن هدأت أن خطيبها كازاتى قال إن المصريين لا يمكن الوثوق بأمانتهم وحسن نواياهم، فهم يبدون الطاعة والمسكنة، وهم على خلق التمرّد ينتظرون الوقت المناسب، وهو أرسل تقريراً يتهم فيه منتصر بأنه لم يسجل بنادق وكبسول فى دفاتر الحكومة، وقد شفع تقريره بطلب وقف منتصر عن العمل، أو ترحيله إلى القاهرة مثلما فعل صمويل باشا بيكر مع أمير لاي محمد بك رءوف قائد فرقة المشاة الخامسة عشرة التى صاحبتة فى البعثة الأولى، وبكباشى إبراهيم فوزي الذى اتهم بالتعامل مع تجار الرقيق، وفى النهاية لا أريدك أن تدخل جنة (لاتوكا) وحدك. أريد أن نكون معا مثل إيفا وأدم.

ماذا تقول؟ هذه امرأة مجنونة. هدا روعها، فلما سكنت، استفسر منها بطريقة مهذبة عن أى علاقة تتحدث؟ ثارت ثائبة وهي تعلن أنها تركت خطيبها المرشح لحكم دارية مديريةية خط الاستواء، من أجل يوزباشى تافه، وقامت تقذفه بكل ما تصل إليه يدها، أمسك بها فأنشنت تهاجمه بضراوة، دفعها إلى الفراش، قبض على ساعديها، وهي ممددة أسفلها تلهث، كانت ترتجف بالهوى، دفعت وجهها جانبا وهي تظن أنه يرغب في تقبيلها، لكنه لم يفعل، همس فى أذنها بأنه لم يكن ليقدربأن تنشأ بينهما مشاعر الحب، توردت عروقها بالغيظ والإهانة، دفعته وجسدها متورم بالرغبة: - "كاذب، منافق، مخادع".

- أنت معتوهة، مجنونة، مريضة، لا أفهم امرأة لديها هوس بمضاجعة الصبية والمراهقين، قلبك ليس به مكانا لحب طبيعي.
- ماذا، ماذا تقول؟

- قلت بالحرف الواحد وأنت تحملقين فيهم بولع
"Je t'ai déjà dis mes conditions."⁽⁶⁾

تهاوت منهارة، تبكي وتضحك:
- وصدقت! صدقت يا غبي! أنت مختل عقليا.
- وأنت مصابة بالخل.
- هل رأيتني أضاجع أحد سواك، أنت غبي، كنت أثير غيرتك،
- "ديمترى كافافيس".

- "ديمترى كافافيس؛ أنت مش غبي، أنت أبله. ضحكت والدموع تنثال على خديها. كافافيس يا غبي يحتقرنى لأننى امرأة، كافافيس التعيس يظن أنه الشاعر فى صبوات جنونه، الإغريقى المثالى، دينيسوس الغارق فى متعه، الممزق بين التعالى والدونية، يحتقر النساء والعبيد، ويبكي ابتعاد الوقادين والجنود عنه، استمع لقصائده، تعرف أى دائرة من العذاب تهدمه.
- أى قصائد؟

- ألا تعلم إنه شاعر، وأنه مثلي، يكره النساء، يحتقرهم.
قال بازدراء إنه لا يستطيع التعامل مع امرأة تهدده بكل رجل تتعثر به، صرخت وهي تقفز فى مواجهته:
- "ومن تكون أنت؟ وقح يخرج للبحث عنهن".
- عمن؟
- اللبوات الأفريقية.
- ماذا تقولين؟ أنت مختلة عقليا.

* * * *

(6) سبق وقلت لك شروطى

رست المنصورة على مرفأ الرجاف⁽⁷⁾، وعلى جسر المركب عدل الشيخ أبو المكارم من جبهته وقفطانه، وحسن من هندام عمامته الأزهرية، وبسمل وحوقل، واستعان بالله، وحمل (مخلته)⁽⁸⁾، ونزل إلى البر على السقالة الممتدة بين المركب والمرفأ، فلما بلغ أرض (الرجاف) وضع كل شيء جانبا، وسجد إلى الله يصلي ركعتين، فلما أنهى صلاته، نظر نحوه إلى مراعى الله في عتبات جناته، فدعا الله أن يؤتية الصلاح، ويسهل من مهمته، ويعينه على ما لا يعلمه، ويقىة شر الغيب، وأن كان يحمد على كل شيء، ثم قام متوجها إلى قومندان الرجاف، كي يعلن عن قدومه، ورغبته في استلام عمله الجديد كأمام لجامع حامية الرجاف، ومعلم لمدرستها.

رحب به الملازم حسن سليمان المعين حديثا قومندان لمحطة الرجاف العسكرية، ودعاه لتناول الغذاء، جاءت أبنة القومندان مرحبة بالشيخ الذي طالما أغدق عليها وعلى أصدقائها أثناء رحلتهم الطويلة على ظهر النيل بالمسكرات والحلوي، استقبلها فاتحا ذراعيه:

- أهلا.. أهلا.. أهلا بالست مريم.

- أجلسها على حجره، واخرج ما كانت تنتظره:

- خدي الحلويات دي. سأل والدها:

- مش فيه مدرسة هنا، ولا كتاب؟

- البركة فيك يا شيخ عبد المعز.

أزاح الشيخ عبد المعز مريم جانبا، وأخرج من صدره اللائحة الحكومية التي أرسلتها الحكومة المصرية إلى حكامدار السودان في (18 صفر 1281 هـ) والتي تنص على قيام الإدارة المصرية في المديرية الاستوائية بالعمل على "تشويق أهل القبائل الوطنية في دخول من يرغبون دخولهم من أولاد الأهالي للتعليم، وتعاطي مشغولات وإرشادهم إليها بالرفق والترغيب"⁽⁹⁾، وأعطاهما للقومندان، الذي قرأها بتمعن، فلما انتهى قال له:

- الله يفتح عليك يا شيخ عبد المعز، جبت المفيد.

قال الشيخ أبو المكارم وهو يعطي مريم حلوي:

- ولو جت الأمور المدرسة، فيه من دا كثير.

7 (الرجاف: Regaf

8 (مخلت: كيس على هيئة جراب كبير يحمل فيه المسافرون أغراضهم، استخدم قديما، ويستخدمه الجنود حاليا.

9 (حكمدارية أمين باشا - المؤلف: جميل عبيد الهسية العامة للكتاب القاهرة ص 99

- فين يا عمي.
- أسألي أبوكي، هو اللي ح يدلنا على مكانها.
- استغرق القومندان حسن في التفكير، ثم سأله:
- تحب تكون فين؟ نعمل كوخ جنب مسكنك، ولا في الجامع؟
- لا جنب مسكني، ولا في صحن الجامع، الله يبارك بلا دوشة، ممكن تعمل لنا زواية ولا كوخ جنب الجامع أحسن، بس يكون واسع وحلو يخلي العيال تفرفش وتنبسط وتحب تيجي المدرسة.
- أمرك يا شيخ عبد المعز، عاوز حاجة ثانية.
- خالص، أنا جيت معاي الأقلام البوص، وألواح الكتابة والحبر، بس لي طلب عند حصرتك.
- كل اللي أنت عاوزة.
- عاوزين سعادتك تشد على العساكر وضباط الصف، وموظفي المديرية، يبعثوا عيالهم.
- تمام.
- ونقدم للولاد وجبة أكل تشرح.
- يا سلام، تمام
- دخلت السيدة أميرة مبهجة، حيت الشيخ، وحملت ابنتها، وضمتها إلى صدرها بقوة:
- خلاص مريمتى ح تروح المدرسة، وتحفظ القرآن.
- تحفظ القرآن، وتتعلم الكتابة والقراءة، وتحسن الخط.
- بس كده يا شيخ عبد المعز.
- لما نكبر شوية، ح نعلمها النحو والحساب.
- هتفت أميرة: ربنا يبارك فيك ويخليك، أنت نعمة بعتها ربنا.

* * * *

فى اليوم التالى دخلت قوت القلوب محلة "الرجاف"، نزل الحسينى متوقعا وجود الصاغ منتصر فى انتظاره، لكن الملازم حسن سليمان الذي زملائه بحرارة، أخبره أن الصاغ لم يظهر فى الرجاف. تسلم القومندان من

كفاكس المرتبات والمؤن، وأقام فيتا حسان خيمة لعلاج الجنود والأهالي، في اليوم التالي أبحرت الحملة إلى محطة (بيردن). استدعى الحسيني فيتا حسان، كان يعلم أن هذا الشاب الضعيف البنية المذهب، الذي يشيع الارتياح أينما حل، هو صديق أمين بك المقرب، ومستشاره الذي يعتمد عليه في كافة شؤون المديرية، سألته عن علاقة أمين بك بمستوطنة يهودية، كان قد حمل من القاهرة خطابا له من أعضائها، أجابه أن أمين بك سبق أن أرسل مشروع لجلاستون باشا كي يزكّيه لدى مولانا الخديوي، ويطلب أن يشمل اليهود بعطفه، كي يساعدهم على إقامة مستوطنات حول بحيرة ألبرت. هنا في خط الاستواء؟.

- "مكفا إسرائيل" أول مستوطنة⁽¹⁰⁾ يهودية في لواء القدس، بعدها تزايدت هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي عام 1881 بلغ عددهم ثلاثة آلاف يهودي، أسسوا عددا من المستوطنات، ومدرسة زراعية تهدف إلى تزويدهم بالخبرة، وتقديم التسهيلات لهم.

قالت فرانسوا: أمين بك لديه خبرات هائلة في الزراعة.

- وهذا سبب استعانتهم به، وفي الحقيقة لو وجد أمين بك الوقت الكافي لتنفيذ مشاريع الإصلاح وتحسين الزراعة لتمكنت المديرية من توريد الغذاء لأربعة أضعاف السكان الموجودين، ولعلم حضرتكم أن جبال لاتوكا وباري تزرع أجود أنواع الذرة والدخن. وأنفع وأفيد النباتات التي قامت القوات المصرية على زراعتها القطن والأرز، الماء موجود على عمق مترين تحت سطح الأرض وهو رائق غزير. لا يستلزم أكثر من إيجاد الأيدي العاملة، والأموال، والإدارة الحكيمة، لتعمير هذا البلد بالزراعة، وتحويل مديرية خط الاستواء لموطن لليهود يجمعهم من الشتات.

تساءل إبراهيم حليم: واليهود محتاجين وطن ليه، والعالم كله وطنهم.

قال حسان ببراءة وحماس: إبراهيم أفندي هذه ليست حاجة، أو غرض، إنها تعاليم التوراة. في سفر التكوين قال الرب لأبرام: «أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة

10 (مكفا إسرائيل: أول مستوطنة يهودية تأسست عام 1870 في لواء القدس، بدعم ثري نمساوي يدعى سلومون، قام على شراء ثلاثة آلاف وثلاثمائة دونم من أراضى قرية "ملبس" الفلسطينية، وسجلها باسمه

وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة، أبارك مباركك، ولا عنك
العنة"، وقال: ارفع عينيك، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا
وشرقا وغربا، لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد.

سأل شلعي: سمعت أن أرض الميعاد تمتد من النيل إلى الفرات.
- نعم.. نعم.. جاء في سفر التكوين "وفي ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام
عهدا، وقال: "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر
الفرات، أرض القينيين، القنزيين، القدمونيين، والحثيين، والفرزيين
والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين."
- طب وإحنا نروح فين؟
- شلعي أفندي، عشان كده إحنا بندور على أرض خالية من البشر،
مثل المديرية الاستوائية.
كان فيتا حسان يثير الاحترام، جلده على العمل، تواضعه، حكمته،
عقليته اللامعة، أثناء تناول القهوة، سأله الحسيني بغتة:
- وليه تعولوا على الخديوى؟
- الخديوى طيب القلب. يستجيب لنصائح "الأورباويين" وطلباتهم.
- لكنه مبيهتمش بأولاد البلد.
- أوربا تعطيه الاستقلال عن الدولة العثمانية، وتهبه مملكة.
- والفلاحين يعطوه تاريخ وجغرافيا، ومن غيرهم لا عنده مملكة ولا
إمارة، ولا حتى عزبة.
- الفلاحين موجودين زى الطين والبهاء والمناجم، لكن أوربا تمنحه
تاجا ومملكة.

* * * *

بلغت البعثة مصب نهر "كيبو"، وعبرت حصن
(بركلي)، قرب حامية "بيردن" ضاق عرض المجرى،
واشتدت حركة المياه ودواماتها، ارتفع شفير النهر،
وعبرت السفن مدخل لعالم جديد، تكسوه أشجار ترتفع هامتها نحو
السماء، وتعود لتهبط أغصانها تداعب النهر، يتصاعد خير المياه، فوق



مسطحات العشب، واختفت التماسيح لتترك للأسماك والشعابين وفرس
النهر مياه رائقة صافية.

ضربة عنيفة اهتزت لها قوت القلوب، اندفعت المياه وتدفق التيار من
القاع، أسرع اليوزياشى إلى قمرة الفرنسية، حمل لوحاتها وهتف بها، أن
تكتفى بأدوات رسمها، وأسرع إلى السطح، تابعته تصرخ:

- "مسيو (Officer) توقف، أين تذهب وتتركني؟!"

- أيه؟ فيه إيه؟ مؤن الحملة، العتاد والذخيرة، أجهزة المساحة، الخرائط.

قالت بلووعة: "أنت تتركني ثانية"، استدار نحوها: "لوحاتك، هي الأهم،
لومت غرقا هي التى ستخلد اسمك".

- تسخر منى؟ دائما تفعل.

- لا والله.

- وملابسى.

- أوعدك أن أعوضك عن كل قطعة تفقدينها من ملابسك.

ابتسمت بتواطؤ وانبعثت من عينها الواسعة شذر من غموض، قالت
بصوتها الرخيم المصنوع من أوتار البيانو:

- متأكد؛ كل قطعة؟

- كل قطعة، صدقيني. وأسرع يصعد سلالم الذهبية إلى السطح،
لكنه توقف، استدار يدعوها كى تسرع، وجدها تقف بعناد وسط المياه
المندفعة، تنظر نحوه بابتسامة عريضة، وقد ورف خديها بحمرة البهجة،
أكد ثانية أنه سيفعل، فلما لم تحرك ساكنا، عاد إليها وحملها بغتة بين
ساعديه، وأسرع صاعدا لأعلى، تعلق به وهي تضحك برضا للمرة الأولى
منذ لحاقها به.

أخلت الذهبية قوت القلوب، وقد رفع أعلى ساريتها علم "طلب
بالتوقف"⁽¹¹⁾، وعلم "الخطر"⁽¹²⁾، ونقلت مهمات المساحة وأجهزتها إلى البر،
ومن تسلق الشفير مد يد المساعدة للآخرين؛ فيتا حسان، وصناديق الأدوية
والمحاليل، ديمترى كفافيس ودفاتره، وفى الذهبية وقف الصول مسعد
الرفاعى، على سطحها الذى غمره المياه يرسل بأعلام البحرية إشارات
تحذير إلى السفينة المنصورة.

11 (علم "طلب بالتوقف": ذو مربعات أربعة بلونين متقاطعين؛ الأسود والأصفر.

12 (علم "الخطر": ذو مربعات أربعة بلونين متقاطعين الأبيض والأحمر،

عندما بلغ الماء عنقه، سبح ناحية الخور وما أن لامست أقدامه قمة الخور، حتى أسرع يستخدم صافرته فى إطلاق إشارات التحذير طبقا لإشارات مورس.



خطر (— . — . —)

قف (— — —)

سابق الجميع الزمن والخوف يمتلكهم من دخول المنصورة منطقة الدوامات، تقدم حليم عدوا يحذرها، وعلى مبعدة خمسون متر توقفت المنصورة، وألقت مراسيها على البر بسلام، تمدد الجميع على العشب منهكا، وتنفس اليوزباشى الصعداء، وهو يتخيل نفسه أمام الصاغ، يخبره أنه فقد مؤن حملته العسكرية فى قاع النيل.

على البر خيمت السرية الثانية ببيادة، وبجوارها فصيلتا اللغمجية والمساحة، وفى الجوار كان شلال "بدين"، ممتنعا على دخول الغرباء. تقف أمامه المراكب الشراعية- التى طالما مخرت عباب نهر النيل- عاجزة، مثل أفيال وقعت فى قاع حفرة عميقة.

وقف الحسينى يشهد شلالات بيدن، تتدفق بصفاء بلورى، وكأنها ثلج نورانى يلقي إلينا نحن المصريين؛ سخاء، نقاء، عطاء، كرم زائد، داخله شعور أنه لا يبحر على سطح النيل، بل يغوص فى أعماقه، وكلما اقترب من خط الاستواء تخلله شعور جوانى أنه يرحل فى جذوره القديمة.

قام الجنود على تفريغ المنصورة من حمولتها، وفى اليوم التالى أبحرت عائدة بقوة تيار النهر، تقطر خلفها قوت القلوب.

لما كان استخدام الحمير الوحشية التى وفرها الله فى جناته أمرا مستعصيا، أرسل يستدعى رجال المكراكا المتمرسين على حمل الأثقال والسير بها فى الأدغال والبرارى، لقاء أجور معلومة سلفا، بعد ثلاثة أيام حل مائة وخمسون رجلا شرع يعبر بهم إقليم لاتوكا⁽¹³⁾ سيرا على الأقدام.

* * * *

13 (لاتوكا Latuka: الإقليم السادس من أقاليم مديرية خط الاستواء وعاصمتها تارانجولي Tarangole، وأهم محطاتها التى أقامها الجيش المصرى أبو Obbo وكرون Kuron، ومارانجولي Marangole محطاتها أوكلو Okello.

لاتوكا
فردوس الله على ارضه

لاتوكا جنة أفريقية وفردوس الرب بلا
مراء، تقع شرق النيل العظيم، سفوح
خضراء تتخللها جداول وشلالات من مياه
عذب فرات، مناخ بديع مقتطع من الجنة، غابات تبسط أشجارها ظلالاً
وارفة فوق بسط خضراء من السندس، هضاب مجللة بالنبت الوفير، ترعى فى
جنانها حيوانات وطيور على هيئتها الأولى، تنظر إليك برضا وإخاء، يأسر
النفس ولا يترك فيك رغبة للرحيل.

فى السفوح تقيم قبائل البارى، وفوق قمم معرشة بالثلوج تقيم قبائل
(اللاتوكو) و(اللوكويو) أنصاف الحاميين، هنا الأراضي تفيض بخيراتها
وكثرة محاصيلها، ترعى قطعانها من الماعز والغزلان على زهور تضاهى
أجساد البنات العذارى، والصبايا الحسان.

على عتبات "لاتوكا" العذرية، طلب فيتا حسان من الجميع أن يخلعوا
أحذيتهم، ويغتسلوا فى جداول النهر، ماء طيب عطر، ثم استأذن سادة
المكان أن يسمحوا لنا بالدخول حفاة حاسرى الرأس.

وطأ الجميع مدارج الجنة، التى طرد الله منها الإنسان متلمسين رحمته،
أقدامهم تلامس الثرى، وهاماتهم بين النجوم، يسبحون فى أثير يعيش به
قوم، يغطون عورتهم بريش الطيور وفراء الثعالب، لا يلمح فارق بين نساءهم
ورجالهم، ولا يتوقفون عن الرقص والغناء، حتى توقف القمر عن دورانه،
فمالوا يرحبون بالزائرين، ويقدمون ولائم العشق والافتنان.

هنا فى لاتوكا كل شيء يأتى بالمشيئة على هيئته الأولى، صبايا
تتجول عاريات، صبايا شاكيات السلاح، تحيط خصورهن زنار للمتعة،
صبايا جعلن من دروعهن موائد تمتلئ بما تشتهيئه الأنفس، قدمن عليها
لحوم تيسوس وماعز وغزلان وفاكهة، ونساء ينضجن بالشهوة، أكلوا بنهم
وشراهة لفرط جمال مذاقها، وأسرفوا حتى ترعت البطون،
دون أن يصاب أحد بالتخمة، وصبايا صبين من جعبتهن
شهد، ولبن، ونبيذ من عنب الجنة، وخمر فى أقبية تجرى
خلالها أنهار الكوثر.

**لاتوكا ارض
الجنون**

سكررو وأخذتهم النشوة، وأفاقوا والعالم زلال. فرانسوا ممددة جواره،
ناعمة كالحرير، ساخنة كالخمر، ملتهبة كالجمر، غنت: "سبع مرات
تدور بى الأرض والفلك، رأيت الليل والنهار سبع مرات، مفعمة بشبع ورضا
لم يسبق رؤيته على وجه أنثى، قالت شكرا لك يا ألهى على المتع والم لذات
التى وهبتها لعبدتك "إيفا" المدعوة بفرانسوا دى سابل من حى مونتمارتر".

استيقظوا مدهولين، كيف يدركون ما جرى، والعشب مزدهما
بأجساد ممددة بعري ملون بأبنوس ولبن شفقى، غرقى فى عرق من نبىذ
وجعة وماء حى، رأوا الشمس إذا ظهرت تجلت، والأرض تنبت وعول تتبختر
بين الذئاب، وأسماك تسبح بين التماسيح، وحمام تعشش بين أحضان
الأفاعى، وكائنات تنبت كالشجر، والسحر طعام. وكل طعام دخل
جوفهم بعد لاتوكا، لا يعدو سوى لحوم ونباتات لمستنقعات نتنة.

كفاكس ممدد على العشب حول نار خابية، يحيط به صبية سود،
كفاكس السادر فى غيه كان يضحك بهستيريا ويتلو أشعاره:

يأتى الليل بنصائح ومصالحاته ووعوده . .
يأتى الليل بحنفوان الجسد، رغباته ومطالبه . .
كيف لم أنتبه لهم وهو يبنون الأسوار القاتمة العالية الكئيبة . .
"قلت سأذهب إلى أرض أخرى . . بحر آخر . .
لكن كل محاولتى مقض عليها بالفشل . . قلبى مدفون كميت . .
أينما جلت بعينى . . أينما نظرت حولى . .
رأيت فرائب سوداء من حياتى . . حيث العيرى من السنين تبدت . .
"ودعها . . ودع الإسكندرية، التى تضيع منه إلى الأبد . . (لغزاة للغزاة)"

* * * *

14) قصيدة الشاعر اليونانى ديمترى كفافيس 1863-1933 ترجمة نعيم عطية

في حضرة قرود كللهم الشيب، موكلون
بالحكمة، طفا شبح فى الظلام؛ فيتا حسان
يرتدى شال الصلاة (طاليت)، الذي أرسلته له
محبوبته، وهو مستغرق فى رقصة غريبة، يتهدج
بنشوة وسعادة عذات العهد القديم، سأله اليوزباشى: بتعمل أية حسان
أفندى؟

همس مفطورا بسعادة إقليم لاتوكا المبهر فى جماله: "حضرة
اليوزباشى إذ لم تكن تدرك بعد، نحن فى الجنة، هذه نعمة لا يعطيها
الرب لكل أبنائه.

- طب بترقص ليه؟

- أنا "حسدى"، صوفى من أتباع شيخ الصوفية "بعل شيم توف"⁽¹⁵⁾، الذي
علم أن "أن العبادة المثالية للرب (يهو) فى العمل الصالح، والإيمان بأنه
موجود فى الأشياء، حاضرفى الأمكنة، ودعا إلى التدين القائم على
الفرح، النابع من التمتع بالرقص والغناء،

- بابللى من أهل العراق.

- بولندى.

تنفس حسان فضاء لاتوكا، وأقسم أن (بعل شيم توف) رأى أفريقيا
رؤية الصالحين، أنا أصلى لنفسى مرة، وأصلى للرجل الصالح مرات، لأن
الرب "يهوه" أنعم عليه بالرؤيا، وأنعم عليّ بالشهود. أضاف بحماس: ديمترى
كفاكس، رقص عاريا وسط الجنود، والمحبة تغمره.

احتضن الحسينى وهو يبكي من فرط شعوره بالجمال:

- "نحن محظوظين، من جاء هنا محظوظاً".

- أنا جئت معاقبا فيتا أفندى.

- أنت جئت محظوظ حسينى أفندى، أرفع غشاوة عينيك، تخلص من
هموم عقلك، وأفتح قلبك عليك ترى، دخلنا جنة الرب لارضوان نستأذنه،
ولا صراط نسقط من فوقه حيث ينتظرنا الجحيم.

15 بعل شيم توف: المعلم ذو الاسم الطيب

فيتا حسان الذي سيموت بعد ست سنوات فى طريق عودته إلى وطنه
مصر من السقم والهزال، لأنه أرغم على مغادرة جنته، انغمس فى رقصه
حتى سقط منهكا على العشب، يحدق فى سماء صافية ويروح فى نوم،
يقطعه مطر من اللؤلؤ وأزهار الزنبق.

مع شروق الشمس وقفوا للصلاة، دعا اليوزباشى الله أن يسعهم
برحمته، وألا يلقي بهم ثانية خارج جنته، وحمده على أنه يكشف للأبرار
الصالحين بعض ما يستره، فإذا انتهوا من صلاة الشكر والحمد لله تعالى
على ما حباهم به من نعمه، غادرت البعثة لاتوكا فى طريقها إلى
(دوفيليه)، وغصت فى القلب وشرخ فى الروح؛ والجميع فى مرح وابتهاج.

* * * *

خط العرض 4

الإقليم السابع

وطأت البعثة أراضى (فاديبك)⁽¹⁶⁾ على هدى خرائط أركان الجيش، متتبعة الطريق الذي سلكه أميرلاى أركان حرب (بلنج بك) عام 1874، اجتازت جبال، ووديان، ومراعى نضرة، وسهول خصبة، طارد خلالها الجنود بصخب وبهجة أسرابا هائلة من النعام، ونقل فيتا حسان تعليمات الحكمدار إلى قادة الحاميات بتحريض الأهالي علي جمع الريش، ونقله إلى محطة (جاللى)، وإنشاء مزارع لتربية النعام.

على نهر أكوى، ازدهرت البرية بالمحاصيل التى كان (الشولليون) يتخلصون منها لوفرتها، وطوال الطريق قدموا للجنود لحم الزراف والغزلان والأفيال المقدد، والذي لم يكن فى جمال لحوم لاتوكا المشتهة.

فى محطة كيرى العسكرية انتظر الحسینی منذ الصباح الباكر حتى الظهيرة، دون أن يبدو للصاغ من أثر، تحرك عابرا نهري "أكوى" و"نيامبه"، وتناولت الحملة طعام الغداء فى قرية "قانيه"، حيث شلالات "جوجيى"، الساحرة، الممتدة عشرة كيلومترات.

عند مصب نهر "قرييتو"، خرج أهالى قرية "ماجى" يبيعون لهم السمك المقدد والطيور، فى الفجر توجه بفصيلة المساحة إلى خط العرض {4⁰}، كانوا على بعد ثلاثمائة كيلومتر من منابع النيل، فى نهاية اليوم جلس الضباط يرسمون قطاعات النهر، ويحسبون تصرفات مياهه.

فى محطة لابورية العسكرية، عاد الرسل بعبارة "لا أنباء عن الصاغ"، لقد تحول إلى شبح يصعب الإمساك به، مع السحر عبر نهر (كبريفى)، أصبح الطريق شاقا، فى الضحى بلغوا (دوفلاى) العتيقة، على بعد 250

16 (فاديبك Fadibek: الإقليم السابع يقع بين لاتوكا وفويرا، وعاصمته فاجولي Gajuli وأهم محطاتها فارجوك Farajok وفاديبك، وفاشر Facher، وفارشيل Farchel ولوبور Lobbor

كيلومترا من خط الاستواء، عبروا نهر (أسوا) أحد روافد النيل الكبرى، على قمة جبل (اريو) الواطنة، وقفوا مأخوذين بسحر جنادل (فولا) وجمالها.

فى شرق النيل امتدت بلاد الشوللين، وفي غربه جبال ميتو⁽¹⁷⁾، وكوكو⁽¹⁸⁾، حيث قبائل الماديين، والكوتوبين، والكوكوين، توقف فى قرية نيمولى الواقعة على حدود مملكة أوغندة، وأعطى قواته راحة بعد أن ظلت تلهث بحثا عن الصاغ الذي تحول إلى طيف.

بدا النهر فسيحا، ودوفلاى صبيبة زنجية ترقد بنعومة على شاطئ النيل، وخلفها يمتد سفح جبل (أتظه) تظهر قمته عالية عند خط الأفق، على مرفأها رست الباخرتان الخديوى ونيازا، وبالجوار ظهرت الترسانة العسكرية المصرية لصيانة السفن، وإدارة خط الملاحة النهري بين دوفلاى والبحيرات الاستوائية العظمى.

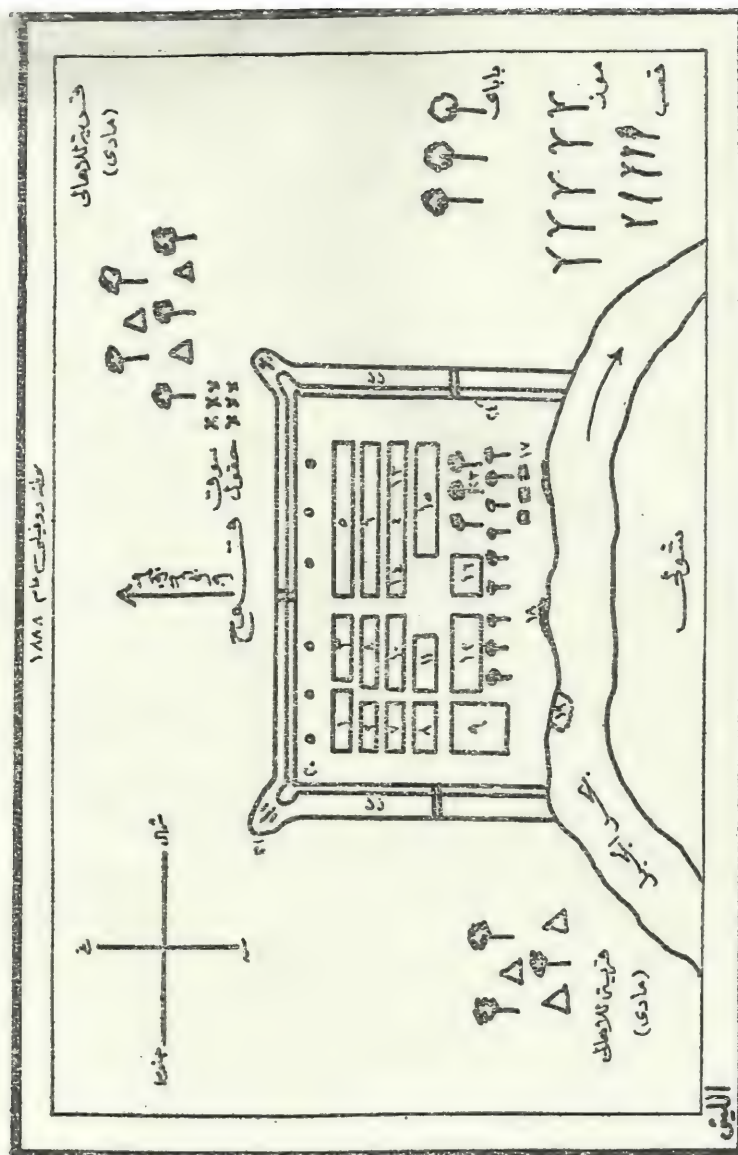
... هبط من التلال يحدث نفسه... ها أنت تسير على الطريق الذي سبقك إليه الصاغ الأسطورة منتصر، وسبقه سيف بن ذى يزن، وسبقهما مصرانيم بن نوح، فمتى تلتقي الخضر أبو العباس؟ فإذا سألك أيها الطريق، ما سر مجيئك؟ ستجيبه... جئت فى معرفة النيل الذي أغوى آدم وحواء البتوليين اللذين سأما البراءة، راودهما عن الفردوس السماوى، بعالم الموت والبعث، والمتعة والشقاء، فتن الغافلان شرك الغواية، وهبطا ينزلقان على ظهر أمواجه، وغرينه المخصب ببركة الجنة.

ألا سيدى أبا الخضر أبو العباس، ركبت ظهر الحية، عبرت البحر الزفقي، وبلغت حافة السماء، رأيت سهولا من الياقوت وجبالا من الزبرجد، وأشجارا من ذهب، وثمرات لوز إذا انضوى قشرها بأشعة الندى، كشفت عن ورقة خضراء مطوية، مكتوب عليها بقلم القدرة "لا إله إلا الله"، فإذا تسلل إلى حناياها ضوء القمر، كشفت فى وجهها الآخر "محمد رسول الله"، تماما كما حكى النوتى للمصلوب على صارى سفينة مبحرة على ظهر الحية، فإذا أردت أن أمضي إلى ما وراء قبة الزبرجد، أتى ملك وقال، "توقف يا حسينى، انتهى إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة".

17 (جبال ميتو: Mitu)
18 (جبال كوكو: Kuku)

تفہیم دو خطہ

۱۸۷۱ء کو فیصلہ کیا گیا



سأبقى فى (دوفلاى) بانتظار العثور على الخضر أبو العباس، أو الصاغ حواش منتصر، وإن تلاشى أو قتل، ولم أجد أيا منهما، سيكشف لى ملك الجنة عن نفسه، حاملا عناقيد من حصرمها، وتصريحا بالإبحار صعودا نحو السماء، حيث سدرة المنتهى.

* * * *

فى مكتب اليوزباشى عبد الله أفندى⁽¹⁹⁾، قومندان إقليم (دوفلاى)، علم الحسينى أن الصاغ منتصر موجود فى الأنحاء، وإن كان لا يعرف أين هو، وسأله أنه يفرغ المؤن فى المخازن، لحين ظهوره.

- ممتاز. كلمة أطلقها اليوزباشى سعيدا بالتخلص من مهمة ثقيلة، قال قومندان دوفلاى مؤاسيا أن العمل تحت قيادة الصاغ ليس هينا على أية حال، قال الحسينى أنه سيتابع عمله عند جنادل فيولا، وأضاف:

- "فاضل موضوع واحد".

- تحت أمركم حسينى أفندى.

- توفير مسكن لائق لآنسة فرنسية.

أجاب القومندان بابتسامة تنم عن رجل يعيش النعيم: "تقصد حضرتكم خطيبة كابتن كازاتى"، هز رأسه واستطرد: "وصلتنا خطابات توصية من سعادة الحكمدار والكابتن كازاتى".

* * * *

ها أنت فى قلب الوحشة، تنظر حواف جنادل فيولا الصخرية، تشق وعيك الساكن فى الحُجب، وتشطر الأمواج المندفعة، وتطحنها فى دوامات الأبدية.

ها أنت أسير الدهشة منذ عبرت سفنك السابحة بحيرة "نو"، الجبل السرى لرحم ميلادك القديم، تتهشم مشاعر الهزيمة أمام البيرق المحلق فى

19 (اليوزباشى عبد الله أفندى العبد تولى منصبه بعد رحيل اليوزباشى على أفندى الصياد، لقيادة حملة إخضاع تمرد إقليم الرول.

سماء خط الاستواء، وفى أرض (لاتوكا) تشعر أن الله أتى بك هنا لترى جنته، وتشهد إيمانك بكينونتك.

ها أنت هنا فى قلب الوحشة، قسم الولاء للخديوى الذي تنازل عن البلاد للأوروبيين لم يعد لك به شأن، والآن ماذا تفعل هنا؟ ليس ثمة إجابات شافية سوى السباحة فوق نهر، تحمل سماؤه جوهر وجودك، عائداً إلى رحم ميلادك الغابر، ترى منابعه رؤى العين، تفوح برائحة البكارة والعطر الإلهى.

والآن ماذا ينوى هذا الضابط الأسطورة أن يفعل، وليس معه من القوات سوى أنفار من الخطرية، عقدوا العزم على اغتياله، لا تفهم أى داع يدفعه للتوغل فى غابات الكونغو بمثل هذه سرعة التى يصعب اللحاق بها، وفى صحبته هذه الزمرة الخطرة من الجنود غير النظامية، هذا رجل معبق بالقوة البدنية، حتى ولو انتظرتة قبائل تشتهى اللحم البشرى.

يقطع أفكارك ظل الملازم إبراهيم حليم، يسألك أن تمنحه تصريحاً بإجازة لمدة 24 ساعة.

- إيه اللى ح يخليك محتاج إجازة فى دوفلاى؟

- معاى خطاب من والدي إلى قاضى دوفلاى.

- معرفة، ولا قرابة؟

- قرايب يا افندم، الشيخ عبد الفضيل يبقى خال والدتى.

- 48 ساعة لو عاوز.

- كفاية أربع وعشرين ساعة، ما سبقش لى التعرف عليه.

تدخل صديقه: "يا افندم ح يعمل إيه مع خال الست والدته، يتهيا لى

مش ح يستحملوا معاه ساعتين على بعض".

- "فعلاً ممكن 12 ساعة وأرجع قبل الليل".

- اتكل على الله، اسمع! خد هدية محترمة.

- "إيوه اعمل واجب يا أخى".

بينما هو عاكف على رفع القياسات، شعر اليوزباشى بظله يقف فوق رأسه، رأى ابتسامة ساخرة، وصوته يحدثه بلهجة امرأة:

- "حضرة اليوزباشى بتعمل إيه؟ اجمع سرية البيادة وشوف بقية الضباط فين، والحق بى على مكتب قومندان دوفلاى"، ثم اختفى.

* * * *

دخل الحسينى مكتب قائد الحامية وخلفه الضباط الملحقون على حملة مونبوتو، كان الصاغ يجلس على منضدة القومندان، يكتب خطابا للحكمدار، يخبره أنه وجد الكابتن ردولفو كازاتي في قرية (أنزيا) مريضا، فاهتم بأمره، والتقى اليوزباشى الحسينى عبد الغفار فى دوفلاى، وقد أوصل المؤن والعتاد العسكرى والميرى سليمة، وأنه بناء على رغبة الحكمدار، فقد قرر ألا يلحق اليوزباشى الحسينى بحملة مونبوتو، وأعطاه أمرا بأن يستكمل عمله، أما الأخبار السيئة فقد تأكدت يوم وصولى قرية "برنجى الصغير"، أن الأهالي أبادوا الحامية المؤلفة من ثمانين من عسكر الجهادية، جميعهم من الخطرية، وأعرفكم أننى لن أدع هذا النبأ يجعل اليأس يتطرق إلي قلبى، وسأنطلق لأعاقبهم علي جريمتهم، وأنتقم لسمعتكم، فإذا سلمني الله من هذه الواقعة وظللت علي قيد الحياة أحطتك علما بالنتيجة.

وقع باسمه ومنصبه الجديد.

صاغ: حواش منتصر

قومندان إقليم مونبوتو الجديد

غمرت الراحة الحسينى، وتنفس الصعداء، ها قد تخلص من رجل يصعب إرضاءه، من رجل عين نفسه ببساطة قومنداننا على إقليم مهما يكن، متمردا أو مسالما، من أكلة النباتات أو لحوم البشر، وهو يعلم أن هذا سوف يقلب الحكمدارية على أم رأسه، دون أن يثير حكمة فى شعرة من شعر رأسه الغزير، كان سعيدا لأنه نجى من الطحن بين شقي رحى الأوامر المتضاربة للصاغ المتسلط، والحكمدار الكاره.

اصطدمت عيناه بعينى الصاغ الذي طلب من ملازم أول سر الختم الميرغنى، والفولى وشلعى أن يصحباها فى الحال، وأن يتولى ملازم محمد

فوزي نقل العسكر من الشاطئ الشرقى إلى البر الغربى للنهر ويلحق به إلى (برنجى الصغير).

- "أزاي سعادة الصاغ؟ معنديش وسائل نقل".

- قبل غروب الشمس يا افندى.

قال شلعى: "مممكن أساعده سعادتك؟".

- تساعده وأنا اعمل إيه يا حضرة الضابط؟ فاكرنى عاوزك كمالة عدد؟

- لا يا افندم.

- طيب ليه الفلسفة؟

- أبدا، أنا كان قصدى.

- كان قصدك، كان قصدى، اسمع، عاوز تيجى معاى ولا تروح مع كرخانة الحسينى.

- "أنا تحت أمرك يا افندم".

- بتقول إيه مش سامع؟

- تحت أمرك يا افندم؟

- مش سامع يا شلعى.

صرخ شلعى بأعلى صوته: "تحت أمرك يا افندم!!!!!!".

- حاجة واحدة يفهمها الضابط اللى ح يجرى معاى، إيه؟ إيه هي يا فوزي؟

- الانضباط يا افندم.

- لا يا افندى، الانضباط دى شغلة العاجز. واقترب من وجوههم واحدا بعد

الآخر، وصرخ:

- الطاعة.

- تمام افندم.

اخترقت عيناه النافذتان وجه فوزي مثل نصل حاد، فصرخ:

- الطاعة.

- لا جدال، لا مناقشات، كلمة واحدة بس أسمعها، تمام افندم.

- تمام افندم.

- كل واحد فيكم ح يتمنى لو أن حبل المشنقة زهق روحه، قبل ما
يجى هنا، عارفين ليه؟ عشان دى مش الجنة يا حضرات، ده الجحيم بتاع
حواش منتصر.

وجه حديثه لليوزباشى بتفكه: "ماحتش أعكر مزاجك الحسينى
أفندى، قلت سيبه يخلص رحلته مع الست الهانم الفرنساوية، خطيبة
الأفندى الإيطالي، وأضاف وهو يستدير راحلا: "والله العظيم أنا ما أنا
عارف، جيش ده ولا كرخانة؟".

اشتعل وجه الحسينى بحمرة قانية، تابعه يغادر المكتب، والجميع
يؤدون التحية العسكرية ويضربون الأرض بأقدامهم.

* * * *

فى ليلية من ليالى صيف أفريقيا الاستوائية استقبل قومندان دوفلاى
الحسينى وفرانسوا فى حديقة كوخه المطل على ضفاف النيل، جلسوا
وسط أشجار نخيل يانعة الخضرة، بكرم سودانى مفرط، يشوون وعلا
على أضواء المشاعل، وحسبما قال؛ كانت دعوة خاصة من نسائه
لليوزباشى الذي جاء من مصر أم الدنيا، تولى القومندان الشواء، وقدم الخدم
القهوة، وفواكه المانجو والأناناس، ثم جاءت نساؤه واحدة وراء أخرى،
تعرض طبقا من صنع يديها، أطباق مفزوك، وويكة، وتقليه، لحم
الفشفاش ولحم الشرنموط المجفف، والجقاجق، كان حريفا، وبصعوبة
تبين لفرانسوا التى كادت أن تقيء جوفها أنه مصنوع من أمعاء وأحشاء
الوعل، ومعه قدم كرش الوعل نيئا، بعد أن أضيف إليه الليمون والفلفل
الحار، وسط الفطائر والحلويات.

أحاطت نساء القومندان به بتلقائية وبساطة، وأمام الدهشة قدم عبد
الله أفندى العبد نساءه؛ الأولى خمريّة من دنقلّة، والثانية بيضاء من
الإسكندرية، والثالثة من قبائل الشوللين الذين يقيمون شرق النهر،
والرابعة وأصغرهن سنا، من الكوكويين الذين يسكنون غربه، بينما
هو من الخرطوم، قال بزهو:

- "أنا انتمى لصرة النيل".

- هارون رشيد الأفريقى، وحوله عائلة جامعة لواوى النيل.

قامت كل واحدة منهن وعادت تحمل قنينة الخمر الخاصة بها، شرعن يصبون الكؤوس له ولفرانسوا ولأنفسهن، عزفن على الطبول والقيثارة والغناء، بعد ساعتين كن يرقصن معاً، والحسينى يخالطه شعور بالوحدة، وتحت إلحاح النسوة رقصت فرانسوا بينهم، وخيم عبد الله أفندى بعينه على فرانسوا بشيق، فكر الحسينى أن الرجل لديه أريحية واسعة، وقلب متسع كى يضم إلى حديقته النيلية مناخ أوروبا القارص.

تحت سطوة الخمر قدم القومندان لليوزباشى تبغا من التمايك، وغمزله إذا أراد أن يقاسمه إياهن، استقبلت الفرنسية الرسالة بسرعة، شاهد النساء يتمايلن خلاعة وينظرن نحوه ضاحكات، يتطلعن إلى قدومه.

لكن عقله المشغول بما ذكره الصاغ عن الكرخانة، جعله يقف شاكراً وممتناً لعرض قومندان إقليم دوفلاى الكريم، وطلب منه أن يسمح لهما بالمغادرة، ودعته نساء القومندان بابتسامات تحمل صفاء ومودة، محلاة بشهد العتب والخبث، ورغم ذلك لم يفهم كيف استيقظ ليجد نفسه بين أحضان المراتين الدنقلأويتين، وتلك التى تنتمي لقبائل الكوكويين، بينما اختفت فرانسوا تاركة خلفها رسالة تنبئه فيها أنها رحلت لملاقاة كابتن كازاتى فى قرية "أنزيا"، وأضافت باللغة العربية: "كى تنهى علاقتها به".

* * * *

طقوس الدم

مع آخر ضوء
انطلقت سرية
البيادة على
متن القوارب، فى
للشمس
مواجهة تيار النهر
القوى، حث الشاويشية الجنود على التجديف بانتظام وثبات نحو
الغرب، وإلا جرفهم التيار القوى نحو الجنادل:
- يلا وراى، هوب، اضبط ضربتك على المية يا وله، أصرخ وراى،
هيلا هوب، هيلا هوب، التيارح ياخذنا بحري يا مرة يا ابن المرة، هيلا
هوب، هيلا هوب.
- هيلا هوب، هيلا هوب.
وكلما غابت الشمس، ارتفع دوى الطبول، وظهر على اليابسة أشباح
ضواري، تزوم بانتظار بلوغ القوارب الضفة؛ ضباع، فهود مرقطة، أفاعى
وتماسيح مضاءة بالجحيم، ليوث خامدة.
صرخ الشاويشية فى العسكر:
- "يلا يا نسوان يا ولاد الكلاب، أحنا بنعدى البر التانى، التيارح
ياخذنا بحري يا مرة يا ابن المرة، أحنا مش مسافرين بحري، البر أهه قدامك
ناحية الشمس يا حمار."
- يلا وراى، هوب، اضبط المجداف على المية يا وله، أصرخ وراى، هيلا
هوب، هيلا هوب، هيلا هوب، هيلا هوب.
- جدف بعزمك يا ابن المفحور، ح تودونا فين؟ البر أهه يا بن الكلب هيلا
هوب، هيلا هوب...

- وصلنا يا رجالة.

- أنزل يا عسكري يا نفر، عمر سلاحك يا وله.

قفزت السرية إلى البر، انفجر السكون بصيحات مدوية، ظهر مئات المحاربين من البرارى يلوحون برماحهم، ويطلقون زئير الرعب:

- أووووه.. أووه.. أووووه.. أووه.. أووووه.. أووه..

بالخطوة السريعة قاد الملازم فوزي سرية في محيط يهتز فضاؤه، بدقات الطبول ورقصات الحرب، انشق المحاربون تاركين للسرية طريقا وحيدا، ورماح مشرعة يقرعون بها ظهور دروعهم السوداء الموسومة بعلامات السحر والبداءة.

في نهاية الحشود المحاربة وقف الصاغ على تبة عالية في جلبابه السوداني القصير، على وجهه ابتسامة ساخرة، تتدلى من جانبيه غدارة وسيف حاد، صنع بمهارة لقطع الرقاب، شاربه الملفوف بعناية تجعله نظير نفسه، يتدلى غليونونه من زاوية فمه؛ زعيم وسط أنصاره ومواليه، بجواره وقف الملازم أول الميرغنى، والملازمان الفولى وشلعى. وأمامه ثلاثمائة محارب ينتمون لقبائل المكراكا مسلحين بالرماح.

الآن صار معلوما أن الصاغ الذي غادر لادو في زمرة المكرسة لاغتياله لم يصعد النهر، وإنما توجه إلى مكراكا، حيث استعاد تحالفه القديم مع القبائل التي شاهده يعبر مديرية بحر الغزال عائدا بقافلة الرقيق المحررة.

أدى فوزي التحية العسكرية لقائد عظيم، رفع الصاغ يده فحل الصمت، وأعطى أوامره بتحية العلم الذي يكاد يمس سماء النهر.

في هذا الجو المشحون بالأنواء، وتديره الأقدار الغامضة، انتصب الضباط، كسيوف صقلت للمعارك، تضاءلت الأسئلة لذوات تائهة، وجدت مصيرها في هذا الرجل الأسطورة، وهذا العلم الخفاق العظيم.

* * * *

الليل في أفريقيا غمام ومطر، ستارة تشف عن جسدها البكر، عروقتها جداول عطر، هضبتها المكسوة بالخضرة، وغدائر من أرج، وشلالات هادرة، ونهيرات صغيرة، الليل في أفريقيا، بداءة وشبق وحشي.

على الخط الفاصل بين حوض النيل الأعلى وسفوح حوض الكونغو توقفت القوات للمبيت في قرية برنجي الصغير، في الليل غادر الصاغ المعسكر مصطحبا خمسمائة وعشرين محارباً، خلفاً وراءه تعليماته باللاحاق به إلى قرية "الطويل"، أولى محطات إقليم مونبوتو العسكرية.

على تخوم القرية جاء صوت الريح حاملاً قرع الطبول وصرخات المحاربين، تقدمت سرية البيادة في دروب القرية، يلقاهاهم نباح الكلاب، بلغوا ساحة عشبية حيث القرية مجتمعة حول زعيمها، الذي جلس في تاج وزنار من ريش الطاووس، بجواره الصاغ في جلبابه الكتاني الأحمر القصير، مشدود القامة، وخلفه جمع واسع من محاربيه، وبين يديه تجمع محاربو قرية الطويل يرقصون رقصات الحرب.

وقف الساحر يمارس طقوس الدم⁽²⁰⁾ يستره

الريش، ورأس تمساح، شد أوتار وجهه ومقدمة
بطنه قطع من عظام حادة، فإذا انتهى من طقوسه،
غرس ناباً تمساح في ساعد الرجلين، تسربت
دماؤهما، وامتزجت بقلب قرد التهامه سوياً.

رفع حواش رأسه ملوثاً بالدماء، مخموراً بمذاقه، ينظر للجالسين بزهو،
وبؤبؤ عيناه يدوران في مآقيهما، ينفذان في قلوب المحاربين بالمهابة،
والخوف في صدور الأهالي.

في قرية "بنجيدي"، تكررت طقوس الدم وأمدته شيخها بمئات المحاربين
طمعاً في الغنائم، غادرها شمالاً إلى بلاد "النيام نيام".

في رسائله إلى زملائه الضباط العربيين، كتب الملازم فوزي؛ صار
معلوماً أن الصاغ يعرف طريقه لبلوغ أهدافه في ظل أسوأ الظروف، ولا
يقود جنوده إلى نهايات كارثية، وهو ضابط يملك مقومات القيادة التي
تجعل الجنود مستعدين للسير وراءه إلى أقاصى الدنيا،
والموت تحت رايته.

نيام نيام

غادرت الحملة قرية "بنجيدي" تضم ألفاً وثمانمائة
محارب، وانضم إليها مائة من المادى، ثم صعد الصاغ شمالاً إلى بلاد النيام

20 (طقوس الدم: هو تحالف تام واتحاد لا فكاك منه بين قبيلتين، وعهد على ألا يخشى الجانبين خيانة أو غدر الآخر، حتى لو كانا عدوين لدودين، ذلك أن خصومات وجراح الماضي تلقى في زوايا النسيان

نيام، فدخلها على قرع الطبول والنقارات، يتقدم محاربيه فى مشيته النظامية، ممسكا بعصاه المصنوعة من العاج، فعومل معاملة الآلهة، وبوصفه محرر العبيد.

شاهد العربايون شعبا من زنوج أنقياء، قصار القامة، رءوس مدورة، شفاه غليظة، عراة لا يغطون عورتهم، تحمل أقدامهم ذات العضلات الضعيفة بطون منتفخة تميل إلى الأمام، تتدلى سواعدهم الطويلة إلى جانبهم، وهم ينحنون إلى الصاغ بتبجيل واحترام.

جلس الصاغ والزعيم معا، أشار الصاغ إلى الملازم نظمي عبد الملاك، كى يقدم بندقية ريمنجتون هدية إلى الزعيم، استقبلها بإعجاب شديد، سأله عما يمكن أن يفعله بها، صوب منتصر إلى خنزير، فأرداه مضرجا فى دمائه، تراجع الزعيم لقوة السحر، وجلس الصاغ يمسد شاربه، مزهوا مختالا، ملك على عشيرته، فتح العربايون أفواههم على سعتها، يشاهدون شيوخ النيام نيام يتقدمون نحو القائد المصرى، يمارسون طقوس التحالف الدموى، ولما انتهى كان حواش منتصر غارقا فى بحر من الدماء.

تبودلت الأنخاب، وسط طعام شهى من قرود، ثعابين، حشرات زاحفة، ضب أفريقى، شربوا حتى الثمالة العرق المصنوع من البلح، والذي أحضروه خصيصا من أجله، وسهروا حتى الفجر.

فى الليل ألقى منتصر على فوزي خطابا منمقا إلى الحكمدار، يخبره أنه استطاع استعادة السلاح المفقود، وتوزيعه على الحملة المتقدمة باتجاه مونبوتو، موضحا أن الحملة غادرت لادو تحت سمع وبصر المدير، دونما قوة نيران، لكنها حكمة الله سبحانه وتعالى فى تحقيق أهداف أمين بك وأغراضه الشريفة، التى ترجو خير الحكومة المصرية، وعمران المديرية وليحيا الخديوى أمير البلاد المفدى.

فى الخيمة حدث فوزي صديقيه الفولى وشلعى عن الخطاب الذى أملاه عليه الصاغ، وقال إنه لو استطاع الضحك لفعل، لكنه خشي ثورته، وأضاف أن الصاغ داهية، يختار ألفاظه بعناية، ويعيد صياغتها مرات عديدة، وأنه فى هذا الخطاب ضرب ثلاثة عصافير بحجر، فاستعاد البنادق التى اختفت من عهده إلى النور، ووبخ الحكمدار على عدم مده بالقوات

والسلاح، وأخيرا قام بالتنويه بالأهداف النبيلة لحكمدار المديرية، وللخديوى أمير للبلاد.

فى الصباح الباكر وقف الصاغ على رأسيهما، سألهما إذا كانوا يفهمون السبب الذي جعله يصحبهم معه، أجاب الفولى أنه جاب المديرية وراءه، وهو أمر لم يحدث إلا عندما طلب منه إحضار مسطرة الضرب الوحيدة لدى الجيش المصرى لمدافع طوابى الإسكندرية، وأضاف متهمًا؛ وطبعًا أحضرناها بعد أن دمر الأسطول البريطانى الطوابى وتركها أنقاضًا. قال باستهتار خلنا من أعمال عرابى باشا وزمرته، أنا أريد تدريب القوات، أمامكم أسبوع وبعدها سنغادر بلاد النيام نيام شطرنهر "ويلي" سنخترق إقليم مونيوتو عبر النهر إلى الكونغو.

- مستحيل افندم! ألف وثمانمائة محارب، ثماني عشرة سرية فى أسبوع. مستحيل

- "ح تعمل كدة، أنت والأفندية اللي جنبك".

جمع فوزي أعصابه: "يا افندم أنت مش محتاج تهددنا، أنا شخصيا مستعد أموت قدامك".

- "عموما قدامكم أسبوع، سبع أيام لتدريب القوات".

تساءل الفولى: "حضرتك بتسخرليه من العرابيين؟"

التفت يمسد شاربه الكثيف، نظر إليهم باستخفاف، يفكر إذا ما كان عليه الإجابة على سؤال الملازم صاحب الابتسامة الماكرة، أم يتجاهله، كان قد اختفى لكنه عاد ثانية وقال:

- "كان لدى العرابيين خمسة أعوام كاملة لتدريب الجيوش للحرب، أما هنا فأنا فى محيط معادى، ليس لدى بشرة سوداء، ولا انتمى إلى قبيلة، الاسم الوحيد الذي يجعلهم يطيعوني عن رحابة وسعة، هو اسم الخديوى الذي تمردتم ضده، الجيش المصرى عايش هنا باسمه، وتحت العلم، وبالرغم من كده القبائل النهاردة معاى، بكرة ممكن تكون ضدى، أنا مطالب يا افنديه بعمل المستحيل، فهتم؟".

.....

عاد يصرخ ثانية: "فهتم؟"

صرخ الثلاثة: "تمام افندم".

- "مش سامع، فہمتم؟".
 - فہمنا یا افندم.
 - "یا افندیہ؛ أنتم مؤمنین أن الحرب یکسبها صاحب حق ویخسرھا
 مغتصب".
 - "طبعا یا افندم".
 - خالص یا فولی، ده کلام فارغ، مثالی، أحلام شویة ضباط عیال لسه
 بیرضعوا فی المدرسة المیری، الحرب یا افندیہ أنت وهو أن تأخذ ما لیس لك،
 أن تغتصب ممتلكات الآخرين، الحرب کسر الحدود وضم الممالک، وبيع
 الأسرى رقیقا فی أسواق النخاسة، الحرب تاریخ الاغتصاب، فإذا أرادت زمرة
 عسکرية أن تحرر بلادھا، فینبغی أن تحقق النصر فی الميدان العسکری
 أولا، ولیس على ساحات المنابر، مش ترمی الفلاحین بجلالیب الكتان
 للموت، زمن الفتوحات المکیة یا حضرات انتهى.
 فیما بعد طاردهما صدی صوته، "الحرب یکسبها القادر على عقد
 تحالفات أوسع".

* * * *

تولی الملازمان الفولی وشلعی تدريب المحاربین على تشکیلات
 التجمع والاصطفاف، والسير فی طوابیر الحركة بانتظام، وتبادل
 تشکیلات الدفاع والمساندة، التحول للهجوم أو المطاردة، بینما قام فوزی
 بتدريب المحاربین على إطلاق النار.

قرب الضحی تجمعهم أمام کوخ الصاغ
 أمهات قدمن یحملن سلال الموز والفاکهة
 وبناتهن، یقدمونه إلیه بغرض أن یمن
 علیهن بهبة الحصول على سلالته،
 دخلن خیمته دون توقف، وخرجن إلی
 أمهاتهن مبتهجات مخرجات بحمرة
 الكاکاو. السهم القصیر الذی أطلق
 علیه من قطعة غاب کان مسموما، وقبل أن
 یشرع
 طقوس
 ن: نبالة
 هذه صبا یانا.. فضل علینا
 حضرتکم بوضع بذورک الإلهیة
 فی أرحامهن

جنوده فى حرق القرية، جلست ساحرتها على رأسه تعطيه ترياق السم، الذي قذفه به أحد محاربى "الأبراموس" التابعة للملك "مامبا نجا".

فى خارج كوخه وضعت حراسة مشددة، ووقف الفولى على رأسه لحمايته أثناء هلوساته، وطوال خمسة أيام أمضاها فى غيبوبة اجتمع أهالى القرى يحيطونه بطقوسهم المقدسة، ويقدمون أضحياتهم للأرواح، التى تتحكم فى مصائرنا جميعا، ويدعون أرواح الأجداد، بأنهم ينتظرون قيامته من الموت، بعد أسبوع خرج من كوخه ووجهه ملطخا بأصباغ ملونة، والسحرة يرقصون فى حضرته.

* * * *

على نهر "ويلي" قام أهالى القرى بمد حملة الصاغ بعشرات القوارب. وعلى امتداد الهضبة الشمالية لنهر الكونغو توالى زرائب العبيد خاوية، وقد هجرت لتوها، يتناثر حولها مئات المختطفين، جوعى، منهكون، أطلقهم الصيادون خوفا من انتقام منتصر.

أعطى الصاغ تعليماته بتسجيل الرقيق المحرر، وقام بنفسه على تقديم الطعام لهم، وتوزيع المقننات التى تكفيهم للعودة إلى قراهم، يشنون عليه بالشكر والحمد، يرحلون وهم يرددون اسمه، ينتشر حديثهم فى البرارى والغابات عن الزعيم الكبير، الساحر العظيم والأسطورة، يمهدون الطريق لتحالفاته القادمة، ويكسبون معاركه قبل أن تبدأ.

على تخوم محلة (نيا نجارا)⁽²¹⁾ ظهرت زريبة ضخمة، على منعطف الطريق الترابى خيم عليها صمت مريب، أثار غصة فى الحلق، غادرت القوات القوارب، وعبرت القوات الزريبة باتجاه قرية (جمبارى) الواقعة فى منتصف المسافة بين نهر (ولي)، ونهر (بوموكاندى).

بدأت مؤخرة السرية تبتعد وئيدا، التفت الملازم محمد الفولى إلى الخلف، ليرى الزريبة تحولت إلى جنى يترصد العائدين إلى أكوأخهم، شاهد حلقات الدخان تتصاعد من أعلاها، أشار الجنود التراجمة نحو المبنى برعب، ثم رسائل استغاثة من طرائد أخفيت بمهارة.

21 (نيا نجارا: Niangara

استغاث الجنود التراجمة بمنتصر، بينما استدار محاربون يشيرون بهستيريا بحرابهم إلى الخلف، أمر الصاغ قواته بإحكام الحصار حول الزريبة، لحظتها طفا الهلع والرعب على وجوه الخطرية.

تحول صيادو الرقيق إلى جردان فى مصيدة وحشية يحيطها جوع الانتقام، هاجم محاربو القبائل الأبواب الخارجية بضربات المعاول وجذوع الأشجار، لتكشف عن عشرات النساء والأطفال والصبية، تكدست بهم أقبية المبنى وقيعانه، ممددين عرايا، مقيدون فى سلاسل حديدية، وقد كهم أفواههم الحزن والأسى.

طارد محاربو القبائل صائدى الرقيق، الذين وقفوا على سلالم الساحة الداخلية يطلقون النار، كانوا خليطاً من الدناقلة وحلفائهم من محاربى الأبراموس، عندما نفدت ذخيرتهم تراجعوا، يصعدون السلالم إلى السطح، طريق مغلق بسماء رحبة، لا يقدم من النهايات سوى الاختيار بين القفز من حالق، أو الاحتراق بالنيران التى أضرمت فى الزريبة.

على سطح المبنى ظهر أحد الدناقلة الذين عينوا لحراسة القوارب، يلوح طلباً للنجدة، فيما بعد علم أن الخطرية كانوا يرسلون رسائل تحذير إلى تجار الرقيق، فيسارعون بالرحيل ومعهم ضحاياهم، إذا توفر لهم الوقت الكافى بالفرار، أو الإفراج عن الطرائد، وإطلاقها إلى الغابات، ليجمعوهم بعد رحيل منتصر.

ألقى الخطرى بنفسه من أعلى، تلقاه الرقيق المحررون ومزقوه إربا، وقف عساكر الجهادية، يتابعون المذبحة، دون أن يداخلهم مشاعر الشفقة.

سرت النيران تلتهم المبنى، وانتشر فى البرارى الصبية والأطفال والنساء العرايا، يجرون فى الأنحاء المحيطة بزريبة (نيا نجارا) والدموع تنثال من العيون بحرقنة، والغضب يرتسم داخل عيون غلمان لم يتجاوز عمرهم الثامنة، يتلفتون وهم يبحثون فى هلع عن مكان يهربون إليه.

طلب عدد من البنات، مقابلة القائد المصرى، كن بنات الشيخ جمبارى ملك قرية كوى، استقبلهن الصاغ بالاحترام اللازم، وطلب من سر الختم الميرغنى التحفظ عليهم تحت حمايته، وتقديم العناية الكاملة لهم.

على سطح الزريبة ظهر أحد صيادى العبيد والنار مشتعلة فى جسده،
قفز من السطح كتلة من اللهب، بعدها توالى سقوط الجثث المحترقة.

مالت الشمس نحو الربع الثالث، بدأ المطرفى التساقط غزيرا، وكأنه
رفض أن يبكر فى المجيء لإنقاذ المحاصرين، أمر الصاغ منتصر تفتيش
المبنى، بحثا عن ناجين، دخل فوزي والسخط يعصف به.

كانت الزريبة مشتعلة فى الداخل، أنين وصراخ يتصاعد من قيعانها،
كسر أبوابها، انبثق الرعب يهاجمه، جثث متفحمة أوثقت معاصمها
وأقدامها وأعناقها بالأغلال، عريها الدامى، سلاسل متوهجة بحرارة اللهب.

كان العالم القديم يلطم الصدر بقسوة، وشبح أسمر، يرتدى العباءة
السوداء لرهبان الكنيسة الأرثوذكسية، يخرج زائغ النظرات من البئر
الواقعة فى منتصف الساحة الداخلية للمبنى، أسرع يحتمى بالمصريين،
ويصرخ، يعرف عن نفسه بأنه الراهب المصرى يوحنا الإخميمى من أرمنت،
تقدم الجنود لإنقاذه، خرج محتميا بشلعى، ليقف باكيا بين يدي الصاغ
يطلب الحماية.

بدأ السقف فى الانهيار، وبصعوبة تمكن الفولى من إنقاذ فوزي من
موت محتوم، غادرا المبنى، والظلام يخيم على البرارى، حيث نصبت وسط
حشائش السافانا حلقة واسعة من المشاعل، ألتف حولها جنود بلوك البيادة
الثاني، والأهالى التى جاءت من القرى المجاورة على عجل، لعلها تجد أبناءها
الذين اختفوا ولم يعودوا.

على حافة الدائرة كان رداء الراهب الكهنوتى ملقى بجانبه، وبجواره
جثث لفتية ماتوا أثناء تعرضهم لعملية خساء، وهو مصلوب على عروس
خشبية متصالبة، وظهره العاري فريسة لسوط الملازم أول سر الختم، وبين
الحين والآخر كان طبيب الحملة يتقدم كى يتأكد من قدرته على
تحمل الأربعين جلدة الباقية من عقابه.

مشهدا لم يفهمه العراقيون، لماذا يجلد قس مصرى فى أحراش أفريقيا؟

فى هزيع الليل ألقى الصاغ منتصر أمامهم حقيبة الراهب الجلدية، بين
ثناياها مدى وشفرات حادة معقوفة وأحجار بسن المدي، طلب منهم إرسالها

فى البريد إلى العاصمة لادو، على أن يوصى بترحيل الراهب وأدواته إلى القاهرة، تسأل الفولى عن الكتاب المقدس، أجابه أنه احتفظ به.

* * * *

ولج الصاغ بلدة (بمبا) التي يرأسها الشيخ أزنجأ أخو الشيخ جمباري فدخلها فى الخامس عشر من يناير 1884، وقام بمظاهرات عسكرية أطلق جنوده خلالها كثيرا من الطلقات النارية إرهابا للأهالي، استقبله زعيم البلدة بالاحترام والتبجيل اللازم لجيش يقوده قائد عسكري تحوطه قدرات خارقة، عقد معاهدة الدم بينهما وأصطحبه في مسيرة مع ألف وخمسمائة محارب انضموا للحملة، وعندما غادر (بمبا) إلى قرية (كوبى)، كان الجيش التابع للساغ قد بلغ ألفين وخمسمائة محارب.

استقبل الأمير جمعة ابن الشيخ (جمباري) الصاغ، قدم له التحيات، مصحوبة بأكوام العاج، وأربعين بندقية استولى عليها رجاله من حامية (بنجيدى)، وطلب أن يسمح لهم باستقباله فى صحن جامع "كوبى".

جلسا قبالة الآخر، وحولهما رجال القرية وأمام جامعها الفقيه أحمد ود الطيب، دار الحديث بلغة عربية سليمة، تعلمها الأمير وأخواته الفتيات، فى المدرسة التى أنشأها الصاغ النور أغا محمد⁽²²⁾ 1877 فى الإسماعيلية (غوندوكرو) عاصمة الإقليم القديمة.

سأل الأمير الصغير عن صحة مولانا الخديوى إسماعيل، فأخبره الصاغ أن الخديوى إسماعيل ترك الحكم، لابنه الخديوى محمد توفيق، كما فعل والدكم الملك جمباري عندما ترك الحكم لكم، تسأل الأمير باهتمام عما إذا كان جلالته خديوى مصر المعظم، قد أسرته القوات المصرية مثلما فعلت مع أبيه الملك جمباري.

أجاب الصاغ بعظمة وتباهى، أن ملوك مصر لا يأخذون أسرى، لأنهم أكبر ملوك الزمان، لكن الخديوى إسماعيل سئم الحكم، وهو يعيش الآن فى نعيم تحيط به ألف جاريتة رومية بيضاء وسوداء، وأن فى قصره نهرا جاريا من خمر العنب لا يسكر من يشرب منه.

22 (الصاغ النور أغا محمد: كان وكيل مديرية خط الاستواء ذاك الوقت.

فتح الأمير الصبي عينيه، وقال: سبحان الله، ولا إله إلا الله، هذا والله ما سمعنا عنه، أنه موجود فى الجنة فى كتاب الإمام فضل الله العسقلانى، قال تعالى "يطاف عليهم بكأس من معين" (45) بينضاء لذة للشاربين (46) لا فيها غول ولا هم عنها يتزفون (47) (23)، تريث الأمير قبل أن يسأل الصاغ: - هل تسألون لنا الخديوى المعظم أن يفرج عن أبى الملك جمبارى -.

قال الصاغ إن الخديوى يرسل تحياته لكم، ويقول إنه يعدكم بالإفراج عن والدكم الزعيم جمبارى، لوعاد الهدوء والطاعة إلى "كوبى" تحت البيرق المصرى، هز الأمير رأسه مؤيدا ومتفهما، لكن وجهه تغير عندما دار الحديث عن دور الحكم المصرى فى إبطال تجارة الرقيق، فلما انتهى الصاغ من حديثه، أخرج الأمير من صديريته ورقة قال إنه أعدها عندما علم بقدوم الزعيم الكبير منتصر، فهل تأذنوا لى؟ هز منتصر رأسه، فقال الأمير بلغة عربية سليمة:

"نحن نحمل أعطافكم المكرمة أن تحملوا هذه الرسالة عنا إلى مولانا المعظم والتى تشكر فيها قبائل مونبوتو الخديوى الذى اهتم برعيته، ومد جناحه القوى على أطفاله لحمايتهم، وقبل ذلك نشكر مولانا الخديوى لأنه علم القبائل الدين الإسلامى الحنيف، فدخل الناس فيه أفواجا، هذا الدين الذى يرفع من قيمة الإنسان، فلا يجعله مثل الأنعام تباع وتشتري، لكن الأحوال تقضى البوح بالحقيقة، وهو أن كثيرا من الدناقلة يعملون فى صيد الإنسان، الذى كرمه الله بأن خلقه على صورته، كى يزرع أرضه ويرعى أبقاره، ويخطفون الأطفال من صدور أمهاتهم، والصبيا من شطوط الأنهار، كما خطفوا أخوتى، إننا نتوسل إلى حضرة الخديوى إطلاق سراح والدنا الشيخ جمبارى، كى نقوم بدورنا فى مقاومة تجارة الرقيق تحت البيرق المصرى، ولتعلم مولانا المعظم أن أبناؤك من العنصر الزنجى لا يزال يباعون ويشترون فى أسواق النخاسة".

أشار الصاغ إلى الملازم سر الختم الميرغنى، فتقدم الرجال يحملون خمس محفات مغطاة بالقماش الدمور، فلما أنزلوها على الأرض، قال الصاغ إن جلالته الخديوى سمع شكواكم قبل أن ترسلها، وقد طلب منى أن أرسل لكم هدية معتبرة مخصوصة، عاد الحزن لعينى الصبي، أشار إشارة ذات

23 (سورة الصافات: 46، 47)

مغزى فزفع الغطاء عن أخوات الأمير جمعة اللائى جرى تحريرهن من زريبة
"نيا نجارا"، وقف الصبي غير مصدق، ثم انحنى يقبل أقدام الصاغ، لكن
منتصر رفض بتواضع.

هذه المرة عقد معاهدة الدم بين الأمير الصبي والساغ فى صحن جامع
كومبى، وقد ظهرت على وجه الصبي ملامح الحيرة، كان يريد أن يقول،
كيف أعقد تحالف الدم معكم وأبى أسير لديكم، فكر أن يسأل أخته
الكبيرة، الأميرة عائشة التى حررها الصاغ لتوه إذا كان بذلك يخون
أبيه، لكنه فضل الصمت.

فى المساء دعى الصاغ قاداته، وأعلن أنه انتهى من جمع ثلاثة آلاف
وستمائة محارب للحرب، غدا ستكون وجهتنا (تنجازى) قرية الزعيم
جنجارا⁽²⁴⁾ الذى أوعز لملك المونبوتو بذبح حامية تنجازى، وسانده فى التمرد
ضد الحكومة المصرية.

* * * *

المتبة السادسة

تباريع (الحوى)



باخرة مصرية في أعالي النيل

سمعت ابنة قاضى دوفلاى طرقات على باب الدار، خرجت تسأل عن الطارق، لتجد ضابطا شابا مديد القامة، وسيم الملامح في بزة التشريفات العسكرية، تجلجل بشرته الصعيدية السمراء هدوء وحياء، وخلفه وقف زنجيان يحملان جوالين من الأرز والقمح، قال للفتاة الطويلة الممتلئة، والتي جمعت جدائل شعرها أعلى رأسها على هيئة كعكة:

- مش دى دار الشيخ عبد الفضيل الأشموني؟

اصطكت ركبتا الصبية وبدأت تترنج، من الداخل أجابته صديقتها بمرح:

- أيوة دى دار خالى الشيخ الأشموني، والمحروسة دى بنته خضرة، وأنا

أنجي بنت الخواجة روفائيل اسطافانوس، ومين بسلامته حضرتك؟

- أنا إبراهيم حليم ابن أخت الشيخ عبد الفضيل.

أخفت خضره رأسها فى كتف صديقتها:

- حضرتك ابن أخته ابن أخته؟

- فضيلته يبقى ابن خالة أمى.

- مش مهم يا اخوى، أستنى هنا لما أكلم خالتى، أوعى تمشى.

اقتحمت الفتاتان القاعة، وخضرة تصرخ والهم على وجهها:

"الحقى يا امه ده جه على غفلة".

أنهت الأم صلاتها: فيه إيه يا بنتى؟ فيه إيه يا أنجيل؟

أشارت ابنتها إلى الخارج وقد توقفت أنفاسها: "ده جه".

- مين يا بت؟

- أنا عارفة، ضابط، يا حظي المنيل.

- ضابط زى الورد يا خالتى، بيقول إن عمى يبقى خاله -.

نهضت الأم من فوق السجاد وقالت بجزع: "أبوك فين يا خضرة؟".

- ما أنت عارفة يا امه مسافر، هو إيه اللي خلاه يسافر، ح يمشى يا امى.
 - يمشى ليه يا بنتى؟
 - يمشى ليه يا بنتى؟! ما هو أبوى مش هنا.
 - "ح نخليه واقف كده يا خالتى".
 - يتفضل ويشرف، هو غريب، قولى للواد سمبل يدخله المضيفة،
 استنى، هي "نضيفه" ولا لا، خلي البت تنصفها الأول.
 اشتعلت الهستيريا فى الدار، قالت خضرة لأنجي وهي ترتجف:
 - يا لهوى أول ما شفته، أنا قلبى وقع.
 - قلبك بس، دا أنت كان ح يغمى عليك لولا لحقتك.
 - إيه رأيك يا بت يا أنجي؟
 - "قمريا خضرة، امسكى فيه بأيديكى وسنانك".
 - "بأيدي وسنانى بس، والله وتالله، لما أكون ح اربطه قدام المدود، لحد
 ما يقرو ويعترف... هو أنا اتخيلت يا بت، افرضى متجوز".
 - يا عبيطة، هو فيه واحد مجنون يجى بمراته وسط التماسيح اللي زى
 الجراد، إلا إذا كان عاوز يتخلص منها.
 - "والله صح، دا انت ناصحة أهو، امال ابوكى ما جاش لوحده ليه؟ وفرق
 إيه عن أبوى. أنت ح تجننينى؟
 - "أنا اللي ح أجننك، والا أنت اللي اتجننت، عينى عليكى يا
 مسكينة".
 - أنا يا إنجي... تمسك الصبيتان بيد الأخرى وينفجران فى الضحك.
 - يا خرابى يا عرابى.... تلطم وجهها وتردد:
 - تعالى قوليلى ح البس إيه؟ ح البس إيه؟ ح البس إيه؟
 - تلبسى إيه؟ متلبسبش. تنظر لها خضرة بغضب، ثم تنفجرا فى ضحك
 يكاد يمزق رئتاهما، تلهثان حتى تستعيدا أنفاسهما.
 - أى حاجة يا عبيطة، هو أنت محتاجة، أنت قمر اربعتاشر؟
 - خدينى فى دوكتة، أعمل شعري أزاي، زيك؟ أعمله زيك؟
 تهز أنجي رأسها نفيا، وتحدث صديقتها بمفهومية:
 - مش مهم تلبسى إيه أو تعملى شعرك أزاي؟
 - "مال إيه المهم؟ (متفلسفيش) على وحياة أبوك".
 - "يا عبيطة، أنت عوزاه يشوفك أزاي؟". تدور حولها وتقول بتمعن:

- "عوزاه يشوفك بنت شقية من البندر، بتلعب بالبيضة والحجر؟".
- أيوة كدة، أيوة كدة.

- ولا عاوزاه يشفوك فلاحه نازلة التربة تدلع تملق القل؟
تتغير ملامح خضرة وتقول بصوت ممطوط:

- "فلاحه طبعاً، فلاحه يا بنت البندر، أبوى وأمى فلاحين، وأبوه وأمه فلاحين، وما تنسش يا فهيمه إنه ضابط، ضابط يا أنجي".
- يعنى إيه؟ هم الضباط مش زى الرجالة اللي نعرفهم، ولا إيه؟
- لا يا خايبه، ضابط يعنى عاوز واحدة يضبطها. (تنفجران بالضحك)... ضابط يعنى عاوز واحدة يزرعها فى بيت أمه، ويسافر بالسلامة، وهو عاوج الطربوش على راسه، يعنى عاوز جميزة تقعد فى انتظار جناب سعادته، جميزة، يا روح خالتى تريزا.

- "أنت ح تحطيه فى دماغك بدرى قوى".
- من حسن حظي أمه ماتت، المهم دلوقت أكون جميزة أزاى؟
- تمام، يبقى تعمل ضفيرة، لا لا، تعمل ضفرتين، واحدة على اليمين وواحدة على الشمال، واحدة على صدرك من قدام، واحدة على كتفك من ورا، زى ست الحسن والجمال.
تجلس أمام المرأة، تفك شعرها:
- "يعنى مش جنبه يبعث إنذار، قبل ما يطب بلا رحمة".
تقفز أنجي خلفها، وتقوم بجمع شعرها الأسود الأجعد الطويل، تمسده، وتمشطه، وتجده فى ضفيرتين ثخينتين وتقول:
- "الى عاوز يكسب معركة يطب على العدو زى القضا المستعجل".
- بسرعة عملتيني عدو، طيب ملحوقه يا بنت خالتى تريزا.

* * * *

نظرة خاطفة من الضابط الشاب إلى الصبية، التي هلت على باب المضيفة، تحمل صينية الشربات، وترتدى فستاناً من الحرير السمى، يكشف عن نهدين عامرين، ونحر طويل، ووجه بيضاوى، حتى تاه عنه

صوت أمها وهي تقدمها إليه، وتدعو الله في سرها أن يحل على الشاب ريح القبول:

- خضرة بنت خالك... إبراهيم أفندي ابن عمك يا عينية.
سمعتها تقول بصوت دافئ: "عارفة يا (امه)".

عندما فتح باب الدار عنها وكان باب في الجنة فتح له، وفي المضيئة أحاطته الست (رجاء) بفيض من الأمومة، وعندما همست خضرة بصوتها الدافئ عبارة "عارفة يا امه"، ختمت عليه جنية العشق بأن يكون سجيناً في قفص الوله الأبدى، أسير أميرة الأحلام، التي جسدها لله فجأة في مديرية خط الاستواء، العامرة بقروود وحمروحشية، وتماسيح هي القبح عينيه، وطوال تناوله طعام الغذاء وحتى مغادرته الدار لم يرفع عينيه عن الأرض، دار الحديث في مناحي شتى، تفادوا ذكر ما له علاقة بالثورة العرابية، وهو يرد بإجابات قصيرة في وقار واحتشام؟

وقفت أنجي وراء الباب تسترق السمع، وعندما سمعته يقول "إن البعثة تقصد خط الاستواء"، قفزت إلى قاعة المضيئة تقاطعه:

- "طبعاً يا حضرة جناب الضابط ح تعدوا على (فويرة)⁽¹⁾؟

تطلع إليها بحيرة؟، سألتها الأم:

- "بجد يا بنى رايعين (فويرة)، دا خالك الشيخ عبد الفضيل هناك."

- والله كويس أكيد ح أقابله.

- أصلهم بنوا جامع لله، وسليم أفندي مطر، دعى خالك مخصوص عشان يخطب فيه أول خطبة لصلاة الجمعة.

- معقوله يا خالتي يسبيكم لوحدكم؟

- "خالك قالى، يا ام خضرة ما باليد حيلة، مقدرش أرفض، أروح من ربنا

فين؟ دا ثواب والناس بتتبارك بي، ناس متعرفش وجه ربك الكريم، الدعوة لدين الإسلام واجبة على كل مسلم موحد بالله، ربنا ح يقول يوم الدين فضلت مرتك وبنتك علي يا عبد الفضيل". واستطردت برضا: "أعمل إيه أنا راحره، قلت له روح يا خوى، ح تحملنا ذنبك ليه؟".

تدخلت أنجي: "إيه يا حضرة الضابط أنت مستقل بى، ولا أنا مش عجباك، ما أنا هنا معاهم أهه، حرس وخفير وباش درك، أبوى بعتنى على

1 (فويرة Fauvera. الإقليم السادس للمديرية الاستوائية، وعاصمته فودا Foda، وأهم محطاتها العسكرية فويرة.

نفس المركب الذى جت تاخذ عمى الشيخ عبد الفضيل، وقالى روحى
اقعدى مع خضرة بنت عمك، لحد أبوك الشيخ ما يروح، تسليم وتسلم
يعنى.

- "لو كده أروح أقابل خالى هناك".

قاطعته أنجي وهي تقفز فوق مقعدها: "أنا لازم أروح"، أبوى وأمى قلقوا
على، واستدارت تحدث الأم: "خلاص يا خالتى تاهت ولقيناها، من أسبوع يا
خضرة الضابط بندور على سفينة مسافرة فويرا، وخالتى خايضة أسافر
لوحدى، الحمد لله ربنا بعثك فى طريقى، أهه بقى، مفيش حجة،
وضحكت وهي تحدث صديقتها خضرة: تصدق يا خضرة، ح اسافر فى
حماية الجيش المصرى بحاله".

ابتسمت خضرة بغیظ، وقالت: "ليه لا، أيوة ليه لا؟ سافرى أنت مع
الجيش المصرى، وأنا أقعد هنا آكل فى الجمر".

* * * *

خط عرض 3°

ملئ سيد الوقاد جاروفه بالفحم، وألقى به إلى فرن الوابور، ارتفع هسيس النيران أسفل مرجل البخار، أطلق الرئيس بشندى صافرتين إيذاناً بالتحرك، تراجعت الباخرة الخديوى⁽²⁾ إلى الوراء، لتغادر مقدمتها ميناء دوفلاي، وتبحر فى دورة واسعة إلى عرض النهر، سمع الملازم عبد الواحد مقلد صرخات قادمة من المرفأ، شاهد صبيتين تلوحان له، وخلفهما امرأتين وعدد من الحمالين، أشار إلى الرئيس بشندى، تهادت الباخرة، وتوقفت فى منتصف المجرى، دار بين الصبيتين وقائد البعثة حوار طرشان، لم يتبين منه سوى اسم إبراهيم أفندى حليم الذي جاء مسرعا، عبارة وحيدة نطقها:

- "الآنسة خضرة يا افندم".

- مالها الآنسة خضرة يا حضرة الضابط.

- رايحة لوالدها فى "فويرا".

قفزت النسوة إلى قارب حملهم إلى الباخرة، مد إبراهيم حليم يده لخضرة والمرأتين، وأخذهن مبتعدا إلى الداخل، قذف الحمالون بالأممعة، أطلق بشندى صافرتين، وعاد ضجيج الوابور يشق النهر.

تناهى لمسامع مقلد صوت استغاثة، أطل من سور الباخرة، كان القارب يتحرك مبتعدا، وصبية معلقة فى الباخرة، وجسدها فى النهر، ترفس الماء بقدميها فى هلع، امتدت يد قوية نترتها إلى أعلى، لتجد نفسها تقف على سطح الباخرة، غرقى بالماء، فى مواجهة شاب يحمل السحنة الأوروبية لأبناء المنصورة؛ شعره الغزير ينسدل على جبين عريض، ووجه له جاذبية

2 (الباخرة الخديوى: أول باخرة تمخر عباب بحيرة لوتانزيغا (بحيرة ألبرت)، نقلها الجيش المصرى من القاهرة مفككة إلى المديرية الاستوائية وأعيد تجميعها للعمل على خط الملاحة بين دوفيلاي وبحيرة لوتانزيغا

طاغية، وعينان هادئتان، وابتسامة امتزجت فيها البراءة برجولة فاجرة،
لمحت خضرة تختفي في البهو، حدثت نفسها بغضب، وهي تبكي:

- طبعاً من لقي أحبابه نسي أصحابه.

- "بتبكي يا أنسة؟".

تطلعت إليه، وهي ترتعد من برودة المياه، وقالت بحزن من خلال دموعها:

- "حضرتك شايفنى بعمل إيه، بضحك!"

خلع بزته العسكرية وألقى بها على كتفها، لتري فائلة بيضاء
بكم، تكشف عن صدر عريض قوى.

- حضرتك أخت الأنسة خضرة؟

- أيوه ولا، صاحبها بس هي أكثر من أخت، اتربينا سوا، كبرنا سوا،
جينا المديرية سوا.

- طب أعرف بتبكي ليه؟

- كنت خايضة تمشوا وتسيبونى، شفت تمساح وراي، خفت موت.

- خلاص يا أنسة.

- بس هي نسيتني.

من المدخل خرجت خضرة تولول: إنجي ييييي... إنجييييي.

ارتسم ثغرها بابتسامة تفيض بالبهجة: أهه افتكرتني.

- حضرتك اسمك أنجي؟

- أيوة... أسرع نأحية صديقتها، تعانقا وهما تبكيان وتضحكان،

قالت خضرة: يا لهوى كنت ح أموت من الخوف عليك.

- شفتى التمساح، كنت ح تسيبني له؟

- أنا... دا أنا أموت عشانك.

- خلاص بقى من لقي أحبابه.

- معقوله يا أنجي، تعالى بسرعة غيرى هدومك.

سمعته يقول: "أمال خضرة إبراهيم افندى ما جابش سيرتك ليه؟".

- استدارت له، وهي تؤدي التحية العسكرية، وخضرة تشدها إلى البهو:
- ولا جاب سيرتك يا حضرة الضابط، ممكن تحاسبه على الغلطة دي.
- مقدرش إبراهيم أقدم منى، هو اللي من حقه يحاسبنى.
- على أخطائه؟
- طبعا ومن كل بد، دي أقدمية يا افندم.
- حظك يا مسكين.
- بتقولى إيه يا أنسة؟

* * * *

على خط عرض {3} توقفت الباخرة لرفع قطاعات النهر، على سفح جبل "أديجكو"، تعلق تنورتا الفتاتين فى مناقع أم الصوف، وتعثرتا فى الوحل، سعدتا واحدة تبكى، والثانية تموت خجلا، قبل الغروب سأل الملازم عبد الواحد الفتاتين بابتسامته الهادئة أن يتبعاه، سارتا خلفه صامتتين، قادهما إلى قمرة جلس بها ترزى عجوز، سألته أن يأخذ مقاسهما، ويخيط لهما بنطالين وقميصين، وبين رفضهما وإصراره، انفرطتا فى الضحك:

- هو أنتم ح تلبسونا لبس الضباط ليه؟
- ح نعلق هلال ونجمة.
- هو اليوزباشى وافق على ضمنا لعسكر الجهادية؟
- أبدا.
- طب ح نقف فى طابور الصبح؟
- والنبي يا حضرة الضابط ح نحى العلم؟
- هو أنتم عساكر؟
- الله امال جايبنا هنا ليه؟
- ح نرميكم للتماسيح... حضرة اليوزباشى طلب لكم ثياب مناسبة للرحلة.

أخذ الصول مقاسيهما، وهما لا تتوقفان عن الضحك، فى اليوم التالى
دخل عليهما حاملا تحت إبطه ما ظنتاه مستحيلا، مضى وقت حتى وجدت
الجرأة على الصعود إلى ظهر الباخرة فى زيهما الجديد، تدفقتا على سطح
الباخرة فى خجل، وكلاهما تختفى وراء الأخرى، بعد وقت قصير كانتا
تسيران مختلفتين فى زيهما الجديد، تضيفان على المكان حالة من الرونق
والبهجة.



* * * *

رست الباخرة الخديوى على مرفأ "اطياك" الواقع على مصب بحيرة "لوتانزيغا"⁽³⁾ الشمالى، اصطفت البعثة لتحية العلم المصرى والضباط العربيون عاجزون عن فهم الأسباب التى أسبغت عليه ذلك النفوذ الذى يجعله يرتفع خفاقا على أراضى تمتد داخل مملكة أوغندا، تساءلوا ألم يكن من الواجب على جيش الفلاحين، الصمود حتى الموت فى القاهرة، كى يتمكن من الدفاع عن الوطن فى خط الاستواء؟! أسئلة يصعب الإجابة عليها.

أمضى الملازم إبراهيم حليم الليل يحاول أن يقنع الفتاة التى ينوى الزواج بها، أن تنتظره فى القرية لحين عودة البعثة من عملها فى البحيرة، يشرح لها خطورة الإبحار فوق بحيرة تعصف بها الرياح أينما ووقتما تشاء، وتخرج الأرواح من جوفها لتخطف بنى البشر، وترحل بهم إلى العالم السفلى، وهي صامتة، لم تلبث أن انفجرت فى البكاء، وقامت تلقى بما يقابلها فى قمرتها من أغراض على الأرض، تعلن رفضها البقاء فى الحامية، وأنها سوف تصحبه إلى آخر الأرض، حتى ولو كانت البحيرة تحوى عفارىت جهنم، ولا فعليه أن يختار الحل الوحيد الذى يناسبها وهو العودة بها إلى دوفلاى، كان طلبا لا يصدق، ولما كان الضابط الشاب يعتبر أن الرجال ليسوا فى حاجة لإقناع النساء بصحيح الأمور، لضيق عقولهن، وتسلب مشاعرهن على المنطق السليم، أشار للجنود بتجاهل غضب الأنسة، وتنفيذ أوامره.

فرت الصبية الأخرى التى لم يشعر بوجودها أحد إلى كهف السكينة، تنظر إليهما وفى عينيها رجاء، بأن يتذكرا أنها تريد الذهاب إلى أبيها. فى

3 (لوتانزيغا: تعد خزان المياه الذى تتجمع فيها كافة مياه أمطار الهضبة الاستوائية، وبحيراتها، قبل أن تصب فى مجرى نهر النيل، يطلق عليها الوطنيون لوتانزيغا ذلك الضياء الذى يقتل الجراد، تجاهلت الجمعية الجغرافية البريطانية أسمها الحقيقى، وأطلقت عليها بحيرة (البرت)، على أسم زوج الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا.

منتصف الليل قام الملازم حليم بحمل أمتعهما، ونقلها إلى مساكن الحامية، قامتا تتبعاه، وكلتاها تبكى.

فى الفجر فوجئ بحارة الباخرة الخديوي بشبحين يقفان على المرفأ، وبجوارهما أمتعهما، وقفت أنجي، تضم أطراف جسدها بين ذراعيها فى خجل، وعيناها تنظران الأرض، تود لو تتلاشى، وقد بدت مرغمة على اتباع رغبات صديقتها صعبة المراس، أمامها وقفت خضرة تنسدل على جبينها غرة من شعرها الأجعد الطويل الفاحم السواد، تدور حول نفسها، وتدق الأرض بكعبها، وتتطلع بغضب إلى الملازم حليم الذي استدعى على عجل لسطح الباخرة، لينظر الحرج الذي وضعته فيه أمام قائده.

مال الملازم مقلد عليه، ناصحا أن ينزل المرفأ لإقناع الفتاة بهدوء بما يريد، وتوجه هو إلى مكتب البريد، لمح عيني أنجي يترقرقان بالدموع، وتتابعانه حيثما يسير.

□ الملازم ترككنى هنا؟

خزنى سالى إلى فردوس

السبا

نظرت خضرة إلى حليم بعناد، ترفض أن تجيبه بكلمة، حاول ألا يتخلى عن تشدده، وأنجي يراودها الهلع، تضم يديها بين صدرها، تتبتل إلى السيدة العذراء:

"من أجل حواء أغلق علينا باب الفردوس،

ولأجل مريم العذراء فتح لنا الفردوس مرة أخرى".

وبين فينة وأخرى تتطلع إليهما يتجادلان فى عتمة الفجر الكابية، نظرات تحمل اتهاماً بالخديعة، ورجاء من الشاب يقابله تصلب أنشوى. انسحبت أنجي مبتعدة لا تدرى أين تذهب.

أثناء عودة مقلد من مكتب البريد، قبضت كف ناعمة على كفه، تدفقت فى عروقه أمواج أشعلت روحه بحلاوة ناعمة، وكفها يجذبه ناحيتها، استدار ليجدها تقف مستندة بظهرها إلى جدار المرفأ مغمضة العينين، وهي تلهث:

"عاوزه أقول حاجة، ممكن تفهمنى، ممكن تسمح لى أمسك أيديك، أرجوك اسمح لى أحضن أيديك".

- متخافيش، بترتعشى ليه؟

قالت بلهجة صعيدية: "خليفة يا حضرة الضابط، عاوزه أرجع لأبوى".

كانت تلفح بأنفاسها حبل وريده، ملامحها الإغريقية؛ خضرة العيون، وجهها النضر المستدير كطلعة شمس، يملأ العالم بلونه الحليبي، وابتسامة واسعة خلقت للأبدية، تهاجم كل ما يحيطها بالبهجة، ونهدان ممتلئان ينشران فى الفضاء عبقا أنثويا لا يقاوم، ربت بكفه على رأسها وهمس:

- "اطمنى، متخافيش، ح اعمل لك اللى انتى عاوزاه".

- لا، أنت بتكذب على.

- ليه بتقولى كده؟

قبل أن تجيبه أيقظتهما العبارة التى قذفت بها خضرة فى وجه إبراهيم حليم، ما جعله يغير رأيه من فوره: "هو أنت ح تسيبنى من دلوقت؟"

شعرت أنجي بالمصيبة التى سوف تحل بها، رفعت خصلات شعرها الناعم عن جبينها الواسع، وركبتها تعجزان عن حملها من الذعر، تود لو تستطيع أن تهرب من العالم، وتختبئ فى حضن مربيتها، سمعت إبراهيم حليم الذى أطلق هجوم صديقتها فى أوداجه شعور ذكوري بأن الصبية تريده وبشدة، يعطى أوامره بعودة الفتاتين إلى الباخرة.

رفعت أنجي رأسها تستنجد بالسما من البلوى التى أتت على البقايا المتبقية من مقاومتها للهوى الذى بدأ يدك وجدانها، يا مريم يا طاهرة، حيكون المقدر شدة على، ستفوز خضرة بالضابط الطويل الوسيم، وتصبح زوجته وأم أطفاله، بينما أسير أنا إلى حتفى.

سمعتة يهمس: شفتى كل حاجة اتحلت، تعالى

ورأى. يا أم الابن الإله

- وراك! أنا لسه ما تجننتش.

صلى لاجل.

حادث عنه، واتجهت صوب صديقتها، صعدت خلفها،

تضم صدرها بين ساعديها، ورأسها مطرق إلى الأرض، تبتهل فى

سرهما إلى السيدة العذراء، وهي تسمع العسكر يهمسون تندرا بهزيمة قائدهم.

"يا أم الله، يا مريم الطاهرة، بحق الحزن الغامر الذي اختبرته عندما شهدت عذاب، وصلب، وموت ابنك الإله، أنا المنفية من بنات حواء، أتهجد نوحك في وادي الدموع، يا سيدتنا يا معزية المفجوعين، يا مرشدة المسافرين في عالم الضياع؛ يا شفيعتنا يا مقوية الضعفاء؛ يا منجية الخطاة، يا نبع المحبة، صلي لأجلي، صلي للخطاة وكفري عن الخطايا"

* * * *

أطلقت الباخرة صافرتها، وزفرت المدخنة بخارها إلى سماء البحيرة، وتقدمت متجاوزة عنفوان سيل المياه القادم من نيل فيكتوريا، ألقت خضرة حقائبها في قمرتها، وصعدت تجذب صديقتها وراءها، سألتها إلى أين تأخذها، قالت بلهجة منتصرة، "وراه، هو أنا ح أسيبه"، أوقفتها أنجي، وعكفت على تزيينها، وهي تهمس، إذا كان عليها أن تفعل أمرا الآن، فهو الاعتناء بجمالها حتى تصيبه بالجنون.

- بس نوصل فويرا وأنا ح اعمله له عمل⁽⁴⁾ ينسيه أهله.

امتلات القمر بضحكة، لرنينها خلاخيل الفضة، أخرجت أنجي أدوات زينتها، وأمسكت بالمكحلة، ومالت على وجه صديقتها تقول: "السحر الحقيقي في الكحل يوسع العينين، ويطول الرموش، وفي الحليب اللبي ينعم الوجه"، وأمسكت وجنتي صديقتها وقرصتهما، وهي تضحك: "وفي حمرة الخدين".

- أييبي.

دفعتها بعيدا، ونظرت في المرأة:

- "إيه رأيك يا بنت".

- قمر.

- بجد.

- جد الجد.

- يلا وراه.

4 (عمل: سحر بدائي

انطلقت الفتاتان إلى سطح الباخرة تتطاير خلفهما جدائل شعرهما، أمام قمرة القيادة تراجعت أنجي، واكتفت بالوقوف على سور الباخرة، تنظر بزهو المستكشفين الأوائل إلى عالم جديد، تبصر صفحة البحيرة تبزغ من برائن العتمة؛ مرآة مصقولة ضاربة إلى صفرة، يعجز الجراد عن مجاوزتها، حتى أسماها الزنوج بلغتهم الزاهية "لوتانزيغا"؛ ذلك الضياء الذي يقتل الجراد".

من الشرق بزغت هالة ضوئية تحمل ضربا من الأرجوان الشاهق، يعكس على قمم الغابات شلالات من شزر، تلاشى الصمت، وشق السكون غناء عندليب، وتغريد سنونو، وصياح ديكة يرحب بقدوم الصباح.

أسر الصبية سحريتا إلى وراء سحر، ونور الصباح يكشف عن طيور الكركى⁽⁵⁾ تقف على الضفاف شامخة، تحمل أعناقها الرفيعة رؤوسا ثقيلة بالحكمة، وتيجانها من ريش ضارب إلى الصفرة، يسير بخيلاء النبلاء، ينشر جناحيه الضاربين إلى زرقة، يصعد فوق الماء، ويهبط على بعد أمتار قليلة.

سمعت أقدام البحارة يعبرون خلفها، فتوارت داخل قارب تلف قاعه، وتشققت أخشابه، معلقا على الجانب الأيمن للباخرة، عثرت عليه يوم علمت أن القدر أوقعها في برائن ظلمة البين؛ ولأن البشارة برفع المعصية مرهون بمغفرة الرب، التمسست في باطنه العزلة، ولأجل عزلتها فرشها الصول زكريا عبد السيد بحشايا نظيفة، تعينها على البقاء ما تشاء من وقت.

تمددت الصبية التي لم تتجاوز الخامسة عشرة على بطنها، حيث يحلو لها النظر من خلال شقوق القارب إلى المياه وهي تجرى أسفلها، تترك عينها لمهاد البحيرة واتساعها الزاهي، تترى أسراب طافية من أسماك فضية، عيون ذهبية، وظهور حرشوفية لتماسيح ناعسة، ثعابين سوداء وأخرى فضية تتلوى بين أمواج البحيرة في نعومة قاتلة.

ترتعد تقفز من مكانها، تجلس القرفصاء، وقد استحوذ عليها الرعب، تري رؤوسا عملاقة من الجان ترتفع من البحيرة، بها قرنان قصيران، تفتح

5 (الكركى: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبيض الذنب قليل اللحم يأوى إلى الماء أحيانا.

رؤوسها عن كهوف وردية مخيفة، تنفخ رزا من الماء يلطم وجهها، ثم تطلق خوارا صاخبا يرج الأنحاء.

تستجمع شجاعته وتعاود النظر، تري عشرات من أبقار الماء تسبح فى البحيرة، بعضها يتشاءب، وبعضها يرسل خواره يبعث لها بالتحية، تعود لوجهها ابتسامتها الواسعة المترعة بالبهجة، تضحك وكأنها تكتشف التماثل بين خوار بقرة النهر، وضحكتها، تضحك ثانية وثالثة، ثم تقفز من القارب، وتعدو إلى مؤخرة الباخرة، وتشرع فى مداعبتها، قبل أن تختفي فى الوراء البعيد.

تعود إلى مأواها، تستلقى على ظهرها، تنظر سماء تكاد تلمسها بأناملها، وسحاب من ألوان قزح، تتابع ظلال المنخار الحديدى لأول وحش بخارى مخر عباب البحيرة منذ بدء الخليقة، تشعر بروح البحيرة يتملأ، لصوت مرجله الخشن، ووقع صافرته الحاد، يداهمها سجع أسراب القمر الوردية⁽⁶⁾، وصفير الزرزور، جوقة من الجنة تعلن عن أسراب الملائكة شاهقة البياض، تطير فى ملس من حرير، يتلأأ بزهور البرتقال، تحمل السماء على أجنحتها، وبالسحاب بين مناقيرها، تصدح مثل محصل قطار ينبه ركابه إلى المحطة القادمة.

"لقر (قريب) الجنة... لقر (قريب) الجنة".

تقفز أنجي ووجهها يشع بالفرح، تضحك غير مصدقة، وتشير إلى السماء ببهجة، وتهتف بالبشارة والجنود:

- سمعتوا بيقولوا إيه؟ سمعتم بيقولوا إيه؟

يبتسم الجنود والبحارة، يبادلون عبارات الإطراء، يستفسر أحدهم:

- مين يا ست هانم؟

- "الملايكة".

ينظرون حيث تشير، يرون أسراب الكركى والبلشون، يعودون إلى عملهم، وهم يغمغمون:

- "والله أنت اللى ملاك يا ست هانم".

6 (القمر: جمع القمرى وهو ضرب من الحمام حسن الصوت.

- ربنا يخليكم... بس شفتوهم؟
- "أيوه، طبعا امال إيه؟".
... مستخبة...
... طبعا مستخبة منك...
- "يا ست أنجي مش فاهمينك".
- أزاى يا عم زكريا؟
- الملايكة يشوفوا ملايكة، ودول شياطين ميشفشوش غير
عفاريت.

تضحك وتسرع بالعودة إلى مأواها فى باطن القارب، تترى أمامها
مساحات شاسعة من مستنقعات معرشة بالعنبج، تتكى على سفوح
مرتفعات الكونغو، تهتز البرارى تحت الريح، تكشف عن رؤوس سوداء
ذات جباه عريضة، وقرون حلزونية، ترتعش وهي تري قطعان الجاموس
الوحشى، تلمح خرتيتا على الحد الفاصل بين البرارى والأحراش، تنظر قرنه
الممتد، حربة قوية قصيرة لمحارب لا يهزم فى نزال شريف.

تلوح مجموعة من الأكواخ الصغيرة، وعدد من أرماث⁽⁷⁾ البردى، وعلى
متنها رجال يرتدون أشعة الشمس، تنتفض الصبية ثم تعود تختلس النظر
وهم يقتربون من الباخرة، تتابع الشاويش نوما يترجم الحديث الدائر بينهم
وبين البخارة، يتبادلون السمك الطازج وزجاجات الكين، بالملح والخرز
الملون، تعبر الباخرة محلة أمين باشا، المسماة على اسم الحكمدار، لتغفو
فى نوم يحملها على مهاد الطبيعة النائمة، وتستيقظ على صوته
يناديه:

- "أنسة".

... هذا صوته... هذه رائحته تركم أنفك... تزلزل بدنك... أين تتوارى!
كيف تخترقى قاع القارب وتقدمى نفسك طعاما شهيا لتماسيح البحيرة؟
كيف تتلاشى...

... "يا عدرا يا أم العونة... انقذينى".

طرق بإصبعه كتفها وعاد يناديه: "أنسة أنجي".

7 (الرمث: طوف مصنوع من سيقان نبات البردى، جمعت بعضها البعض بالحبال، ويركب عليها فى الماء أو تحمل
عليها الأثقال.

- أيوه عاوز إيه؟
 - لو سمحت... بصى لى.
 - ليه؟
 - ليه...؟! عشان أعرف أكلّمك.
 - طب ما تتكلم كده.
 - هو أنا شكلى يخوف قوى؟
 - قالت بجزع: "أبدأ... خالص... دا بي موتنى".
 - بيموتك؟!
 - قصدى يعنى.
 - قصدك إيه؟
 - مش عارفة وخلاص... ح تحقق معاى حضرتك! ... طب تعرف أنت؟
 - أزاي يعنى أعرف... هو أنا اللي ح اموت!
 - طبعا عندك حق، يهملك إيه، هو القط لما ياكل الفار، بي شعر بآلامه؟
 - قط إيه وفار إيه... بتخرفى بتقولى إيه؟ طيب لو سمحت بصى لى.
 .. امسكى نفسك يا مسكينة... صدرك بينهج، خدى نفس طويل،
 وشوفى حضرتك عاوز إيه... يا لهوى يا امه... إيه اللي عملت فيه فى نفسك ده،
 ده قاعد فوقك، والسما هالت حواليه... ويرحته حواليك جنية ورد مخلوط
 بريحان وقرنفل... شايفك ممددة على ظهرك... عينيه بتطرف، تحط على
 نهديك، ينقرهم زى عصفور... يا لهوووووى... صدرك بينهج، مدى أيدك
 غطيه... مشلولة مش قادرة... مش قادرة ولا مش عاوزة... سبيه يلمسهم
 بعينيه، ولا بشفايفه... ارتكبت خطية زيك زى القديسين... اغفرلى يا
 رب... زى ما قال الأب خريستوس "الخطية هي الطريق الذهبى لوجه الرب".
 صوته ثقيل زى ساطور الجزار يقطع فخد أنثى بدم بارد، يسأل بهدوء:
 - "يا أنسة أنت مستخبية من حاجة؟".

عشرات اللعنات تمر بعقلك كالسيل، هذا
 الأفندي قرر أن يهزأ بك، تتماسكين معتصمة
 بالصمت.

يا عاوزة
 وراة
 بيرق

- حضرتك مش عاوزة تتغدى؟

يعبر بدنّها أمواج من القشعريرة، عشرات العبارات لا يسمّعها سواها،
وقف على قدميه فابتعد رأسه، وخفّ ثقل وجوده المادى على جسدها
الممدد، ودت لو تقف... أن تجلس... أن تفعل أى شيء... لكنها أصيبت
بالتيبس:

- "تعالى".

جذبتها يدها لأعلى، ليضعها جواره، وضع فى يدها صنارة من الغاب،
وسألها وهو يرحل عائداً إلى عمله، أن تشرع فى صيد السمك للغذاء.

فعلت منصاعة، وصوته يلاحقها "السادة حضرة التماسيح، ح يسعدهم
لو تفضلت عليهم ودللت رجلك فى المياه، فلا أشهى ولا أجمل.

ألقت بصنارتها فى مياه البحيرة، حائرة فيما إذا كانت عبارته سخرية
أم غزل، أخذتها ثناياها هضبة الكونغو، تنعكس ببريق اللؤلؤ، قبل أن
تدرك أن ما تراه عشرات الجداول تتسلل بين طيات الهضبة المعشوشبة
بخضرة زاهية، تتسع لتصبح نهيرات لأنهار تنزلق بين الأحرش والغابات إلى
البحيرة الساكنة على عتبات الجنة.

فى منتصف النهار عادت رائحته تهاجمها، سمعته يقول: "كفاية يا
آنسة، ح تخلصى على السمك، الناس مش ح تلاقى حاجة تاكلها".

نظرت إلى السلة، وألقت بها إلى البحيرة ثانية.

- "فيه إيه؟ أنت مجنونة؟"

بكت: "أنا! أبدا مش قصدى".

هز كتفها برفق: "خلاص يا آنسة، خلاص، هو أنت بتموتى فى
العياط!".

* * * *

على خط عرض {1⁰:52} تحول لون الماء إلى خضرة قاتمة، تصنعها
طبقة لزجة من طحلب الماء، تتخلله عيون تفور وترتفع من قاع البحيرة إلى
سطحها، بماء شديد السخونة.

رست الباخرة على مرفأ محللة (ماهاجى) التابع للحكومة المصرية،
كان فى استقبالها قومندان المحطة، وأمام جامعها الشيخ عبد الله ولد
أوكلو من قبائل "الألور"، وفرقة الموسيقى العسكرية، اصطفت البعثة
تحى العلم المصرى وهو يرفرف على سفوح الكونغو.

تريضت الفتاتان بصحبة الضابطین على شاطئ البحيرة، امتدت بسط
من عشب يصل بين مائها إلى مدارج الجبال، وخضرة مستأثرة بالحديث عن
عرس الزواج لن يقبل أبوها بأقل من حفل تتحدث عنه المديرية.

على المدق الترابى الموازى للشاطئ انحنت نساء القرية وهن عاريات
كما الطبيعية، يجمعن صخورا تنبعث منها أبخرة كبريتية محرقة
خانقة، تنبجس فيها مياه ملحية ساخنة، ويحملن كتل الطين المالح،
ويضعنها فى قنوات ضيقة، ويحرقن الطين المترسب، على طرفها الآخر
بحديد ساخن، ويقطرونه فى أحواض الصلصال، ليستخرجن الملح من الماء.

يجلس رجال القرية فى كسل، وعندما تنتهى النساء من استخراج
الملح، يقومون بحمله على ظهورهم فى أوراق الموز، المغلف فى سيقان
الخيزران، يبادلونه فى الأسواق القصية، بحبوب وخرز ورماح وجلود.

قال الملازم مقلد: "زى ملاحات بورسعيد".

قاطعته أنجي: "وهم الستات عندكم عايشين فى الجلالة".

- قصدك إيه يا أنسة؟

- عريانين زى اللبن الصابح.

- أولا أنا من المنصورة، حضرتك منين؟

- من إسكندرية ليه؟

- طيب.

- طيب إيه؟

قاطعهم حلیم: "استهدوا بالله".

ابتعدت خضرة فى صحبة خطيبها، وأشار مقلد إلى البرارى، حيث
انتصب غزال برأسه عاليا، أعطاهما نظارته المعظمة،

- بصى هناك، شايقة الفهد؟

- فين؟

- أه، مستخبى بين أعشاب البرارى.

- مش شايفة.

أوقفها أمامه وأحاطها بساعديه، وضع المنظار على عينيها، كان حسن النية، لا يخطر بباله الأعيب الإغواء، أو بالجحيم الذي وضعها فيه، ارتطم ساعديه بنهديها تركا فيه مخالب وحشية من اللذة، استعادها بمرارة، اصطكت ركبتاها، وعندما تهاوت، رفعها من أسفل إبطيها، وكان هذا نهاية لكليهما.

أطلت من بين أعواد السافانا رأس فهد، لتبدأ حفلة المطاردة، تابعت الغزال ينفض قدمه الأمامية، ويندفع يجرى بين البرارى، بينما الصياد يقطع الطريق على الفريسة، قفز الغزال لمسافة مائة ياردة قفزات عالية طويلة، وفى كل مرة يهرب من مخالب صياده، وكانت تقفز مبتعدة عن جسده الذي انجذبت إليه بقوة قاهرة، فى مناورة أخيرة للهرب، التف الغزال جانبا، ضرب الفهد مؤخرة الغزال بقبضته الأمامية، ضربة أفقدته اتزانها، سقط متدحرجا على العشب، فى جزء من ثانية سبقه الفهد بخطوة، وانقض بأنيابها على عنقه، المكان المفضل للقنص.

حطت أنفاسه على عنقها، ترفعها إلى عالم من النشوة، وسقط الغزال وفى عينيها استسلام قدرى، وسقطت أنجي مغشيا عليها، عندما أفاقت كانت فى دار الشيخ ولد أوكلو.

استقبلهم الشيخ عبد الله بحفاوة تقديرا للأنسة خضرة الغالية ابنة الغالى الشيخ الأشمونى، وعلى الغذاء أوضح أنه دخل الإسلام على يد أبيها، حيث الناس أخوة لا فرق بين عربى أو عجمى إلا بالتقوى، والتقوى لا ينالها الإنسان إلا بعبادة الله الرحمن الرحيم.

قبل مغادرة محلة (ماهاجى) حذر الشيخ من روح البحيرة الكائن فى جوفها، يخرج وقتما يشاء فيثير الرياح والعواصف والأعاصير، ثم يعود إلى القاع حاملا غنائمه من البشر، وطلب أن يترك الفتاتين فى صحبة عائلته، وحمائته لحين العودة من البحيرة.

تبادل حليم مع خضرة النظر، وقال: يا مولانا سبق السيف العذل.

* * * *

اعتكفت أنجي في قمرتها تبكى بين أحضان مربيتها، معذبة بعالم
القنص الذكورى الوحشى ولذته... قتلنى يا خالته... دوينى... عاملى
سحر... الرب يعلم... لو أقدر أبوس الأرض اللى ييمشى عليها... جسمى
نحل... كل ما يقرب منى، قلبى يدق زى الوابور، بس من غير دخان...
عارفة الدخان بيروح فىن.

- فىن يا ضنى خالتك؟
- يكبس على أنفاسي... بيخنقنى.
- بس أنت عارفة يا روح خالتك أنكم متليقوش لبعض.
- ليه... ليه؟
- هو على ملة الإسلام، وأنت على ملة عيسى.
- طب وأنا ذنبى إيه؟
- "تنسيه يا نن عين خالتك".
- "مقدرش يا خالته، لو كنت أقدر".
- لازم يا بنتى، عشان خاطر أبوكى وأمك، يصح تجيبي لهم العار؟
دفعتها بعيدا ودفنت رأسها فى الوسادة تعوى من الألم.
- طيب... طيب يا ضناى... هو بيعبك؟
عوت الصبية: "ولا حاسس بيه".
أخرجت المربية من صندوقها قطعة قماش من الحرير وأعطتها لها.
- أعمل بيها إيه؟
- "خديها معاك، تقعدى تطرزيها، لو سألك بتعملى إيه، تقولى له بطرز
منديل لحبيبي".

- "ولو مسألنيش؟".
- يبقى مالكيش فيه نصيب.
امتقع وجهها، قالت المربية: "متخافيش يا ضناى، هو فيه حد يشوف
جمالك، وميوقعش أسيره، ده يبقى أعمى".
أمام قرية مسوا أبحرت قوارب طويلة لصيد التماسيح وبقر الماء، لا
يتجاوز عرضها عرض الصيادين، ألقيت فى البحيرة بخطاطيف حديدية
ضخمة، وعندما جذبتها كانت ثقيلة، لصيد ممتنع عن الصعود.

ضرب تمساح ضخمة قاربا، فقلبه رأسا على عقب، وانقض وصحبته
على الصيادين، تناثرت الدماء على سطح البحيرة، ارتفعت ضجة، وطار

الجنود التماسيح بنيران البنادق، رفعت رأسها عن المنديل الذي تطرزه، أصابها الهلع، وهي ترى أشلاء الصيادين تتناثر فوق سطح البحيرة.

عادت الباخرة للإبحار، ارتفعت جبال "بيسو" و"نوبار" فى الشرق، وعلى سفوحها فردوس من قطعان وعول، وغزلان، وأفيال، تشم بمناخها الفضاء، حام طائر أبو سعن فوق أسراب الجراد كالطيور الجوارح، وبين حين وآخر شق الفضاء الخضارى⁽⁸⁾ فوق غدير البردى مذعورا من صفير العقاب.

دون نذير هبت العواصف قرب "كاكاناما" الواقعة على بعد خمسين كيلومترا جنوب البحيرة، وألقت إلى الشاطئ كميات هائلة من الأسماك، جمعها أهالى قبائل الباثير فى سلال مجدولة من البردى وسعف النخيل.

* * * *

وسط عواء الطبيعة اختفى البشر، وأرماثهم، وبقي ذلك الوحش البخارى يمخر عباب البحيرة، التى تحول نطاقها إلى جرف صخرى معشوشب، انبثقت الأشجار فى أديمه، تظلمه خيمة سيفساء، مضاءة بشذرات ضوء شهابى، ينازعه غبار مائى يصعد من البحيرة، وانبعث عواء يصم الأذان، ومسائل الشلالات تصطدم بأمواج البحيرة، وتضربان الجرف الصخرى بأمواج عاتية، مطلقة هديرا مخيفا.

على خط عرض {1:30⁰}، بدا قرص الشمس مرسوما بطباشير على لوحة برتقالية، أطفأ النوتية مرجل الباخرة، وتوقفت عن الحركة، ألقى بالهلب إلى القاع، وما أن استقرت قوارب المساحة على سطح البحيرة، وكان مسا من ريح الشيطان حل فى الوجود، فانقلب السكون إلى عواء قادم من قاعها، وفتحت السماء بوابات خزانها الكونية، وانفجر البرق والرعد، وسقط المطر خيولا تنهب البرية.

علت موجة على مهل، تابعوها تتجه ناحية القارب الذى يقل فصيلة المساحة الثانية، ارتفعت به عاليا، وتركته يسقط من شاهق، قال البحارة "أن الماء يخاوى شيطانا، وأن القارب تعلق بقرونه قبل أن يسقط من هاوية".

(8) الخضارى: جمع الخضيرى وهو عصفور أصفر اللون ضارب إلى الخضرة.

تبادل الضباط حديثاً قصيراً، شاهدت أنجي وقلبها ينخلع، الملازم مقلد يخلع قميصه، قفز إلى المياه حتى بلغ القارب الثاني، شرع الجنود يجدفون بحذر وريبة، يجمعون الغرقى من زملائهم، قبضت على جسر الباخرة تري الرياح توشك أن تقلب القاربين، والجنود يلقون بثقالة قياس الأعماق إلى القاع، ويأخذون قراءتها بصعوبة، ثم يرسلون القراءات بأعلام الإشارة إلى الباخرة... أين هو؟ شعرت بالارتياح، فمن بعيد بدا غارقاً بين المياه وشلالات المطر يقود القارب المبحر ناحية الغرب.

قبل غروب الشمس رفع البحارة القاربين، وسقط جنود المساحة منهكين من الصراع ضد الطبيعة ووحوش البحيرة، وقد فقدوا بعض زملائهم، طلب الصولات من اليوزباشى إلغاء المهمة، لكنه ذكرهم بأنهم قطعوا كل هذه المسافة، ولن يتخلون عن مهمة أمرتهم بها قيادة الأركان.

جلس الجنود والبحارة على ظهر الباخرة حول النيران، وهم يغنون ويرقصون تحت سماء بلا نجوم، ورياح تطلق عواها المنذر بالخطر.

أم اليوزباشى صلاة العشاء، فلما انتهى، استدار إلى المصلين يهدئ روعهم، فقال "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، أيها الإخوة المؤمنون إن من سنة الله تعالى في خلقه أن فرض علينا مجاهدة الشيطان، قال تعالى في كتابه المنزل الحكيم:

"قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ"⁽⁹⁾، فقال الإنسان كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على الياوس⁽¹⁰⁾

فى قمرة وقف الصول زكريا عبد السيد أمام مذبح صغير، يعلوه أيقونات للسيد المسيح والسيدة العذراء، وأمامه جلس عدد من الجنود

9 (سورة الأعراف: آية 16-17).
10 (بيت الشعر لصاحبه: أبي العتاهية (هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم)

المسيحيين، وخلفهم أنجي ومريبتها دميانتة، وشم صدره بالصليب، ووعظ فيهم قائلاً:

" قبل أن يبدأ السيد المسيح التبشير بين الناس، ذهب إلى البرية، الأرض النجسة التي تسرح فيها أرواح الشر، ليصوم أربعين يوماً وأربعين ليلة، بعدها جاء الشيطان ليجربه، لكن يسوع هزمه في عقر داره، فأعلموا يا أخوتي وأبنائي أن الشيطان عدو مهزوم، ومن دخل أرض الشيطان عليه أن يتسلح ببسوع ابن الله، ويقول إن السيد المسيح عوني وملازى، ومن يهاجمه الشرير عليه أن يتأسى بعظمة ابن الرب، الذي قال عنه "أن القادم من نسل المرأة سوف يسحق إبليس وتلك مسرة".

- يا مقدس، بتقول يقضى على المسيحيين".

- أيوة يا ابنتى، الشيطان عدو المؤمن.

أحت رأسها إلى الأرض وهي تغغم: "فحبيبي الآن في أمان".

لم تشأ البحيرة أن ترحل البعثة دون أن تأخذ أضحيتها، عند خط عرض {1⁰:00}، تزايدت أعماق البحيرة عن المؤلف، عاد الملازم مقلد إلى الباخرة وأطال من حبل الشاغول ليتمكن من بلوغ أعماقها.

حاولت أنجي أن تثنيه عن العودة، لكن واجبه أعماه عن اللوعة التي حملتها عينها الصبية، دمدت الأرض دمدتها، وانطلقت الرياح تعوى، وأرعدت العواصف، وانقضت على القاريين الذين أصبحوا مثل ريشة في مهب المجهول، أعطى مقلد إشارته بالأعلام إلى القارب الآخر، بأن يسرع بالعودة إلى الباخرة، وبينما البحارة عائدين سعدت من البحيرة نافورة من إعصار غاضب، ارتفعت بالقارب لأعلى وقلبته على ظهره.

أطلق الجنود صيحات الفرع، وهم يجاهدون الموت، قبض الصول زكريا عبد السيد على أدوات المساحة، هتفوا به أن يتخلى عنها ويهتم بحياته، رأت أنجي وروحها ترحل من أنفاسها، حبيبها وقد أحكم الموت عليه قبضته، وموجة أخرى تدفع بالقارب ليصطدم بالشاب الذي غرقت في حبه حتى الثمالة، وتلقي به بعيداً، طفا للحظات، قبل أن يختفي في الأعماق.

وشمت الصبيّة صدرها بالصليب، ودعت فى لوعة السيدة العذراء
حامية الفقراء أن تنقذه، ثم سقطت مغشياً عليها فى حضن مربيتها.

ألقى البحارة عوامات النجاة للرجال الذين عصفت بهم شياطين
البحيرة، وبقي قارب يرفض العودة دون قائده، الذي ابتلعه أرواح البحيرة،
ولم يعد يبدو له أثراً.

هبط مقلد إلى قاع البحيرة المعتمدة مغشياً عليه، يحيط به ماء ساخن
فوار، وخضرة طحلبية زيتية، ليستيقظ فى ظلام تضيئه الشموع،
وملاكاً يتوسل له النجاة، وهو يصلى باكياً أمام الصليب المسجى عليه
السيد المسيح.

تحلق الجميع حول فراش الملازم مقلد، عندما فتح عينيه، أكد عليه
اليوزياشى أنه سجل قراءات لأعماق البحيرة بلغت تسعة عشر متر، أجابه
بالإيجاب، وأضاف وهو يرفع يده المحترقة، أنه رأى كهوفاً تفور بماء مغلى.
قاطع حليم: "ماء بيغلى فى قاع بحيرة، أراى يعنى؟"
- عيون كبريت وفورات حارة... أحنأ بنسبح فوق بركان قديم... لازم
نمشى من هنا".

* * * *

فى هزيع الليل الأخير تصاعدت دقات طبول، يصاحبها غناء وحشى،
شعر إبراهيم حليم بالقلق، غادر قمرته إلى باطن الباخرة، حيث وجد جمعا
من الجنود التراجمة، يرقصون حول دائرة من أضحية وعظام بشرية،
وأعضاء نزعاً لتوها، وقف فى المنتصف جندي من البائثرا، لطخ وجهه
بالألوان، وارتدى تعاويذ وحلقات من الريش وعقود من أنياب التماسيح،
كانوا يصلون إلى البحيرة، ويطلبون منها أن تتوقف عن إلحاق الأذى بهم.
غضب الملازم واعتبره كفراً، لا يليق ببعثة تابعة للحكومة المصرية،
واندفع يلقي بكل ما فى الحلقة التى من أضحية ودماء، وهو يصرخ فيهم:
- "كفرة ملاعين".

انطلق الوقاد الذي تابع المشهد عدوا، يبحث عن اليوزباشي الذي جاء على عجل، وجد نائبه وقد أنهى حفل الأضحية البشرية، وسط غضب الوطنيين وسخطهم، وساحرهم يهدده محذرا:

- "تذكر ما أقوله لك اليوم، إذا لم تطعم الأرواح أكلتك".

كان وجهه يشتعل بالنار، وهو يرفع عظام ضحاياه، ويردد بعينين تلمعان بالغضب كلاما تعزز فهمه، وكى يؤكد الساحر رسالته، طلب من الشاويش نوما أن يترجم للملازم ما يقوله:

- "عندما تأكل الأرواح روحك، لا تنسى إننى حذرتك، سوف تؤخذ روحك على مهاد لوتانزيغا".

صرخ إبراهيم حليم فى الشاويش نوما يسأله: "من يقول ذلك؟".

أشار ناحية الساحر، الذي ركع على قدميه، وحط أذنه على أرضية الباخرة الملوثة بالفحم، يصغى إلى دبيب لم يتوقف عن الطنين، رفع رأسه يحدث إبراهيم حليم: "تقول لك روح البحيرة، أنت دمرت أضحيتى، أنت ملعون، أذهب، وافعل ما ينتظرك، فلن يبق لديك وقت طويل".

ركل حليم الساحر بقوة، واندفع يطارده، منعه مقلد بصعوبة:

- "إيه اللى بتعمله؟"

- إيه اللى بعمله، هو إحنا نكفر!

تدخل اليوزباشى: "يلا يا إبراهيم، يلا يا عبد الواحد، لله فى خلقه شئون. وأشار إلى الجميع "يلا بينا، يلا يا حضرات".

وسط عواصف ودوامات مائية بلغت البعثة مصب نهر "سيملكى" الذي يحمل مياه بحيرة إدوارد إلى بحيرة "لوتانزيغا"، مستودع المياه الأعظم لحوض نهر النيل، وفى اليوم التاسع عشر تم الانتهاء من رفع قياسات البحيرة الغاضبة، وقفلت الباخرة عائدة وسط عواصف وأمطار، تنفث حلقات الدخان، فبدت طائرا أسطوريا قادم من بوابات الأرض السفلى، وعلى الجانبين ارتفع الجرف الصخرى، مكونا الحدين الغربى والشرقى للهور الغاضب.

بعد خمس سنوات وفى الطريق إلى زنبار، سوف يخاتل وعيه نبوءة الساحر التى أن لها أن تتحقق، حيث لا أمل فى النجاة من الموت الأفريقى؛

الموت من الجوع أو العطش، الموت بضربة شمس أو البرد القارس، الموت بين أنياب الضواري، أو لدغات الحشرات والعقارب والأفاعى السامة، الموت بضربة حربة قاتلة، أو سهم مسموم، فإذا سمح القدر لأحدهم النجاة من تلك الأهوال، يبقى الموت بشهوة الغرور والكراهية، والمذبحة التى قام بها قائد بعثة الإنقاذ، السفاح هنري ستانلى⁽¹¹⁾، للرجال والنساء والأسر التى قبض ثمن إنقاذهم من الحكومة المصرية، فمارس متعة التنكيل والبطش.

بعد خمس سنوات وفى 1889 سيهذى الملازم إبراهيم حليم وهو ممدد على فراش الموت برتبة صاغ، داخل إرسالية التبشير البريطانية والحمى تفتك به، يرى الأنياب الخمسة التى ألقاها الساحر تحت أقدامه، بروح "لوتانزيغا" المنتقمة، والحياة تغادره إلى الأبد، إذا لم تكن غادرته بالفعل فى قاع بحيرة "لوتانزيغا".

ها هي زوجته التى لم تنجب له تغادره دون وداع، دون أن يشفع له أنه أوقف كل ماله على خدمتها، ودفع إلى الزنبارين كى يبنون لها كوخا فى كل بقعة تنزل فيها، وهي فى طريق العودة إلى الوطن، وكتب عليهم عهدا ألا يتوقفوا عن حمل محفتها حتى بلوغ ساحل زنجبار، حيث تنتظرهم الباخرة التى ستقلهم إلى مصر، وعندما مرض، تركته ملقى على أرض أفريقيا، وتابعت سيرها دون نظرة وداع.

بعد خمس سنوات وفرائص حملة الإنقاذ ترتعد، والسيد ستانلى يسحق أفرادها، ليترك آباء أبناءهم دون دموع، دون أن يلتفتوا إلى الوراء، لحفر قبور لأحبائهم، وستغادر الروح إبراهيم حليم، وهو يهمس لخضرة دون غضاضة، "غفرت لك"، تلك كانت آخر كلماته التى لم تسمعها.

بعد خمس سنوات سيتذكر يوزباشى عبد الواحد مقلد، الذى جاء المديرية الاستوائية عقابا له على انخراطه فى الثورة الدستورية الأولى، وهو يودع الحياة فى المكان الذى مات فيه صديق عمره إبراهيم حليم، دعاء الصبية التى ابتهلت إلى الرب يسوع والسيدة العذراء أم الإله، أن يعيده إليها من السماء أو الجحيم، كى يعيش بين أحضانها خمس سنوات كاملة، أهدته فيها نعيما سماويا وملذات فردوس الرب، جعلته يستقبل الموت

11 (هنرى مورتون ستانلى: Sir Henry Morton Stanley قائد بعثة الإنقاذ التى أرسلتها الحكومة المصرية فى عام (1887-1889) لإنقاذ قواتها فى المديرية الاستوائية، ساهم فى وضع أوغندا تحت دائرة النفوذ البريطانية

بترحاب، لأن الله أمد عمره بعد ثورة روح بحيرة "لوتانزيغا" وسحرتها على من حاول فك طلاسم ألغازها، وأهداه عمرا آخر، الآن يغتاله الموت بين يدي الملاك الذي تاه به وجدا، وتيم به عشقا، وهو ممدد لدى المبشرين الإنجليز بجهة (كيتيجا) جنوب بحيرة فيكتوريا فى إرسالية مستر مكى التبشيرية الواقعة قرب قرية أنكولة⁽¹²⁾.

أمسك بكفها وابتسم ابتسامته التى فتنتها، والتى تحوى سحر براءة الطفولة والرجولة الفاجرة معا، سألها أن تعده قبل أن تغادره أنفاسه إلى الأبد، بأن تأخذ طفليه إلى أبيه وأمه، وأن تحيا مع عائلته فى المنصورة، ستحتضن رأسه بين نهديها، والدموع تختلط بابتسامتها اليائسة، وهي تؤكد أنها ستفعل، لحظتها سيشهق أنفاسه الأخيرة، فى رحاب عشقها المفرط، وابتسامتها الواسعة التى تشيع الدنيا ببهجتها، ستبكي بكاء مريرا وهي تودع مرقده الأخير فى رحاب أفريقيا وفردوسها السماوى، وترحل تضم طفليها فى كنفها، وعلى وجهها غضب وحنق، ورضا وقناعة، بالعقاب الذى أوقعه الرب، صاحب المجد السماوى على خطيتها.

* * * *

12 (محلة أنكولة: Nkole)



رست الباخرة الخديوى على مرفأ "ماجنجو"⁽¹³⁾، بجوار الباخرة "نيازا"⁽¹⁴⁾،
والحمالون (يعتقون) الأخيرة بالجزية المقدمة من مملكتى أوغندا
ويونيورو إلى الحكومة المصرية من العاج، وهدايا من غرائب الطيور
والحيوانات الناطقة بلغات الله السبع، والتى لا يعلمها سوى سليمان
الحكيم.

سلم اليوزباشى تقريره إلى مكتب بريد "ماجنجو"، ومكاتبات
ضباطه إلى زملائهم العراقيين، وجلست خضرة مهمومة لا تجيب على
تساؤلات صديقتها، بعد جهد قالت بصوت واطئ:

- "مش عاوز يحبنى".
- يا مجنونة، ده بي موت فيك.
- "عارفة أنه بي موت في، بس مش عاوز يحبنى".
- بيحبك ومش عاوز يحبك، أنت ح تجننني، مش فاهمة حاجة.
- "طبعاً وأنت إيه اللي ح يفهمك؟"
- خدينى على قد عقلى وفهمينى، معلىش أنا أختك برضه.
- زهقت أقول "حبنى نوبة"⁽¹⁵⁾ يا إبراهيم افندى، يقول مقدرش أنت أمانة
فى رقبتي، أقول إيه لخالى.
- يا بنت الإيه، عايزاه يبوسك.
- وحضرته عامل فيها أخلاق.
- الأخلاق متزعلىش حد، وأضافت وهي تهر بضحككتها الواسعة: بس يا
أختى معاك حق، راجل زيه يخلى البنت تموت عشان يبوسها.

13 (مرفأ "ماجنجو": يقع على مصب نيل فيكتوريا في الطرف الشمالى الغربى من بحيرة ألبرت

14 (الباخرة نيازا: عملت الباخرتان الخديوى ونيازا على الخط ملاهى التابع للحكومة المصرية بين "دوفلاي"
والبحيرات العظمى

15 (حبنى نوبة: تعنى في الفصحى قبلنى مرة.

طقطقت مستنكرة: مش قصدي، أنا عايزاه يشعر بالذنب، ساعتها مش ممكن يسبنى.

- يا لهوى يا خضرة، وليه اللف والدوران ده؟
- "لف ودوران إيه، وأنت إيه اللي فهمك، قومي يلا ننام."

تمددت أنجي تتقلب على فراشها، تفكر في مذاق القبلية، في بهيم الليل سارت إليه منومة، وقالت دون صوت... حبنى واهجرنى زى ما أنت عاوز، آخر حاجة ممكن أفكر فيها أنك تشعر معاى بالذنب.

غادرت البعثة "ماجنجو" سيرا على الأقدام، ارتفع الضياء الاستوائى يستر جبال الكونغو، وأشرق النيل قادما من بحيرة إبراهيم، وانبعثت من حواف الغابات قطعان من مردة أسطورية، سارت الهوينى نحو النيل، تتقدمها أنيابها العاجية، وعلى ظهورها سحرة يتخذون هيئة بلاشين بيضاء، يحتفى الصغار بين سيقان أمهاتهم قرب الضروع المحملة باللبن، ويجمع الآباء الطعام من لحاء الأشجار وثمارها، على شفير النيل غاصت أقدام القطيع، تمد خراطيمها إلى الأسيل لتشرب، وترش ظهورها بأريحية واستمتع.

وقف فلاح الوادى مذهولا أمام الفردوس الذي حشده الخالق بألوف من كائناته المسخرة لعبادته؛ أبقار ماء، وأفيال وتماسيح، تظللها أسراب الطيور، يصدحون في جوقة الصخب البدائى، للحياة التى تولد فوق المياه السماوية، وكأن الله انتهى لتوه من خلقه، صعد من الأفق لهب أرجوانى، وسط توترات من سبائك النار، تسترها أغصان أشجار الطلح.

ما هو

الفردوس إذن ؟

تلاشت الأحراش، وضاق الوادى، وانحدر النيل بمحاذاته، من بعيد بدت الباخرة الخديوى على مرفأ "ماجنجو"، وكأنها سفينة نوح تتأهب للإبحار.

قفزت الفتاتان، وانطلقتا وسط الأحراش، تتابعان قطعان الفيلة، ابتسمت أنجي لفيل صغير بسعادة، رفع خرطوميه، ورشها بالماء، ضحكت واقتربت تعطيه إصبع موز فأخذها يهور سعيدا، لمست رأسه، ودون توقع هل

عليها الخطر، ووقفت أمه تنهم⁽¹⁶⁾ في وجهها بتهديد، ارتجفت لا تفهم ما يحدث، احتوى خصرها بكتلتا يديه، وهمس في أذنها ألا تتحرك، مرت لحظات ترشف الأمان من حضنه الذي احتواها، والأم تدفع ابنها مبتعدة للحاق بالقطيع.

* * * *

في عتمة البكور⁽¹⁷⁾ تسلقوا أراض وعرة، تدمدم تحت أقدامهم، وكون يهاجمهم بضجيج وصخب، وفي ظلال السحر كشف الفضاء عن وحش أسطوري يصل السماء بالأرض، يندفق عتيا مدمرا، ناثرا الزيد، يصب سيوله العاتية في عقيق⁽¹⁸⁾ من خانق صخري، وكتل صوان، وكأن يد الله تدفع به دفعا للهبوط من السماء، فقد تأخر على مخلوقاته.

يأتى الملك الإله من الهضبة الاستوائية العليا، متوجا بآلاف من بلورات حجر الطلق⁽¹⁹⁾، تشظت مكونة هالة من ألوان الطيف، ينحدر محمولا فوق عمد خيزران عملاقة، معرشة بسحلبيات تفيض أزهارها بجمال ملائكى، وهالة من غبار الماء، ليهوى من حائق إلى عرشه.

غاب بقر الماء سيد العشب والنهر، وغابت أسراب الأسماك، ولم يعد الإله سوبك يلهو بقتل فرائسه، واختفت حيوانات البرية، يا الله سبحانك... غابت الأراضي الغرينية الحمراء، ليبقى سر الحياة، قادما من عتبات الجنة؛ مدثرا عريه بسعف سرخسيات يانعة الخضرة، يحل على الكون الخشوع في حضرة النيل الخالد.

التقطوا أنفاسهم على الهضبة العليا لشلالات "فاجاو"⁽²⁰⁾؛ وخيموا لتناول الغذاء، حملت الفتاتان طعامهما، وتوارتا عن الأنظار في أية بكر، افترشتا على حافة الشلال بسطا من السحلبيات، باغتت خضرة صديقتها ولكزتها، كى تقوم من جوارها، صرخت غاضبة عاوزه إيه،

16 نهيم: صوت الفيلة.

17 البكور: ما قبل طلوع الشمس

18 العقيق: الوادي الذي شقه النيل قديما فأنهزه. الوادي.

19 الطلق: حجر شفاف يشظى إذا دق.

20 شلالات "فاجاو": أطلق عليها المستكشفون الأوروبيون شلالات "مرشيزون".

أروح فين؟" تجاهلتها وابتسمت ابتسامة واسعة للملازم إبراهيم القادم من خلفها، قامت أنجي وتوارت إلى مكان يتيح لصديقتها خلوة تريدها، إلى خلوة لم تبحث عنها.

جلست أنجي أمام مقلد مستغرقة في التفكير، تحاول أن تستجمع شجاعته، وطوال تناولهما الطعام ظلت مخفضة الرأس، تتحاشى النظر إليه، في طريق عودتهما، سأله بخجل أن يقبلها.

- نعم، عاوزة إيه؟

- ممكن حضرتك تبوسنى.

- ممكن.

أغمضت عينيها ومدت شففتيها نحوه، اقترب منها ولثمها برقة، تراجعاً، وكل منهما يتجنب النظر إلى الآخر، انتظر أن تنفجر فيه بالغضب، لكنها قالت وهي تنظر بين وجهه والأرض تفكر في أشياء غامضة:

- ممكن تعمل ده تانى؟

- تانى! طبعا ممكن.

مال كل منهما نحو الآخر، يتذوق طعم شففتيه، شعرت بالأرض تميد تحت قدميها، لما أوشكت على الوقوع، تماسكت وانتحت جانبا، سألتها:

- "إيه وحشة قوى... مش عجاك؟".

لم تكن تستمع إليه، عادت مرغمة، وشبت بشففتيها مغمضة العينين تبحث عن شففتيه، أخذ وجهها بين يديه، وانسل يقبل عينيها واحدة بعد أخرى، وعندما عاد يقبل شففتيها كانت تحلق فى النعيم.

دفعته وهي تشهق، وجلست على صخرة، تمنع نفسها من السقوط، جلس جوارها فاستدارت نحوه، وهي تري أن عليها أن تقدم تفسيراً لما فعلته، ارتجلت ما تقوله، مثل إنها لم تتوقع أن يستجيب لسؤالها فور طلبها.

- لا، بجد أنا غلطت!؟

- لا لا. وأضافت وهي تلهث، أن خضرة أخبرتها أنها طلبت من إبراهيم أفندى مرارا وتكرارا أن يقبلها، لكنه رفض، لأن أخلاقه لا تسمح له أن يقبل من أوّمن عليها، لكن أنت....

- قصدك إيه! أنا معنديش أخلاق... هي دى آخرتها.

اختنقت تحاول أن تعبر عما لا تستطيع التعبير عنه، ولما عجزت عن التنفس، سقطت فوقه واندفعت تهصر شفثيه بعنف، وهي تردد:
- أيوه معندكش أخلاق... "طبعاً معندكش أخلاق خالص".

* * * *

أنهت البعثة عملها في شلالات "فاجاو"، وغادرت إلى الأراضي العليا للهضبة الاستوائية، تقدمت المحفتان عبر حقول الذرة والتبغ، وبين قطعان الجاموس يسوقها الرعاة من قبائل العاميرا، لاحظت خضرة أن صديقتها تترنح كالمنومة، ألقتها على حين غرة بقدر من الماء، انتفضت أنجي:

- آيه فيه آية؟

- مالك مدهولت ونايمت على نفسك؟

- خالص، أنا صاحبة أهه. عايزة آيه؟

- ولا حاجة.

خطر لأنجي أن تحكى لها ما يشغلها، فسألتها إذا ما كانت قد حصلت على مرادها من إبراهيم أفندي، فردت بالنفي، هزت رأسها حزينة، وغمغمت بأن عبد الواحد أفندي معندوش أخلاق، أصيبت خضرة بالدهشة، عادت تستوثق مما تقوله، عن الشاب الذي طالما اجتمعاً على أدبه ورفعة أخلاقه، أعادت أنجي ما أومأت إليه منذ قليل.

- طب ليه قولي؟

- أقول آيه؟

- ح تخبي عليه؟

- أنا ... أبدا.

- عمل معاك حاجة؟

- قلت له بوسني، متنهاش، راح بايسنى على طول.

- بتقولى إيه؟

- والله زى ما بقولك كده.

- أنت اللى طلبت منه؟

- أيوه... أنا حتى قلت له إبراهيم أفندى رفض يبوس خضرة.

- أما أنت قليلة الأدب، أزاى تقولى لشاب يبوسك.

شهقت أنجي، فكرت أن تقول شيئاً، لكنها اعتصمت بالصمت، غادرت خضرة محفتها مبتعدة، وهي تطلع نحوها باشمئزاز، وشعوراً بأن علاقتهما لن تعود كما كانت من قبل، بينما أنجي تبكي نفسها.

* * * *

خط عرض ⁰1

برفق وألفة، وصبر وقسوة، وفي رحاب جلال وعظمة النيل، دخلت بعثة المساحة محلة "فويرا"⁽²¹⁾، ضاعت الغريفة، وانزوت الوحشة، وهم يؤدون التحية العسكرية للبيريقي الأحمر ذى الأهلة والنجوم الثلاث.

منذ أن دخلها الجيش المصرى فى عام 1872 ساد الهدوء والسلم بين القبائل، وانتشرت زراعة المحاصيل والخضر والفاكهة فى أرجاء الهضبة العذراء، بعد أن كفتهم القوات المصرية الدمار، الذي ألحقه بهم اقتصاد يعتمد على تجارة الرقيق، وحروب القبائل، وسلب قطعان الماشية.

ظلية صغيرة اندفعت نحو سيدة ضامرة يونانية الملامح، جاءت تلهث وراء زوجها الخواجة روفائيل اسطفانوس، الذي قدم مسرعا للقاء ابنته القادمة من دوفيلاي بصحبة بعثة للجيش المصرى.

وسط لقاء حار جمع أسرته الشيوخ الأشمونى والخواجة روفائيل، أخذت أنجي يد أبيها ناحية الضباط، حياهم بحرارة، وشكرهم على عنايتهم بابنته، لمحت أنجي وجه صديقتها يمتقع، وهي تتابع الملازم إبراهيم حليم يرحل مع زملائه، سمعتها تهتف "ح يسبنى يا امه".

همست أنجي فى أذن أبيها، تطلب منه أن يستضيفهم، موضحة أن إبراهيم أفندى حليم جاء ليقابل عمها الشيخ عبد الفضيل، ليطلب منه الزواج من خضرة، التفت الخواجة ناحيتها، وجدها تدفن وجهها الممتلى بالدموع فى صدر أمها، هررأسه متفهما، ومنذ تلك اللحظة لم يستطع أحد أن يشنيه عن استضافة البعثة فى منزله.

فى الطريق سالت الست تريزا ابنتها عما ترتديه، أشرق وجهها والتمعت عينها بالسعادة، واكتفت بجذب أمها ناحية ذاك الضابط صاحب الوجه

21 (فويرا Fauvera: كانت أكبر مركز لتجارة الرقيق فى الجنوب، دخلها الجيش المصرى فى 21 مارس 1872، فوجدها قرية من الأشباح يخيم عليها الخراب، بعد أن هرب الأهالي من تجار الرقيق الذين أحالوا حياتهم جحيما، رجب ملك مملكة "يونيو" بالجيش المصرى، مقدما كل المؤن اللازمة، معلنا دون تردد خضوعه للحكم المصرى.

البريء، والأدب الجم، والابتسامة الهائلة التى تشرق من عينين لعوبتين،
ارتجفت لها الأم، وهي تري شبح الكارثة التى توشك أن تحل بابنتها.

* * * *

لم يكن السرور حال الشيخ عبد الفضيل الأشمونى، الذى فوجئ
بقدوم عائلته دون سابق إنذار، على فراش الليل دار حوار ساخن مع زوجته،
اتهمها بقلّة العقل، ذكرته بالحوار الذى دار بينهما، يوم علما بقدوم
إبراهيم أفندى إلى عاصمة المديرية "لادو"، قال بصوت خافت وهو يركز على
أسنانه، أنه لم يكن يعلم بأمره، وتساءل كيف يمكن الموافقة على
زواج ابنته الوحيدة من ضابط أعلن العصيان على ولى البلاد الشرعى،
وصاحب النهى والأمربها، وأضاف أنها جنت فى عقلها، إذا ظنت أنه وهو
الشيخ الذى يأمر الناس بطاعة أولى الأمر؛ أن يضع فلذة كبده فى بيت
متمرد وثائر.

حاولت أن تعترض، دفعها بعنف، وسألها ساخطا كيف غادرت داره،
وجابت المديرية دون استئذانه؟ اعترافا البكم، ولدهشته غادرت الفراش،
وقالت بصرامة: بقول لك إيه، عصى الخديوى، عصى أمير المؤمنين، دا
كان زمان، والخديوى عفى عنه، وبعدين يعنى، يفرق عنا إيه؟ كلنا
فى المديرية الاستوائية، وعموما ده مش شأنى، اللى يهمنى بنتك، اللى ح
تبقى عانس هنا، جوزها النهاردة قبل بكرة، إحنا هنا من سبع سنين،
مدخلش علينا راجل يوحد ربنا. واستطردت بصرامة:
- "خلص الخطبة قبل ما يسافر، وبعدين لما يجى الجواز يحلها ربنا".

نبه زوجته أن "من خرج من داره، قل مقداره"، وأن خطوبة ابنته يجب أن
يكون فى داره، مش فى بيت نصرانى.
- كل اللى أنت عاوزه تبوظ الجوازة، بمخك الصعيدي الناشف.
كشر عن أنيابه: "رجاء يا بنت القواسين".
- اسم الله يا أشمونى. قلى بالله عليك، هو إبراهيم أفندى لوقعد سنة
وسط النسوان العرايا، اللى بالميات، وبلاش، ح يفكر فى بنتك ليه؟
- ما عنها ما تجوزت؟
- أستر بنتك يا شيخ يستر ك ربنا.

في مساء اليوم الثالث طلب الملازم إبراهيم حليم من الشيخ الأشموني يد كريمته، فأجابه أنه يفضل الانتظار لحين عودته من مازندى عاصمة مملكة "يونيور"، حيث سيقوم بعقد عدد من الزيجات لمحاربين من قبائل "البانيور" دخلوا دين الإسلام مؤخراً.

* * * *

افترش صحن الدار زوجتان مثلهما مثل زوجات أعيان الريف الموسرين، إزدان ساعدهما وساقاهما عدد وافر من أساور الذهب، وخلاخيل فضة، وبينهما كومة من كيزان الذرة، تفركانه وتلقيان بالحب في طست نحاسي، تنهى صوتاً إبراهيم وعبد الواحد أفندى قادم من الخارج، دعتهما الست تريزا للقدوم، نظرت إليها رجاء بعرفان، وهي تعدل من ثوبها.

أوقظت رائحة عناق إبراهيم بكنته، فى وجدانه رائحة أمه، التى غادرت حياته مبكراً، دار حديث استعادوا فيه وشائج ذوي القربى، وقرية الأشمونيين، واستعادة الست تريزا طفولتها في الأزاريطة، قبل أن تلتقي الشاب الصعيدي القادم من قنا، والذي لم يتركها إلا بعد أن عقد عليها نصف إكليل، وسافر فى طريقه إلى تجارة رابحة بالقدس وأنطاكية، وبعد عام عاد ليتزوجها.

دخلت الفتاتان كحضور عاصف، تحملان (ماجورا)⁽²²⁾ من الفخار، تفوح منه رائحة العجين الطازج، داهمهما ارتباك لوجود الضابطين، لاحظت تريزا أن جسد ابنتها يرتجف، وهي ترفع خصلاتها بيدها الملوثة بالعجين.

- يا لهوى يا أمه! مش تنبهينى إن إبراهيم أفندى هنا؟-

- ليه يا بنتى، ما أنت زى الحليب الطازة، يشوفك على طبيعتك، أحسن ما تيجى له صدمة بعد الجواز.

- صدمة! عقت تريزا، هو يطول، قدامه أهى، قمر اربعناشر.

- خالتى تريزا...! متكسفينيش.

هاجمت أنجي ابتسامة البراءة الفاجرة، أصيبت بالتيس، أشار مقلد إلى وجهها الملطخ بالعجين، وقام يزيله عن شعرها، ويعطيه لها.

22 (ماجور: إناء كبير مصنوع من الفخار، يستخدمه الفلاحون فى خبز الخبز الريفى).

تورد وجهها، ونظرت إلى أمها غاضبة، قالت الأم
لابنتها: "خشى يا عينيه اغسلى وشك وتعالى".
وهمست تحدث نفسها... يا حبيبتي يا بنتى... أنت
لست صغيرة على البهذلة... يا عذرا يا أم المسيح ...
نجينا من الخطيئة... دقت أنجي الأرض بقدميها
وهي تهمس: "وبعدين يا أم أنجي؟"

ناحسسه نا نذر
أذنه لمة صغرة حمار الدرة لمة
يا عذرا نا امر المرد
نجينا من الخطيئة...

- "وبعدين تعالى ساعدي أختك خضرة، لازم إبراهيم افندي
يشوفها وهي بتخبز، ويدوق خبزها"، واستطردت تستعيد هدوئها تحدث
مقلد: "ايوة يا عبد الواحد افندي، بناتنا بنات هوانم، والخدامين عندنا
كثير، لكن الراجل اللي ح ياخذ بنتنا ح ياكل من خبيز وطبيخ أيديها،
"صح ولا لا يا بنت فضيلة الشيخ؟".
- صح يا خالتي، هوده بقى فيه كلام؟

جلست خضرة أمام الفرن تمد عصا حديدة بخرقعة مبتلة بالمياه، تنظف
بها بلاطة الفرن، وتسال أنجي أن تسرع بالحضور.
زارت أنجي في وجه صديقتها، واستدارت تبتسم بعبوس لأمها، وغابت
لتعود بعد قليل وقد تأنقت وارتدت ثوبا من الحرير، يا بنتى ده ممكن...
أعطتها غطاء من الكتان، تنبها بأن تغطي ثوبها كي لا يتسخ.
- حاضريا أم أنجي؟

جلست الصبيتان أمام الفرن متوثبتان، تغردان بضحكات الفرح
العذرى، تقتطع أنجي بكفها من الماجور كتلة من العجين، وتلقى به في
مصبة من الحديد⁽²³⁾، تمسك بها خضرة، تدفع بها من فوهة الفرن، وترصه
بمهارة وسرعة، واحدة جوار أخرى، بعد أن يستوى تخرجه خبز بتاو⁽²⁴⁾،
تلقى به في طبق من خوص النخيل.

أختلس مقلد النظر إلى أنجي، اعترف أن للصبيبة وجهها من ابتسامة
عريضة منسوجة من الفرح والبهجة، نظرت خضرة إلى الملازم إبراهيم تسأله
إذا كان يرغب في تذوق خبزها، فلما فعل، لأكه معبرا عن استمتاعه
بشكل مبالغ فيه، سأل عبد الواحد الست تيريزا، عن قطعة من الجبن

23) المصبة الحديد: عصا من الحديد الطويل تنتهى برأس مخروطى في حجم قبضة اليد، وتستخدم في وضع الخبز
البتاو على بلاطة الفرن الملتهب.
24) بتاو: كلمة فرعونية قديمة تعنى خبز، والبتاو هو خبز من دقيق الذرة ينتشر بكثرة في ريف مصر حتى الآن.

حادقة، انتفضت تهتف "يا ضنى أمك يا ابني!"، قامت تجرى، لتعود وخلفها خادمة تحمل صينية من النحاس، وعليها أطباق الجبن القديمة والقريش والزبدة والقشطة والعسل النحل.

تدفق حديث عبد الواحد مقلد عن الشوق الذي يعصف به لأمه، وتوقفت ابتسامته الواسعة الناعمة الثقيلة، ولمحت الست تريزا عينى الشاب تسرحان، وقد حل بهما حزن شفيف، بين وقت وآخر تخرج أنجي، وتتبادل حديثا هامسا مع مربيتها دميانة، وتعود وقد تركت على وجه المربية علامات الاستنكار.

داهم السيدة تريزا الهم، وهي عاجزة عن تبين العلاقة التى تربط ابنتها بالضابط الشاب، "يا عدرا يا صاحبة العونة، فيه مصيبة جاية، بدا أنه لا توجد قوة ستقنع ابنتها بالفشل المحتوم، لهذا الذي يسمى عشقا لا محالة.

جمعت أنجي صديقاتها من فتيات فويرة؛ يرقص احتفالا بخطبة ابنة القاضى، وفى القاعة الخلفية وقفت الست تريزا تهاجم دميانة مربية ابنتها، بحثا عن سؤال وحيد؛ ماذا حدث بين ابنتها وعبد الواحد أفندى؟

* * * *

أمضى الضباط الليل، يسجلون أعمال البعثة، تسللت الفتاتان إلى الغرفة تحملان القهوة والشربات، كانت خضرة تطلبا، وقفت أمامه تهمس أنها تريده لأمر خاص، سألتها أن تنتظر، فخرجت غاضبة، شعر الملازم حليم بالخجل، ونظر إلى قائده باستحياء، سمعه يقول:

النيل. !!
أبكون ثعبان الجنة الذى أغوى آدم
وحواء بالهروب من ضجرها !!
سبحان الله

- أنت في ورطة، قوم شوفها عايزه إيه؟
- العمل عمل يا أفندم.

- كفاية كده النهارده، عندي مكاتبات مطلوب إرسالها لادو، لتعويض البعثة من الأفراد والمهمات، اللى فقدناها في بحيرة "لوتانزيغا"، قبل رحيله، كتب اليوزباشي الحسينى عبد الغفار ملاحظاته:

مجرة ﴿لوتانزفا﴾ تمتد على هيئة جرة⁽²⁵⁾ فخارية ضخمة، تقع في منتصف المسافة الواقعة بين مجرة السماء والأرض التي يسكنها البشر، وتعمل عمل مستودع عملاق يجمع فيه ماء السماء، الذي ينهمر فوق والفضبة الاستوائية وحوض الكونغو الشرقي والشمالي، قبل أن يصبها في جذع نيل بحر الجبل، وهو ثعبان عملاق، يتلوى في طريقه حاملا ماء الخير والنماء إلى مصر المحروسة فسبحان الله "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"⁽²⁶⁾.

اقتحمت خضرة القاعة نكده، أرجع حنقها إلى حبها له، وهو ضابط لن يعوقه ترويض فتاة صلبة المراس، بعد زواجه سيستعيد عبارة اليوزباشي، "أنت في ورطة"، فالفتاة التي اقترن بها في أصقاع أفريقية النائية، وابنة الخال التي اعتقد أن الله خلقها من أجله، ستحول حياته إلى جحيم، ويقضى سنوات عمره الباقية، وحتى موته لا يعرف مشكلة حياته.

* * * *

قبل أن يدلف عبد الواحد مقلد غرفته ظهرت دميانة، سألته أن يتبعها، على باب الدار الخلفى هاجمته رائحة محصول الطباقي النفاذة، اختفت العجوز ليظهر شبح يرف لفتاة تعبت الرياح بشعرها.

تعقبها وسط البراري، تسبقه كغزال يدعو الضواري لافتراسه، حملت الرياح إيقاع طبول المامبو يأتي من ناحية شونة الحبوب، دلف وراءها حيث اجتمع نساء ورجال قبائل "العاميرا" حول النيران، يغنون ويرقصون رقصاتهم الأفريقية، وقف حائرا، وامرأة سوداء تنظر إليه بتواطؤ، سمع صوتها يناديه، كانت تقف على العلية، صعد إليها، على حافتها هاجمته بصدمة أفقدته توازنه، ليجد نفسه ممددا بين جوانات الدقيق، ورأسها ونهداها مدفونان في صدره.

... أسئلة عصفت به... هل يحق لك أن تنال ما تقدمه لك صبيبة في حلاوة الشهد؟ هل يستسلم لدمها الحار ورغباتها المشتعلة، هل يحب فتاة لا

(25) إبريق فخاري: إناء لشرب الماء يستخدمه الفلاحون في الريف.

(26) سورة الشورى- 11

يستطيع الاقتران بها؟ كيف يسمح ضميره خيانة صاحب الدار الذي
استضافه فى منزله؟ همست بدموع سخية:

- "أنا وحشة؟"

- "أبدا! مين قال كده!."

- امال ليه ما بتحبنيش؟ ... أنت بتحب حد تانى؟

ضربت رأسها بيدها وهتفت:

- يا بختك المنيل يا أنجي.

- "ماله بختك؟"

- أهه... واضح زى الشمس.

عندما ابتعدت عنه، شعر بأنه فقد جسده معها، وأن جحيم الشغف
استحوذ عليه، ارتكن بظهره على جوانات الحبوب، يحاول أن يعى ما
يمنحه له هذا الجمال الذي خلقه الله من نوره، كانت جواره تجلس منهاره،
تسند رأسها فوق ركبتيها وتهدر بالبكاء، مسد رأسها يهدئ من روعها،
انتشرت الرعشة فى جسدها، دفنت رأسها فى صدره، ومنذ تلك اللحظة فقد
الملازم هناة البال... لهب ساخن انساب إلى صدره من يمامتين تخفقان فى
قفصهما طلبا للطيران، سمعها تطلب منه أن يأخذها، رجع إلى الخلف
مذعورا:

- "بتقولى إيه؟"

- خدنى... أنا مش ح أحب حد تانى... خلاص مش ح أحب غيرك.

فركت جبينها فى عنقه، ويده تمسح دموعها، بكّت بهستيريا،
وأظافرها تخمش صدره، وعيونها تمتلئ بفرع يهتف به أن يرحمها:

- "ح أموت... أنت ح تمشى وتسيبنى، وأنا عارفة مش ح أشوفك تانى..."

مفيش لى غير أمنا العدرا، لو أقدر أرجع مصر، رجعى مصر."

- عاوزة ترجعى مصر ليه؟

- ادخل دير أمنا الوالدة الطاهرة.

- يا بنتى أنا أصلا منفى من مصر، أرجعك أزاى؟

- مفيش حد ح يلمسنى غيرك، ح انتحى من بعدك، ما ليش دعوة. أنا

عاوزة ادخل الدير، أوهب نفسى للسيد المسيح عليه يغفر لى."

- "يغفر لك إيه يا بنتى؟ هو أنت عملت حاجة؟"

- عشان أنا فكرت فى ارتكاب الخطية.
- فكرت بس! يا سلام، ما كلنا بنفكر. أضاف مبتسما:
- وبعدين مين فى جمالك، وبهجتك، ودمك الحامى، وابتسامتك اللى زى المدفعية دى، وما يفكرش فى ميت خطية؟
ابتسمت للمرة الأولى، سألته وفى صوتها رنة رجاء والحاح أن يحتضنها، نامت على صدره كطفل وديع، وهو يتملى وجهها المتسع كقمر يفيض بالابتسام، للحظة استيقظت، غمغت:
- "أنت لسه صاحى يا حضرة الضابط؟".
- "ومين ينام فى حضرة القمر".
- يا سلام... مخبى الكلام الحلو عنى فين؟
- مجاش وقت مناسب.
- يعنى أنت بتحببنى؟ قالتها وعادت للنوم قريرة العينين، دون انتظار إجابة.

* * * *

راوغ الشيخ محاولات الجمع بينه وبين الملازم حليم، حتى اضطرت السيدة رجاء أن تلجأ إلى السيدة كى تو عزل زوجها أن يجمعهما، فالتقى الضباط بالشيخ على مائدة عامرة بلحم الغزلان، حضرها السيد محمد بري الطرابلسى، وقومندان فويرا الملازم أول "أويونيمبا"، كان ثلاثتهم منهمكين في حديث باللغة السواحلية المحلية، أخبر الخواجة اليوزباشى أن الشيخ الأشمونى والسيد برى يعرضان على القومندان الإسلام، وأضاف أن للشيخ والسيد برى صولات وجولات في الدعوة، وقد دخل الكثير من أهالى البلاد الإسلام، بفضل إجادتهما لغة أهل البلاد.

تسأل اليوزباشى إذا كان للكنيسة القبطية مبشرين فى المديرية، أجابه بأنه لم يسمع بأفريقى أعتنق الأرثوذكسية القبطية، وهي فى ذلك تشبه اليهودية التى اقتصرت على اليهود، بينما تبشر إرساليات الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية فى أرجاء العالم، وأضاف:

- هذا الشيخ يساوى لمصر أورطه عسكرية.

- للدرجة دى!

- صداقة ملوك أوغندا و"يونيور"، وزنبار، أفادت الحكومة المصرية، وأفادتنا أحنا تجار خط الاستواء، صداقته معناها حقوق للتجارة، حماية القوافل، معناها سوق للبيع والشراء.

شفت وجوه الضباط بالراحة، وازدادوا تقديرا للشيخ، وعندما رحل قومندان فويرا، بدا الوقت مناسب للمأمول، دعا الخواجة الخادم لإحضار الشربات المسكر، وتبادل حليم وقائده النظر، فعزم اليوزباشى وتوجه إلى الشيخ بالحديث يطلب يد ابنته الأنسة خضرة إلى الملازم إبراهيم حليم.

غمر الفرح النسوة اللائى وقفن يسترقن السمع وراء الأبواب بانتظار الإعلان عن الخطوبة، وفى الداخل تطلع الجميع إلى الشيخ الذى أراح رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، سأله الخواجة بحرج إذا كان متعبا، فهرّ رأسه نفيا، وهو يكبح نفسه عن أن يسأل اليوزباشى. لماذا يوافق على زواج ابنته؟ قال منفعلا وهو يقاوم صراعا داخليا:

- يا ابنى أنت فاجأتنى؟

شعر اليوزباشى بالحرج، تبادل نظرة تساؤل إلى الملازم حليم، قال:

- الملازم إبراهيم حليم كلم حضرتكم؟

- أنا مقلتلوش أنا موافق.

- "يبقى فضيلتك خصتني بالشرف".

هرّ الشيخ رأسه نفيا، تغير وجه إبراهيم حليم، ووضع رأسه فى الأرض، تشجع اليوزباشى "يا فضيلة الشيخ، معكم حق، أراى إبراهيم أفندى يلجأ لى، وأنتم له فى مقام الوالد، إذا حل الماء بطل التيمم.

تدخل الملازم عبد الواحد يحاول رفع الحرج عن صديقه:

- "يمكن فضيلته محتاج وقت للتفكير، أو عاوز يراجع أهل الدار".

غلى الدم فى رأس الأشمونى، واعتبر العبارة إهانة تحمل تهديدا بفضيحتة، فالجميع يعلم أن زوجته وابنته سافرتا على متن سفينة الجيش، بصحبة إبراهيم حليم، لعن النساء، وقذف إلى اليوزباشى بما تخرج قوله:

- "حضرة اليوزباشى ادينى سبب كافى عشان أدى بنتى لراجل حكم عليه بتهمة العصيان".

سقطت خضرة منهارة، وأصيب إبراهيم بصدمة، وهو يكتشف أنه مطارّد كمجرم، وضحك يخفف من وقع الأمر "يا خال أنت نسيت أن الخديوى ألغى الحكم، والا ما كنتش قاعد قدام فضيلتكم هنا".

- "أنا عارف إن رحمة مولانا واسعة".

تدخل اليوزباشى: "فضيلتك توجه اتهام لكل الضباط اللى شاركوا فى الثورة، إحنا طلبنا العدل والإنصاف، وخسرنا كثير؛ منا من قتل، من سجن، من جرد من رتبه وأملاكه... مش عارف ابدأ من فين؟ ممكن أتججج بظلم الضباط الشراكسة للمصريين، معاملة الأجانب للفلاحين معاملة

العبيد، سرقة حصّة مصر فى قناة السويس، يا مولانا كنت فاكرا إن قضية الثورة واضحة، أول مرة نواجه مصرى فاضل شايفنا عصابة مجرمة.

فى القاعة الخارجية تملصت خضرة من أمها، وقامت منهكة، وفتحت باب المضيفة، وانسلت إلى الداخل، افترشت الأرض مستندة بظهرها إلى الحائط فى مقابل الضابط الشاب الذي حلمت بالزواج منه، تزيل خصلات شعرها المسدل على جبينها، لتبقى دموعها شاهدا على ما تعانيه.

أثار دخولها المباغت للأعراف ارتباك
المرأتين، وشعر اليوزباشى بعبء فى وجود
الفتاة التى وضعت آمالها فى المراهنة على
حججه فى إقناع والدها.

ضابط مجنون..

فاكر ياكل بعلم حلاوة.

بعد دقائق انسلت الصبية الأخرى لتجلس على بعد ذراع من صديقتها، تبادلتا النظر من وراء دموعهما، وكلتاهما تحاولان ألا يفضح بكاؤهما عن وجودهما، استطرد اليوزباشى:

- "الاستبداد لا يكتفى بسلب حقوق الناس، وما يصنعه من فقر وحرمان لجموع الشعب، وإنما يكون مشغولا بقمع الحريات.

- "يا حضرة اليوزباشى، العامة والغوغاء تنتهك الحرمات، الناس لا تبالى بواجباتهم، أنتم تحلمون بأن يولى عليكم أمراء فى مقام الخلفاء الراشدين، وهذا بعيد المنال، فالله يولى الرعية ما يستحقون.

استنكر مقلد: "فضيلتكم تحملون الشعب مخازى الخديوى".

- يا بنى الخروج على الحاكم شرما بعده شر، فعلى الناس لولاة الأمر التوقير والطاعة، لأن التقليل من شأن الحاكم مفسدة للشريعة، ومفسدة للأمن، وعندما تشيع الفوضى، تضع مكانة العلماء، وتسقط هيبة الأمراء، فنرى الجاهل يقول أنا الحبر الفهامة والعالم العلامة، والبحر الذي لا ساحل له، ونرى كل ضال جهول يظن أنه الأمير، فإذا قلت لواحد من أمثالكم، أن مولانا الوالى أمر بكذا، قلت لا طاعة له علينا لأنه مخل بكذا، وأنا أقول عليكم تفقهون، حتى لو أخل أفندينا الخديوى فى أمر،

حتى وإن شرب الخمر، وعاقر الفسق، فذنبه عليه، وإنما نحن مأمورون بالسمع والطاعة.

قاطعه إبراهيم حليم بفرع: "معقول يا خال! شرب الخمر، وعاقر الفسق".

تجاهل الشيخ نبرة المصالحة التي أبداهما إبراهيم وكرر القول:

- حتى وإن شرب الخمر، وعاقر الفسق، قال خديجة بن اليمان: قلت: يا رسول الله، إنا كنا بشر، فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي، ولا يستثون بسنتي، سيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قلت: يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع الأئمة، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع، وأضاف الأشموني فما بال عرابي البارودي من قول رسول الله.

تدخل إبراهيم بعفوية وصبر: "يا خال، أنتم العلماء لكم الشريعة، تدعون بها الناس لأداء الفروض، والدعوة للمعروف والنهي عن المنكر، أما نحن إنما نطلب الحرية، ولا نقبل أن نكون عبيداً لمخلوق".

بتقول كلام حلوياسي إبراهيم.
رد عليه متسكتلوش.
ده أبوي أنا عارفاه.

- "هو أنت ح تفهمنى اللي أنا فاهمه؟".

قال الیوزباشی: "لو تأذن لي فضيلتكم، إنما الطاعة في المعروف، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"**⁽²⁷⁾.

رفع الشيخ يده، والغضب على وجهه، يطلب من الیوزباشی التروى، إذا كيف لهؤلاء الأدعياء حاجاته في علوم الدين، وهو القاضي والفقيه الدارس لعلوم الفقه والشريعة، قال:

- "بسم الله الرحمن الرحيم، ربنا آتينا بما يشرح قلوبنا، ولا توردنا مورد التهلكة، إنك غفور رحيم، حضرات الضباط سأتلو عليكم الجواب القطعي على خروجكم على شرع الله، أنتم وأشياعكم من العصاة

(27) في الصحيحين

العراقيين، جاء في مسلم، "سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله فقال يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا فأعرض عنه، ثم سألته فأعرض عنه، ثم سألته في الثانية أو في الثالثة، فغذبه الأشعث بن قيس وقال اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم."

في هذا الحجة القاطعة على من يخرج على الحكام، وأنتم خرجتم على مولانا الخديوى المنصور من السلطان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين عبد الحميد خان الثانى، عن أبي هريرة - رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول: "من فارق الجماعة، وخرج من الطاعة، فمات فميتته جاهلية، ومن خرج على امتي يضرب برها وفاجرها، لا يخشى مؤمنا لإيمانه، ولا يفي لذي عهد بعهد، فليس من امتي، ومن قتل تحت رايته عمية يقضب للعصبية، أو يقاتل للعصبية؛ فقتلته جاهلية." (28)، لأن الخروج على ولاة الأمور يسبب فسادا كبيرا وشرًا عظيمًا، فإذا كان الخروج على ولى الأمر يسبب شرًا أكثر، فهو لا يصبح رعاية للمصالح العامة، والقاعدة الشرعية المجمع عليها "أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشد منه، بل يجب درئه بما يزيله ويخففه".

قال مقلد: "لولا تمرد العسكر لبقيت الأحوال على ما هي عليه من مظالم ومفاسد وما تغيرت، ولكن الأوضاع تحسنت بالجملة"، وأضاف إبراهيم: "الخديوى يوعد ويخلف، وزى ما أنت عارف يا خال؛ آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، كل اللى تقوله فضيلتكم لا غبار عليه، فهو فى صميم الإسلام، واللى بنعمله برضه من صميم الإسلام، العدل والإنصاف والحرية، ولو فى عيب تحملنى، ولك على طاعة الابن لوأله."

قال الشيخ بانفعال: "وأنا أقول لك يا إبراهيم أفندى إذا كنت من الطائفة التى تريد إزالة السلطان الذى فعل كفرًا بواحًا، وترتب على الخروج اختلال فى الأمن، وإلى غير ذلك من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب السمع والطاعة فى المعروف، ومناصحة ولاة الأمور والدعوة لهم بالخير،

(28) رواه أحمد (296/2) ومسلم (1848)

وعلمى علم اليقين أن مولانا الخديوى مسلم ومؤمن وموحد، ولا يجوز الخروج عليه، نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق.

تدخل الحسينى: "يا مولانا بيننا خلاف كبير، بهذه الثورة سنت الحقوق القانونية للمصريين، وأنشأ هيكل قضائى لدولة عصرية، محكمة ابتدائية فى عموم مصر، ومحاكم جزئية، ومحكمتين استئنافيتين بمصر، وأسيوط، محكمة التمييز للنقض والإبرام بالقاهرة، وإنشأت النيابة العمومية، وحصن القانون القضاء من سلطة الحكومة، بعدم جواز عزل قضاة المحاكم، وجعل شريف باشا من مجلس النواب المنتخب جمعية تأسيسية لمناقشة وإقرار الدستور، وعموماً أحنا بنتكلم عن عقد قران، وليس حرباً بين دولتين عظميين، وفى هذاؤكد، أن هذا الشاب لديه من مكارم الأخلاق، ومناقب السجايا ما يجعل نعم الزوج لابنتكم.

شعرت خضرة بالسرور، وقد أعاد اليوزباشي الحديث لمساره القويم، واستأذن مقلد قائده فى الانصراف، وقدم تحيته إلى الخواجة روفائيل، وتجاهل الشيخ مغادراً المكان.

ندت شهقة من خلف الرجلين، وانتفض جسد أنجي وهي تسرع باللاحاق بالملازم عبد الواحد مقلد، لم يفهم الخواجة روفائيل ماذا تفعل ابنته وراءه، وكم مضى عليها من الزمن تستمع لما يجرى.

تابعت تريزا ابنتها وهي تقف مع عبد الواحد فى نهاية ممر الدار، تتبادل معه حديثاً مشحوناً بالتوتر والبكاء، وخوفاً من الفضيحة عزم الشيخ الذي عرف أن ابنته تختفي وراءه، أن ينهي الأمر، فقال:

- صاحب الحق يكفيه كلمة، وصاحب الباطل لا يكفيه مداد ملئه البحر، فمثلكم مثل الخوارج، وحكمكم مثل الخوارج، قال ابن تيمية فى الفتاوى⁽²⁹⁾، فإن الأمة متفقون على ذم الخوارج وتضليلهم، وإنما تنازعوا فى تكفيرهم، فكان فيهم وجهان: أحدهما؛ أنهم بعاة. والثاني؛

(29) الفتاوى (518/28)

أنهم كفّار كالمرتدين، يجوز قتلهم ابتداءً، وقتل أسيرهم، واتّباع
مدبرهم، ومن قدر عليه متهماً استتيب كالمرتد فإن تاب وإلا قتل.

انتفض إبراهيم من مقعده، هتف والحنق يلفح وجهه:

- أنت يا راجل بتخرف بتقول إيه؟

أخذه اليوزباشى إلى خارج القاعة، وفى الداخل سُمع صوت الصفعات
والركلات تنهال على خضرة.

* * * *

اليوم وصل بريد لادو حمل مكاتبات من أمين

كانت رسالة فرانسوا تخبره
إنها هزعت على الزواج من
كاتبته كازانى رغم أنها علمت
بوجود ابنة له اسمها
أزهدالدا. وأنها فى كل
الأحوال ترسل له قبلا
حارة وهم شهوة شديدة له

بك تحوى تهنئة للملازم إبراهيم حليم،
ومكافأة لخطوبة لم تتم، وخطابات من إقليم
الرول، من الملازم خلاف لأصدقائه العربيين،
ذكر فى خطابه إلى اليوزباشى أن خلافا
قويا نشب بينه وبين قومندان الرول محمد
افندى الصياد، بسبب طريقته الشاذة التى

يتبعها فى جمع السلاح من القبائل، وقد تأكد

له أن هناك ضغينة لدى القومندان لقبائل الأجار، الذى

اتهمهم زورا باللصوصية، وأصر بطريقة جائرة على اقتحام القرى، وإخراج
النساء والأطفال منها تحت النيران، وفتش الأكواخ بحثا عن السلاح، ولما لم
يجده، جمع الفؤوس والبلط وتفتيش الناس العرايا، فألقى الرجال الخرق
عن عورتهم، وبكت النساء والأطفال، وقال زعيمهم، أن محاربى الأجار
ارتدوا هذه الوزرات إرضاء للحكومة المصرية، فلا داعى لأن تكون مدعاة
للإهانة.

وأردف خلاف، أن ثورة الرول لن تهدأ، وسوف تسوء الأوضاع قريبا.

حاشية: "فقدت ابنا لى قبل أن يولد أثناء قمع تمرد الرول، وأن من دواعى
حزننى، أننى تسببت فى ألم شديد لزوجتى، وهى لن تغفر لى فقدان جنين
فى الشهر الخامس، أتمنى لو يعود الزمن بى إلى يوم غادرت الحملة مرفأ
القناطر الخيرية، وهى تأتى هاربة من أهلها، وهو ما لم أقدره، وأقسم لكم

حضرة اليوزباشى ليس عن سوء نفس، ولكنه الجبن الذي تعلق بالخوف عليها، وعلى ابنتنا فريدة من مجهول. وأعلم حضرتكم أننى لم أفهم مخاوفى إلا بعد أن علمت بموت الجنين فى رحمها، لكن أسوء ما حدث لى عندما تفوهت بالقول إننى أخشى موتى وتركهما للمجهول فى أراضى يأكل فيها لحم البشر، ويساق الأسرى رقيقا يباع ويشترى، فقفزت فى وجهي، وكشفت عن أنياب لوحش ضارى، وهي تقول:

- "الضابط الذي لا يعلم أن الموت ظلله، ليس ضابطا... الضابط الذي لا يعلم أن الموت قدره ليس ضابطا... الضابط الذي لا يبحث عن الشرف فى الموت ليس ضابطا... الضابط الذي يخاف على زوجته وابنته من موته فهو فلاح، لا يعرف شرف ونبالة الفروسية... وإذا كنتم تريدون جيشا لمصر، يجب أن تطردوا منه كل من يخشى الموت، ويعيش العسكرية بروح فلاح..."

لا افندم عندما تكون ضابطا ليس من حقك أن تفكر فى زوجتك، ولا ابنتك ولا أبوك أو أمك، لأن عليك أن تكون مستعدا لمواجهة الموت بشرف... الموت!! الموت تاج العزة والكبرياء على رؤوس الفرسان. وتركتنى وهي تبكي.

وكأنى أتعرف للمرة الأولى على المرأة التى تزوجتها، لماذا أقول ذلك، لأنك الأخ الأكبر لنا، وليس لدينا من نبوح له بهموننا، وأنا الآن أبحث عن الحياة معها، طالما أن الموت يحلق على رؤوسنا نحن ضباط سلاح الصوارى.

فى مساء ليلة الرحيل نامت الست تيريزا جوار زوجها، تحاول أن تنسى ما حدث فى عتمة الليل، عندما جاءتها دميانة تخبرها أن عبد الواحد أفندى يطلب لقاءها، فخرجت تتوقع مصيبة لابنتها، وجدته وحيدا تحت شجرة الجميز، يسألها أن تكون رسوله إلى السيد روفائيل، ليوافق على زواجه من ابنته، بكت الأم وهي تهتف:

- "يا أبني أزاى... ده مستحيل يا عبد الواحد أفندى. شيء سقط خلف شجرة الجميز، كانت أنجي قد وقعت مغشيا عليها.

* * * *

على مصباح زيتى كتب الملازم إبراهيم خطابا إلى الأشمونى، يوضح فيه ما ظن أنها أمور خافية عليه:

“مل يخفى على فضيلتكم أن الصراع الذي جرى فى مصر بين الحركة الوطنية والخديوى كان به عنصر ثالث، وهو المطامع الأوروبية فى مصر، وربما تعلمون أن

لو تعلمون
فضيلتكم

“ليون جميتا” رئيس وزراء فرنسا كان يكن عداء محمودا للحركة الوطنية، خوفا من أن تجتاح ثورتنا الجزائر، ثم تؤلب العالم الإسلامى على أوروبا، وعندما عقد مجلس النواب المصرى أول اجتماع، فطنت الدولتان إلى أن الخطر وشيك الحدوث، فوصفت بريطانيا مجلس النواب بأنه “جمعية من الجهلاء المتعجرفين والمتعصبين ضد الأوروبيين والمسيحيين”، ورفضت أن يكون له الحق فى مراجعة الميزانية”، ونصح القنصل البريطانى الخديوى للقبول باحتلال سريع وعاجل!!،

وعزمت أوروبا ألا تعترف بحق المصريين فى دولة

دستورية، وبرلمان على غرار مجلس العموم، أو جمعية توكولت البارحة دكوى وسفينة طورييد هكلا، وسفينة كشافة هلكون دك المواد 20: للنواب حق الرقابة على موظفى الحكومة جميعا ولهم أن يتقدموا إلى النظار بكل ما يرون ضرورة التحقيق فيه من تعد أو خلل أو قصور من أي موظف خلال تادية وظيفته.

تكفلت البوارج البحرية البريطانية بهدم

21: النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء.

أحلام المصريين، فشنت المدرعتان سويرب

وانفلكسيل⁽³⁰⁾ قصفا محكما حيثما كان

شريف باشا يدخل حاملا الدستور على الجمعية

العمومية للبلاد، ودمرت البوارج البريطانية

حصون الفنار ورأس التين والاستبالية، وأصلت سويرب

وانفلكسيل وأكسندرا وسلطان وتميرير⁽³¹⁾ قلعة الأطة نيرانا حامية

حتى انفجر مستودع البارود عاليا ليخيم الضباب والدخان على سماء

(30) سويرب Superb وانفلكسيل Inflexible
(31) الكسندرا Alexandra سلطان وتميرير Temerire

المجلس النيابي، فتسوذه الظلمة، ويحل به الخراب، وعاقبت المدمرات
انفسييل ومونارك، وبنلوب⁽³²⁾ المصريين على ما قدموه من حضارة
انتشلت الجنس البشرى من كهوف الظلام وصقيع ثلوجهم، بقصف
الانتخابات الشرعية وسحق النبهاء والمثقفون وطلبة الأزهر والمدارس، الذين
قاموا بشرح المبادئ والأسس الدستورية للفلاحين، وأنا أسأل فضيلتكم
سؤالا فقهيا فى مسألة الدخول والخروج، والبغى والكفر، التى رमितمونا
بها، هل يحق لضابط فى الجيش، أن يفتح أبواب حصون بلاده على
مصراعها للغزاة؟

* * * *

على مصب بحيرة إبراهيم⁽³³⁾ اندفع النيل من ارتفاع 1072 مترا، ثائرا
جموحا، يغالب أراضى صخرية تضيق خناقها، وانعطف إلى سيل جارف
على هيئة أنشودة، يطيح بكل من يحاول ترويضه، عابرا جنادل
وشلالات، ثم يخر بمهابة باتجاه بحيرة "لوتانزيغا" تستقبله البحيرة الملقاة
على هيئة جرة عملاقة، تنام على صدر البسطة السفلية للهضبة
الاستوائية العظمى، لتسلمه هادئا حكيما وقورا إلى مصبها الغربى
ليعود في بحر الجبل نحو الشمال؛ حيث طريقه الذي خلقه الله من أجله،
وسخر له نصف محيطات الأرض ورياحها.

رفعت البعثة البحيرة، ذات البسطة الممتدة 236 كيلومترا، تكسو
معالمها بساط من زهور (النيلوفر)⁽³⁴⁾ مرصعة بكؤوس ذهبية، تفيض
بزرق سماوية، وينفجر مسار البحيرة الأوسط عن أربعة فروع كبيرة
اتخذت هيئة أكثر أوراق الأشجار انتشار في وادى النيل، وهي ورقة الطلح.

غمغم اليوزباشى وهو يمسك غرين البحيرة فى يده:

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين"⁽³⁵⁾.

* * * *

32) انفنسييل Invincible مونارك Monark بنلوب Panelop

33) بحيرة إبراهيم: مسماة باسم القائد إبراهيم باشا، وأسمها الوطنى بحيرة كيوغا

34) النيلوفر: نبات ينبت فى المياه الراكدة يزهر ويورق على سطح الماء.

35) سورة المؤمنون: 12.

المتبة السابقة

طبوة الحرب

وللجهم عتباته



على الجناح الغربي لقوس المياه الذي يرفد حوض نهر النيل، دارت المعارك الأخيرة لحملات الجيش المصري في القارة السوداء، التي بدأها محمد على باشا عام 1821؛ بخيال وطموح لا حدود له، جعل من نهر النيل والمصالح المصرية بوصلة واتجاها، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر قاد ضابط مصري الموجة الأخيرة منها، والتي تهدف لمد سيطرة الحكومة المصرية على شمال حوض نهر الكونغو، وقد قيض لهذا الأسطورة، التي حددت معاركه المدى الأقصى لخط الحدود الذي بلغه الجيش المصري في القارة الأفريقية، أن يكون شخصية مجهولة في صفحات التاريخ.

عند تقاطع خطى طول {26⁰:5} وعرض {4⁰} أقام الصاغ حواش منتصر بعد انتصاره في الحرب التي خاضها ضد ملك مونيوتو، حامية عسكرية أطلق عليه اسمه؛ "محطة حواش".

وكان الصاغ قد تمكن من أسر الملك، وأصر أمين بك على إعدامه في مشهد مأسوي، رغم أن منتصر، وكبار ضباط المديرية أوضحوا للحكماء؛ أن هذا ضد مصالح الحكومة المصرية.

في لادو عاصمة المديرية دارت معركة أخرى، عندما اقتحم كابتن رودولفو كازاتي مكتب أمين بك، وحذره تحذيرا شديدا من النجاح والتأييد الذي يلقاه الضابط حواش منتصر الذي ورث التقاليد العسكرية لجيش محمد على باشا العظيم، وهو يناور الآن على جناح القارة الغربي لخط الاستواء، ويلقي ترحيبا وسط قبائل النيام نيام والأراموس والمبوروس، حتى أصبح هناك من ينادي به ملكا على هضبة البحيرات العظمى، وهو ما يتعارض مع المصالح الحيوية للممالك الأوروبية، وأضاف يناشد في أمين بك أصوله الجرمانية؛ الحذر كل الحذر، فبمقدور هذا الضابط المخبول،

إنشاء مملكة تطيح بكل الآمال التي يسعى الأوروبيون لتحقيقها فى القارة العذراء.

وخلال نقاش طويل اقترح كازاتى مخاطبة ملك البلجيك "ليوبولد الثاني" لتمويل إنشاء مستعمرات، يستوطن فيها الرجل الأبيض فى الكونغو، ومخاطبة الجمعية الجغرافية البريطانية، وتعريفها بالمنافع التي ستعود على الحكومة البريطانية، من الدفع قدما بمخططات الكومبانية البريطانية الجديدة فى منطقة البحيرات العظمى.

وأشار إلى نقطة صغيرة على الخريطة؛ وقال بغضب: إنه إذا كان للعقل الحصيف أن يطلع على الخرائط الجغرافية للمديرية الاستوائية، كي يتعرف على الطموحات المهولة للصاع منتصر، فعليه أن يمد خطا على استقامته بين موقع المحطة العسكرية، التي أقامها على نهر (ويلي)، ومهرها باسمه، إلى البحر المتوسط، لاتضح المغزي، والدلالات المستترة من اختيار هذا الفلاح لموقعها، إذ أنها (للغربة الشديدة) امتداد لخط الحدود الغربية المصرية.

"ومساهمة منى لتقليم أظافره، أقدم لكم عريضة تضم شكوى عساكر الدناقلة ضده، تتهمة بالقسوة، والتمييز بين عسكر التراجمة والخطرية، وفى كل الأحوال أقترح استدعاءه قبل أن ينهي مهمته، حتى لا تنسب إليه أعمال كبار، وإذا تعذر ذلك، فيجب عليكم إرسال قادة يفوقونه فى الرتبة، للتقليل من شأنه وسط الأهالي، والتعتيم على إنجازاته العسكرية، وأقترح إرسال القائممقام بخيت بك بتراكى، وهو قائد محبوب من أبناء الجنوب، وصاحب خبرة فى حرب المكسيك.

ما أثار غضب وسخرية أمين بك قول كازاتى: "لقد سمحت لنفسى، مخاطبة قداسة البابا ليون الثالث عشر بابا الفاتيكان، حيث إنني أعلم رغبته فى نشر رسالة أبونا وربنا السيد المسيح بين القبائل الوثنية، وقد وعدني نيافته بإرسال مبشرين للتبشير للرب المقدس اسمه، وعاهدته بأنكم ستقدمون العون للبعثات التبشيرية، لمواجهة التغلغل الذي يقوم به الجيش المصري، والتجار العرب المحمديون⁽¹⁾.

1 (ديانة المحمديون: الديانة الإسلامية.

رفض أمين بك اقتراحات كازاتي، وقال عن ما تريده سيجعل المديرية الاستوائية، محلا لصراع الدول الأوروبية، ما يوقع الضرر بالأهالي، وهم على طبع البراءة والسذاجة، وسأله: "لماذا تعطون منتصر كل هذا الاهتمام، فهو ذئب وحيد، وأنا اتركه يعوى كما يريد، ففي نهاية المطاف، فإن الحدود التي يرسمها بوله سوف تخصنا".

- أمين بك.

- أذهب واسترح كابتن، وأمض بعض الوقت مع خطيبتك، قد بدت محبطة وتشعر بالملل، وحدثني أنها ربما ترغب في العودة إلى أوروبا. شعر كازاتي بالإذلال، ضرب حذائه بعصاه، وقال يقتص من إهانتته:

- أعلم أن فخامة الحكمдар يحمل أسما مسلما، وعقلا بروتستانتيا، وقلبا يهوديا، ولهذا أذكر فخامته، إن نشأة وتوطيد إمبراطورية مصرية فى حوض نهر النيل له آثار سلبية على أحلام سعادة الحكمдар، صاحب العلاقة الحميمة بجمعية الهيكل الألمانية؛ المهتمة بالاستيطان اليهودي فى فلسطين، والمساهم فى تأسيس مستوطنة "مكفا إسرائيل"⁽²⁾؛ ومن المهم القول إنه إذا كان يمكن لهذا الحلم المستحيل أن يتحقق، فلن تتوفر له إمكانية الإتهشيم عظام الإمبراطورية المصرية الناشئة فى حوض نهر النيل، وهي ما زلت بعد غضة نيئة لم تتصلب بعد.

سعادة الحكمдар تقبل نصيحتي، وأنظر إلى الخريطة بعين بروتستانتية، لتجد أن المصريين يبنون فى خط الاستواء إمبراطورية تضم حوض نهر النيل، وهذا الفلاح يضع أقدامه العسكرية على الجزء الأخير من تخومها الشمالية لحوض الكونغو، التي تمد نهر النيل بالمياه الغزيرة، وبهذه المنطقة يسيطر الجيش المصري على القوس الجنوبي بأكمله، الذي يمد حوض نهر النيل بالمياه.

وإذا كانت كتابي إلى نيافة بابا الفاتيكان أثارت استيائكم، فالأمر لا يتعلق باهتماماتي الدينية، فكما تعلمون أن ديانة الحمديين انتشرت فى أفريقيا بالتجارة وليس بالحرب، والرأسمالية الأوروبية وتجارها أكثر إلحادا من فلاسفة اليونان الأوائل، وليس هناك من يقدر على ملء

(2) مستوطنة مكفا إسرائيل: (أمل إسرائيل) تأسست عام 1870م، في لواء القدس، وأنشأت مدرسه تهدف إلى تزويد المستوطنين اليهود بالخبرة الزراعية وتقديم التسهيلات لهم.

الفراغ الروحي فى أفريقيا السوداء، فى مواجهة التجار العرب، سوى الكنيسة البيضاء، التي ستمهد الطريق حتما للرأسمالية الأوروبية...
هز الحكم دار رأسه، وقال مستسلما:

- عاوز تتخلص من الصاغ منتصر، أحرقه في الزيت.

...وبعدما اتفق الرجلين على التخلص من منتصر، اختلفا على من يخلفه، بدا الإيطالي أكثر خيالا من الألماني؛ فالدقة الألمانية لدى أمين بك دفعته إلى اختيار القائم مقام النور بك محمد⁽³⁾، قومندان لادو، كي يريعه من وجع الرأس الذي تسببه أوهام كازاتي، لكن الأخير أجبر أمين بك على التخلي عن اختيار قائد سوداني عربي، مفضلا قائم مقام بخيت بك بترافي الذي ينتمي إلى السودان الأسود، وإذا كان الاثنان مسلمين، فسيكون للمصراع العرقي بينهما أوانه.

* * * *

كانت معركة (تنجازي)⁽⁴⁾ الواقعة على نهر (بوموكاندى) أولى معارك الصاغ داخل أراضي الكونغو، أخفى قواته فى طيات الوادي الذي تقع القرية فى قاعه، وفى الهزيع الأخير من الليل تقدم الجنود النظاميون من حافة الوادي العليا، وحلفاؤه من محاربي القبائل، حاملين المشاعل، وسط دوى قرع الطبول، بدا المشهد مهيبا يثير الرهبة، وعلى مداخل القرية أعطى أوامره بإطلاق نيران كثيف فى الهواء، لتشتعل زعجة وجلجلة عظيمين، نشرت الزعر والهلع بين الأهالي، وأثناء ذلك أطبقت سرية البيادة بقيادة سر الختم الميرغني على كوخ الزعيم "جنجارا"⁽⁵⁾ وأخذته أسيرا.

انتهت المعركة قبل أن تبدأ، وفى دروب (مباجا) عاصمة إقليم (مونبوتو) دار الصبي الضارب على النقارة، وخلفه زعيم (تنجازي)، مقيد بالأغلال داخل قفص خشبي، يعلن القبض على زعيم المتمردين، وتجريسه وسط الأهالي.

(3) القائم مقام النور بك محمد أغا: راجع ترجمة سابقه له صفحة 132

(4) تنجازي Tingazi

(5) جنجارا: Gangara

فى ساحة القرية وقف الأسير غاضبا، للإبقاء على حياته، يستمع إلى التهمة الموجهة إليه بتحريض ملك مونبوتو على ذبح حامية محطة (تنجازي) العسكرية. اتهمه الصاغ بأنه مذنّب بالتحريض على قتل ثمانين جهاديا، لم يفهم معنى الاتهام، وقال "إنه ذبح المئات"، وسأل منتصر "ألم يفعل؟"، فقال الصاغ "أن هذه أراضي تابعة لخديوي مصر المعظم، وأنت متهم بقتل عساكره"، فأجابه (جنجارا) "أنه ولد هنا، وروح الأسلاف ترعاه، وعظامهم مدفونة فى المقابر التي تجلسون فوقها، وهو لم يسمع عن اسم هذا الخديوي.

* * * *

فى المساء جاء كازاتى يحمل إلى منتصر تعليمات بتسليم قيادة القوات المصرية إلى القائم مقام بغيت بك بتراسكي الذي سيصل خلال أيام، كانت ضربة قاصمة من العاصمة لادو التي تخونه، غلت الدماء فى عروق الصاغ، الذي اندفع فى الغابات وحيدا، دون قوة ضاربة سوى سمعته بين القبائل. وسط هذه الظروف طلب الملازم عبد المبين شلعى أن يسمح الصاغ له بالبحث عن الملازم على شمروخ، أجابه بتهكم: "أفضل يا افندي، روح دور عليه".

- "محتاج فضيلة من العسكر، ودليل من التراجمة".
- على الدم فى عروق منتصر، فتراجع شلعى قائلا:
- "يا افندم الملازم شمروخ يبقى ابن عم مراتى".
- هو أنا حلاقيها من عصابة متمردين، ولا من شغل العواطف، يا فندي أنا مش فاضي، لما نستقر فى حته، نشوف شمروخ والذي منه.
- لاحظ الصاغ الاستياء على وجوه الضباط، تساءل متعاطفا:
- "إيه أخبار صاحبكم؟ عايش ولا ميت؟"
- "تجار عرب قالوا (إنهم قابلوا مصري عايش مستوحى فى الأدغال)".
- ليه مش كان معاه سرية.
- نبوءة سعادتك تحققت، الخطيرة تركوه وهربوا.
- طب وإيه اللي عرفكم أن المصري ده صاحبكم.
- بيقولوا (قابلوه قرب محطة حضرتك).
- محطة حضرتي! طب لما قاعد لوحده، مرجعش ليه؟

- معندوش أوامر بمغادرة موقعه.
- يا افندم شمروخ بيجترم سعادتك، استحالة يتخلى عن محطتك.
- طبعاده لو كان لسه عايش.
- جرى إيه يا شلعى، إذا كنت واثق منه قوى كده، ح تلاقيه عايش.
- استطرد: أدونى فرصة نرتب أحوالنا، أنتم شايفين، معنديش قوات أقدر استغنى عنها"، تبادلوا النظر، قال فوزي: "أنا مستعد أدور عليه لوحدى".
- يا فندي مينفعش، ح تعمل فى فيها بطل! أصبروا شوية يا حضرات.

* * * *

جبريل المظفر

قرعت طبول
يحملن على رؤوسهن جرار
وهن يبتهلن للقمر أن يحمي
للموت، أن يمنحهم الحكمة
الحرى، وخرجت النساء
اطاء، يسكنونها لليل،
الرجال الذين خرجوا
ويعيدهم ساطين، تضرعون للشمس
أن تهب لمحاربين البأس، توسلن إلى السديين الرعد والبرق جسدا القوة، أن يصحقا
أعداءهم، توسلن للإله الثعبان أن يهب لمحاربين ليؤنته وجبروته، ويزيد من أمامهم
العقبات، التمسن من العنكبوت أن يهبهم سمومه لهزيمة الأعداء.

احتشد محاربي قبائل الأبراموس⁽⁶⁾ بسواعدهم، وأفخا ذهم المفتولة
العضلات، المحاطة بالأساور الملونة، يرقصون في مآزرهم المصنوعة من جلد
النمور المبرقش، ورؤوسهم المتوجة بريش الطيور الملون، يلوحون بالحرايب،
ويدكون دروعهم، وهم يطلقون صيحات الحرب.

جلس الملك على مصطبة مكسوة بجلد الثور، رُبعة متين البنيان،
حليق الرأس، حول عنقه عقد من أنياب الأفاعي، يحيط به زعماء قرى
الأبراموس، وعصابات تجار الرقيق، يتقدمهم الشيخ عبد اللطيف أبو
السعود، يتابعون القتال الذي يجري أمامهم، حيث الموت والعار نصيب
الخاسرين.

من تخوم الغابة اقتحم عدد من المحاربين الساحة، يفرون أمام فيل هائج،
رشق جسده بالحرايب، وقف الأمير (سالومو) ابن الشيخ (مبورو) يتحدى
الفيل، ويلوح له بشجاعة، وسط صمت الجميع، توقف الفيل عن النهيم،
أدنى رأسه، ورفع قدمه الأمامية، واندفع يهرول نحوه، يريد أن يسحقه،

6 (أبراموس: Abramos)

عندما صار قريبا للغاية، غرز الأمير حربته بقوة فى فمه المفتوح، وقفز مبتعدا عن الفيل المتهاوى، ليجد نفسه يتدحرج تحت أقدام تجار العبيد.

دوى الهتاف، وهللت الجموع تحية للأمير الشجاع، بقرت بطن الفيل، وقطعوه أربا، وأشعلت النار للطعام، وقرعت الطبول للرقص والغناء، أنتحى (سالومو) جانبا وطلب من أبيه الرحيل عن معسكر الملك (مامبا نجا)، والعودة إلى قريتهم، فلا يوجد مكان لعشيرة (المبورو) بين تجار العبيد.

قفز الساحر أمام الملك قفزات مفرعة، وقرع جرسين صغيرين، يستدعى الأرواح، ورفع دميمة على هيئة الصاغ، غرزها بشوك مسوم، انشال منها سائل لزج، مسح به وجهه وجسده، وتهاوى على الأرض متشنجا، فى شجرة الطلح العملاقة حيث تسكن روح الغابة، وضع الساحر دميته، وذبح قرد، وبخ الدميمة بالدم الملعون، ثم غرز فى قلبها وتدا مغموسا بالدم، وهو يصرخ بها، أن تكون أكثر قوة، أكثر قدرة، كي تصل إلى روح الصاغ وتدمره.

* * * *

فى قريته دخل الشيخ مبورو كوخه المزين بأقنعة تحمل أرواح الآلهة، ليرى حفيديه للمرة الأولى، وهو يأمل ألا تسحرهما روح الغابة إلى سحلية صغيرة، سمع بكاء طفلين، أحدهما بين يدي ابنته روح القمر، والآخر على صدر الأم الكبيرة، حمل حفيديه، تملأ وجهيهما، ولونهما المصنوع من الكاكاو، يوصوصان بعيون مغمضة مثل ليوث صغيرة، ملس شعريهما الناعم، وهو يغغم سرحل بكما إلى والدكما.

* * * *

على أسوار حامية (مباجا) عاصمة إقليم (مونبوتو)⁽⁷⁾ وقف محارب عملاق، يعلن أنه رسول ملك (مونبوتو). أدخلوه، فوقف أمام منتصر ينقل

(7) مونبوتو: الإقليم العاشر من أقاليم المديرية الاستوائية. واسع ممتد الأطراف، يفصله عن نهر الكونغو لسان تعلوه الغابات عرضه عشرون كيلومترا. وتمتلك الحكومة المصرية فوق ذلك جزءا من هذا اللسان، وأخضع حواش أفندي منتصر أقزام أككا Akka لمسافة تمتد مسيرة خمسة عشر يوما فى الغابة. ويعمر هذا الإقليم؛ قبائل النيام نيام، وقبائل المونبوتو، وهم من أكلي لحوم البشر. والأولون ضاربون فى القسم

إليه تحيات (مامبا نجا)، وقدم حسب الأصول هدايا الملك، ثم أشار لاتباعه فأحضروا سلال ممتلئة بالتبن، وقال بصوت له جرس ورنين:

- "إن سيدي الملك يخبرك أن لديه رجالا يضارع عددهم التبن الموضوع في هذه السلال التي أمامك، وهو ينصحك أن تكف عن مطاردته، وتطلق سراح الزعيم جنجارا، وتعود من حيث أتيت".

عندما أتم الرسول كلامه، قال الصاغ إنه يود تفادي القتال، لكن الملك ذبح حامية تنجازي، وإذا رغب في السلام، فيجب أن يسلم البنادق التي استولى عليها، ويأتي خاضعا مستسلما، لندوب الحكومة المصرية حتى ننظر في أمره، أضاف الصاغ: "إن عليك حال وصولك لسيدك، أن تفعل مثل ما أنا قادم على عمله، وقل له بالذي سأقوله لك".

قلب الصاغ سلال التبن على رؤوسها، وأشعل عود ثقاب، وأضرم النار في التبن، فاحترق كالهشيم، تراجع الرسول للوراء، وهو يرى النيران تأكل محاربيه وتحولهم إلى رماد.

قال الصاغ باستعلاء: "قل لسيدك وإن كانت جنودي ليست أكثر عددا من التبن الذي أرسلته في سلالك، إلا أن الواحد منهم هونار تكفي للقضاء على جيش عرمرم، وتحوله إلى رماد.

* * * *

حملت الرياح صوت الحرب، ودوت الطبول إيذانا بقرب الهجوم، قبل الفجر حملت الأخبار اقتراب الملك، ومعه آلاف من محاربي (الأبراموس)، نفخ البروجي نوبة استعداد، واشتعل الحماس في معسكر الجيش.

رتب الصاغ سراياه خلف سور من دعائم خشبية، وأعطى أوامر مشددة لضباطه بعدم مغادرة المتاريس قبل دخول العدو مرمى نيران البنادق، في

الشمالي من الهضبة، وفي جنوب مديرية بحر الغزل. أما المونبوتو فيشتغلون جميع جنوب المركز حتى حدود الغابة. وتنقسم هاتان القبيلتان إلى عشائر تسمى كل عشيرة باسم كبيرها. وهم من أذكى سكان أفريقيا أسفل الصحراء الكبرى، ويميلون للنظام والطاعة، ولهم مهارة واضحة في الأعمال اليدوية وصناعة الحراب والأسنة، ويهتمون بالنظافة، ويلبسون مساكنتهم من الداخل، النظام الطوطمي يؤمنون بالسحر وابتهالاتهم لروح السلف وشيخهم ملهم ديانتهم.

وأهم محطات هذا المركز العسكرية هي: مونبوتو Monbuttu - جورجورو Gurguru - العاصمة مباجا Mbaga، وأهم محطاتها جاجو Gango، كوبي Kubi، تنجازي Tingazi، غادا Gadda، بليما Bellima، دنجو Dongu (54)، أونيبورون Uniboro، ميريما Mperia، جانجا Ganga، رينسي Rensi، مسوه Maswa.

الظهيرة تسلل عدد من محاربي الملك يستطلعون المكان، فبدا لهم أن كل شيء هادئ لا ينم عما يخفيه.

قرعت الطبول وظهر المحاربون من الأحراش يدقون دروعهم، ويصيحون صيحات القتال، عمر الجنود بنادقهم، تابع الصاغ تقدم المحاربين من نظارته المعظمة، حتى دخلوا مرمى النيران.

أعطى الصاغ إشارة الضرب، فأطلق الجنود النار بتبادل وانتظام بين الصفين الأول والثاني، وانهمرت النيران الحامية على المهاجمين، ومع كل طلقة كان أحد محاربي الملك يسقط صريعا.

تقدم المحاربون وسط النار لا يخشون الموت، وعندما بلغوا الصفوف الأولى أشرع الضباط العرباؤون سيوفهم، وانطلقوا يقدون جنودهم، ويهاجمون العدو في قتال متلاحم، في الثامنة مساء انسحب العدو متراجعا إلى منطقة قريبة، وقد بلغت خسارته ثلاثمائة وستين محاربا.

أمر الصاغ بأخلاء الأكواخ القريبة من الغابة، وإخفاء جنوده خلف أشجارها، في منتصف الليل أضربت النار في تلك الأكواخ، فأضاءت سماء الغابة، انقض مامبا نجا على المنطقة المشتعلة، يساوره الأمل بأنه سيعوض خسائر اليوم، ويعود محملا بالغنائم.

تحولت الموقعة لمذبحة، دفعت مامبا نجا إلى الانسحاب ممتلئا خوفا ورهبة، وخلفه أربعمائة قتيل، قرر منتصر سحق خصمه، وتحقيق نصر حاسم قبل وصول بخيت بك بترافي، فبادر بشن هجوم، باغت الملك وهو في فراشه، لكنه تمكن من الفرار وأسرع بالهرب إلى أعماق الأدغال.

* * * *

جاءت الأنباء بمغادرة القائم مقام بخيت بك بترافي مكراما، ومعه جيش عرمرم، وكانت ذخيرة الصاغ قد قاربت على النفاد، وأصبح المتبقي لا يتجاوز ثلاثة آلاف ظرف جبخانة، بينما قام تجار الرقيق، بمد خصمه بالبنادق والذخيرة، فكرر أن يقوم بإرسال الملائم نظيم عبد الملاك إلى

الرحالة الطبيب جونكر، الذي يقيم فى قرية (مدوروما)⁽⁸⁾، يطلب منه التدخل لدى الملك (مامبا نجا)، واستعمال صداقته به ونفوذه لديه لإنهاء الحرب.

وما أن غادر الملازم نظيم مباجا، ورد خطاب من بخيت بك يطلب من الصاغ استحضار أكبر عدد من القوارب ليعبر عليها وقواته نهر (كيبالى)⁽⁹⁾، ما أثار حفيظته، هتف بحق:

- "ولاد القحبة"، فاضل أديله مؤخرتى، يركب عليها، عشان سعادته ما يتبلش".

أوى العسكر إلى مهاجمهم، وجلس الصاغ يعلوه التجهم، كان يرى قادة المديرية يعملون ما فى وسعهم لسرقة نصره. وبينما هو منهمك فى البحث مع الأدلاء، عن الأماكن التي يمكن لملك مونبوتو أن يختفي فيها؛ دخل مباجا رسول يحمل أنباء مفزعة، بقيام عصابات الرقيق بمعاونة قبائل الأبراموس، بحرق القرى التي تحالفت مع الصاغ.

انتشرت الضوضاء فى أرجاء المعسكر، وتجمع زعماء المحاربون يعصف بهم الغضب، كان الهجوم قد طال قرى (برنجى) الصغير، و(الطويل)، و(بمبا). أوقدت المشاعل وافترش الجميع الأرض حول الصاغ، يتباحثون فيما يتوجب عمله، دار حوار وجدال صاخب طلب المحاربون العودة إلى قراهم للدفاع عنها، والصاغ صامت، قال جملة واحدة:

- "إنهم يرغبون فى تشتيت قواته".

كان يعلم أن أغلب قواته تتشكل من محاربي القرى التي تهاجم الآن، وإذا رحلت، فلن يبقى معه سوى سرية البيادة، سيكون أمام بتراسي قائد بلا قوات. قال منتصر لحلفائه "إن مباجا عصية على الاقتحام، ويمكن الدفاع عنها بأقل القوات، يمكنكم الرحيل، اذهبوا لحماية نساءكم وأطفالكم".

وقف زعماء القبائل وسط صمت مطبق، يغادرون المجلس، تاركين خلفهم نظرات تحمل قدرا من الغضب، وقدرا من العتب، سمعت الطبول تدق

(8) مدوروما: Mdoruma
(9) كيبالى: Kibbali

فى أرجاء القرية، ولم يمض وقت حتى غادر المحاربين مباحا إلى ظلام البرارى ووحشة الغابات.

تصدر الصاغ دائرة الرجال الصلبة، وقد تثاقلت همومه، واجتمعت عليه رياح الغدر؛ مكائد الإدارة، ما هي حدود الطاقة وطموح بترافي، لم يبق حوله سوى عدد قليل من المحاربين، وضباط حانقون، منكفئون على أنفسهم، يشاهدون أسطورتهم، يجلس على الأرض مربع القدمين، منكس الرأس مهزوما، تزوى أمامه حلقات النار، ويغيب دخان غليونه فى الظلام، وقد بدا أن الكلمة الأخيرة ستكون لتحالف ملك مونبوتو وتجار الرقيق.

عندما رفع رأسه لم يرى أحدا، كان وحيدا وسط الجمع، تلاشت طبول الحرب مع المحاربين العائدين إلى قراهم، اختفت برارى الهضبة الاستوائية، مناقعها المكدسة بالتماسيح والشعابين السامة، غابات الكونغو المعرشة بالتهلكة، محاربيها الطوال، أقزامها القصار، سهامهم المسمومة؛ عالم سكن إليه وارتاح، عالم تألف معه، وحوله إلى حليف يبجله ويكرسه إلى تخوم الآلهة، عالم أكثر اطمئنان من قادة ورؤساء، يدعون الشرف العسكري والنزاهة الأخلاقية.

تنحنج الملازم فوزي مرتين، الأولى خافتة، الثانية تجرأ، فالتفت إليه محدقا: عاوز تقول حاجة يا فوزي.

للمرة الأولى سَمِعَ فى نبرة صوته الأَجَش رنين انكسار.

- حضرتك، مش معقول تتركهم وحدهم.

- "عاوزنى أعمل إيه، أروح معاهم".

- سعادتك الناس دى خرجت للقتال لأنها مؤمنة بكم.

- وعشان الغنائم.

- لا يا افندم أنت الوحيد اللي ممكن يخرجوا للحرب تحت رايتهم، من غير

طمع فى غنائم. مسد الصاغ شاربه باعتزاز، وخفت نبرة تهكمه:

- أروح أنا معاهم؟

- لا يا افندم، أروح أنا معاهم.

- لوحدك يا فوزي؟ قالوا جميعا: "كلنا فداك يا افندم".

- جرى إيه يا أفنديته، أنتم فاكريني عرابي.

- يا افندم المهاجمين ماشيين على طريق حملة (مونبوتو)، متوقع أن
المحطة التالية للهجوم تكون (بنجيدى) أو (كوبى).
- كلام معقول يا فولى.
- نشكل قوة خفيفة من القوات النظامية فى مواجهة الضربة الجاية.
- تمام، خد فصيلتين من القوات النظامية، ح يتبقى معانا قوات
مكراكا وفصيلة البيادة الأولى، كويس، استنى، خد معاك اللغمجية،
وقال باعتزاز وفخر، كأنه استعداد عزته، طبعاً طبعاً لازم نكون معاهم،
تمام كويس كده. شعر بالارتياح، كهذا يبقى على شرفه وسمعته،
ويرضى حلفاءه، تدخل فوزي: "تسمح لى انضم للقوة".
- وليه ما نسند القيادة للميرغنى.
- لا يا افندم، لازم سعادتك تقابل بتراكى بك وسط ضباطك.
- ليه يا فولى، أنت خايف على من بتراكى ؟
- يا افندم أنت بالنسبة لنا أسطورة، محدش يعرف يعمل اللي أنت
بتعمله، لكن أعتقد برضه أن وجود الضباط حواليك مهم وضروري.
تدخل الميرغنى وقال بحسم: "مش ممكن نسيبك لوحداك، ح اطلع أنا
مع القوة، والفولى ينتظر مع سعادتك".
- شايف كده يا ميرغنى ؟
- أوامر سعادتك.
أطرق الصاغ برأسه وصمت، كان يفكر.
- استأذن حضرتك عشان أجهز القوات.
- تمام يا ميرغنى، يلا، رينا معاكم.

* * * *



طقوس

العقاب

مع أول ضوء للفجر تحركت القوة الخفيفة التي
اقتطعها الصاع منتصر من خيرة قواته
العسكرية، للدفاع عن القرى التي ساندته،
عبرت غابات مونبوتو، وتوغلت داخل براري
السافانا، وسط موسم الجفاف، لا سحب لا أمطار، حرائق تشتعل من تلقاء
نفسها، لتحول البراري إلى جحيم.

مع المغيب دخلت القوة قرية كوبي، حضر الملازم أول سر الختم الميرغني
الأمير جمعة من الخطر الذي يحدق بقريته، طالبه باليقظة، وتعيين حراسة
ليلية لتفادي المباغتة، قبل الرحيل خرجت الأميرة عائشة، ووضعت
ملابسها تحت أقدام الملازم أول سر الختم الميرغني، وقالت بلغة عربية سليمة
إن على المسلم أن يستر المسلمة، وستر العفيفة عودة أبيها الشيخ من أسره،
كان مشهدا شديدا القسوة، انحنى يعيد إليها ملابسها، ووقف فوزي
يشعر بالسخط على الطريقة التي يعامل بها أمين بك حلفاء الجيش المصري
في خط الاستواء، قال سر الختم الميرغني للأميرة "إن العفة تستر نفسها
بنفسها، ولن أكذب عليك فالأمر ليس بيدي، لكنني أعد سموك بأن
أفعل ما في وسعي"، وقبل أن يغادر (كوبي) أرسل خطابا، إلى الصاع،
يطلب منه تنفيذ وعده لحلفائه في كوبي.

في خطابه لأمين بك قال منتصر "أن توطيد الاستقرار والأمن لصالح
الحكم المصري، يستوجب مد أوامر الصداقة والتحالف لكل من يمد
يده، فالمستقبل كما تعلمون مجهول، وقد كان شيخ (كوبي) وأخيه
الزعيم (أز نجا) حاكم (بمبا)، نعم العون للقوات المصرية في حملة
مونبوتو، ما يوجب على الحكومة المصرية أن تؤاجرهم على موقفهم،
وأنهي خطابه بتهديد أمين بك، بضرورة مخاطبة سلاطين بك، معاون
حكم دار كردفان، للإفراج عن الشيخ، وإلا سوف يفعل ذلك بنفسه.

كان خطاب منتصر قويا للدرجة التي دفعت أمين بك، لإرسال رسل إلى سلاطين بك، وبعد أسابيع قليلة ظهر الشيخ (جمباري) في كوبي، وأقام بين أبنائه بين عشيرته سليما معافى.

* * * *

عندما غادرت القوة "كوبي" تركت وراءها غابات مونبوتو الشامخة، المعرشة بأشجار الباسيا، لتتوغل داخل مراعى السافانا البستانية الشاسعة الأرجاء، وسارت في أعشاب تجاوز ارتفاعها الأربعة أمتار شديد الصعوبة والخطورة معا، وفي النهاية أوكل الملازم شلعي للشاويش مسعد الرفاعي مهمة مداومة البحث عن مناطق مرتفعة وسط الهضبة العشبية، لاكتشاف الاتجاهات، وتفادي بؤر الحرائق المشتعلة في أرجاء السافانا

أول مشاهد الرعب كانت في قرية الطويل، التي التهمت الحرائق، وتناثرت بين إرجائها الجثث، وفي أطرافها وجدت جثث ملقاة على وجوهها، وقد حولت طلقات بنادق الشوشخانة، الخاصة بصيد الفيلة، مؤخرات رءوسهم إلى شظايا متناثرة، وطوال الطريق حملت القرى نفس المشهد، ما الذي يدعوهم لحرق قرى بأكملها، وقتل أبنائها بهذه الوحشية؟

في قرية برنجي الصغير وقف الضباط يرون الجثث المحترقة مدلاة من فروع الأشجار، كان مشهدا يثير الرعب، ولثلاثة أيام متواصلة قام الملازم أول سر الختم بقيادة القوة الخفيفة في الأحراش والبراري بالخطوة السريعة، دون أن تتوقف للراحة، أو التقاط الأنفاس، وقد أمسك عسكر المقدمة بسيوف معقوفة، يشقون الطريق داخل براري يكتوي السادرين فيها بلهبها، وكأنهم يطاردون أشباحا في غابة سحرية، لا تعرف مداخلها من مخارجها، طلب الجنود التوقف للراحة، فرفض غاضبا وقال:

.. "نحن قوات عسكرية تهيم في عماء".

عندما علم الشاويش (مسامبا) ترجمان الحملة، أن الميرغني يريد النزول إلى إقليم الرول، لمطاردة عصابات الرقيق، قال إن الرقيق الذي نبحت عنه موجود أمام أعيننا جثثا متفحمة، قال فوزي:

- نحن نطارد عصابات من الدناقلة ومحاربي قبائل الأراموس.

أوضح الميرغني: القتل المجاني عادة غير متبعه بين القبائل، فبعد المعارك تكون مهمة المنتصر جمع الأسرى، وبيعهم لتجار الرقيق. وما يجري ليس بحثاً عن رقيق، وإنما حرقهم بدون نفع ولا منفعة.

قال الشاويش (مسامبا): حضرة الملازم هذه ليست طقوس الحرب، هذه طقوس الانتقام. وعندما طلب منه أن يفسر الأمر، أكتفى بالصمت.

فى تلك الليلة، وبعد تشديد الحراسات والمناوبات الليلة، تناولنا عشاء صنعه الشاويش مسعد الرفاعي من البط البرى، والصمت يخيم على الجميع، كنا نستعيد حصار حرائق زريبة (نيا نجارا)⁽¹⁰⁾، وجثث صائدي العبيد تسقط مشتعلة بالنيران.

عبارة وحيدة قالها بحسم الملازم أول الميرغني: حضرات الضباط هذا الانتقام موجه لنا، انسحبوا خارج مراعى السافانا، والا سوف نشوى مثل حبوب الكستناء.

جاء الصباح وليته لم يأت، استيقظ فوزي على صوت إطلاق نيران مخلوطاً بالعواء، قفز من خيمته إلى الخارج، كان الهرج يسود المعسكر، شاهد جنود يجلسون القرفصاء تحت أشجار السنط، يبكون ويفقهون كالنساء، أخبره الملازم أول سر الختم الميرغني، (وهو مرهق) عن اختفاء جنود الحراسة. تساءل عن إطلاق النار، أشار الميرغني إلى الأطراف الشمالية للمعسكر، وهناك وقف مذهولاً أمام نافر حراسة سيد الحمدي، يتدلى معلقاً من رقبتة، من إحدى أشجار السنط، بينما نصفه الأسفل نهشته الضباع، ليبقى ساعد وحيد مثبت يشير زريبة (نيا نجارا).

صرخ فوزي وقد داهمه قلق شديد:

- فين الشاويش مسعد الرفاعي؟

- أختفي.

انطلقت القوة السريعة فى مراعى السافانا، فى عماء مضاء بالشمس، بلغوا ضفاف نهر ويللي، اندفع الجنود يستروحون فى مياه مفعمة بالنقاء،

(10) نيا نجارا: Niangara

حيث كانت قطرات من دماء تلون تيار المياه. التفاتة من أحد العسكر لأعلى جعلته يرى الجثة الثانية المعلقة للنفر سليمان الباجوري تشير إلى الغرب. حيث تقع زريبة (نيا نجارا)،

الآن يعلم الجميع أنهم مساقون لكمين أعد في (نيا نجارا)، لكن هذا لم يمنع الملازم فوزي من إصدار الأوامر للقوات بالإسراع باتجاهها، ووجه مبروكة يطل عليه بأعاصير السخط والغضب... غمغم لو أن مكروه حدث لزوجها، ماذا سأقول لها... كنا نسير إلى ما نبحت عنه، ويبحث عنا، نتفادى ما حذرنا منه الميرغني في الليلة الماضية، السير في مراعى السافانا.

صورة أطلت من الماضي القريب، أخذت تملأ الفضاء. منزل الصيدلاني فيتا حسان يتصدره تاجر العاج الشيخ عبد اللطيف أبو السعود؛ عبائه المقصبة بخيوط الذهب والفضة، أصابعه المكسوة بخواتم الأحجار الكريمة، خنجره المزين بالياقوت، حذاءه المصنوع من أغلى جلود القارة كلاب البحر؛ الآن يبزع على نهرويلى وجهه الموفور الصحة السمين، تتوسطه عينان مشبعتان بروح الانتقام.

عند المنعطف لاحت زريبة (نيا نجارا)، أعطيت الأوامر بالسيطرة على حركة القوات، لكن المفاجأة التي تنتظرهم، كانت أكثر بشاعة مما يمكن أن يتوقعه شخص من البشر، فداخل الزريبة، أقام صائدو الطرائد البشرية مسلخا بشريا.

على الأرض فاضت بركة واسعة من الدماء، بينما قطيع من الضباع من الضباع عاكف على نهش جنود قيدت معاصمهم بالسلاسل، وعلقوا من أكتافهم بخطافات الجزارة أحياء.

سادت فوضى عارمة، أطلقت النار على القطيع الذي استدار يهاجم الجنود، واندفع الجنود لإنقاذ رفاقهم، لكن الأوان قد فات، ولأول مرة واجهوا كارثة ستعلق بروح الملازم فوزي إلى الأبد، تاركة مرضا وسقما لا يشفي، عندما أصدر الأمر بإطلاق النيران على الجنود المعلقين، كي يخلصهم من عذاب الشيخ عبد اللطيف؛ كيف اختار الشيطان من أسماء الجلالة صفة اللطف؟

والآن أين البقية؟ أين أنت يا مسعد؟ زوجتك أرسلت تقول أن طمسها قد توقف، وأن بذرتك تنمو في أحشائها... كيف عرفت؟ لا تأخذك الظنون يا رجل، لقد أرسلت لي شقيقتي ألفت هانم خطاب، ونحن في عاصمة مونبوتو "مباجا"⁽¹¹⁾، لم أعرف كيف انقله لك... كم أشعر بالخجل، ولكن كيف للسادة أن يخجلوا من خدمهم...

والآن أين بقية الجنود؟ أين أنت يا مسعد؟

اندفعنا نبحث عن جنود الحراسة المختطفين، وعن مسعد ابن الخولي الذي نشأ وترعرع في أبعادية السلحدار، غير قادر على تصور موته، كرهت الموت، خاصة أن كان بهذه البشاعة الشنعاء... مبروكة... سوف تلوموني على موته، الآن أتمنى لو أنه لم يأتي، ولم تأخذه الجراحة كي يتزوجك..

أركض بحثاً عنه في قيعان الزريبة ووجهك الخمرى لا يفارقني، أصعد السلالم ركضاً إلى السطح، ربما ينتظرنى مصير من الهلع. لكنه كان خالياً إلا من جسد آخر أكل نصفه وبقي له زراع وحيد يشير إلى البرارى.

ثمّة إشارات تحملها انعكاسات الشمس، صرخت كالمهوس أطلب من الجنود منظار مكبر وعلى تل عال يبعد قرابة مأتي متر، رأيته هناك مصلوب على صاري وسط البرارى، حر اليدين اللتين حملتا أعلام الإشارة، فى يده اليمنى حمل علم الخطر، وفى اليسرى علم "توقف.. لا تتقدم.. فى أسفل العمود الذى علق عليه ثمّة إشارات من السنا تنعكس على أشعة الشمس، ثمّة شعلة من النيران تتراقص تحت قدميه.

قفزت أعدو السلالم أغادر الزريبة، اندفعت وسط أعشاب السافانا باتجاه أعواد الصلب الخمسة التى رأيته تنتشر على قوس واسع والقوات تندفع خلفي، وأنا أقودها نحو هلاك محتوم..

سمع فى الفضاء صوت هسيس وكأنه نابع من وكر للأفاعي: "يا مصري هذا انتقام الشيخ عبد اللطيف أبو السعود لقتلكم ابنه يوسف فى هذا المكان، وسليمان الأسود وتحريركم قافلة العبيد فى زريبة بيكر".

⁽¹¹⁾ مباجا: Mbaga

وقف الميرغني أعلى الزريبة يتطلع لساحة المعركة من منظاره المكبر،
كان رجال الشيخ عبد اللطيف يحملون المشاعل، بانتظار دخول القوة
الكمين الذي صنعوه، صرخ غاضبا:

- "شنو هذا، يا الله ما تضيع منى قوات منتصر". أسرع يطلب من البروجي
أن ينفخ فى نفير الانسحاب، لكن الوقت قد فات.

انتشر الدخان يحمل بين ثناياه أسنة اللهب، وذاع فى أعشاب السافانا
كالهشيم، تقدم الجنود باتجاه النيران تحملها أجنحة الرياح...

...حضرة الصاغ منتصر.. حضرة اليوزباشي الحسيني، سيدي وقائدي
أمير لاي محمد بك عبيد، أبي وجدي شوكت باشا السلحدار... نجحنا فى
تفادى كل أنواع الموت المشهورة ضدنا؛ الموت شنقا.. الموت رميا بالرصاص..
الموت بدانات مدفعية الدونامة البريطانية.. الموت فى زرائب المدارس الخديوية
العسكرية.. الموت فى زرائب العبيد.. إلا أن نموت حرقا.. هذه خاتمة مفزعة
تخلو من الشرف.. ولا مفر من التقدم باتجاه أسنة اللهب... تعبنا أسراب
النعام والوعول، وهي تنظرنا بدهشة... إلى أين تذهبون؟ نجيب دون أن
نملك القدرة على التراجع:

- "...هناك جندي مصري معلق على صاري يحترق".

تختفى دوامات الدخان، ينتهي اختناقك، يقاربك صهد النيران الذى
تحمله حشائش المراعي الجافة، ترى من أسنة اللهب جمع من الأسود، يربض
كبيرهم أمامك ناشرا عباءته الملكية تحميك من النيران، يحيط بك
حملة العرش، يلتفون حولك فى نصف قوس، تستمر النيران فى التقدم
لكنها تلتف حولهم لتنتلق على أطراف القوس، لتستمر كي تلتهم ما
ورائك..

يغشى عليك لتفيق لتجد نفسك وسط الرماد المحترق، وبجوارك سبعة
عشر جثة متفحمة، ماتوا فى حرائق السافانا، تشهق للضحايا، ولكن أين
مسعد الرفاعي، تقبض عليك ساحرة عجوز بكلايتين من الحديد، تغطي
ساعدك المحترق بسائل اسود لزج من المطاط، تحاول القيام نصف قومه
لتشهد قتالا ضاريا، تدفعك العجوز إلى الخلف كي تستلقي، تلقي
بخورها فى موقدها الحجري، يعلو دبيب أقدام تدك الأرض، وولولة حادة،

وضباب بخور، ورقصات تطلب معاونة أرواح الأسلاف للشفاء، لتروح فى سبات عميق..

تستيقظ لتري العالم حلقة من النيران، وبقايا جمرورماد متطاير، وأصوات طلقات النار، وقد أتت الحرائق على زريبة نيا نجارا، ولا تزال جثث الجنود الثمانية عشر ممددة، والملازم الميرغني يخوض معركة ضد هجوم صار صقواته المحاصرة، وفى المقدمة وقف محاربو قرية كوبي، وعلى رأسهم الأمير جمعة يقاتلون بشراسة، يصرخ أمير (كوبي):

- "لا شيء يصمد أمام حرائق الجفاف سوى النهر".

أسأل أين الشاويش مسعد الرفاعي، أشاروا إلى منطقة لم تحترق من السافانا، حيث انتصبت ثلاث صواري تحمل ثلاث رجال من عساكرنا.

حاولت أن أهرع إليه، هذه المرة لم يمكنني أحدا، نظرت إلى الميرغني برجا لكنته تجاهلني، وأكتفى بعبارة وحيدة:-

- هذا كمين آخر، ويكفيننا تهورك، وتركني يدعو الجنود للاحتماء بالنهر لتفادى موجة النيران التي تتقدم باتجاه الزريبة بثبات.

عندما توقفت الرياح وهمدت النيران جاء صوته واضحا يطالبني بأطلاق النار عليه، تبادلنا وقائد القوة الخفيفة نظرات حملت معني صارما... لا اندفاع فى البرارى، لا تهور، لا خسائر غير الخسائر، وإنما مهمة وحيدة، هي إنقاذ الجنود المعلقين من الموت حرقا.

لم ينجو أحد كي يحكي القصة، لكنني ظللت أتمنى برجا أن يطل علي بابتسامته الواسعة وبهجته التي توارت منذ غادرنا (لادو)، وعينه الحولاء بطريقة ظهر وجهه الصامد من وراء الدخان، ينظر ناحية النهر، كان يبحث عني، وأنا أحاول الاختفاء بكل وسيلة ممكنة، كلانا يعلم ما سوف يطلبه منى بصوته الجهوري.

لحظة أن وقع بصره علي، كان ينظر بغضب، وصوته يطرق أذني: أطلق على النار.. أضرب يا أفندم.. أرجوك، عشان خاطر الحاج مصطفى الرفاعي. مد ساعديه للفضاء وفتح صدره، وهو يشير بأصبعه إلى قلبه.

دار الملازم فوزي حول نفسه المرة بعد الأخرى، وهو يضرب رأسه بيده، ويطرق الأرض بقدمه، كمجنون وقع أسير حفرة لن يصعد منها طيلة

حياته. ها هي السنة النار تتصاعد بطيئة أسفله، يرفع البندقية وينظر من مراقبها، يحاول تصويبها ناحيته، تحول الدموع بينه وبين رؤيته.

ينزل البندقية، يمسح دموعه، وهو يفكر، وكيف سألقي أبوك مصطفى، كيف سألقي مبروكة... يعود يرفعها ويصوب ناحيته، يرى وجهه من خلال عدسة المنظار يبتسم، يسأل نفسه... كيف لي أن أقتلك؟ ماذا سأقول لابنة الرجل الطيب سائس القصر؟ كيف سأواجه نظرات أصدقائك من الجنود، كيف سأواجه زملائي العربيين... تخترق الفضاء صوت إطلاق نيران من بندقية مجاورة، تخطئ الهدف..

كيف أطلقت ثلاث رصاصات؛ واحدة تلو الأخرى.. لا أدري.. ربما مرأي الألم والشدة، اللذان يملآن عيني والنيران تشتعل به...

لكن راحة عميقة حلت بوجهه وهو يتوجه ناحيتي بإيماءة تتدفق بالارتياح. بعدها جلست على الأرض القرفصاء أبكي، وأنا أشعر بالكراهية للرجل العجوز الذي علمني، وأنا بعد طفل صغير دقة الرماية.

* * * *

كان الملازم الميرغني (أكثر ضباط القوة تماسكا وخبرة بالقتال في البراري والغابات)، قد أمر بإزالة الأخشاب المحترقة، وهدم الجدران المعرضة للسقوط، وجعل من بقايا الزريبة ساترا للحماية، ومنصة لإطلاق النيران، وبدأ يعيد ترتيب القوات ضد الهجوم القادم، وعندما انتهى كان للقوة ساتر تستطيع الدفاع منه عن نفسها.

على مبعدة مائة متر قام العريف فضل الله الدنقلاوي بزرع الألغام، هجوم اليوم التالي ألحق بالمهاجمين خسائر فادحة، لكنهم تمكنوا من تخطي حاجز الألغام، فأشعر الضباط سيوفهم، واندفعوا يتقدمون قواتهم، يقاتلون في معركة متلاحمة بالسلاح الأبيض.

قاتل الملازم فوزي عصابات الرقيق ومحاربي الأبراموس بتطرف؛ بنيتة الثقيلة، وجهه الغاضب مثل ثور منتقم، حاول شلعي إثناؤه عن المغالاة في

التقدم أثناء القتال المتلاحم، لكنه كان يدفعه بعيدا، ويتقدم غير عابثا بالخطر.

مع نهايات اليوم دفنت جثث الجنود الذين قتلوا بالأمس، مضى الليل بطيئا وقد فقد فى الحصار نصف القوات النظامية، نحن فى حاجة لدعم عسكري.

قبل بزوغ الفجر دخلت زريبة نيا نجارا من الشرق سرية بقيادة يوزباشي عبد الله العبد، ومعها مائتان وسبعون محارباً من قبائل الكوكويين، ولدهشة الجنود سأله أحدهم إذا كان قد بلغته استغاثتنا؟ ضحك وقال إن قبائل الكوكويين التي تنتمي إليهم زوجة يوزباشي الرابعة، أرسلت تحذره قائلة "إن قوات الصاع منتصر محاصرة فى زريبة نيا نجارا، وهي الآن تشوى"، وأضاف: أن سرية مدافع جبلية محملة على قوارب قادمة من لادو بقيادة الملازم مصطفى العجيمى عبرت منذ قليل، والآن ما هو المطلوب؟

تحت ضوء القمر انسحبت السرية الثانية من مواقعها إلى القوارب الخاصة بسرية دوفيلاي، وانهمكت جنود المدفعية فى تسوية مرابض المدافع الجبلية، واتخذت سرية البيادة مواقع جديدة غرب زريبة الموت، وانتشر محاربو الكوكويين فى المراعي، سأل العريف فضل الله الدنقلاوى الذي رقى لرتبة شاويش بعد هذه المقتلة، إذا كان فى نيتنا عمل محرقة أجاب الميرغني بغضب: "إذا كنا لا نعرف فردوس الله من جحيمه، فلنراهن على نعيمه".

قبل شروق الشمس تسللت القوات داخل مراعى السافانا، الرجل الأول الذي قطعت عنقه كان من صيادي الرقيق، فى البكور تولت ألغام العريف فضل الله ولد الحاج (التي وضعها بعناية)، الإطاحة بعشرات من محاربين الأبراموس، مما اضطرهم للتراجع.

شهوة الشيخ عبد اللطيف للانتقام جعلته يعاود الهجوم، لم يكن يدرك حجم الإمدادات التي وصلت الليلة الماضية، بعد عبوره حاجز الألغام أصلاه الملازم مصطفى العجيمى بقصف مدفعي مفاجئ أثار الذعر والهلع بين المهاجمين، وشن هجوم من الجانبين، انتهى بمذبحة لعصابات الرقيق وحلفائهم، تناثرت جثثهم على امتداد البرارى المحترقة.

أقيمت الصلاة على القتلى، وواروهم التراب على نهر (ويلي)، فى فجر اليوم التالي دخلت القوة الخفيفة مباجا قبل قدوم قوات بخيت بك بتراسكي بساعات قليلة.

* * * *

عبر القائم مقام بخيت بك بتراسكي، نهر (كيبالى)⁽¹²⁾، ودخل عاصمة (مونبوتو)، تتقدمه الموسيقى العسكرية تعزف مارش "سلام الباب العالي"، وخلفها البلوك الخامس بقيادة المكون من الجنود السودانيين النظاميين مسلحين ببنادق ريمنجتون بقيادة اليوزباشي ريجان أغا، وعبد الله فندي أبى زيد مأمور (ريمو) يتقدم حاميتها من الخطرية، فى المؤخرة سار مئات من محاربي القبائل الزنجية الموالية للحكومة، بقيادة كبرائهم، ومن خلفهم الحمائلون ينقلون المؤن والمهمات.

فى دروب مباحا وقف الأهالي يتابعون الجنود المجندة الذين لم يروا لها مثيلا، مبهورين بكساوي العساكر النظامية الجديدة، التي وردت من الديار المصرية، فكان تأثيرها فى بلاد تعيش العرى المطلق، أشد فعالية من نيران البنادق المهلكة.

أقام الصاغ منتصر وليمة فاخرة على شرف قائده الجديد، وقدم لضيوفه أفخر أنواع الجعة، والنييد، والعرق السوداني، والقهوة، فى أطقم من الخزف المزخرف، ووزع على الضباط التمباك الفاخر مع غليون من العاج، فى كرم لا يستطيع أن يقدمه فى أدغال أفريقيا سوى الصاغ. دون أن يشفع ذلك فى تفادى الصدام المحتوم مع القائد الجديد.

فى الصباح الباكر حضر الصاغ إلى قاعة الاجتماع، وانتحى مقعدا جانبيا، تاركا المقعد الرئيسي للقائد الجديد، مضى الوقت بطيئا دون أن يظهر أحد، نظر فى ساعة الجيب، كانت العاشرة، أشار للوفد أن يقوم بزيارة بخيت بك للاستفسار عن تأخره، توقع الصاغ أي بلوى من أي نوع،

12 (كيبالى: Kibbali)

إلا أن يعود الفولى بعد دقائق ويخبره، أن القائم مقام بدأ اجتماعه منذ الصباح الباكر.

- الله، هو إحناح نبتدي الغم من بدري!

فى خيمة واسعة نصبها جنوده جلس بخيت بك، وحوله كبار الضباط وزعماء القبائل، احتل كابتن كازاتى مكان الصاغ، وجلس الطبيب جونكر على يساره، وبجواره اليوزباشي أبوزيد، واليوزباشي ريحان أغا السودانى، وهو من الذين حاربوا مع الفرقة المصرية فى المكسيك، كان واضحا أن القائم مقام لم يترك للصاغ مقعدا يناسب رتبته.

تجاهل بتراكى قدوم منتصر، الذي استقبله زعماء القبائل بإجلال ورهبة، واستمر فى حوار ضاحك مع جونكر، أثر منتصر الصمت، وجلس فى الصف الخلفى يستمع لهم يثرثرون، وعندما علم أن كازاتى انتهى من عرض خطته الخاصة بالهجوم، طلب من بخيت بك أن يعيد كازاتى خطته، لم يعره انتباها وأصر على تجاهله، وعاد يحدث جونكر الذي نبهه بلطف لطلب الصاغ، فأشار لكازاتى أن يفعل، فقال فى اختصار إن الحملة ستقسم إلى ثلاث فرق ستقدم لمحاصرة الملك (مامبا نجا) من ثلاثة اتجاهات، واكتفى ليعود إلى حديثه مع جونكر، لكن صوت منتصر ارتفع حادا وهو يسأله:

- "وايه الهدف؟"

التفت كازاتى وقال باستعلاء: "حصار (مامبا نجا) بالطبع، هل تعتقد إننا سنحاصر لادو"، ونظر وهو يضحك إلى بخيت بك الذي بادله الضحك، لكن منتصر قاطعه مستفسرا عن تشكيل القوات، قال كازاتى بنفاد صبر وهو يشعر أنه قائد الحملة الحقيقي: "القوة الأولى بقيادة اليوزباشي أبوزيد، وسيتحرك من الميمنة بامتداد نهر (ويلي)، القوة الثانية بقيادة الملازم الترجمان محبوب، وسيتحرك من الميسرة على نهر (بوموكاندى)، أما القوة الثالثة فسوف تتحرك مباشرة إلى (مامبا نجا) بقيادة سعادة القائم مقام بخيت بك".

- وايه دورى فى اللعب ده؟

- أنت؟ قالها كازاتى بزهو وهو يشعر أنه حقق أهدافه، وحول منتصر من عملاق إلى قزم، قال باستخفاف وصلف: "ستتولى بناء الأكواخ لحملة بخيت بك". ضحك، واستطرد بابتسامة صفراء: "هل يغضبك هذا؟"

- يوزياشي كازاتى، عارف أن غضبى يسعدكم، خصوصاً لأن جدك كان قيصر روما، أنا مش فاهم، أزاى تستخدم ميمنة، وميسرة، فى قتال جيش مالوش جسد، ده تفريق للقوات، (ومامبا نجا) مش غبى عشان توقعه فى مصيدة، أنتم أحرار، بس خلينى أقول لكم أن مصيدتكم ح تكون غربال مخروم عند ولية⁽¹³⁾ غلبانة، أنا غضبان، وأغضب ليه، طالما أن دى رغبة بخيت بك، حضرته عقد النية على استبعادنا من البداية، وبدأ اجتماع القيادة من غير دعوتنا للحضور، وسابنا ملطوعين ثلاث ساعات زي الكلاب الجريانة فى انتظار فخامته، وإذا كان يسعدكم إننا نمسح مؤخراتكم فمفيش مانع، وقام مغادرا الاجتماع وخلفه ضباطه.

فى تعليمات الصباح أوقف بخيت بك بتراكي العمل فى سرية الإشارة بالأعلام، التى أدارت عمليات الاتصال بين القوات طوال تحركها من لادو إلى مابجا، وأشار وهو يستعرض القوات، إلى رفضه الخلط بين فروع القوات العسكرية، وأن ما هو مناسب للقوات البحرية لا يناسب قوات البر، وأعلن وقف الخدمة الليلية؛ ترفقا بالعسكر، وعدم إجهادهم فيما ليس له قيمة، وهو ينتظر أن يظهر الجنود شجاعتهم فى خدمة الحكومة المصرية، وسيدنا جناب الخديوي، ونحن على ثقة من أنه ليس فى استطاعة كائن من كان، أن يقاوم عساكره المحمية بملائكة من عند الله عز وجل.

وفى إهانة تفوق كل احتمال، وبخ بخيت بك الجنود المصريين التابعين لمنتصر، وأمرهم بمغادرة الطابور، والجمع فى طابور إذلال، وقام بإلحاق العار بهم أمام ثلاث أورطات عسكرية، ضمت سودانيين وخطرية وتراجمة، فقال "أن عددا من العسكر وضباط الصف أعلنوا تدميرهم من الانضباط العسكري الذى أوقعه عليهم الصاغ منتصر، وقدموا شكوى ضده إلى ضيف الحكومة المصرية الطيب جونكر، ورغم قولهم أن الصاغ هو جندي محنك، وله إمام تام بدروب الإقليم ومسالكة، إلا أنه صارم لا يغتفر الهنات والزلل، وتعطفوا من الطيب جونكر ألا يغادر محطة مابجا

(13) ولية: امرأة فقيرة

- من ساعة ما وصلت وأنت تفعل، أنت جيت ومفيش فى قواتك عنصر مصري، والآن تهينى وتهين قواتى، وتعرض بالعنصر المصري فى جيش حكومة الخديوي المعظم، وهذه إهانة للخديوي شخصيا، كان لازم تأخذ إفادتى أولا، أنت تتعدى التسلسل القيادى، وإذا كان هناك خرق للضبط والربط فهذا ما تفعله أنت. ضرب الطاولة وأضاف: "وأنا أحذرك لا تستهين بى، أنا الصاغ حواش منتصر".

تدخل كازاتى ثانية موجهها حديثه الساخر لهما: "بخيت بك، حواش فندي حلوا مشاكلكم بعيدا عنا". نظر إليه الصاغ بكراهية ورحل.

"سنحاصره كما يحاصر الذئب بقرة، وعندما يدخل الفخ، سننتف ريش الطاووس"، هذا ما أعلنه القائم مقام بخيت بتراكى، وهو يعطى تعليماته الأخيرة للقوات، قبل مغادرة بخيت بك التقى الأربعة، قال بتراكى لجونكر بعتاب أنه كان يرغب لو كان معه، فهو يأنس بوجوده، أجابه بلطف أنه سيبقى فى مباحا لدراسة الأدغال، وأشار إلى منتصر، أن الذي يستحق وجوده بجانبك هو حضرة الصاغ، وهذا ليس من العدل.

هر بخيت بك رأسه متفهما وأجاب بلهجة مهذبة: "نحن نعلم خبرات منتصر فندي، لكنها رغبة أمين بك"، وانطلق متقدما قواته وبجواره كازاتى يتقدمان حملة الأعلام المصرية بعد التخلص من الجنود والضباط المصريين.

اشتعل النشاط فى المعسكر، وأعطى حواش أوامر مشددة بضرورة الانتهاء من بناء الأكواخ فى يومين، وفى اليوم الثالث قام على إعطاء جنوده راحة مفتوحة، وجلس تحت شمس شتوية وسط أكواخ جنوده ومحاربيه، مكتفيا بعدد من جنود المراقبة والاستطلاع.

بحث الضباط العراقيون عنه، وجدوه ممددا على بطنه على ضفاف نهر بوموكاندى، عاريا إلا من منشفة بيضاء، وحوله نساؤه عاكفات على تدليك جسده بدهن الطيب، عندما شعر بوجودهم، قال دون أن يرفع رأسه نحوه:

- لسه عندكم جيش للثورة؟

أصاب الضباط الخرس، وقال بسخرية مرة:

- الفلاحين بتوعكم ميعرفوش أعدائهم، شفتهم حملة محمد أمين وكازاتي، مفيهاش ضابط أو جندي مصري واحد، بيعزلوا المصريين عن الإقليم، وفلاحيكم يتوجهون للأوروبيين بالشكاية؛ يشتكوا التعب، والإرهاق، والضبط والربط، فيتم اتهامهم بأنهم "خولات"، "نسوان"، أولاد "القحبة" ألفين وخمسائة، عام وهم يمدون إمبراطوريات العالم بالقمح. همس الفولى بابتسامته التائهة: "لا يوجد أكثر من النساء شقاء فى العالم".

ضحكوا للمفارقة، قال الصاغ:

- "يعنى هوربنا قدر للفلاحين بتوعكم يكونوا نسوان".

- ليه القسوة، ممكن حضرتك تقول خدم، عبيد.

ضحك بصفاء وقد أعجبته الفكرة، وأزاحت عن صدره هما ثقيلًا، قال:

- لا، المصريين مش نسوان، عندهم جلد وصبر، بس ينقصهم عزة النفس، والكرامة، تنقصهم الإرادة، عاد الصمت طويلا قبل أن ينطق ثانية: دلوقت ممكن تروحوا تدوروا على صاحبكم، تفضلوا، أنا محتاج أنام.

* * * *

المصتبة السحرية

فروس اللفظة



فردوس

فى الفردوس الذي
الاستوائية العملاقة
البشر، توارى بين الأحراش
يافع، سلخته وأعادت حياكته أنثى ماهرة، تطلع إلى مورد المياه والخوف
يرشح من مسامه، ثمّة خمر وحشية ترتع على العشب بطمأنينة، وأيائل
تروى عطشها، وكركي تقف بخيلاء فى مغاضة البر، ونورس يحلق فوق
النهر، وزراف يقف على حافة المياه، يباعد بين ساقيه الأماميتين كي يبلغ
خطمه الماء، عاين الرياح أماكن هروبه حال الخطر، وتقدم يروى عطشه.

من الأفق أطلت خيول الرياح تحمل السحاب معبأة بماء السماء، تلفت
الرياح حوله فى ذعر، وأسرع يتوارى فى جوف السكون الحي للغابة
الاستوائية المطيرة، حيث الظباء، والشمبانزي، والضواري، والرّت⁽¹⁴⁾،
والقوارض تتجول على أرضيتها الدبقية ضئيلة الغذاء⁽¹⁵⁾.

تلمس طريقه فى بقايا الضوء الراشح من الظلة العليا لتيجان الأشجار
السامقة، يجمع البذور، وثمرات الثوت البري من ثنانيا جذور الأشجار العملاقة،
والنباتات الهوائية⁽¹⁶⁾، اجتريها كحيوان عشبي، وهو يأمل النجاة من
اللاحمات الضارية، التي وهبتها الأحراش حلبة مثالية لألعاب القنص
والمطاردة.

ضرب البرق السماء، وانهمرت الأمطار الرعدية غزيرة كاسحة، تسلق
الرياح المستوحد مع ذاته جذع شجرة ترك بوله علامة تدله عليها، متوجها

14) رّت: خنزير

15) فقر أرضية الغابة: أدى قلة كثافة الضوء إلى فقر أرضية الغابة من الغذاء، ما دفع كثير من الكائنات خلال
حلقات تطورها، إلى الاختيار بين مهارة تسلق الأشجار العالية، والانتقال بين مستويات ظلالها المختلفة، أو الطيران.
16) النبات الهوائي: Epiphyte نبات ينمو على نبات آخر، ويصنع غذاءه بذاته، يستمد القدر الأكبر من الرطوبة
والمواد الضرورية التي يحتاجها (كغذاء) مباشرة من الهواء المجاور له، أو من مخلفات النباتات المتراكمة حول جذوره.

إلى كهفه المستتر بين تيجانها دائمة الخضرة، حيث تهجع حيوانات لم تهبط أرض الأدغال طيلة حياتها، وتمرح أخرى أتقنت التسلق، والجميع قانع بالمائدة التي تقدمها بسخاء الظلتان العلوية والوسطى لشجرة الحياة العملاقة.

ثبت الرياح اليافع قناعه المصنوع من جمجمة بشعة، واستتر داخل لوحة الطبيعة التي رسمتها قردة، وسلاحف، وعظائيات، وعصافير، وببغاوات، وخفافيش، وبعوض، ونمل، ونحل يذوب فى ألوان، تنبض بحيوية، وخبث، وخيانة، ودهاء، ومكر طبيعة غادرة.

استغرقه المشهد المائل أمامه؛ طائر (تنوط)⁽¹⁷⁾ متعلق بمنقاره الأحمر فى أقصى أطراف شجرة الورد، يفلت من طمع الأفاعي، ضفدع نفخ أوداجه، ليصبح حجمه أكثر ضخامة من أن يبتلعه ثعبان، طيور تلتهم عناكب، وظباء فى حجم الرت، وزت ملتحية تلبسها شياطين الجحيم، وطواير نمل تهرب من أكالات النمل، تحمل أوراقا تزن أضعاف وزنها، وتنانين طائرة تنفث أفواهها السنة النار.

أخذ بمجامع لبه (حباك) أصفر، انهمك فى نسج عش لأنثاه، يغزل بمنقاره غرفة لمأواه، يعقد أطرافها بمهارة، وحوله مئات (الحباكين) مستغرقين فى بناء قرية من أعشاش فى أفنان⁽¹⁸⁾ الشجرة، تصدح الذكور التي أنهت أعشاشها بالغناء، وتصفق بأجنحتها، تلفت نظر الإناث إلى ما أنجزته، وتدعوها للقدوم، شهق قلبه؛ لو أن هذا استمالة للمعاشرة، وعرض بالزواج.

دهن غصن الشجرة بدم جرد قنصته فخاخه، المخبأة بعناية بين السرخسيات، وثبت أنشودة صيده، وتمدد بانتظار الفريسة، تاركاً ذاكرته المتهاوية تطفو على مهاد تلك الأيام، التي كانت تعنى له الشبع حتى التخمته، والاسترخاء فى عالم النعمة، والراحة من أيام الشقاء، التي يقضيها جامع الطعام البدائي، مرغماً فى البحث عن طعامه، تتبع ما علمته أميرات المبوررو من طرائق وسبل من أجل البقاء.

17 (التنوط: طائر يعلق قشورا من قشور الشجر ويعيش فى أطرافها لتحفظه من الحيات والناس والذر
18 (أفنان: الأغصان المستقيمة

التماهي مع الطبيعة، الاختفاء بين طياتها؛ صبغ جسده بألوانها، حتى يضلل عيون الضواري، درء الجوع بتوسيع دائرة طعامه، ليأكل كل شيء يمكن هضمه، ويبقيه على قيد الحياة، متغاضيا عما يستساغ، التخلي عن حلاوة لحم الضباء حين يصعب قنصها، إلى القبول بمرارة السحالي، والتهام الفئران، والديدان، والحشرات، والبحث في بقايا الرمة التي تتخلف من فرائس الكواسر.

الأكل بشراسة ونهم حتى التخمته؛ حين يتوفر الطعام، تحمل الجوع حين ينفد، الاكتفاء بما يتمكن من الحصول عليه من دوالي الغابة؛ بذور، وثمار، وأوراق، وبيض فاسد، ليؤتي المعنى العميق للتكيف من أجل البقاء؛ ذلك ما علمته الأخوات الخمسة في عالم الأدغال، بصبر لا ينضب وحب لا يفهم، وعطاء يصعب إدراكه.

في العتمة ومضت عينا الرياح (الذي اختاره رفاقه لحدة بصره، وثبات أعصابه، لتنفيذ رغبة عبّر عنها الأمير لاي محمد عبيد، لاغتيال الخديوي، وإعلان الجمهورية)، نقب عن حيوانات ليلية تماهت ألوانها وسط الطبيعة، بحث عن إيماءة أو علامة، حركة لحرباء تدل عن نفسها، وسط براعة التخفي، وبطء يضاهي السكون.

من خلف الغمام تسللت أشعة قمر شتوي، تعكس على مرآة نهر (ويلي) الداكن، المصقول ببريق الليل، قافلة من (السعادين العاوية)⁽¹⁹⁾ تعبر النهر إلى الغابة في طابور يتقدمه الزعيم، ويتبعه الذكور، ثم الإناث تحمل صغارها وتمسك أطفالها.

عبر طابور السعادين في هدوء حذر الأدغال المتشابكة، وبين فينة وأخرى يشق الغابة عواء أحد الذكور، منبها إلى فتحة في الأحراش، وعندما تسمع الغابة صوت ارتطام جسد أحد صغار السعادين، بأرضيتها الرطبة المظلمة، وتبرق في الدجى عينا فهد أرقط بشهوة الصيد، تسرع الذكور وتجتمع في حلقة أعلى الأشجار، (حول المكان الذي سقط فيه الصغير)، تطلق عواها عاليا كي تحميه من هلاك محتوم، دون أن تتجاوز شهامتها هذا الحد، تاركة إلى أمه، مهمة الهبوط إلى أرض الغابة المرعبة، تجذبه من قفاه وتعود مسرعة إلى أعلى، يومئ زعيم السعادين نحو الرياح اليافع

19 (السعادين العاوية: نوع من القردة، تعبر عن حاجيتها المختلفة بالعواء والصراخ

بالسلام، ويتحرك إلى قلب الأدغال وخلفه عشيرته، لتتوارى، ويتلاشى عواؤها.

تمدد مسترخيا في الكهف الذي نقرته لهما، في جوف الشجرة العملاق أصغر الممبوريات؛ الأميرة (جنجي)⁽²⁰⁾ روح الغابة، يوم قادت بحواسها المرفقة إلى عالم الأدغال، يستعيد جسدها المحجوب في جسد الغابة الحي، يتنفس روحها، وأرجها الذي ذاع شذاه في الوجود، حتى غفا، ليطفو جسدها الحي في ذاكرته المشوشة، وهي ممددة جواره في هذا الكهف تسلم له جنانها.

* * * *

في تلك الأيام الخريفية تحولت محطة حواش إلى كهف بدان
يفتله الجوع بقاظنيه، وثلاث من الأميرات الخمس يرقن عجازات
عن الخروج لجمع الطعام، وأرحامهن حبلبات بأجنة في حاجة لمن
يبقيها على قيد الحياة، بينما الرابعة ترقد من النهر أخرجت
جريحة من جراء ضربة من محالب فهد الأميرة لوالبا شباكها، محملة
أسود، تركت آثارها خطوطا دموية باسماء الأزورد، ومن
محفورة على بطنها، كان عليهن إما الأدغال عادت الأميرة أبرافو
اطوت جوعا، أو الرفع بالذكر الوحيد وفي جعبتها طيور
القاطن في الكهف للخروج للقتل. وعظايا، وسلاخ تحوي
أوراقا من شجر الدانورا
حد السكون على ساحة السام، وزهورا فواحة بعطر
المحطة، فلا أرائب تقفز هربا من ظل ليل قائم، وبنورا فثاكة
تجلب يترص بها، ولا يحايين تقنص لفاصوليا تخملية، وعناقيد
فأر، ولا عفا، ينقض ليحمل بين بيضاء من عنب الهدال،
تجالبه سنورا صغيرا. تحوي حبانها وعدا بالهلال

يتوقف الزمن، يتوقف كل شيء، يخرق
الرياح اليافع في سوال يطرق عقله؛ هل كان عليه أن تزل زعيم

20 (جنجي: Jengi روح الغابة)

الرياحين وعشيرته يغادرون المحطة ؟ هل بحق لرياح يافع
مغادرة موقعه العسكري، دون أوامر من قيادة جيشه في لادو ؟
هل يعتقد قاضيه أنه على قيد الحياة ؟

تحلفت الأميرات الأربع حول أختهن الصغرى الأميرة
(جنجي) ، روح الغابة، الالهية عما جرى حولها، وبين فينة
وأخرى يتطلعن نحوه، عادت توجساته أن يضحى طعمهن، وقد
تيقن خلال معاشرتهن، أنهن لن يتورعن أن يتلذذن بلحمه، عندما
تلم بهن الضرورة، هتفت (جنجي) ، روح الغابة، وهي تنظر
نحوه باستنكار:

- " أيه ؟ ! عاوزين أيه " ؟

قالت روح القمر:

- " لئمنحه الغابة بركاتها قبل أن يخرج للفنص " .

وقالت شجرة السماء:

- " ستضلد روحه ولن تجد مأوى بعد اطوت " .

وقالت روح النهر: " يا أختاه، يجب أن يمتزج في روح النهر، حتى
لا يجف جسده " .

وهمست المحاربة: " يا أختاه، علمته فنون الفنص، ولن
ينجو دون أن تهبه الغابة روحها " .

تأملته الأميرة الصغرى، وعيناها السعيتان تتجلبان
بالرضا، وعادت تنظرهن، وهن بانتظار أن

تفصح ما عزمت عليه، تطلعت إليه
ترشفه بعينيها، ولغرها اطمخ بلحم
الشهوة يفر برائحة الاشتها،
وأومات برأسها موافقة .

من حقله الذي عثر فيه على
مقبرة للعظام، عادت روح القمر
وهي تحمل جماجم بشرية .

والدنيا غياب وحضور،
وفراق وجنون، وتحاليل
ومراوغة، أشعلت النيران
في أطواق الحجر، تترن
مسحوق الجماجم على
قلب الريح وهي تبهل
برقى، وطلاسم سحرية .

ابتهللت الأميرة أياكاً إلى روح الأسلاف، فأنبتت الأرض
شجرة عملاقة راحة الجمال، أوقرت برق، نشر جناحيه المهلولين
على قبة السماء، وضربت الأرض صواعق نار.

تشهد الغابة الاستوائية المطيرة الأميرة (أبرافو)؛
المحاربة، تحمل في شباكها جثة رياح يافج، سلخه وحيد
من جلده ثوبا لرجلهن الوحيد.

جن الليل واكمل القمر، ورصعت السماء حبات المطر،
ونهر (ويلي) مصقول بلون البنفسج الداكن، يعكس على
صفحته الظلمة الربية، فإذا مرق شهاب وحلّ الظلام،
وأصبحت الغابة غيلانا ترتد فحيح الرياح، سلخت الإفوات
جلد العظايا السام، وطختها مع أحشاء السمكة اللازوردى،
وأوراق زهور الهنيان، ونفثن مسحوق السم القاتل في خمر المطر
المسكر. تحلقن حول المنبح الحجري، تخفى وجوههن أقنعة من
خشب الورد، مخفورة جنيات الغابة، رقصن يستحضرن أرواح
الأسلاف، تجرعن دماء طيور مذبوحة، يذرونها على جسده
المشبوح على المنبح قرابين بشرية، وهن يغنين:

(شيشا) ⁽²¹⁾ أيها المحبوب الأقوى

هل اللبوة موت وهلاله ؟

لا، ليست اللبوة موت وهلاله .

إذن، فما عسى اللبوة أن تكون ؟

إنها امرأة .

.....

شيشا) أيها المحبوب الأكبر

هل البرق شجرة ؟

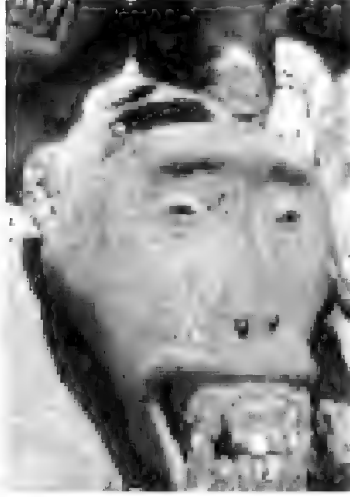
لا، ليس البرق شجرة

فما عسى البرق أن يكون ؟

إنه امرأة .

.....

(21) شيشا: CHICHA المحبوب



(شيشا) أيها المحبوب الأعظم

هل النهر سمكة ؟

لا، ليس النهر سمكة

فما عسى النهر أن يكون ؟

إنه امرأة .

.....

(شيشا) أيها المحبوب المخارب

هل القنص رماح ؟

لا، ليس القنص رماح

فما عسى القنص أن يكون ؟

إنه امرأة .

.....

تجرع الرياح الياضع السم المنقوع في الخمرة، ارتوى وثمل،
ماد الوجود حوله، وهامت به هلوسات روى وأحلام، فراهي
فيما يرى النائم الأميرات الخمس يقودنه خارج الحامية، على
خافة الغابة خلعن عنه وزرته، حتى صار عاريا مثل الطبيعة .

قالت الأميرة جنجي :

"أيها المحبوب (شيشا)

انضو عنه الرياح والأشياء

من جيد تتعلم الأسماء

الكلمة هي الشيء نفسه

اسمه هو المكتوب منذ الأزل

أسمى هو الذي وجد منذ كان الوجود

مفتورا بالبلاء

أيها المحبوب (شيشا)

أنت تولد معي من جيد"

طانا تشغل بالعري
إذا كان الوجود حوله عاريا
إذا كان الله خلق مخلوقاته
عرايا

* * * *

يستعيد الرياح اليافع ما لقنته المحاربة (أبرافو) أصول الصيد؛ أساليب التواري وطرائق التخفي، والسير في عتمة الغابة بحذر، والكمون بانتظار الفرائس بصبر وجلد، لا يتحمله إنسي، يتذكر ضربة كوعها المؤلمة، وهي تحذره من الاقتراب من معرض الألوان الزاهية الذي يخفى الضفدع صاحب السهم السام، وتجنب الورل الذي تقطع أنيابه الأصابع في قضمة واحدة، والتهام (يسروع)؛ تماهت ألوانه الزاهية بألوان الأوراق التي يزحف عليها كما لو كان جزءاً منها.

ببطء مضغ الرياح اليافع الديدان التي فرزتها عيناه عما يحيط بها، بحرص يجنبه جذب انتباه جاره النمر، الرابض في سكون، حاول من فرط وحدته أن يبادلته التحية، بعدما تركته الأميرات ورحلن، أن يخبره إلى أي حد يتشابهان، كلاهما انعزالي مستوح، يتجول نهارة، ويستريح في الظهيرة، ويصطاد في الليل، يتسلقان الأشجار في مهارة، يتعرف النمر على منطقته برائحة بوله، والرياح اليافع بذاكرته، يمارس النمر صيده، معتمداً على سرعة الركض، وقوة أقدامه القصيرة، والرياح اليافع على دهائه في التخفي وصناعة الكمائن، يستخدم النمر قوة فكّه، وأنياه الطويلة الحادة، كأداة قتل سريعة، والرياح اليافع يعتمد على مديته بندقيته، والوقت يمر بينهما بانتظار معركة فاصلة.

* * * *

تدخله الأميرة الصغيرة جنجي روح الغابة في سكون
شرقتها، تلف حوله شبكة من خيوط الحرير، تصبح جزءاً لا
يتجزأ من ذاتها المفعمة بالطبيعة، تندمج في عالم الرياح
والطير، الأشجار والزهور، الطيور والضواري ورائحة الخطر، تحمل
كينونته في الوجود الحي لروحها الذي تنفسه الجمادات،
والكانات حية، جنح شجرة عملاقة، ورقة من سحلبية وارقة،
قطرة خمر في نهر، ساق بردي تعزف ألحان الرياح، قارض لا
تتوقف أسنانه عن قرص الوجود الصلب، ماء سلسيل يجري في
الغدران، يرقة تسافر رحلة العمر، أكل عشب بين الطراند،
ولا حم بين الضواري..

نام، وتمدد فالصيد يستلهم من روح الغابة
الصراع حول الشمس؛ واستعن بالصبر والناة
والجلد، فإذا دخلا الغابة كانا عاريين، غمغم:

".. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا
وَطَفِقَا يَصْفَقَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ."
(سورة الأعراف 22)

"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا
مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ". (22).

قالت روح الغابة:

"أيها ا لمحبوب شيشا

اغسل جسده وتطهر

روحك في رحي ينمجان"

.....

أيها ا لمحبوب شيشا

لست آدم وما كنت جوائله،

وما أنا بأنثاله.

أنا روح الغابة، في محيا كل حي ويموت

أنا الفردوس

في جنانه كل شيء مباح لله . . .

تقطف من ثمراتي ما شئت . . .

وتأكل من أنعامي كيفما شئت . . .

أنا الجنة . أنا فردوس النعيم

وليس في من شجرة أو طير أو حيوان

محرم عليه.

* * * *

لمح وزل يتلمس بلسانه رائحة الدم، كمن فى سكون حتى عبر برأسه حلقة الأنشوط، جذبها فى سرعة البرق، فارتفعت بالوزل، جدف بذيله، وأقدامه القصيرة فى الفضاء، دفع به إلى مخلته، متحاشيا ضربات ذيله القوية، وقام عائدا إلى مأواه، الذي يؤوب إليه فى نهاية يوم صيده.

فى طريق عودته لمح الريح اليافع عددا من القردة قطعت حدود غيطه، وانثنت تسرق الخضار والفاكهة، أسرع يجرى حانقا، وهو مستعد للموت دفاعا عن حقله، صاح يشوح بها بأن تبتعد، لكنه توقف وقد لبسته الدهشة، وهو يرى القردة تتحول إلى حوريات صغيرة، فاحمات السواد، لا يدري من أين قدمن، تراجعن بخوف شديد، أشار يطمئنهن، واقترب بلطف، كي لا يصبين بالذعر، مال على شجيراته، جمع منها طماطم، وقرعا، وباذ نجانا، وأحضر شئامنة طيبة، وضع ما جمعه فى سلة وقدمه لهن.

تبادلن الصياح والبكاء، وعدون إلى الغابة، تلاشى نواهن، ليس ثمة صوت سوى صرير الرياح، وخيرير مياه نهر (ويلي)، فرك عينيه متأسيا، إذا كان للأشياء وجود حقيقي، ترك سلته على رأس الغيط، وحمل مخلاته على كتفه، وأب حبيس وحدته شطركهفه الكبير.

يشهد نهر ويلي حيوان منبوذ من القردة الرئيسية، على جسده أثار جروح رسمتها مخالب هررة وحشية، وندوب نحل ولدغات أفاعى، وجراح الأحرش، يغادر فى البكور كهفه، يحمل مخلاته، ميمما شطركهفه، قفز يرقص، لقد قبلت الحوريات هداياه، حانت التفاتة إلى سلته الفارغة، داعب عينيه بريق يلمع تحت أشعة الشمس، نظر مرة واثنيتين قبل أن يعود غير مصدق، لقد أثابته حوريات الغابة بقطعتين من ذهب الجنة.

* * * *

على شرفة مغاراته الزمنية خلع الريح جمجمته العظمية، ونضى جلده الذي حاكته الأميرات المبوريات قبل رحليهن، ودمعهن يبتهل إلى الآلهة أن تبقى على قيد الحياة، تعبر الأسماء صفحة الوقت، تهيم فى هلوسات الوحشة.

يتداعى غبار الزمن بالضوضاء والرغام والهباء يكشف عن جماعة
الرياحين يصطفون فى طابور تحية العلم، تضيع اللوحة، يتساءل إذا ما
كانوا رحلوا دون وداعك، تغوص فى مغارة الهذيان، تحدث نفسك بصوت
صاخب حبيس محبسه، لا يسمعه سواك، إذا ما خانك زعيمهم الذي جاورك
شهورا جالسا على مقعد الساحر الكبير، تحيط بكما إنائك وإنائه،
كل منكما يتابع قطيعه بمهابة ووقار، يزجرهم ويطلق عواءه فى
وجوههم، يتراجعون فى خضوع وامتنال، ويقمن على خدمتكما بالاحترام
الواجب، بانتظار قعقة المضاجعة الصاخب.

فهل تذكرك؟ وهو يقف أمامك مرتديا طربوش جيشكما، تؤديان
التحية للبندق المصري، ثم تتبادلان السلام كفا بكف، تتعانقان عناق
الأخ لأخيه والصديق لصديقه؟ هل ربت بيديه المشعرة على كتفيك؟
وخمشتك أظافره الصلدة بالمودة؟ أم أنك أسير هذيان وهلوسات التوحد؟

تتابعهم يعبرون النهر فى طابور طويل، ويختفون فى ظلال الغابة، هل
استدار وهو يغادر بوابة المحطة؟ هل لمحت دموع الرياحين؟ هل اختلط عليك
إذا ما كان الانضباط طبيعة عالم الرياحين؟ أم أنك استخدمت قدراتك
لتدربهم على الانضباط الذي ينبغي أن يكون عليه الجندي؟

يمضي الوقت، تحل الظلمة، يغلق الجوع العقل بمزلاجه، تتوقف
الأسئلة، لا يكفيك الانغماس فى تجرع خمر الموز، لتركب خيول الزمن،
وترحل بعيدا عن سجن الجغرافيا إلى حرية التاريخ، أو تسقط فى نوم مر،
لتستيقظ على معدة خاوية، تقررصها زبانية الجوع، الآن يتعين عليك أن
تخرج للقنص.

تخفف أيها المحبوب من ثقله المادى .

اصرف الروح كي تغادر الجسد

تنوب فى روح الغابة وأحراشها .

تترقب على جسد الغابة آلاف الحيوانات

المتألفة فى روحها

يصعد الحبيبان أعلى الظلة العليا

حيث تتقاتل أشجارها السامقة



حول ضوء الشمس الذهبي .
تسلفا سحليبات الغابة
وتوسدا أزهارها الحمراء الضخمة
تبادلا القبلات ، دموية بلون الياقوت
رشف السكر الحلو من ريلة وركيها
غرقا في مجرات الشهوة
ألوف الورود الصاخبة بالنشوة .
تقلبا على مديول الغابة الإسفنجي الطاعن في
القدم

تنتب من جسيهما أغراس جديدة
تهتر أوتار الريح ويطن النحل بنشيد الشهوة
الحلوة

يلفهما خريق⁽²³⁾ جبال رونزوري المغطاة بالثلوج
يأويا إلى الكوات العميقة
في جنوع الأشجار الضخمة
يتمددان بين سيقان النموع الضخمة
تسكن روح الغابة دفء أحضانها
يتوسد نهريها الممتلئين نعمة
يرشف من حلمتيهما العسل الإلهي
وكفلاها الممتلئان بركة
يستريح تعباً على فخذيها
يشاهدان البوابين⁽²⁴⁾ تماثيل سود
تجثم ساكنة بين أغصانها مستوره بالزهار
والريابيح تلمع أذنابها البيض
تفغر متولبة نحو الظلة العليا
يروحا في نوم العميق

23 (الخريق: الريح الباردة الهبابة
24 (البوابين: جمع البابون وهو القرد الإفريقي الذي هو أقبح القرود منظرا وأحطها عقلا

قبل أن يستيقظ يوما وقد فقد ملازمه .
تخفف أيها المحبوب من ثقله المادي .
اترله الروح تغادر جسده تنوب في روح فردوسه .
في جنة نعمته الإلهية . . .
أنا الأميرة (جنجي) . .

* * * *

تمضي الأيام بالرياح الذي سرقة الزمن، يقف أمام غابة الوفرة، يفك
الغازها، متتبعا الدروس التي علمته إياها الأميرات الخمس، ليطل سؤال
عصى يضرب رأسه، كيف لرياح أن يتصور جوعا، حيثما ينبغى أن يموت
من التخمّة؟

تتابع الطبيعة قسوتها، ويندر الطعام، تتوالى الأيام، ولا تجد ما تأكله،
لتنجلي العشوائية الضاربة في الوجود إلى نظام صارم، تتجاوز فيه الطبيعة
كل ما يحتويه فن الحرب، أين اختفى فردوس السلام السماوي، وهل
يمكن القول، إن السلام الأرضي محض دعوة لأنبياء مهزومين.

تشهد الغابة الاستوائية المطيرة جامع قمامة، ينتمي إلى العصر
الحجري، ينقب في أديم الأدغال المدبول، يبحث عن قمامة تسد رمقه،
مستخدما عصى مدببة الأطراف، شباك رديئة الغزل لصيد السمك،
كمائن للزواحف والقوارض.

تكافئك الأميرة (جنجي)؛ روح الغابة، بما لم تحلم به، وتنجلي عن
حقل لنبات تكلله أوراق خضراء كثيفة، جرفت سيول المطر التربة عن
جذوره، لتكشف عن ثمار حمراء وردية، يدك التي أمسكت بالثمار، فمك
الذي تذوقها، كانت دليلك الوحيد كي تصدق، أنك عثرت على حقل
للبطاطا⁽²⁵⁾ البرية.

تأخذ السعادة بعقلك الضال، سوف تتحرر من هستيريا البحث عن
الطعام الذي قبض على تلايب حياتك، تسرع إلى كهفك تضعها على

(25) البطاطا: Yam

موقدك الحجري، تذوق حلاوتها، يسيل لعابك بين ثغري (جنجي) القرمزي
الشيخين.

يمضي الريح اليافع وحيدا مع الله، لا وجه له ولا مأوى، يحاول التأقلم مع
عالم جديد، لكنها الشمس (التي بزغت من أمواج الشفق السيل) تسحره،
تفوس به بهدوء، في عالم جديد يتعايش معه، لا يلقي بالاحيوانات
تتدلى من فروع الأشجار، لا تتحرك قيد أنملة، ولا طيور طنانة عالقة في
الفضاء، أو تميرة منكبة على رشف رحيق الأزهار، لا يلقي بالآ إلى
الغابيين والعظايا الساكنة بين الأغصان، تنساب بضراوة بين ظلالها
لتنقض على فرائسها.

يستسلم للأميرة جنجي، وهي تفسى له أسرارها، وتهبه نعمة الوقت،
حقل للقلقاس⁽²⁶⁾ البري، منجم من الكرب وزيت النخيل، تتوارى أفكاره
التي تنغص حياته البربرية، يستقر عزمه على الاستسلام لعالمه، والتوغل
فيه، رافعا راية الوحشة، والوحشية التي تمكنه من البقاء.

يتسلق الريح اليافع الظلة السفلية لشجرة الحياة، حيث الغابة مظلمة
رطبة، صاعدا إلى ظلتها العلوية، حيث الشمس سيدة الكون، تسعى
إليها الأشجار فائقة العلو، ترتكز على جذوع قوية تمكنها من الوقوف
خلال الصراع من أجل اقتناص ضوء الشمس، تحمل على ظهرها النباتات
الهوائية والمتسلقة، وآلاف الحشرات والطيور والحيوانات.

على تيجان أشجار الظلة العليا تزهو مئات الأزهار الصغيرة، تلثم الهواء
كي يلحقها، يسكن الهواء في الظلتين الوسطى والسفلية ويصبح
رطباً، تكشف الأشجار عن أزهارها الاستوائية البديعة؛ كبيرة متعددة
الألوان، تفعل كل ما في وسعها كي تستهوي الحشرات والطيور لتقوم
عنها بمهمة الإخصاب.

بين أشعة الشمس وخيالات الظل تطير خفافيش عمياء، وقردة وحيات
وضفادع الشجر، وحيوانات طائرة تشبه السنجاب، تقفز من فرع لآخر ومن
شجرة لأخرى، تتسلق مسرعة قمم الأشجار، والريح اليافع خلفها يبحث عن
طعامه، ليجد بانتظاره الفراشات الملونة بالعطر.

(26) القلقاس البري: Taro

.. جنجي أين أنت الآن.

تهبط ممتطى أشعة الشمس، تطاردك العناكب السوداء، ومعك العسل الإلهي الذهبي، والشمع الذي سيضيئ ليلك المظلم، وبيض طازج، تنمو الأشجار الطفيلية فوق جذوع الأشجار، تخنقها بلا رحمة، تنقل إلى عقلك المكدود قوانين الحياة، تحط على تربة إسفنجية عطنه بالدوبال، تلقاك الأطباء والأيائل والخنازير بالتأمل، وتتجاهلك القوارض وهي تقطع أرضية الغابة، تتغذى بالجدور وثمار الجوز.

يتلمس الرياح طريقه في العتمة، وسط الخطر من أشباح الظلام ووحوشها، الخوف ظل النفس لا يبارحها، لماذا كانت الشمس طريق البشر التمساء إلى الله، تتولاك الحكمة، تصرخ في رحاب المخلوقات "تعالوا إلى قلب الظلمة، لتعلموا لماذا كان يجب للشمس أن تعبد".

هكذا يمضي يومك، لا تجد ما تأكله، تجوب الغابة وعقلك مشغول بإيجاد إجابة عن هذا الكهف الذي أصبح في عهدتك، إذا كان يتعين عليك أن تحرقه، بعد أن فقدت الصلة بأصحابه، وترحل إلى حيث يأخذك نهر (ويلي) حيثما يتجه، لا تجد إجابة، وكيف لنسناس منبوذ أن يجد إجابات عن أسئلة عصية، كان له عشيرة، أرسلته إلى بقاع البداءة، وألقت به إلى زوايا النسيان.

تأتي الظهيرة تحمل معها دقائق طبول، يرى من نظارته المكبرة، أغراب على رأس حقله، في اللباس العربي، وزى الأزهر الشريف، جرى يصرخ، وهو يشعر أن عالم الوحدة اللانهائي يوشك على التلاشي، لكنهم اختفوا، وقد تركوا على الجسر الواقع بين رأس حقله وشفير النهر صناديق خشبية رتبت بطريقة غامضة، دار يلعن نفسه، وهو لا يفهم إذا كان يعيش حياة حقيقية، أم تجاوزها إلى هلوسات أوهامه.

لمح عددا من الجن يتسللون من الغابة، يجتمعون حول الصناديق، يقلبون ما بها، ويتبادلون بلغة غامضة المشورة، ثم وضعوا أمام كل كومة من السلع قطعا من معدن أصفر، قرعوا الطبول وتواروا عن الأنظار.

ظهر التاجران ثانية، قلبا قطع الذهب، وقذرا وزنه بميزان صغير. بدا الرضا عليهما، حملوا الذهب وقرعوا الطبول، وغادرت قافلة التجار ومشايخ

الأزهر الشريف، وخرج الجن يحملون ما اشتروه إلى كهوفهم، وعاد هو إلى جحره يملئه العجب، كان يشهد المقايضة الصامتة⁽²⁷⁾؛ أقدم أنواع التجارة على نهر الكونغو، بين التجار العرب المسلمين، والسكان المحليين.

في طريق الغابة اعترض القافلة رياح يافع يسير على قدمين، لوح بحريته، واندفع يحتضن التاجر العربي، وفمه يتحرك حركات غريبة، ساد الاضطراب بين الحمالين، صوبوا بنادقهم نحوه، والتاجر يسترضيه، يطلب منه الرحيل، والمشايخ يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم؛ هذه أعجوبة من أعاجيب الدنيا، عفريت الغابة، غوريلا فقدت وليفتها، قرد يسير على قدمين، قرد ناطق يحمل حربة، قرد يبكي، حتى إنهم أسرعوا كما روى التاجر لأصدقائه في (تمبكتو) عاصمة مالي، إلى قواربهم تاركين بعض أغراضهم على البر، وإنسان الغابة يجري وراءهم، وهو يعوى بصيحات غير مفهومة، وحكي عن أحدهم إنه ويا لغرابة كان يبكي!

تابع الرياح القافلة تخلص إلى أعماق الكونغو على ظهر نهر (ويلي) في طريقها إلى نيل السودان⁽²⁸⁾ ببلاد النيجر، يمضون قرابة الشهر في (نيامي)⁽²⁹⁾ عاصمتها، يمارسون التجارة، ويرسون لعلمائها الدين الحنيف، يلتقي المشايخ الثلاثة بملك تمبكتو⁽³⁰⁾، ويجعلوا أئمة على مساجدها يدعون إلى دين الإسلام، ينزل التجار مالي ويرحلون إلى أقصى الغرب على ساحل المحيط الأطلسي، قبل أن يعودوا أدرأجهم مع رحلة الحجيج إلى مكة المشرفة.

زعق الرياح ودار حول نفسه، يبحث في أرجاء الغابة عن صوته الضائع، ثم توقف وقد حُد عليه الزهول، وهو يكتشف أن الصوت الوحيد الذي يبلغ مسامعه هو صوت الغابة، صوت الطيور، صوت النهر،

27) المقايضة الصامتة: نوع من التجارة تتم على طول نهر الكونغو وفق ترتيب محدد، حيث يأتي التجار العرب المسلمون يحملون بضاعتهم، ثم يقومون بدق الطبول لإعلام السكان المحليين بقُدومهم. يرفض السكان (وخاصة عشائر الأقزام) الخروج من كهوفهم في وجود التجار الأجانب، لذا اعتاد التجار الاختفاء، عند ذلك يخرج السكان المحليون ليقدروا البضاعة، وليضعوا كمية من الذهب بجوار كل كومة من السلع ثم ينسحبوا، إذا وجد التجار أن هذا يرضيهم، فإنهم يأخذون الذهب، ويدقون الطبول إشارة إلى قبول الصفقة ورحيلهم، وانفضاض السوق.

28) نيل السودان: نهر النيجر

29) نيامي: عاصمة النيجر

30) تمبكتو: عاصمة أبيدجان Abidjan

تراجع إلى كهف وحدته منبونا من بنى البشر، وركب نهر فاكرته جئا عن
مملكته .

مثل الطبيعة كانا

اغتسلا في مياه الشلالات

وامتطيا غداثر الحراش

رحلا فوق جبال، فروعها نساء شبقات

تناعهما أسراب الرسمال والسلاحف النهرية

ينظرهما أبا سعن⁽³¹⁾ في سكون خادع ووقار حذر

وجواره الكراكي⁽³²⁾

تنشر أجنحتها الواسعة وتحوم فوق الماء

سلام للأميرة جنجي؛ روح الغابة

الإلهة التي تلبى احتياجات الجميع . . .

الإلهة التي تُكرم لشخصها النبيل . . .

ينزلق الظل من ابط الليل

تناهيه الرياح بلمعان عشب

بساط طائر جمد على ظهره البرية

خلقا في السماء عارين كالجب

تغرد حولهما أعصاف هائلة من الطيور

في مقعدة بساط الريح جلس ضفدع مهذب، ألقى أوامره، فصعدت من

الأكمات رقع بيضاء حربية، تتلألأ بنورات برتقالية، تتحول إلى بلاشين

ارتفعت بهما إلى الإدواح النضيرة .

تأرجح المحبوب (شيشا)

والأميرة (جنجي) بين فروع الأشجار

معلقين من خيلين طويلين . . .

يمنحاهما التوازن في الارتفاعات القصية

31 أبو سعن: طائفة من الطيور طويلة الأرجل قريبة من اللقلق تعيش في أفريقية والهند

32 الكراكي: جمع كركي وهو الطائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين، أبت الزنب، قليل اللحم يأوى إلى الماء أحيانا

يتقاطعان جسدا لجسد
ويخلقان روح لروح
تخف هلاوس الرياح اليافج
وروحه تسترد أدراكه
ترتل الأميرة جنجي للرياح
" (شيشا) أيها المحبوب الجميل
هل الغابة روح الحياة ؟
لا ، ليست الغابة روح الحياة
فما عسى الغابة أن تكون ؟
.....
انها امرأة . . .
انها جنجي . . .

* * * *

فى مخاضة النهر وقف صياد بدائي يخفى عريه بمزق من بقايا لباس
من الدمور، يضرب رمحه فى أعماق الماء مرة تلو مرة ويفشل، يمضي اليوم
بطيئا، وقد عيل صبره، يقرصه جوع من نام على الطوى ثلاثة أيام وليال،
تتلوى أسراب البلطي بحيوية، تغيظه، يدفن رمحه بقوة، المرة بعد المرة،
ليصطدم بالقاع الصخري، تخرج عصاه بلا سكين، يحل اليأس
بالمسكين، ها أنت فى حاجة لحربة جديدة، أيها الحمار الزرد⁽³³⁾ هذا نهر لا
يسمح للصيد فيه إلا لمن يستخدم منقاره، أو مخالبه، أو يده.

تابع أسراب النورس تصطاد من السمك ما يكفي سرية من العسكر،
يجلس وقد خاب رجاؤه. ليس اليوم يوم رزقك، توكل على الله وارجل
للغد، ربما تغير الأقدار حظك.

(33) زرد: حمار وحشي

تذكر كيف تجلس الأميرات الممبوريات القرفصاء، يدفسن أيديهن تحت الماء، في سكون كالنصب الحجرية، ثم يخرجونها وهي تقبض على صيد وافر، حاول مرة أخيرة، ضع يدك في الماء، واجلس ساكنا وترقب.

أطبقت على رسغه أنياب حادة، ارتعش جسده بألم طاغ، وقد أمسك بيده جسما ثقيلا ذكره بشراسة التماسيح، لقد أوقعه حظه العاثر في



وحش عملاق ضعيف البصر، كان يبحث عن طعامه بتتبع أي اهتزازات أوذبذبات تصدر عن فريسة لا يراها.

(مبينجا) وحشية⁽³⁴⁾، تجاوز وزنها أربعين أقة، أطبقت أنيابها على رسغه، جذبتة وسحبته باندفاعاتها الدودية إلى النهر، جدف بذراعيه وقدميه من الهلع، تعثرت يده في مديته المكسورة، طعنها المرة تلو المرة، والتيار يدفعهما إلى جنادل نهر (ويلي) وشلالاته.

غاصت به إلى أعماق النهر، يتبعهما خيط من الدماء، اختنق موشكا على الغرق، وكلما تمكن من التقاط أنفاسه وسط تقلبات التيار الشديد أعاد طعنها، حتى توقفت عن الحركة وتحول جسدها إلى ثقل يأخذه إلى القاع.

كل شيء تحول إلى كابوس؛ لونها البني المبرقش بالحمرة، زعانفها الحمراء، وعيناها تحدقان بشراسة، أنيابها الضخمة مغروسة في كفه، قاوم كي لا يغيب عن وعيه؛ ليس ثمّة من ينقذك من الموت سوى نفسك. هنا مثواك الأخير، لا وداع، لا جنازات، لا كفن يطويك في التراب.

أرواح وظلال تدفع بهما إلى أعلى، وتتركهما في مخاضة النهر، يسقط مستلقيا على وجهه وسط بركة من الدماء، يكابد هلوسات الموت ويجواره سمكة (المبينجا) الوحشية ممزقة، وأنيابها مغروزة في رسغه الأيمن، ثمّة عظام مكسورة في فم الوحش، وبقايا جلد يصل جزء من

34 (سمكة مابينجا: Mbenga. {النمر} وتسمى سمكة نمر الجالوت Tigerfish Goliath. من الأسماك الضارية، يبلغ طولها 150 سم. ويصل وزنها إلى (55-50 كجم)، وهي ذات أسنان حادة وبارزة.

كفه، نزع المدينة العالقة بجسد سمكة النمر الوحشية، وأخذ الجبل الذي يجمعها بقصبة الحربة، ربط ساعده بقوة ليقف نزيه الدم، غالب آلام مبرحة وهو يقطع كفه بشفرة المدينة، بعد لثي وجهه جهيد يحرر ساعده الملوثة بالدماء من فك المينجا، وقد فصدت أنيابها "الخنصر والبنصر".

فى البرزخ الكائن بين الحياة والفناء، حيث لا أشجار، ولا أزهار، ولا أنفاس حية، ارتفعت الحرائق حمراء ذهبية، تغيم على سطح هلوساته كوابيس الشمس الغاربة، تأخذه إلى ليل تضيئه نار لا تنطفئ، وأثنا عشر قمرا يحيطون به، وعرق غزير ينثال من جسده، وحرارة ملتهبة تأكل رأسه، ألسنت فى الجحيم؟!.

تسجد أمام العرش الإلهي تطلب الرحمة، تعدد المعاصي التي ستحاسب عليها، وتعود لتشهد نساءك الخمس وأطفالهن الذين لم يغادروا أرحامهن، خطيئة تستوجب العقاب، تسأل نفسك وأنت على صراط الموت، إذا كنت قد خيرت فيما انتهى إليه مصيرك التعس.

يحملك الجن على محفة، إلى نهايات الموت المحتومة؛ وجوههم الهرمة، سحنهم الفكهة، أفواههم الكبيرة الضاحكة، تزين طلعتهم غابات شعر كثيف، ولحى طويلة، يعبرون بك من برزخ إلى برزخ، ويزحفون من ثقب كخروق الفئران، يحشرون جسدك الضخم فى فتحات ضيقة، يحضرون أرفاشهم (المحنقة)⁽³⁵⁾، يوسعون بواباتهم، ويدفعون بك إلى كهوفهم السحرية.

ينتهي بك المطاف فى كهوف مضاءة بالمشاعل، ممدد فى زريبة ضيقة، تتخلق حولك حوريات النهر الفاحمات، يطيبن جروحك بأعشاب ومراهم، تعود إلى غيبوبتك، وعيون لوزية تحيطك بنهر من الشفقة، تعاودك جنيات الغابة السود، يصارعن حرارة جسدك الملهبة، والأيام تسافر بك من كوابيسك لتحط فى هلاوسك، وتصحى من هلاوسك لتعود لكوابيسك، لا تدري أين أنت وإلى أين مآلك التعس.

تستيقظ على جدران تتسلقها أشجار الذهب، ثمارها فصوص الماس، وحولك جنيات عاريات لا يستترهن حلى ولا قلائد أو وشوم⁽³⁶⁾، وعشرات

(35) محنق: صغير على حجم طفولى

(36) وشوم: جمع وشم وهو الرسومات والخطوط الخشن التي ترسم على الجسم بواسطة غرز الإبرة فيه

الجن يعملون بصبر (تحت إمرة الزعيم)، على فصد عروق الذهب، فى الليل
يجتمع الجن حول نار لا تنطفئ، يحيط بهم أبناؤهم، تشيع الألفة والمحبة،
يداهمك الحنين، أين رحلت إنائك، وهل رأي أطفالك النور، تتوارد عليك
حقول منقباد، وبحر الإسكندرية، وصفوف مدرسة البيادة العسكرية.

تستعيد وعيك، تلمح يدك اليمنى مغلفة بعصابة من مطاط، ترى
كهوف لونت جدرانها بحيوانات، وصيادين، ورحلات قنص، وحفلات رقص،
مشاهد مليئة بالحياة، وعول وظباء تقفز بحيوية، كركدن، وجاموس
وحشي جريح، تخرج منه أحشاؤه، صيادون تحلقوا حول فيل وعيناه مصابة
بسهمين.

تقف على قدميك، تصطدم بسقف الكهف، تسير محنيا وسط الدجاج
والماعز، والخنازير، تربيها حوريات لا يتجاوز طولهن زراع، تتقن تربية
أنعامها الأليفة، وجنيات منهنمكات في صناعة سلال وأوان فخارية،
يأكلن بشراته، ويلعبون بنزق، وفى الغروب يعود ذكور الجن فى صمت
وترصد، وعلى أكتافهم صيدهم، ظباء، وخنازير، وقردة، وفئران، وجراد،
وسمك وأفاعي، وعلى تلك النار التي لا تنطفئ، يشوى العقاريت الصغار
لحوم القنص، والطلح، لتدرك أنك بين أقزام قبيلة الأكا، الذين ضم الصاغ
الأسطورة مسيرة خمسة عشر يوما من أراضيهم إلى الحكومة المصرية.

تستيقظ على عدد كبير من الأطفال العراة يلتفون حولك، يأخذونك
فرحين إلى حقولهم المخفية فى الأدغال، يلعبون ويرقصون، ويزيحون عنك
همومك، يساعدون أمهاتهم على جمع التوت والبرقوق البري، تحمل لهم
سباط من الموز، يأخذونه سعداء.

فى المساء يجلس يلقى إليك جنى بجرذ مشوى ويقول هذا ما يحبه
الساحر الكبير منتصر، يقدم لك لفافات التبغ، تأتى امرأته تحمل لك هدية
من حبوب البن المزروع فى حقولهم، تقول:

"لحمك الذي فقتة وضعناه فى طعامك

أكلته فجاد لك . . .

قلب (المبينجا) وأحشاؤها وضعناه فى طعامك

أكلته فجاد لك . . .

فى روحك تسكن روح المبينجا العملاقة . . .

أنت كامل مكتمل جسدك، وروح عدوك .

تتنفس الطباق بعمق، ترشف القهوة، وهي تردد على مسامعك اسم
الساحر الصاغ منتصر، تنحني لهما بامتنان، للقهوة وللتبغ، لسحرهم
البدائي، لإنقاذهم حياتك، للحب الذي أحاطوك به.

تشاركهم جمع محصول البطاطا، وعزق الأرض لزراعة الذرة البيضاء
التي نقلها لهم الصاغ منتصر، تؤثر فيهم مساعدتك، تبدو بينهم عملاقا،
يتحلقون حولك، يقيسون عضلات زراعيك، وطول قامتك، وفي عيونهم
إعجاب ومحبة.

في قطرات عرقك تنزاح همومك، تعمل صباحا، وتمضي الليل بين
حوريات الغابة الفاحمات المولعات بالرقص والموسيقى، تذوب قبضة الحزن
التي تقوض قلبك، تنسى وحدتك، وكفك المشوه، يتشكل في عالمك
كهف من الفرح تأوي إليه، وسط أولئك الملائكة التي تحيط بك، أطفال
ونساء ورجال يغنون أغنيات لا تفهم معناها، سوى أنها اقتناص للسعادة.

تشعر بالتعافى، تبرأ روحك من سقمها، آن وقت الرحيل، تستأذن جنى
الأكا كي تعود إلى كهفك، يمسد العجوز لحيته الطويلة، وعيناه
اللوزيتان تلمعان، يهز رأسه موافقا، تقدم لك حورية الأكا، عقدا يضم
أنياب سمكة المينجا؛ اثنان وثلاثون نابا يبلغ أطولها أربعة أقدام،
تسرع بالركوع على ركبتيك، تضع العقد حول عنقك، وتمسد رأسك.

تنهار في بكاء طويل، تهتز كهوف الأكا من بطش الحزن الذي
يسكن روحك... تبكي كل شيء يمر على عقلك المصاب بالخيل...
تبكي أمومة العجوز، تبكي منقباد، وعائلتك وروح الصعيد الأعلى،
تبكي روح القمر، تبكي أيالاكا شجرة السماء، تبكي لولابا روح
النهر التي سحقها الفيلة الهائجة، تبكي أبرافو المحاربة التي أصابتها ضربة
من فهد أسود وهي تحميك منه، تبكي جنجي روح الغابة تطعمك وتطعم
أخواتها... تربت الحورية العجوز على رأسك وتقول لك:

"الحزن روح شريرة تقتلها الدموع."

* * * *

حلّ الربيع، وعادت القوارض تحتل ساحة المحطة، ثم ظهرت السعادين،
رحب بها فى مودة، وفى الليل عاد لصحبته نقيق الضفادع، وصريير بنات
وردان، ونعيق البوم، فى الصباح فاح الفضاء بعندلة العندليب، وجوقة من
زقزقة العصافير، غادر فراشه، وقد عزم على أن يبدأ صيده مبكرا، صعد
أعلى عالية المحطة يصلح السقف المتهاوي، بدا أن الرياحين قد حلت فى
الجوار، تلوح له من فوق أغصان أشجار الغابة، وكأنها افتقدت صحبته.

أصلح صارى العلم وقدم التحية العسكرية، ضحك الرياحين، وأسرعوا
يدفعونه ناحية السارية، ليعيد مراسم رفع العلم، فعل عن طيب خاطر، ثم
خرج إلى حقله ليجمع ثماره، فى الليل زاره الجنى العجوز، حمل له ظبي
على سبيل الهدية، رد هدية الجنى بفخ من فخاخ الصيد الحديدية، وقبل
أن يرحل وعده بدليل يقوده إلى بلاد المبور ولاستعادة إناثه وأطفاله.

مضت أيام بانتظار الدليل، استيقظ يوما على دوى الطبول والنقارات،
خرج يحمل حريته ليجد الساحة محتلة بمئات العسكر، عبرت رأسه
عشرات الأفكار، من هؤلاء، ومن أين جاءوا، وما هذا الزي الغريب الذي
يغطى أجسادهم؟! وعما ينبغى فعله للدفاع عن كهفه ضد الغزاة الذين
شرعوا فى الاستيلاء على مرابعه.

فى ساحة فاضت بفضلات أوراق الشجر وأغصان الحطب الجافة، وقف
عسكر الجهادية داخل أسوارها وأبنيته المتهاككة، يلقون عن أكتافهم
حمولاتهم من المخال والسلاح، عبر الضباط الثلاثة الساحة مسرعين،
يبحثون عن رفيقهم المفقود.

على مدخل مبنى المحطة رأى الضباط العربايون رجلا بدائيا مقنع
بجمجمة قرد، يسد بقامته البوابة، يدق صدره بقبضته، ويلوح بحريته فى
وجوههم، برغبة عارمة فى القتال، كان عاريا إلا من خرقة، يخفى قناعه
غابة من شعر ولحية كثيفين، فبدا كساحر فى غابة استوائية مطيرة.

رفع الجنود بنادقهم فى وجهه، وحل الذعر بشلعى، وهو يحدق فى
بشرته القمحية، وشعره الناعم الذي تدلى حول كتفيه، هتف:

- جراك إيه يا على شمروخ؟ يا نهار أسود أنت اجننت!

- هو ده على شمروخ. هرأسه موافقا: "متأكد".

أمر فوزي الجنود بالابتعاد، واقترب يحاول تهديته، لكنه هوجم من ضاريكشر عن أنيابه مهددا، عندما أفاقوا من صدمتهم، كان فوزي صاحب بنيان المصارع القوى يشل حركة زميله الذي فقد عقله، لكنه دفعه بعيدا، تقدم الجنود يحاولون ضربه بالسناكي، صرخ الفولى يطلب منهم الانصراف.

شل الضباط حركة زميلهم، قيدوه، وجلسوا حوله منهكين، يطيبونه، ويهدئون من روعه، ويخبرونه أسمائهم، شاهدوا رأسه يرتفع إلى الورا، ووجهه مفتوح على صرخة داويه تشق الوجود الصامت إلى لانهايات الوحدة.

* * * *



سبعة عشر يوما جاب القائم مقام بخيت بك بتراكي ومساعدته كازاتى شمال هضبة حوض الكونغو، بحثا عن ملك مونبوتو، الذي نشر عيونه في الأدغال، فصار على بينة من تحركات خصومه، وفي كل مرة حاولت القوات إطباق الحصار عليه، تمكن من الإفلات بسهولة، ومع تكرار محاولات الحصار الفاشلة قوض مبدأ تقسيم القوات، ولتفادي الحرج من إخفاق خططتهما، أعلننا فرار كبير الزنوج، ومصادرة مقتنياته، وقرر بتراكي خلعه عن عرشه، وتنصب ملكا بدلا منه، دون أن يذكر اسم الملك الجديد.

في محطة حواش قام الصناعية الملحقون بقوات منتصر بترميم وصيانة أبنية المحطة، وإعادة طلائها، وفرشها بالأثاث والمفروشات الفخمة، وإقامة الأكواخ لسكنى الجنود والمحاربين، فأعادوا للمحطة مظهرها الحضارى، وجاءت عشيرة الأكا تقدم التحيّة والهدايا لصدّيقهم الزعيم الكبير، وقدم لهم منتصر في المقابل بذورا وحليا وخرزا ملونا.

واستضاف منتصر الطبيب والمستكشف الروسي جونكر، وجرت له مراسم استقبال رسمية، اصطف الجنود خارج المحطة، وأطلقت المدافع حال وصوله، وأدخل إلى قاعة الاستقبال، وقدمت المرطبات والحلوى، ما جعل الطبيب جونكر يشعر بانسراح زائد للحفاوة الكبيرة التي قوبل بها، ومن نظافة المحطة ونظامها، وترنحت أعطافه سرورا، لوجوده مرة أخرى في عالم متمدين، يتكلم فيه دون حاجة لمن يترجم له.

سجن المجنون المتوحش بتهمة التمرد، ووضع في حالته البدائية في قفص خشبي في ساحة المحطة، أمضى الضباط العراقيون وقتهم يتحدثون إليه، ويستفسرون عما صيره إلى هذه الحال، واستفاضوا في الثرثرة في شئون حياتهم الخاصة، يدفعهم توق إلى مد حبال الحديث معه، لفك ألغاز

الزمن الذي أمضاه وحيدا، وهو مكتفى بالصمت، صار لديهم يقين بأن أصغر الضباط العربيين يفقد شعوره بالواقع.

في المساء يتلو الشيخ عمر الشلح إمام الحملة أمامه سورة ياسين والكرسي، ويصنع له الرقى والأحجبة، وفي النهاية أعلن أن الملازم واقع تحت سطوة السحر الأسود.

نزول زعيم الرياحين، ليجالس الضابط الشاب، بات مشار تهكم الجنود وسخريتهم، غضب العربايون، وأعلنوا أن صديقهم في حاجة لطبيب وليس لسجن، وتوجهوا إلى الصاغ، وطلبوا منه إعطاء صديقهم إجازة للاستشفاء وليس للعقاب، وأصر شلعي أن يقيم صديقه في غرفته، وكان أول ما فعله أن استدعى الحلاق كي يقص شعره ولحيته.

تاه شمروخ في عالمه الخاص، لا يعير بالاً للأحداث التي تجري بين أصدقائه، وعندما تفرغ الغرفة، يقرأ شلعي له خطاباته إلى سهيلة، ينقل إليها أخبار ابن عمها، وشمروخ مبقيا على عالم الصمت، الذي انكسرت أصباح عندما دخل عليه الملازم فوزي حاملا بنديتين، وطلب منه أن يتبعه إلى الغابة، أمضى اليوم في الصيد، وفي تلك الليلة كتب الملازم قصاصة لصديقه شلعي يعلن عن رغبته في الذهاب لإحضار زوجته وأطفاله.

* * * *

متلفعة بأستار الليل، دخلت "محطة حواش" الأميرة عائشة ابنة الشيخ جنجاري، طلبت مقابلة الصاغ على انفراد، وأمامه قالت:

- "بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي أدخلنا دين الإسلام الحنيف، أعلم سيدي الصاغ أن أبي الشيخ جنجاري يشكركم على تدخلكم لدى مولانا ملك مصر المعظم للإفراج عنه، ويشكركم لتحريركم بناته، من صيادي الرقيق، ويخبركم أن تحالف الدم الذي تم بينكم وبين ابنه الأمير جمعة قائم، لا يمكن فضه، فما يربطه الدم لا تحله الخطوب، وهو يقول أعلم أن الملك (مامبا نجا) يختبئ الآن في بنجيدى، وأنه باقى حتى تستتب الأوضاع وترحلون.



- من قال إن الجيش سيرحل عن
مونبوتو؟

- هذا ما تنقله أشجار الغابة.

- منتصريقول إن الجيش لن يرحل
عن مونبوتو.

- والله هذا ما نريده، وما يبتغيه
أبى وأخي وعشيرتنا.

تساءل الصاغ هل يخون شيخ
بنجيدى معاهدة الدم التي بيننا؟ قالت
الأميرة: "إن على الصاغ أن يتذكر أن
الدناقلة حرقوا قرى برنجى الصغير

والطويل وبمبا، وكادوا يحرقون كوبى، ولولا حضرة الملازم سر الختم
الميرغنى، لكنا الآن قتلى، أو نباع فى الفاشربيع العبيد، ولكن الحمد لله
يقدر الأسباب وما شاء فعل"، وتساءلت سؤال حمل فى ثناياه إجاباته:

- "حضرة الصاغ لماذا بقت (بنجيدى) سليمة؟".

- من أجل إنقاذ شيخ بنجيدى لعشيرته، هذا يكشف المستور.

شكرها الصاغ، وأهداها ثوب من الحرير الدمشقي، وطلب من جنوده
حراستها حتى بلوغ موطنها، وقال إنه عندما تستقر الأحوال وتهدأ، سوف
ينزل فى ضيافة الشيخ جنجارى، ولو أراد أن يقول لها ابقى معي زوجة
شرعية، أو أمة ومحظية لقبلت، قالت بصوت دافئ:

- "على الرحب والسعة، سيدي ومولائي حضرة الصاغ منتصر".

ظهر الصاغ بصحبة صديقه الجنى فى حالة طيبة، تبادلوا الطباق،
وكؤوس الخمر، وأسبغ على الجميع روحه المرحّة، همس شلعى أن الأميرة
السوداء بلغتها العربية الفصيحة أسرت لب قائدهم، وراهن فوزي بأن قرانا
سيعقد قريباً، وقبل شلعى رهانه، لكن على أمر آخر.

كتم الفولى ابتسامة الخبيث، فقصاصه صديقهم التي تتحدث عن
زوجات وأطفال، أقنعتهم بأن عزلته ذهبت بعقله، حاولا أن يمنعا شلعى من
أن يعرض برفيقهم على مرأى الجميع، لكنه قدم إلى الصاغ الورقة التي

أعطاها له شمروخ، وضع الصاغ كأسه جانبا، وبعد أن قرأها عاد يتناول لحم الظبي الذي تصدر المائدة، وبعد مدة نظر إلى شلعى وقال:

- "أنت بتنام مع النسوان من ورائنا يا شلعى؟".
- أنا! أبدا يا فندم.
- من امتى تجوزت على مراتك، ومن امتى خلفت.
- الطلب اللي قدام حضرتك مش بتاعي.
- آمال بتاع مين؟
- الملازم على شمروخ.
- وهو أتجوز امتى؟ وأتجوز مين؟
- مش عارفين يا افندم. حاولنا نعرف، ما بيتكلمش.
- طب وأنت عرفت أزاي أنه عاوز يدور على عياله؟
- هو اللي كتب الورقة اللي قدام حضرتك.
- طب لما تعرف يا اخوى.

ساد الصمت وأصلى فوزي شلعى بنظرته الصقرية، وعادت ابتسامة الفولى التائهة تتسع بارتياح، بعد زمن وجيز شوهد الصاغ يلقي بفوطته جانبا، وينتصب بقامته، ويتساءل:

- "مش كان فى عهدته بنات الشيخ مبورو، وكان المفروض يرجعهم بلادهم".

- تمام يا افندم.
 - أتأكدتم من الكلام ده؟
 - ما بينطقش يا افندم.
 - جرى آيه يا شلعى، أيوة أنت تخين، بس معرفش إن مخك تخين برضه.
 - يا افندم.
- نظر لهم بغضب وقال: "بالورق يا أخوي أنت وهو، زي ما كتب لكم اكتبوله".

أمضى الضباط ليلة كاملة فى صحبة رفيقهم، خلفت شعورا بالشفقة والحزن، انكبوا على قراءة قصاصاته التي كتبها واحدة بعد أخرى، وكل منها تضم حكاية، عن المجاعة التي ضربت المحطة، والخطر الذي حل بالمكان، والطبيعة العاتية المدمرة، والرحيمة الطيبة، والأميرات اللائى

دافع عن حياته، وحملن أطفاله فى أرحامهن، والأجنة التي سمع خفقان قلوبها، ومن سحقتها أقدام الفيلة الهائجة، وهي تجمع الطعام، وعن تلك التي جرحتها مخالب النمر، وهي تحميه من هجوم كاد يودي بحياته.

هتف الصاغ غير مصدق ما يسمعه، من حكايات ألف ليلة وليلة: "يا حظك يا منتصر، هدية من السما، بكرة الصبح تبعت رسول إلى الشيخ مبورو، بلغه أن الجيش المصري ح يزور القرية".
- بكرة يا افندم؟

- عاوز صاحبكم على رأس سرية بيادة كاملة التجهيز بالتشريفية، ح يدخلها وقدامه البيارق، والموسيقى العسكرية، فاهمين يا افنديه، والله ولا أنتم فاهمين ولا حاجة، أفكار التمرد والعصيان أكلت مخكم؟

توجه إلى خزانة مكتبه، وأخرج غليوننا من العاج، وغدارة مشغولة بالفضة، وضعها أمامه بحرص وقال:

- "يا افنديه معندناش ذخيرة ولا خراطيش ولا كبسول لمواجهة أي هجوم يقوم به مامبا نجا، بكرة صاحبكم يقدم مهر للشيخ مبورو للجواز من ابنته، يا فندي أنت وهو تروحوا معانا، عشان تتعلموا أهم درس عسكري فى الاستوائية، التحالفات... التحالفات يا افنديه".

- "يا افندم دى مش زوجة واحدة؟".

- أمال كام؟

- منعرفش، هو بيقول خمسة، واحدة منهم ماتت.

- يعنى أربعة، زي شرع ربنا.

ابتسم الصاغ ثم استغرق فى الضحك، وقال:

- لا والله راجل يا شمروخ، وبتستهبل وعامل مجنون، هي دى الرجالة.

سيبوني وأنا ح أشوف حل.

* * * *

طافوس

العبادة

استدعي الصاغ منتصر الملازم شمروخ إلى مكتبه، ثم توجهها إلى الأحراش، وجلسا سووية على حافة نهر ويلي، والصاغ يثنى على شجاعته، وإصراره في

الحفاظ على موقعه العسكري، وعدم التخلي عنه، وقال يواسيه: " اعلم أن حياة الجندي هي سيرة المحارب، وسيرة المحارب هي حياة الوحوش والضواري، وأنت نجحت فى الاختبار، وصرت تعلم أن الصراع قانون الحياة، والبحث عن الموت شرف العسكرية."

هتف الصاغ بروح السعادة: "فى مسوح الليل تشرق الأمنيات، وعندما يشرق الصباح يكون قد آن الأوان لتقديم التحية لحلفائنا، غدا سوف ندخل مبورو نقدم التحية لحلفائنا"، علينا أن نحتفل ملازم على شمروخ وأضاف وهو ينظر إلى نظرة خالية من المعنى:

- " هذا نصرك؛ غدا سوف تتقدم القوات..."

- اتقدم القوات؟! إجابة حملت كل معانى الدهشة

دفعني إلى قلب الغابة، وفى العتمة الحالكة، قال يواسيني: أجلس يا ابن لم ألد. تعلم الآن حياة المقاتل فى الغابة هي حياة الوحوش والضواري، القتل قانون الحياة خذ.

وأعطاني كأس خلته من النبيذ الأحمر القاني، عندما شربته شعرت بالقشعريرة تسرى فى جسدي، وقبل أن أرفع عيناي إليه، قذف إلى بقطعة من الكبد النيئ، وقال لى كل .. ألا تأكلون كبد أعدائكم فى الصعيد؟

- حضرة الصاغ افندم.. فى الصعيد نأكل قلوب أعدائنا.

- وهذا قلب بشري. امضغه جيدا، واستطعم اللحم، حتى تكون خليفة لي فى غابات أفريقيا وبراياها المقفرة.

* * * *

على تبه مكسوة بالعشب انتصب قوس من الأعمدة الخشبية، حفر الفنان الأفريقى البدائى على جوانبها الأربعة رؤوس لهررة وحشية تبعث على الجلال، وأقنعة لوجوه تثير الهلع، جلس الشيخ مبورو الذى بدا حكيما مثل الإله (توت)⁽³⁷⁾ على مقعد يكسوه جلد الجاموس، فى مئزر

37 توت: جحوتي، تحوت، توت، هي أسماء لرب الحكمة والحسابات والفلك عند قدماء المصريين، تم عبادته فى العصر الفرعونى على هيئة قرد البابون، وأشكال أخرى، وكانت الأشمونين مركز عبادته الرئيسى



من جلد الأسد، يحيط به أبناؤه العشرة، يغطون
رؤوسهم بمغرفة الحيوان الذي صيرته العشيرة
طوطمها المقدس، ورمز السلف الذي تنتمي
إليه، يستمدون من روحه الكائنة في الزمن
القديم القوة والعون، ويتبركون بوجوده
الحى، يمتنعون عن صيده، ويحرمون أكل
لحمه، وفي المقابل يسبغ عليهم حمايته.

بجواره جلس الصاغ حواش منتصر شامخاً
منتصب القامة، تحيط به هالة من الخوف
والرهبة، وبجواره صديقه جنى الآكا الذي
جلس كالمملك الغواير، وخلفه وقف قادته في حلقة من زعماء القبائل التي
ساندت حملة مونبوتو.

في ساحة القرية وقف أبناء عشيرة المبورو، يشهدون (بعيون مفتوحة
وأفواه فاعرة)، القوات النظامية المصرية، تدخل القرية شاكية السلاح في
زيها المثير للإعجاب، وتسير بانضباط على أنغام مارش "الجناب العالى".

اصطف عسكر الجهادية أمام مجلس الزعماء في استعراض للقوة،
يظهرون للأهالى هيبتهم، والشاويش (مسامبا) ترجمان الحملة يحذر
العسكر من وجود الهررة الوحشية في ربوع مبورو، لكن أعدادها المتزايد،
وانتشارها في كل مكان بالقرية، جعل القلق يتحول إلى غليان وترقب.

شاهد العسكر حلقة من لبؤات صغيرات انبطحت باسترخاء وكسل،
تمدد بينهم، رضع يجدفون بأقدامهم الصغيرة في الفضاء، التعجب الذي
تناقله العسكر، حسمه الشاويش (مسامبا)، وقال بيقين رجل يعلم
المستور، إن هؤلاء طعوم بشرية، وأضاحى مقدمة من عشيرة المبورو
لأسلافهم.

مثل نخلة شامخة تقدم الملازم على شمروخ سرية البيادة؛ بذته
المنسوجة من الجوخ، تبرق بأزرار نحاسية لامعة، بنطال (دمور أبيض) زين
جانبيه بشريط أرجوانى، تدلى من خاصرته غدارة وسيف، ويداه في قفاز
ناصع البياض، وحذاء من جلد الجاموس، لامست نساء القبائل المحارب الذي
أنقذ أطفالهم من أغلال العبودية.

خاض أطفال العشيرة بين صفوف الجند يلعبون ويمرحون، والأهالي يتابعون مراسم تحية العلم المصري بابتهاج، وهم يتساءلون لماذا يتجههم هؤلاء المحاربون أمام بيرقهم الخفاق، بدلا من أن ينخرطوا فى بهجة الرقص الجماعى ونشوته.

نادى الملازم أول الميرغني حرس الشرف، فتقدم الملازم شمروخ يتبعه رهط من حرس الشرف، وقف أمام السارية، نفخ البروجى نفير تحية العلم، وعزفت النقارة والطبلتة، فأطلق العلم من عقاله يرفرف فى سماء القرية وسط طلقات البنادق، فى مشهد مهيب، يجمع بين القوة والنظام الصارم.

تسائل الضباط العربيون بانزعاج عن العالم
الموهمى لشعوب تلقى صولجانها تحت أقدامهم،
مخفوظ فى نابون النارية،
لكنه كلما خرج، أشرق سليما
كأنهم يعيشون ويتنفسون داخل حكاية من
معافى قويا عملاقا، يشهد
الحكايات الخرافية، تروى عن جزر سحيقة فى
على أراضى قدمت نفسها
عالم مسحور؛ أقزام، وغيلان، وأميرات من بنات
طواعية لأحفاد من
ملوك الجان الأسود، وبوابات سحرية، تحرسها
غادروها منذ عقود
ثعابين عملاقة، وهررة وحشية، يجلس القرد
سحيقة، وعادوا يحملون
الحكيم (توت) على عرشها، يبحثون فى ذاكرتهم
عن حكاية روتها أمهاتهم، وهم يغفون على حجرها فى ليال الشتاء
القارص، فلا يجدون حكاية تشبه تلك الخرافة التي يقفون داخلها الآن.

..لن تجد حكاية تروى عن جيش منتصرا يأخذ البيعة لسلطان
مهزوم... لن تجد حكاية عن جيش يهتف باسم ملك باع البلاد لتوه، وأثر أن
يحل جيشه، ويعيده مهزوما إلى حقوله، ثم يستدعيه ليلقى به إلى مذابح
السودان، ليكون على يقين وحلفاؤه البيض؛ أن الجيش الذي أقامه جده
محمد على باشا، وأثار الذعر لدى الإمبراطوريات، وهدد به عاصمة
الخلافة، تم الإجهاز عليه إلى الأبد...

...لن تجد خرافة تروى أسطورة الأميرات الأخوات الخمس، اللاتي جعلن
من أرواحهن مأوى لأصغر ضباطهم في غابات الوحدة، وعالم البداءة، ومن
قلوبهن شهدا، ومن حياتهن قربانا لبقائه حيا...

...لن تجد أسطورة تشبه حكاية الفارس الأسمر الذي جاب منابع
النيل، وعبر صرة الأرض، إلى حوض نهر الكونغو العظيم، وليس فى

جعبته سوى حب الأهالي، واحترام الخصوم، وغدر الصحاب، فلا جمعية
جغرافية ملكية تدون كشوفاته الجغرافية، وتسجل اسمه فى خرائط
العالم، ولا كتاب يروى سيرته، ولا مدرسة حربية تدرس فيه العسكري،
ولا شاعر يروى للأجيال ملحمة...

يا الله يا فاطرا السماوات والأرض أعطنا إشارة... علامة على ما قدرته
لنا... نتضرع إليك بكل ما تسعه مشيئتك من رحمة... أرشدنا للخروج من
مناهة الجنون...

بين البهجة والخوف، والحسد والغيرة تبادل العسكر الشائعات التي
سرت حول الضابط اليافع الذي بقى وحيدا فى الأدغال شهورا طويلة،
فأصابته جنيات الغابة بالخبل، وأن الصاغ الذي شعر بأنه يتحمل قدرا ما
من المسؤولية لفقدان الضابط الشاب عقله، أقسم أنه لو تطلب الأمر
سيقتحم مملكة الجن حتى يستعيد نساءه الخمس، وقيل إنهن أربع، وقال
العالمون إن عددن الحقيقى لا تكفى لعدهن أصابع الرجل الراشد البالغ،
وكلما بلغت الروايات الجزء الخاص بحياة ضابطهم الشاب، الذي عاش
وحيدا مع أميرات أخوات شقيقات، ينتمون إلى عشيرة تعيش الهرة
الوحشية بين ظهرانها، ويتزاوجون فيما بينهم، سرت بين المتيمين بالنميمة
عدة من غموض شهواني، يزيد من حرارته تساؤل ماكر طرحه شخص
فصيح، حول شرعية معاشرة خمس نساء فى ذات الوقت، أو هل يجوز
معاشرة أختين؟ وما القول فيمن عاشر خمس أخوات، وما حكم الفقه فى
أطفال هذه العلاقات المحرمة.

تطبخ النميمة على مواقد الليل، يتغاضون عن الولوج إلى حياة الرذيلة
وحكايات الفسق، التي تفوح فى فضاء الحكاية، أوليس كل حكايات
الف ليلة وليلة سرد للزنا، وعوضا عن الترفق برجل معدوم الحيلة،
يستغرقون فى التهام لحم الشاب، الذي تحرك الجيش لاستعادة نسائه من
قبائل تتزاج مع الهرة الوحشية، وتطعمها أطفالها، وتأكل لحم البشر.

يهز شمروخ رأسه نفيا، يستطرد فوزي وهو يؤكد عدم استغرابه: "يا
أبني أنت مستغرب ليه! سيدنا إبراهيم قدم ابنه ضحية لربنا سبحانه وتعالى،
الحاجات دى مفياش لعب، عاوز ولادك، ولا مش عاوزهم، خلصنا".

يلقى أحدهم بقول فصل فى تلك المسائل الفقهية الصعبة، تخفت الأسئلة وتزوى، ثم تعود تكبر من جديد، والجميع بانتظار ظهور نساؤه المبوريات، ومن هي التي ماتت من أجله.

من بين الأحرار تطل صبية من الأبنوس، تسير على مهل، تقفز حولها هررة وحشية صغيرات، تداعب رؤوسهن بأناملها، وترسل إليه ابتساماتها.

وسط محاولات لكبح الهلع تقدمت اللبوات التي صاحبت ابنة زعيم المبور وواحدة وراء أخرى نحو الضابط الشاب، وجلسن تحت أقدامه بكسل، تلقاهن بمودة، أعادت اللفظ حول صحة الحكاية الخرافية التي أصبحت تحكي بأكثر من رواية، ها هي إحدى الأميرات، أين بقيتهن؟

تصعد سحابات الغموض من كهف الخيالات الممتعة بشهد الرزيلة، وكما درج العقلاء على تأكيد ما هو فى ظاهره نفى، قالوا إنه حكم الضرورة.

نؤه عما جرى حولك، ندفع

ببصرك إلى ما وراء أشجار

الأبنوس العملاقة...

ها هو البرق يومض من السنا

نشرق عليك بأبنسامة من بين

قُروح الظل والضوء.

ها هي ابنسامة القدر نطل

عليك من وراء الغابات، تحمل

اللحظة التي تخص شمسك.

المسارات العشوائية للشائعات تنتهي عند
إمام الحملة الشيخ عمر الشلح؛ الذي فجر أخطر
ما فى الموضوع، وقال إن الضابط الشاب فعل ما
حرمه الله من الجمع بين أختين، وفى قوله تعالى
"وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف..."،
ورجلنا عاشر خمس أخوات وجمع بينهن فى
نفس الوقت، وهو ما لا يحل شرعا، غضب
شلقى، هذا ليس الوقت المناسب للنيل من
صديقه.

- يا عم الشيخ هو أتجوز من أصله، عشان تقولي جمع ولا ما جمعش.

- نعم. نعم. لا ضرر ولا ضرار، فهن إماء له، أي فى حكم الجواري.

...إماء له" عبارة تلقاها الجميع بترحاب ورضا، كمخرج فقهى لورطة شرعية، تحل مشكلات العدد، والنوع، والجنس، والفضيلة، وتفصل فصلا قطعيا بين الرذيلة، والفضيلة، لكن هذا لم يعجب شلقى فقال:

- بس هو متجوز يعنى.

- يعنى إيه؟

- متجاوز على شرعهم يا عم الحاج، يعنى متوجعش دماغنا، أما نشوف ح
نعمل إيه فى المصيبة اللي أحنا فيها.

استخدام مصطلح "زواج" مجازا فى بلاد لا تؤمن بشريعة الإسلام، "فهن
إماء له". لم يعجب الملازم فوزي السلحدان، سمعه أصدقاؤه يردد لنفسه
وعيناه تومضان بنظرات الجوارح:

"إماء له! أمال الزياط اللي عاملينه حوالين حروب الرق معناها إيه؟"
وأضاف يقطع الأمر، كضابط أرستقراطي ينتمي إلى أصول تركية:
- "هذا نفاق".

رجاه الفولى: "والنبى متحبكهاش يا فوزي".

- محبكهاش.

- استنى أما نشوف إيه اللي ح يحصل.

- "أيوه هو أنت شفت حاجة ولا حد شاف حاجة!".

وقع تحالف الدم بين الزعيم مبورو والصاغ، وانتهت مراسم الاحتفال،
ودعى مبورو الملازم ليأخذ ما له، اتسعت حلقة الأهالي، وتراجعت إلى الوراء،
تكشف عن الأم الكبيرة تحمل رضيعين.

أخذ شمروخ طفليه بين يديه، وعاد بهما إلى زملائه الضباط، الذين
أحاطوا بهما يباد لونهما، يلاعبون الطفلين، ويتحققون من طرف خفي من
علامات نسلية؛ البشرة البرونزية التي فقدت حدة قتامة الليل الأفريقي،
الوجه الذي تخلص من استدارته الزنجية الصارمة وتواء الفكين، ليعود
مماثلا لوجه أبيهما، الشفاه التي تخلصت من غلظتهما، وأخيرا والقول
الفصل فى الشعر الأسود الناعم، علامات الذكورة الفاضحة... لا لا.
مؤكد، هما أبناء شمروخ... وهذا يعنى أن طرفا من حكاياته صحيحة...

تصاعد صراخ الرضيعين لشعورهما بالغربة، فارتج زئير مخيف فى
الجوار، انفض الجميع وأسرعوا يتوارون من الهررة القادمة، ليبقى شمروخ
وحيدا يحمل طفليه، تقدمت روح القمر فى ابتسامة واسعة، وخلفها
والدها والأم الكبيرة وحولهما أبنائهما العشرة يهللون بالفرح

قادوهما معا إلى الكوخ الكبير، دخلاه معا، وأغلقا عليهما بابه،
وعاد الجميع سعيدا مبتسما كل إلى شئونه، ثلاث لبؤات تسللت
خلفهما، وقال البعض أنهم لم يخرجن حتى هذه اللحظة.

بعد يومين خرج على شمروخ فى بنطاله، نظرفى وجوه الرجال الذين وقفوا يتطلعون إليه بانتظار أن يفصح عما يريد، بحث عن صديقه شلعى، حدثه دون صوت، سألته فوزي متجهما عما يريد، تغضنت ملامح شمروخ، أمسك فوزي ساعده، وطلب من عسكري الخدمة أن يحضر ورقة وقلم، فجاءوا بهما على عجل، كتب عدة كلمات ودفع بها إلى عبد المبين شلعى، نظر إليه بدهشة تحولت إلى ضحكة صاخبة، رفع الورقة إلى الفضاء وهو يصرخ: "هاتوا لنا الشيخ عمر الشلج في التو والساعة، الشاب عاوز يتجوز الأميرة على سنة الله ورسوله. يا اخذى هوة هوة هوة هوة".

هاج الرجال واندفعوا في الغناء والرقص، وعبر الصاغ عن سعادته بضابطه الشاب، وأرسل عبد المبين شلعى إلى لادو يستدعى زوجته سهيلة لتحضر حفل زفاف ابن عمها.

- "وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف..."، آية قرآنية ردها الشيخ عمر الشلج، وهمس بصوت خافت بالقول: "هذا زواج غير شرعي"، وأعقب بقول حازم، وأنا لن أخالف شرع الله.

اخترق هذا القول مسامع منتصر، مثل قذيفة مدفع تدك آمال حصونه، فاستدعاه وعنفه، وقال له إن فتاويه يجب أن تصب في المصلحة العامة، وأن الآية تقول: "إلا ما قد سلف"، تسمح له بالاجتهاد.

- أي اجتهاد يا حضرة الصاغ فيما لا اجتهاد فيه، قوله تعالى: "وأن تجمعوا بين الأختين"؛ معناه أن الله حرم الجمع بين الأختين فإن زوجتهما في عقد واحد، بأن قال أبوهما زوجتك ابنتي، فكلا العقدين باطل، وإن سبق أحدهما الآخر فالسابق هو الصحيح، فلو زوج رجلا ابنته في أول النهار ثم زوجه أختها في اليوم التالي مع بقاء الأولى، فنكاح الثانية باطل، وإما قوله تعالى: "إلا ما قد سلف" يعني ما قد سلف لكم في الجاهلية فلا حرج عليكم فيه.

- طيب يا عم الشيخ هو فيه جاهلية أكثر من اللي إحنا فيها، اجتهد، اجتهد الله يرضى عليك، مش لازم أنت، كفاية على كازاتى، وأمين بك، وبخيت بتراكى، غير العيال الثورية.

- إلا فيما يخص الدين.
- أنت ح توجع دماغي، روح دلوقتي، وبكرة يحلها ربنا.

* * * *

بعد ثلاثة أسابيع وصلت إلى محطة "حواش"؛ السيدة سهيلة وبصحبته السيدتين صفية وسنية زوجتي الأخوين العجيمي، والسيدة أميرة زوجة الملازم حسن سليمان، اللائي أصررن على مرافقتها لحضور عرس أثار البهجة الغامرة، وقد حملن معهن أربع فساتين للعروس.

وقد حملن معهن من لادو أحداث وشائعات، أكثرها قسوة كان خبر أمر من العلقم، أنتشر في قرية ممبورو لتوه، وهو انتحار مبروكة!.. قيل أن نساء لادو ارتدين الحداد على موت الشاويش مسعد الرفاعي، وأنها صبغت وجهها وجسدها بالنيلة، وأنها تخرج في ليل لادو شعثناء سافرة الوجه، محلولة الشعر، تدور تبحث عنه بين البراري، ثم فوجئوا بها وقد جزت جدائل شعرها التي كانت تطول الأرض، وهي تعدد وتقول: بيقوللي أرجعي مصر.. أرجع لمين، هو أنا لي حد هناك؟

تخبرهم بأنه قد هيئ لها قيام شبحة بزيارتها كل ليلة، وقالت أنه يضاجها، وهو الذي لم تمكنه منها وهو حي، فلماذا وهو في رحاب الله... كنت عاوزني ألفك بشعري يا حبيبي، واتمنعت عليك... يا حزنك يا "وكستك" يا مبروكة.. كان بيحبك... ويبوس التراب اللي بتمشي عليه... دا جزاته.. يا بنت الناس عملت فيه إيه يا قاسية.

تناوبت النسوة على حمايتها قيدوها ليلا، ومنعوها من الخروج صباحا، وأرسل ضباط لادو يطلبون من الملازم فوزي المعونة في عودتها إلى مصر. وطلب العجيمي منه في خطاب خاص، أن يبحث لها عن زوج، فهي في البداية والنهاية خادمتك.

عندما علمت مبروكة بما يخططون له، وجاءتها زوجات الضباط يعرضن عليها الزواج، قالوا أنها ضحكت بهستيريا، وقالت: الباشا الصغير ح يجوزوني وماله، أهو كان صاحبه، وهو اللي جوزني ليه، وهو اللي قتله برضه... يا فرحتك يا مبروكة.. يا فرحتك يا مسعد يا رفاعي.

استبشر الضباط وزوجاتهم خيراً، لكن الليل جاء، ولم يأتي الصباح، حتى وكانت قد ألفت نفسها ليلاً في النيل، وهي تقول: "بتطفي النار اللي ولعت في جتتك يا أخوى.. وقال أيه بيقوللي اللي قتل جوزك ح يشوف لك عريس..

* * * *

كان هناك إشاعة أخرى حملها القادمون من لادو، وهو استدعاء أمين بك للقائم مقام بخيت بك بتراكي إلى لادو على وجه السرعة، لضرورات السفر إلى الخرطوم بناء على طلب حاكم الخرطوم العام للمشاركة في مواجهة الثورة المهدية، ثم تأكدت الشائعات بوصول رسول من بخيت بك إلى الصاغ منتصر لتسليمه قيادة القوات، فطلب منه أن يلتقيه على تخوم قرية بنجيدى.

أعاد بخيت بك الرسول وهو مستاء، وحمله رسالة غاضبة، يسأله فيها؛ كيف له أن يحدد وجهة من هو أعلى منه رتبة. أجابه منتصر بغطرسة:

- "بخيت بك، عدوك الذي يحدد وجهتك".

كانت فحوى الإجابة تعنى أن لدى الصاغ معلومات عن ملاذ مامبا نجا الأخير، ما جعل بتراكي ينصاع مرغماً.

تحركت الحملة في غابات مونبوتو، بقيادة بخيت بك بتراكي، ومعه الصاغ حواش منتصر قائداً ثانياً، يتبعهم آلاف المحاربين من عشيرة المبورو وعشائر الأقزام وخلفهم الحمالين المرافقين للحملة، وقد انتشربينهم الاضطراب والفوضى، وأثناء الطريق قام الضباط بتدريب المحاربين على الانضباط، انتظمت الأحوال مع الوقت واستتب النظام.

على تخوم (بنجيدى) عسكرت القوات، وجاءت مكاتبات لبخيت بك من الحكم دار يوبخه على تأخير، ويطلب عودته على وجه السرعة، فسافر من فور، وترك القوات التي جاء بها من مكراكا تحت قيادة الصاغ منتصر، الذي تهيأ لقطف ثمار جهوده.

أحكم الصاغ الحصار على بنجيدى، وانتشر الأقرام فى الأدغال يقيمون كمائن للموت، واختفوا بمهارة بين فروع الأغصان، دفع محاربى المبورو إلى المقدمة بقيادة الملازم شمروخ، وخلفهم المكراكيين المشهورين بولائهم للحكومة المصرية تحت قيادة اليوزباشي أبوزيد، وأسند قيادة القوات النظامية إلى الملازم أول سر الختم الميرغني، مع الفجر دارت المعركة الأخيرة للصاغ على هضبة الكونغو، وشن هجوما مباغتاً شكل مفاجأة للمدافعين، الذين خدعوا فى المحاربين الأفارقة، ومع ظهور القوات النظامية، انتشر الذعر في صفوفهم، واندفعوا يهربون إلى الأدغال، يقنصهم الأقرام بسهامهم المسمومة، وكمائنهم المصنوعة من الأوتاد المسنونة.

هاجمت القوات النظامية معسكر الملك، وتمكنت من أسر مائة من نسائه، وابنة وولدين من أبنائه، وأسرا خلقا كثيرا، انتشرت الطبول فى الغابة تنقل انتصار الصاغ على الملك الذي تمكن من الهرب في اتجاه قرية (ابرامو)⁽³⁸⁾، لكنه وجدها خالية على عروشها، فاندفع يهيم فى الغابات طريدا.

* * * *

جلس الصاغ فى مقر قيادة القوات المصرية، يتصدر مشهدا من امتزاج الطبيعة البدائية، والعظمة والافتخار، ومحاربى الأبرامواس، يلقيون البنادق والرماح تحت قدميه، ويقدمون الولاء والطاعة.

وخلفهم رؤساء القبائل يحملون الهدايا والطيور الداجنة، وهو جالس فوق كرسي عال، بمسندين، يقدم لكل زعيم خنجرا موشى بالعاج، فيجلسون بين قدميه يعلنين مراسم الطاعة الواجبة، وهو يوصيهم أن يخلدوا إلى الهدوء، والعودة إلى ديارهم، ويتفرغوا لأعمالهم، ويخلصون للحكومة المصرية، التي ترعاهم كما يرعى الأب أطفاله، وفي نهاية اليوم خطب فيهم قائلا:

38 (ابرامو: Abramo)

"لا يوجد قائد مصري أو سوداني من أبناء النيل سرق جوبكم أو أبقاركم، أو حرق قراكم، أو اغتصب نساءكم، دفعنا أجور الحمالين، وتبادلنا السلع بسلع، لم نزرع الفتن والحروب بين القبائل، ولم نصطف قبائل على أخرى، وسعينا للسلام، فتح أبناء الأزهر الشريف المدارس والكليات لتعليم أبناءكم القراءة والكتابة، وفتحوا قلوبهم لمن يرغب في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، بلا عنوة ولا قهر، فدخله الناس أفواجا . . .

. . . تذكروا حين يكون للتذكر أسبابه، أن الجندي المصري لم يأت لمنايع النيل غازيا، تذكروا أن الجيش المصري لم يطرد وطنيين من قراهم، ويأتي بجنس آخر ليحتلها، تاركاً لكم التعاسة والقهر، بل جعلنا من بناتكم زوجات لنا، وأمهات لأطفالنا، ولم يكن أطفالنا أبناء سفاح، كما فعلت الإمبراطوريات بالشعوب المغلوبة على أمرها، بل أصبحوا أبناء شرعيين لنا، لا غصب، ولا قهر، ولا عدوان، بل حب، وسلام، وعمران، نعم نحن مصريون نفخر بكوننا مصريين وسودانيين وأفارقة.

في ساحة المحطة العسكرية، وعلى ضفاف النهر، ارتفعت أكوام سن القيل وريش النعام، وجلد الجاموس، وبدأ البناءون في بناء مخازن إضافية، وكوخ خاص للملازم قبل حفل زفافه، ووصلت رسائل من السيدة ألفت زوجة الملازم خلاف، والسيدة حباب زوجة الملازم أحمد سليمان يؤكدان ضرورة تأجيل حفل الزفاف لحين وصولهما، وأن كلا منهما تعكف على صناعة أفضل ثوب زفاف على الإطلاق، همس البعض في أذن الشيخ عمر.

- يقولوا ستة أثواب زفاف حتى الآن.

- أوعى تقولى إن دى متفصلة لعروسة واحدة.

- يا عم دول نسوان أصحابه وعارفين عدد نسوانه المضبوط.

- يا ترى حواش بيه عارف؟

* * * *

أعطى تحالف الصاغ مع قبائل المبورو القوة اللازمة لتقدم الجيش المصري داخل إقليم مونبوتو، الضارب بجذوره فى ربوع هضبة الكونغو، بغرض جمع شمل القبائل الصغيرة، تحت إدارة حكومة الإقليم التابع للحكومة المصرية، وضم جميع أراضيهم بالتدريج.

تحركت القوات المصرية، تتقدمها الأعلام والموسيقى العسكرية، والصاغ يتقدم جنوده، وقد نشر وحدات استطلاع من محاربي القبائل، للحيطه من قبائل الأبراموس الذين عقدوا الخناصر على القتال، لكنهم لم يقدموا على هذه الحماقة، فاسم الصاغ كان يتقدم جيشه بالرعب، والاحترام الواجب، والفرار بمجرد سماع اسمه، كتب الضباط العربيين فى خطاباتهم لأصدقائهم:

"سرنا وراء قائد عظيم، يمد سيادة العلم المصري فوق الهضبة الشمالية لحوض نهر الكونغو، ونحن نتمنى لو كان هو القائد العسكري للثورة الدستورية الأولى، لقد استقر فى يقيننا أن الثورة هزمت لأن قادتها كان لديهم حماس وعاطفة يفوق ما يملكون من البصيرة والفن العسكري، والعلم بقوانين الثورات، أجادوا نظم الشعر، وفن الخطابة، ووضعوا ثقتهم فى الدول الأوربية، لعدم اطلاعهم على التاريخ، وحكايات الخيانة، المليئة بالعظاات والعبر"

ونظم عبد المبين شلعى أبياتا ينهون بها خطابهم:

إن الأوطان بالمعالى تذكر
وما الجيوش لتنتصر أو تدحر
إلا بفضل قيادة من معدن لا يقهر

* * * *

سررة المحتفى

﴿وعلى العرش استوى﴾

... قال الشيخ أبو المكارم راوي سيرة الأمصار
وسائق النيل من الحبشة إلى السودان:

... كل شيء مقدر ومكتوب على اللوح المسطور،
قال تعالى للقلم اكتب فقال القلم المشقوق الذي ينبع
منه المداد ليوم القيامة يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب
علمي في خلقي بما هو كائن إلى يوم القيامة، وكان
أول ما كتب القلم أن رحمتي سبقت غضبي....

في الأرض التي وهبها الله عطر البكارة، جلس الشيخ عبد المعز
أبو المكارم، في المدرسة التي بناها الملازم حسن سليمان قومندان
حامية الرجاف على نفقة المديرية، وأمامه أطفال الحامية من أبناء
ضباط وجنود وموظفي الحكومة المصرية، يرتلون خلفه بصوت
مرتفع آيات القرآن الكريم، ويكتبون على الألواح بأقلام البوص
حروف الأبجدية العربية، يطلب منهم تسميع ما حفظوه، يثيب
المجدون بالحلوى والمسكرات، ويعاقب المخطئ بالحلوى والمسكرات،
يضحك ويبتسم ولا يعبس في وجههم، ويشاطرهم النكات
والأمثال، غائب الأطفال مدرسته، وداوموا على الحضور، حتي ولو
منعهم أباءهم بحجة أمر ما.

يوم أن رددوا خلف آيات من سورة النجم، فتحو عيونهم للعالم
الذي يحيط بهم، وارتفع صوتهم العذري يغرد يزقزقة العصافير، تنشد
أغنية الكون.....

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 : "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ^(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ^(٢) وَمَا يَنْطُوقُ غَنِ
 الْهَمَى ^(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ^(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ^(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ^(٦)
 وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ^(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ^(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ^(٩) فَأَوْحَىٰ
 إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ^(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ^(١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا
 بَرَىٰ ^(١٢) وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ^(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ^(١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ
 الْمَأْوَىٰ ^(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ^(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ^(١٧)
 لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ^(١٨) ."

حول المدرسة المشيدة من قاعة كبيرة من الطوب الأحمر، وغطى
 سقفها بالحديد المموج، تجمع أطفال قبيلة (البارى)، تلفح جلودهم
 الرياح الموسمية، وتستر أجسادهم أشعة الشمس الذهبية، يتطلعون
 إلى أقرانهم من أطفال الحامية، وقد اجتمعوا حول الشيخ أبو المكارم
 في سعادة وبهجة، يستمعون إليهم وهم يرددون جميعاً، فى صوت
 واحد تراتيل لا يفهمون معناها، وبين فنية وأخري يغادر الشيخ
 القاعة إلى الخارج، ويضع قطع الحلوى على النافذة الخارجية، ينظره
 أطفال البارى بقلق، فيتشاغل عنهم متعمداً، يتسللون ويختطفون
 الحلوى، ويهربون مبتعدين.

بعد شهرين من حيله، التي أصبحت مع الوقت لا تثير القلق، تجرأ
 أحد أطفال القبيلة ودخل القاعة، وتقدم من فوره وجلس بجوار الشيخ
 أبو المكارم، وعلى وجهه ارتسمت الابتسامة المضية لطفل أفريقي

في الرابعة من عمره، مزق الشيخ أبو المكارم قميصه، وأعطاه قطعة
بستر بها عورته، ووجبة من الطعام، وهو يبتسم ويقول:
- فيه بنات هنا يا عفريت، غطي البضاعة يا نمس.

لم يفهم الطفل لغة الشيخ، وإنما فهم المعنى، في اليوم التالي أرسل
الشيخ أبو المكارم رسول يشتري من تجار العاصمة (لادو) عشرين
ياردة من قماش الدمور، وعندما حصل عليها، قطعها إلى كساوى
صغيرة، رتبها بعناية، ووضعها بجواره، وكلما دخل عليه طفل من
أطفال قبيلة الباري أعطاه الحلوى، وكسوة تستر عورته، وشرع
يعلم الجميع الأبجدية العربية.

رحل أطفال قبيلة الباري بكسائهم إلى أكوأخهم، وعادوا عرايا،
مرة بعد أخرى طلب منهم أن يتركوا الكسوة بجوار باب المدرسة،
ومع الأيام أقبل أطفال الباري على المدرسة، واندمجوا مع أبناء الحامية،
يدخلون عرايا، ويأخذون قطع الكساء مرتبة نظيفة، يسترون
عوراتهم أثناء الدرس، ثم يرحلون عرايا، بينما تكسو عقولهم عالم
متنامي من المعرفة.

* * * *

بعد منتصف مدارج السماء نجم
﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ الليل أشرق في
سعد الذابح⁽¹⁾ خافتا يترنج بين الشمال
والجنوب، ليبدأ
سادس منزلة من منازل الشتاء، شف الليل أسداله، والزمن دقائق لبندول
القدر، على إيقاعه شقت البعثة طريقها إلى أعلى، تقارب حافة
السماء، والنيل سيل جبار، مجراه شديدة الانحدار، يكسوه آكام
وأدغال عذراء، ويلامس زبده الشبقي غابات بلا تخوم، توقفت البعثة
بين محلتى (نباميونجو) و(أورندجاني)، وقامت على رفع القياسات،
وعادت للمسير؛ يداهم شعور بأنهم يسبحون فى جوف الشجرة
التي حدثهم عنها الملازم على شمروخ؛ (أياالاكا) شجرة الحياة، التي
تصل السماء بالأرض، على غصونها المباركة سكن طير السماء
الميمون، الذي حمل فى منقاره الحيوانات الأولى إلى الأرض.
اليوم يكتب كتاب النيل فصوله الأخيرة.

هنا نيل يخطر بين الغابات البكر، فتى يلهو فى جنته، تحيط
بضفتيه عرائس من جنيات تتبدى على شكل أجسام، ونبات معرش
بزمور التهلكة، هنا ملائكة تحرس ذاك الفتى النزق، وقد مضى

1 نجم سعد الذابح: من كوكبة الجدي، وهما نجمان غير نيران بينهما في رأي العين
قدر ذراع، أحدهما مرتفع في الشمال والآخر هابط في الجنوب، يظهر فى سادس منزلة من
منازل الشتاء، وسمي ذابح لأن برده قوي ويقتل كما يقتل السم.

عليها حرس⁽²⁾ من الدهر، فاتخذت هيئة طيور البلشون⁽³⁾، هنا حوريات تحلق فوق مياه الفردوس على هيئة طيور القاوند الفيروزي، ترقص بانتظار أمير يأتيها على هيئة ثعبان نيلي، هنا عصافير تغرد على لبلاب قرمزي متوج بأزهار المستحية، وأدغال تخفى صراع الضواري، وغيلان تخطر على بسط البرية تدق صدورها، فتدوى طبول الهلاك، هنا سحليات شاهقة الخضرة، تتسلق جذوع أشجار التين الموجودة منذ الأزلية، يأوى الأنس والجن في كواتها وقت المطر، يسطروا على جدران تجاويها الزمنية كتابات للغات قديمة، وحكايات مطمورة، تروى أساطير النيل وأسراره.

يا الله ...

الرحمة...

أبمداد هذه البحيرة

سطرت قصة

الخلق!

ولج الليل عالم النهار، وقبض على

الفضاء دوي يصم الآذان، بلغت البعثة

شلالات (جنجا)⁽⁴⁾، ووقف الضباط

يشهدون النيل المقدس ينسكب من

السماء، خمرة تشع بلون الذهب، مقتحما

خليج (جنجا)، ينزلق بين صخوره البكر، يهوى

من عل، ويهدر ببهاء، يندفع سيله وقد غشاه زيد ضارب إلى خضرة،

يأتي جلالته في ضجيج، ويرحل في سموخ صاخب، وبين لجب، وهدر

يصم الآذان، يولد النيل الخالد ميلادا متجددا، لينطلق من قلب القارة

الأفريقية صوب عشيقته "إيزيس" المقيمة في الشمال البعيد،

عاشقان معا، محبان للخير معا، مغرمان بالحياة معا... أزيان،

أبديان، خالدان.

(2) الحرس: الوقت الطويل.

(3) طائر البلشون: مالك الحزين

(4) شلالات جنجا Janja: مساقط ريبون. أطلق عليها الأوربيون اسم لورد ريبون رئيس الجمعية الجغرافية الملكية.

نصبت البعثة خيامها جوار الشلالات، واستقرت للمبيت، وفي
بكارة الفجر انبعث من وراء الراية هدير ناعم للمياه، تسلقوها
وعلى قممتها ظهرت بحرة الأبدية، شاسعة، نشر عليها الضباب ستره.
هتف: يا الله ... الرحمة... أبمداد هذه البحيرة سطرت قصة الخلق!

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾

مع أشعة الشمس من وراء	﴿ وَمَا غَوَى ﴾	السحر تسللت جبل الجون ⁽⁵⁾ ،
وخلعت البحيرة أزار		عذريتها، لصباح ندى
يكشف على مدى البصر؛ كثنان رملية، عشرات الخلجان		الصغيرة، جزر تلثم الأمواج، وسلاسل من تلال تتوارى فى الزرقة
البعيدة، ومراكب مسطحة، وبطاح من مدرجات، ومراعى تطوى		المدى، تنتشر على أديمها؛ أشجار المرجان القرمزى، والسنت العملاق،
يبسطا فى الفضاء مظلات مخملية، معرشة بسلاسل النور، تنشر		فيثا ناعما على المروج.

بين الظل والنور انتصبت أشجار تين عملاقة، وجميز ملكى فى
أرض سطا عليها السحر والجمال؛ عماليق ترفع قبة السماء، تسترسل
حولها أكاليل من نبات العشق⁽⁶⁾، بين ثناياهما توارت كهوف
الغيلان وحورياته الوردية الزاهية.

⁽⁵⁾ تمتد بحذاء جبل الجون سلسلة مرتفعات كينيا بارتفاع خمسة كيلومترات
ونصف، ليشكلا معا حاجز الطبيعة الشرقى لخزان الهضبة الاستوائية العظمى.

⁽⁶⁾ العشق: جمع العشقة وهي نبات يلتوى على الشجرة ويلزمها

بصعوبة حرر الضباط أرواحهم المشدوثة من أسر النعيم، وشرعوا فى رفع قطاعات مساقط "جنجا"، فى الصباح جاء النسيم الطازج من قلب البحيرة الواقعة على ارتفاع 1200 متر فوق سطح البحر إلى البر، تحيط به تيجان الوهج البرتقالي، حتى تبلغ الشمس من السماء موقع الهجير⁽⁷⁾، تتجمع السحب، يغير النسيم اتجاهه، ويتحول عائدا من البر إلى البحيرة، تلبد السماء بالغيوم، يومض البرق، يزمجر الرعد، تهدر شلالات المطر، تصحبها عواصف وأمواج شديدة، تدفع السفن الماخرة عباب البحيرة إلى البر أو تقلبها على ظهرها، تنقشع الغيوم ثانية، وتصفو السماء.

أنهت البعثة عملها، وسط عالم اقتطع من فردوس الله، وغادرت إلى "روباجا" عاصمة مملكة أوغندا.

شق عسكر المقدمة طريقهم بالفؤوس والبلط، خلال الجدران النباتية العريضة الصلبة، المكونة من تلاحم السرخسيات وكلاً الفيل، حل صمت مريب على الأيكة الكثيفة، تقطعه أصوات طيور تختفى داخل أستار الطبيعة، ضحك⁽⁸⁾ قرد، يكشف عن عمق الأيكة، فإذا انهارت الجدر النباتية الصلدة، انفجر طنين الحشرات، وحفيف الدوح التى يعوزها الهواء، وسمع نقيق الضفادع، وصفير الشحور، وحسيس حيوانات الورلان⁽⁹⁾، وهي تندفع مبتعدة عن الأقدام الثقيلة للجنود.

تقدمت البعثة بين أوراق وارفة؛ ملائكة هبطت من الفردوس، وعفاريت صعدت من الجحيم، تقعد ساكنة فوق أشجار البواب⁽¹⁰⁾، على هيئة بوابين⁽¹¹⁾.

7) الهجير: ويقال الهاجرة، وهو نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر

8) ضحك القردة: صوت

9) الورلان: جمع وړل وهو دابة على خلقة الضب أعظم منه طويل الذنب دقيقة

10) البواب: من أعظم نباتات البلاد الحارة وهو قليل الارتفاع ولكن دائرة ساقه تزيد على عشرين مترا

11) البوابين: جمع البابون وهو القرد الإفريقى الذي هو أقبح القردة منظرا وأحطها عقلا

جرح الفضاء صغير نسر، أثار ظله الرعب فى الغابة، ميكائيل القوى
الجبار، وعزرائيل قابض الأرواح، يسمع "ضغيب"⁽¹²⁾ أرنب، وصغير ببغاوات،
وفحيح أفعى تخدش بساط الخضرة، وصرصرة بازى، وسجع قمرى، يسبح

اليوم يبلغ كتاب النيل
صفحاته الأخيرة، لم نشهد من
حكايات أبو المكارم (راوى سيرة
الأمصار وسائق النيل من الجبشة
والسودان)، سوى ما ذكره عن لعنة نوح
عليه السلام، على ابنه الملعون "حام"، الذي كان جالسا لسوء
حظه السخام، عند قدمي أبيه النائم، فكشفت الرياح
اللئيمة عن عورة أبيه الدفينة، ما أغاظ نوح اغتياظا شديدا،
فدعا على ابنه "حام" بالسودان⁽¹³⁾، وأن تكون ذريته عبيدا
وخدماء لدى سام.

لم يتسن للابن الاعتذار، ووقع المقدرو صار، وها هي اللعنة
المشؤومة، بالذل والعار منحوسة، وما خلا ذلك فهو الزمان،
والنيل الخالد سيد الأبدية والأوان.

اللحن فى فضاء الغابة سيمفونية الجمال والخطر، وفى السابع عشر من
فبراير 1883 بلغت البعثة روباجا عاصمة مملكة أوغندا، فدخلتها مع
الشفق.

* * * *

¹² ضغيب: صوت الأرنب
¹³ السودان: أن يكون أسود اللون



"روباجا"

عاصمة الملك موتيسيا ملك يوغندا⁽¹⁴⁾

14) عن كتاب ستانلي القارة المظلمة 1878

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

أنشأ الملك عاصمة
"إم تيسا" يوحى علمه شديد القوى
تل، يبعد بضعة أميال عن البحيرة العظمى،
تجسبا لفيضاتها، يدخلها القادم عبر طريق عريض، مسيج بسور من
بوص جدل بمهارة، وهي من الداخل نظيفة رحيبة، تتميز بالتناسق
البديع، وسوقها عامر بالعاج والریش، والحبوب، والخمور، والملح،
والسلاح والعطور، فى ساحاتها انتشرت حلقات العزف والغناء
والراقصون.

فى الدار الضخمة التابعة للحكومة المصرية، استقبلهم
اليوزباشى سليم مطر قومندان القوات المصرية المقيمة فى العاصمة
الأوغندية، منذ عام 1874⁽¹⁵⁾، روى عليهم قصة الملك، والتى بدت
حكاية من حكايات كتاب النيل؛ فلملك بدأ حكمه وهو شاب
صغير يعشق سفك الدماء، وقتل الفتيات والفتيان، كان يعبد

15، فى عام 1874 طلب الملك "ريونجا" ملك مملكة يوغندا مشفوعا بولائه للخديوى
إسماعيل، إرسال قوة عسكرية مصرية للإقامة فى عاصمة المملكة. استجابت
الحكومة لطلبه، وتم توقيع معاهدة رسمية أصبحت بعدها أوغندا رسميا داخل الحدود
المصرية، وبناء عليه أبلغت مصر دول العالم؛ إن جميع البلاد الواقعة حول بحيرة
فيكتوريا، وبحيرة ألبرت قد أصبحت تابعة للدولة المصرية، وتبع ذلك نشر الجيش
المصرى وأقام عشرات المحطات العسكرية فى منطقة البحيرات والهضبة الاستوائية. وقد
ساهم ذلك فى اكتشاف الجيش المصرى لبحيرة "إبراهيم" عام 1874، وكان الوطنيون
يطلقون عليها (كيوجا).

الأوثان، ويشرب الدم، ويبتز أذان ضحاياه وأياديهم، يحرقهم أحياء دون إنذار، والناس لا تغضب ولا تثور، طالما أن هذا حكم المقدر والمقدور.

لكن الله سبحانه وتعالى؛ رضى عنه وهداه إلى الإسلام، والتقوى قاضى وإمام لادو، الذي تلى عليه من سورة النحل: "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون" (10) يتبت لكم به الزرع والزيتون والتخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" (11)، حتى قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" (90).

فكان أن أحب الآية الكريمة، حتى إنه يبكي كلما استمع إليها، وأصبح رجلاً ناهياً، وديعاً، لا تنطبق عليه صورته الشيطانية، وانصرف عن الإسراف فى الملذات، فتحسنت طباعه، وأصبح يرفع الله فى رعاياه، وتغلى عن القتل والتعذيب، وارتكاب الفظائع بين شعبه، ففاضت مملكته بالخيرات، وامتلاً قصره بالرياش والأثاث المفتخر، وزخربالتحف، وأدوات المائدة، ومقاعد الاستقبال، وأقام جيشاً محارباً بمساعدة الجيش المصرى، وأسطول حربي يبلغ الآلاف.

أضاف القومندان: "إن أحد المغامرين الأجانب، ويدعى ستانلى حاول أن يسفه دين الإسلام، ويحسن لديه فضائل المسيحية، والحق يقال إن الملك "إم تيسا" رجل فطن، لديه عقل يتفكر به، فهو لا يأخذ الأمور من قشورها، فلما عرض عليه الساحر ستانلى دخول دين المسيحية، قرر أن يتعرف على الدين الذي يدعوه إليه الكاهن النصرانى أولاً، فأرسل ستانلى مبشرين من لوندرد، فاستقبلهم الملك المسلم، وأحسن وفادتهم، وابتهج المبشرون بضيافة الملك، فقدموا هدايا ملوك أوروبا وأخبارها، ورسالة من الملكة فيكتوريا.

عقد فى قصره جلسات لقراءة كتاب المسيحية المقدس، فكان يصغى بامعان وتأمل، ويتبصر فى كل أمر يعرض عليه، وأكد المبشرون أن الملك سوف يتحول عن الإسلام، ويعتنق النصرانية، وعندما تفهم الملك الأمور، وتبين له ما تبين، أصدر أوامره إلى المبشرين بالكف عن إقامة القداس فى البلاط، وطالبهم بالتحول إلى عمل نافع، مثل إصلاح القصر، وصيانة مدافع الملك وبنادقه، وخاصة أنه يستعد للحرب ضد الملك "كابريجا" ملك مملكة الينيورو.

وأفاد بريد لادو، بهزيمة الجيش المصرى فى 5 نوفمبر 1883، فى موقعة شيكان⁽¹⁶⁾، الواقعة فى مديرية دارفور، بين مدينتى الرهد والنهود، فقد انقض جيش المهديّة، بهجوم مباغت على الجيش المصرى الذى يقوده جنرال هيكل باشا، الذى قال "إذا سقطت السماء رفعناها بأستنتنا، وإذا اهتزت الأرض ثبتناها بأقدامنا"، وألحق به هزيمة مروعة، أبيد فيها عشرة آلاف ضابط وجندى من المصريين والسودانيين، وحملت الأخبار مقتل هيكل، وعلاء الدين باشا حاكم السودان العام، وسقطت دارفور فى قبضة الإمام المهدي.

صعق الضباط الذين كانوا يعولون على نجاح حملة جنرال هيكل، فى فتح الطريق بين لادو والخرطوم، فتحوا خرائطهم، فتبين أن سيطرة المهدي على مدينة الأبيض "عروس الرمال" أصبحت نهائية، وأن أحكم هيمنته على النيل الأبيض، وأن قطع الإمدادات والاتصال بين الجيش المصرى فى مديرية الاستوائية والخرطوم أصبح وشيكاً.

فى المساء جاءتهم دعوة من الإرساليات اللتين أقامتهما بعثات التبشير فى روباجا؛ الأولى تابعة للكنيسة الكاثوليكية، يبشر فيها الآباء البيض الفرنسيس، وهناك التقوا الأب (لوردل)، فسلمه

16 غابة شيكان: اشتق اسمها من وادي الشانك، المليء بأشجار الشوك.

اليوزياشى خطابا من أمين بك حكمدار المديرية، واستلم منه ردا للحكمدار.

الزيارة الثانية كانت لجمعية التبشير الكنسية، التابعة للكنيسة البروتستانتية، المقامة فى نهاية روياجا في بناء من طابقين، التقوا بالقس ألكسندر ماكاي الاسكتلندى، حيث دار حديث ودود، قال فيه إن الملك "إم تيسا"، منفتح على الملل والعقائد، ولديه ميل لديانات التوحيد.

شعر الملازمان حليم ومقلد بانقباض لرؤية الرجل الذي سيستقبلهما بعد خمس سنوات وهما على شفا الموت، فى إرسالته المقامة جنوب بحيرة فيكتوريا، بالقرب من قرية (أنكولت)⁽¹⁷⁾، ليلفظا أنفاسهما الأخيرة على يديه، وهما فى ريعان الشباب، وحيدان مبعدان عن أرض الوطن.

* * * *

في الساحة الخارجية للقصر الملكى (المقام أعلى التل)، استقبل رجال الحاشية البعثة، تحيطه منازل الوزراء، يغطون رؤوسهم بقلنسوات من جلد الغزال، ويرتدون أوشحة مسدله، تشبه عباءات حجاج مكة المكرمة، ينتعلون نعالا طائرة، ويهرولون على ارتفاع قدم من الياسته، ساروا إلى داخل القصر تصحبهم الفرقة الموسيقية الملكية، تعزف على قيثارات خماسية الأوتار، وأبواق من قرون البقر.

فى مملكة الجآن الأسود اضطلع كبير الجن على عرشه؛ فراش وثير، ووسائد لينة، بساط فارسى أحمر، يرتدى طريوشا وعباءة عربية مزركشة، وقميصا حريريا سمنى اللون، تمنطق بحزام موشى بالذهب والفضة، بجانبه سيفه مرصع بالأحجار الكريمة، لا

17 (محلة أنكولت: Nkole

يزال كما وصفه سليم مطر، لم يتقدم به الزمن، على مظهره الذي كان عليه منذ سالف الزمان؛ نحيلا، متناسق القوام، مقاتلا شرسا، يعقد وشاحه على كتفه الأيمن بعناية الملوك، تزين ساعديه وساقيه أساور عريضة، وخلاخيل من الخرز الملون، وفصوص العقيق، تفيض عيناه الواسعتين حدة، تحت أقدامه جلست نساؤه الأربع، وحولهن إماءه المائتين، أغلبهن من جنس الجن، وأقلهن من بنى البشر، عذارى لم يمسهن إنسي، يحلقن فى ركابه عاريات عرى حواء فى فردوسه السماوى، وبعضهن ينشرن أمام عورتهم قطعة صغيرة من لحاء الشجر.

أمام الملك انبطحت العاشية فى خشيه واحترام، وتحت قدميه رموز الملك؛ حرية، ودرع، وصولجان، وحوله رجال البلاط؛ وزيره الأول، ومجلسه الاستشارى المكون من أمين الخزائنة، وقائد الجيش، وقائد الأسطول، وأمين دق الطبول وعزف الموسيقى.

تقضى تقاليد البلاط الملكى بعدم الجلوس فى حضرة الملك، والوقوف فى طاعة وخضوع، والصمت وعدم الكلام حتى انتهاء حديثه؛ الوحيد الذي سمح له بالجلوس على يمينه كان الشيخ عبد الفضيل الأشمونى، وخلفه وقف الخواجة روفائيل صبرة، والسيد محمد برى الطرابلسى، أشار الملك للشيخ، فبسمل وحوقل، وتلى من آيات من الذكر الحكيم بصوت رخيم آيات من سورة النحل.

دمعت عينا الملك، وسكنت رأسه إلى الأرض، بسمل وحوقل، وسأل عن معاني بعض الكلمات، والشيخ يشرح بصبر، والملك يهز رأسه مستوعبا ما يقال، فإذا انتهى دعى اليوزباشى للجلوس أمامه.

أبلغ اليوزباشى الملك تحيات الخديوى المعظم، ثم قدم غدارة ملكية مشغولة بالذهب، وبنديقة صيد، وعشرة أثواب من الحرير لحريمه، وصندوقا من الخرز الملون، وصندوقا يحوي ساعة حائط ضخمة يبلغ ارتفاعها قامته إنسان، قال اليوزباشى إنها آلة لقياس

الزمن، تفرق بين ساعات الليل والنهار، ما أثار استغراب ملك الجان وتعجبه.

تركت هدايا الخديوى أثرا مبهجا، وبدا الملك سعيدا، فعاد يتنسم أخبار الخديوى، وإذا كان لديه أبناء ذكور، فأجابه اليوزباشى أن لديه ولدين، تعجب الملك، فكيف يترك وراثته عرشه لغدر الأقدار، طلب من اليوزباشى أن يحدثه عن الأهرامات، وإذا ما كانت من صنع الجان، وإلى أى مدى يبلغ ثقلها، وهل حقا أن الملك سليمان أمر أتباعه من الجان بنقلها إلى بيت المقدس، ليقدمها إلى بلقيس ملكة سبأ، مهرا لنكاحها، استفاض اليوزباشى فى الحديث، وأوفى من الحقائق، وأخبره أن الأهرامات أعجوبة الدنيا، من الضخامة والثقل ما لا يقدر على نقلها كائن ما كان، وأن الذي بناها جنس قديم قدم الزمان، هم أجداد المصريين الأوائل، جاؤوا من منابع النيل، أى من مملكة أوغندا، وما حولها، وهو ما أدهش الملك، وأثار استغرابه.

وأضاف: "إن علماء المصريات المحدثين، يرجعون أن أصل كلمة "أفريقيا" مستمد من الكلمة المصرية/أفروى كا، {Afru- إي- كا} أى الرحم وأرض الميلاد⁽¹⁸⁾. لهذا سيدي الملك، نحن المصريين نعتبر أنفسنا إننا هنا بين أهلنا، وفى مسقط رأس أجدادنا المصريين الأوائل".

بهت الملك وجميع الحاضرين، وقال لليوزباشى:

- "أفضت وأحسن القول، وإن من الكلام لسحروبيان".

ثم باغته بسؤال إذا ما كان لدى الخديوى بنات، فأجابه بنعم، فكر قليلا ثم قال: "إنه ينوى إرسال رسل، يعرض الزواج على ملكة إنجلترا، ولكن ربما يفكر فى تغيير رأيه".

18 (جيرالد ماسى: تكوين النيل



موتسيا ملك يوجندا⁽¹⁹⁾

19) رسم لمسز استانلى نقلا عن صورة التقطها للملك موتسيا ستانلى

دقت الساعة، فانزعج الملك، وانتشر الذعر فى البلاط، فقام اليوزباشى بشرح المستور من طبيعة الساعات، وحركة بندولها العجيب، والعلاقة بين دقائقها والوقت، فلما انتهى كان الملك قد نسى موضوع الزواج، فدعى ضيوفه للطعام.

غسل الملك وحاشيته أيديهم، وتطهروا بالمياه، فكان لديهم تقاليد للنظافة تستدعى الإعجاب، مضت الأمور على ما يرام، حتى باغت الملك اليوزباشى بسؤال عما يفعله فى أعالي النيل، وطبيعة مهمته، وأضاف أن الوزير أخبره، أنك لست ضابطا عاديا فى جيش مولانا الخديوى، فأنت تقوم بتقليب مياه النهر، وسبر غوره، وتبحث عن الأرواح النائمة وتوقظها، وتطلب كنوزا يحرسها الجان فى قاع النيل، وأنت أيقظت الأرواح النائمة فى بحيرة "لوتانزيغا"، فثارت عليك، وقتلت عساكرك.

أجاب اليوزباشى أنه جاء فى مهمة، كلفته بها هيئة أركان الجيش المصرى، وهي خاصة بالنيل العظيم، والذي لا يفوقه نهر من أنهار الدنيا المعروفة أو المستورة، ذلك يا سيدى الملك العظيم أن النيل يأتى مصر على أحوال مختلفة، حينما يكون مسالما، وحينما يكون شرسا هائجا، يدمر القرى والجسور، وينشر الموت فى الكفور، وحينما بخيلا شحيحا فتندر المياه، وتنتشر المجاعات والطواعين، ويسود القحط والموت، لهذا تهتم الحكومة المصرية بمعرفة أحواله، ودارسة تقلباته، لتخفيف النتائج التى تعقب الأحوال الصعبة، واتخاذ الحيلة اللازمة لدرء المهالك عند المخاطر.

فكر الملك وقد انطوى على دهشة، ثم رفع رأسه وقال إنه سيلقى فى النهر بمائة بقرة، ومائة شاة، حتى ترضى روح النيل الغاضبة، كى يذهب إلى أراضى مولانا الخديوى المعظم راضيا مرضيا.

* * * *

حان وقت مغادرة البلاط الملكي، تمنى اليوزباشى على الملك طول العمر ودوام الصحة، وطلب الاستئذان بالرحيل، وقبل أن يستدير راحلا، ناداه الملك: "حضرة اليوزباشى، غمرنا الخديو بكرمه"، ثم نظر إلى الصبايا الأبنكار الجالسات حوله، وقال له: "تخير بعضهن".

- "ماذا تقولون جلالتيكم؟"

- "هل أنت متزوج؟"

- لا.

أشار الملك لصبيته بكر من إماءه فقامت تهرول ناحية الضابط، التقت عيناهما لبرهة مثل برق يضى سماء مظلمة، انحنى اليوزباشى يشكر الملك على كرمه، وعاد بظهره خارجا.

غادر الضباط البلاط الملكي، يحملون هدايا الملك؛ ماشية، وماعزا، وطيورا ملونة، وفترانا مجنحة (أرسلها خصيصا لحكمदार المديرية، لمعرفة بولعه بالغرائب من الكائنات)، وجارية تهرول وراء الراحلين.

* * * *

خط عرض ﴿ صفر ﴾

فإن مصرانيم لما بلغ منابع
النيل وجد قبة من الذهب، فإذا
النيل ينحدر من جوف تلك سلطان إلا الجنة..
القبة، فلما أراد أن يمضي إلى ما
وراءها، أتاه ملك وقال قف يا مصرانيم
فقد انتهى إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة...
فوقف مذهولاً، يري الفلك الذي يدور بالشمس، والقمر،
والنجوم يشبه الرحا... ركه ودار الدنيا كلها... وقيل إنه لم
يركه، وقيل إن الملك أحضر له عنقوداً من عنب الجنة، وقال
"كل فهذا حصرم الجنة"، فلما أكل ظل عشرين عاماً لا
يأكل، حتى مات....

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ

ففى ضباب ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ الفجرتكوم
شبحا فاحم السواد،
(مغمورا بعتمة
الليل)، بجوار جدران الشكنة، انتفض من رقاده لحظة مغادرة البعثة،
وانسل خلف الجنود حتى بلغ المرفأ، وقف فى حيرة، يرى السفينة
(الرجاف) تستعد للإبحار، تسلل إلى جوفها فى غفلة من النوتية،
وتكوم فى باطنها، لا يدري أى مصير ينتظره مع رجال يعافون
النساء.

قادت الرياح السفينة إلى عباب البحيرة، متفادية خلجانا
صخرية، عبر خليج ميرشيسون⁽²⁰⁾، وأبحرت فى عالم الماء الرحب،
تمده سيول تنحدر من جبل الجون، يهدر ماؤها على ضفاف البحيرة
العظمى.

اليوم يبلغ كتاب النيل صفحته الأخيرة.

يا الله يا صاحب الملك العظيم، مديرية خط الاستواء التى
اقتطعت من فردوسك السماوى، من هنا نبتت حيوات المصريين
الأوائل، من هنا نبتت حياة الأجداد، وأينعت جذورهم فى عالم القدم،
هنا كتب النيل الخالد الحروف الأولى لحياتهم، وهنا تتجدد كل
عام.

(20) خليج ميرشيسون: Murchison Bay

على جزر انحسر عنها طوفانه، وقف الرسل، يعلنون بزوغ الحياة
من العماء، من الخراب والفوضى، من رماد الموت، عنقاء تنبلج من حافة
الأفق الشرقي، حاملة شمساً جديدة، تصعد من خيبر الماء، وتلاطم
الأمواج، إلى كبد السماء، تعلن عن يوم جديد.

الكل مأخوذ بجمال يجاوز الكمال،
يحملهم طير أبيس المقدس على أجنحته،
حاملاً على رأسه المكرس بالحكمة، قرص
الشمس الذهبي، يسبقه بعاقه⁽²¹⁾، نافخاً
في الصور مبشراً، بأن الخالق خلق خلقه.
تخلق الملائكة على هيئة أسراب من
طيور، يتقدمهم طائر أبو منجل سيد المناقع
والبطاح، أمير الأراضي المفتوحة، محارب
السافانا والغابات الاستوائية العنيد، بنظر الدينونة بشموخ.

يخترق الفضاء طائر البلشون، رشيماً مثل سهم، يتبعه أبو ملعقة
صاحب المنقار العريض، صائد السمك، وأسراب الكركي، سيد
البحيرة الأعظم، يستطلع العالم قبل أن يعطى
أتباعه قراراً من صوته القوي، لتبدأ في التحليق،
ترتفع ولا تتوقف عن الصعود، تخبر السماء
عن أحوال الأرض والبشر.
في ظلال الشمس، حلقت ملائكة
الرياح بالسفينة فوق بحر البداءة، ترتفع دون
أن تتوقف، حتى تخدش قلاعها سفوح السماء،
على المقدمة تمدد اليوزباشي على سرير من
الحيال، مختلياً بنفسه، يقرأ بريد "روباجا"، يحمل
دعوة الضباط العربيين المنتشرين في أنحاء المديرية لحضور حفل

قال كعب الأحبار: بين السماء
والأرض جبر لطيف لا تبلغه إلا البارات
الشهب. على زيد أمواجه تسبح طير
رؤوسها كرووس الخيل... وخواتمها
سلاط كنوانب النساء...
أجنحتها طول السماء...
وملائكة تصف أبانهم من للج...
سلاط ونصفها من نار...
كتب على أطرافها أربعة أنهار: النيل
وسيحان وجيجان والفرات...

(21) البعاق: الصراخ

زفاف الملازم على شمروخ، وقرار زواجهم بعزمهم على السفر، بهم أو بدونهم، لمجاملة صديقتهم سهيلة رفيقة المنفى، فى حفل زواج ابن عمها.

تضمنت الخطابات الإشادة بالفتوحات التى حققها الصاغ الأسطورة حواش منتصر، وقدرته على بلوغ النصر فى المعارك، وصناعة التحالفات، مهما ساءت الظروف المحيطة، قال بعضهم إنه لو قدر لهم الحياة فسوف يطالبون، تدريس شخصية ومعارك القائد، الذى رفع العلم المصرى على شمال هضبة الكونغو فى مدرسة أركان الحرب.

وقال الفولى فى خطابه لزملائه، إن رؤساء القبائل المتحالفة طالبوا الصاغ بإيعاز من الدناقلة، أن يتفضل عليهم طبقاً لأصول الشريعة المحمدية، بتوزيع نساء الملك مامبا نجا المائنة، وأبنائه، وبناته، غنائم حرب على المحاربين، أو بيعهم فى أسواق مشرع الرق بمديرية بحر الغزال، وقد رفض الصاغ. وقال: "إن الله خلق أبناءه على صورته، وهى أحسن صورة، فكيف ينذل أو يقهر من هو على صورة الله عز وجل، إن خطف البشر من بلادهم جريمة يحاسب عليها الأمر السامى، فاعلموا أن عهد الرقيق فى الأراضى التابعة للحكومة المصرية انتهى، بأمر من مولانا جناب الخديوى المعظم، وأننى سأضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه المتاجرة فى البشر.

تضمنت الخطابات حكايات وشائعات تبعت على البهجة، وقيام نساء الضباط المنفيين الست بحياكة ثوب للعروس الأفريقية المجهولة لديهم، العزيزة على قلب أصغر ضباط الحملة، ما جعل البعض يؤكد أن الملازم على شمروخ سيتزوج بست من بنات الشيخ مبورو، وأن أصدقاء العريس من الضباط العراقيين يعلمون حقيقة الأمر ويخفونه.

وذكر فوزي أن هذه الشائعة تلاقى هوى الشيخ عمر الشلح، وربما يكون مصدرها، وهو الذي أقسم أن الأميرة المبورية عاشرت الضابط المصري، على أربع إناث من جنس الجن، لم تكشف إحداهن عن طبيعتها في عالم الظاهر، وهن يقمن تحت الأرض، ويتقمصن فوقها صورة اللبوات، اللاتي يتبعن ابنة الشيخ مبيورو كظلهما.

بريد فويرا التي حرمتهم من بهجة زواج إبراهيم حليم بابنة قاضى دوفلاي، وداهمتهم بالحب الذي عصف بأنجي الشفيقة وعبد الواحد مقلد، فغادرها على وهم بوعده من الأم بمفاتحة الأب، وانتظار إجابة هي الرفض المؤكد، حمل خطاب إلى الملازم عبد الواحد مقلد أضجت مضجعه، وأسلمته للانطواء، ليرحل بقلبه أفى سماء الوحدة، وهو يقرأ كلماتها التي ترشح مرضا عضالا، وسقما ملعونا يسمى الحب.

حصرة الملازم المحترم/ عبه الواحد أفندي مقلد

تحياتي وسلامي أرسلها كي تبلغونها
لأصدقائك من ضباط مصر الثوار والبواسل،
حملة لواء الوطنية المصرية، وأشواقى
الخاصة أرسلها إليكم من قلب مدمى، وعلة
القلب لا شفاء منها إلا بالموت.

... اليوم الذي اعترضت فيه
حياتي، هو اليوم الذي عرفت فيه
السعادة، وتجسعت الألم، ومن يومها
لم تعد عيني ترى سواي، أتقلب في
اليوم مئات المرات بين الخريف
والربيع، والهجير والصقيع، وأنا لا
أعرف إلى أين سيأخذني هوائي؟
إلى الفرع أم العزن؟

هل كان هذا خطأي؟ أرجو قل
لي.

أرى وجهك الساخر، الذي
اجتمع فيه البراعة والرجولة،
فعلشقه بجنون، أسمع نبذة صوتك
المتهمكة التي تمرقني حلاوتها
تقول:

"وكيف لي أن أعرف!"

ولكن كيف لي أنا أيضا أن
أعرف؟ وليس لدى سوى حلم
يناويني صوتك الرخيم، ويهمس:

أنا أنجي صبيتك الوحيدة، أنا
شغلني الذي تُيمت به.

أسمعك تقول لأصه قائل: أنجي
تعيش سرا... سامعني على
تخيلائي، فأنا أصحو ولا أعرف إن
كنت غفوت، أعرف فقط أنني كنت
أبكي.

لماذا أبكي، الشوق يؤلم قلبي،
لقد فطنت بعد أن ذهبت السكره،
وأفقت من الغفلة، أن العيب "يا
صبيتي" ليس سوى جرح.

حصرة الضابط عبه الواحد
أفندي المحترم.

طول حياتي كنت أشعر أن
العيب الحقيقي لا يمكن أن يوجد،
لكن الرب المعب، الذي يدعو
البشرية للمعبة، وضعك أمامي كي
يخيقني صلاوة النعيم، ومرارة
الجهنم... كي تصبح أنت سيدي،

وأصبح أنا أملك المجنونة بل،
تجاهل ما هو صواب، وتندفع
كالفراشة نحو النار، وكلها شوق
أن تحرقها الخطية...

أرجو قل لي إنك تفهمني، قل
لي إنك تشعر الشيء نفسه، قل لي
إن الرب هيا لنا أن نكون معا، قل
لي أنني حبك الذي رسمته في
أحلامي.

أعلم أن الحياة لا تعرف الرحمة،
أعلم أنها قاسية بطريقة يصعب
فهمها، ليس لي سوى أن اختار بين
ملجأين؛ الأول أنتظر صبيبي يقول لي
بلا تفكير، بلا اعتبار، بلا حساب، أنا
بانتظاره، تعالى نهرب إلى براري
وغابات الله الواسعة، نعيش بين
النوارى، وستصمينا السيدة
العذراء، الأم الرحمة والدة الرب.

والثاني اللجوء إلى الخلاص في

كنفها الوالدة أم الإله، الطاهرة
الرحيمة صاعدة العطف، التي
أدعوها كل وقت أن تنجيني من
الخطية.

يا والدة الإله، وحاملة عنقود
الحياة، أسألك أيتها الممتلئة نعمة
من أجل خلاص نفسي.

أيتها القديسة مريم الممتلئة
مجداً، افتحي لي باب الرحمة،
(العذراء كل حين)، اصعدي
صلواتي إلى ابنك الحبيب، ليغفر لي
خطاياي بشفاعتك...

نعظمك يا أم النور، فإنا بك أتوسل
إلى الذي ولد منك، لهيئي لي
أسباب التوبة، اسبلي ظلك علي
عبودتك المسكينة أنجيل، امسحي
عني الخطية، فقد عزمت السير
على طريقك، فأصير مثلك بلا زواج،
وأرسل إليك حيث السماوات

تطوبك أيتها العروس بلا زواج.
حضرة الضابط المحترم: سلمت
نفسى للقديسة مريم والدة الإله،
الآن أشعر أننى أتخلص من خوفى.

أمتك المتيمة فى حبك
أنجيل بنت المعلم روفائيل صبرة

* * * *

خاتمة

اليوم كتب
كتاب النيل فصوله
الأخيرة، ها هي الرياح
الدوارة؛ رياح الجنوب
والشمال والصباء والديبور، تصعد
بنا إلى الحد الفاصل بين السماء والأرض....
ليس ثمة طبقات سبع، ولا بسيط ولا ثقیل، ولا بطیم،
ولا سكان يدعون الشمس، لم نر أناسا قط طعامهم من
لحومهم، وشرابهم من دمائهم، ولا أمما لهم خطوم تشبه
أفواه الكلاب، وعلى أجسادهم صوف الغنم، لم نر أمما
يقال لهم "الحلهم" ليس لهم أعين ولا أقدام، ولا أمما
تدعى "الخش"، أنيابهم كأنياب الجمال، وأذنانهم حيات
كالنخل الطوال....
رأينا أجدادنا من البشر القديم، يخلقون بالفطرة في
الماء المقدس تصديقا لقوله تعالى في كتابه العزيز:
"وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ"

السنين أوقد	وهذه	من منذ آلاف
كيره، ووضع	أسطورة	الفخاري الأول نيران
الدوارة، نحت	من رحم الطبيعة	أفريقيا على رحاه
يمتدان مئات الأميال،		بازميله أخدودين،
أحاطا بالقلب، ونفخ في جوف الأرض، من روحه الأزلية لها وبراكين،		
رفعت بجلاميد عظيمة على الجانبين، وضع إبهاميه الإلهين على		
حافتي الأخدود الذي شقه لتوه، ودفع بهما إلى الخارج لتصعد في		
الشرق جبال كليمنجارو والجون، وفي الغرب جبال تطال قممها		
القمر ⁽²³⁾ .		

مسح الفخاري الأول بإبهامه القلب، صانعا هضبة منبسطة من
مدرجين، الأول على ارتفاع ستمائة متر، والثاني على ارتفاع ألف
ومائتي متر، وقبل أن ينام طلبا للراحة، نحت في الهضبة السفلى،
بظفره المخصب بالطمي المقدس، جرة ضخمة جاعلا فوهتها إلى
الشمال.

23 (جبال القمر: جبال روينزوري



الفالق الأفريقي الأعظم

سلطان

خسف الهضبة العليا برسغه العريض القوى، فجعلها على هيئة
قدر هائلة، وبإبهامه دفع قاع القدر إلى أسفل، ويعد أن سعد بما
صنعت يده، غفا يوما، ويوم الآلهة بالوف من أيام البشر.

على طاولته الذهبية، فكر الفخاري الأول؛ حان الوقت كي
يعطى للبشر أسرار المعرفة الأولى؛ نهر وشمس متعامدان وصيرورة،
ووادي من فردوس الرب.

دفع بقدميه رحاه الدوارة، وأطلق عواصف وأعاصير، نادى رياح
الجهات الأربع، فجاءت من بحار الدنيا العظمى، تحمل بطون أشعتها
الكونية ماء زلالا، فإذا فاقت القدر الإلهية والجرة العملاقة بماء
السماء، تدفقت السيول فوق ظهر الجان⁽²⁴⁾ الخرافي، لا يلوئها شيء
عن وجهتها نحو الشمال، وعلى ظهرها، ركب الإنسان الأول وامراته،
ليصنعا جنة أرضية أو ليشقيا في الجحيم.

في يومه السابع، داهمته الوحدة، غفا في سنة من نوم، غافلا عن
رحاه الدوارة والآلهة لا يغفلون، وهناك في الوادي الخصيب، شيد
الإنسان أهرامات ثلاثة، ومسلات تعكس قممها الذهبية أشعة
الشمس، تقدم آيات الحمد والعرفان بالخلود السماوي للذي لا ينام.

* * * *

24) الجان ضارب من الحيات، أكحل العينين يضرب إلى الصفرة، لا يؤذي. وفي
التنزيل العزيز: النمل آية 10 "فلما رأها تهتز كأنها جان" ولي مدبرا. وفي الحديث
الشريف: إن فيها جنانا كثيرا. المعجم الوسيط

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾

اليوم كتب
فصوله الأخيرة ، اليوم
كتاب النيل
اتصل البحر بالأفق،
والتحمت شجرة الأرض بالسما، وحلقت بجعاتك فى فضاء
الأزلية.

هنا جنة المأوى...

ليس هناك من مرجانة و وزيرة الزمان، ولا الملكة منية
النفوس، ولا الملك سيف ذى يزن يقطع بسيفه الجنوب والضلع،
ويقطف الكفوف والرؤوس، من الأعناق كأوراق الشجر.
لم تكن هناك الكاهنة زعزوعة، ولا سيدي الخضر أبو
العباس، الذي أرسل ستين ألفا من العسكر لإنقاذ سيف ذى يزن
من الهزيمة، وأن يصبح أسيرا، وعيدا ذليلا فى الجزيرة السابعة
لمدينة البنات (□□).

(25) سيرة الملك سيف ذى يزن المجلد الثانى صفحة {570 - 602} الناشر الهيئة العامة
لقصور الثقافة

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ
 هنا جنة المأوى الله سبحانه، ناعمــــــــــــــــة
 التى أبدعها حوريات كالحرير،
 تتريـض فوق البحريرة، قبل أن
 تتحول إلى بلاشين، تتلألأ بلون البرتقال، جنيات
 فاحمة ترقص بقلوب بيضاء، خطاف يبلل صدره الأغبر بمياه
 البحريرة، فيختفى طائر ويبزغ جنى، عفريت أسود يغطس فى الماء،
 ويخرج على هيئة طائر اللقلق، وفى منقاره حوريات البحريرة، هنا
 (فى البطاح والمناقع) يقف جنى عابد محنى الجذع، منعطف العنق،
 ينشر بشموخ جناحيه الواسعين الضاربين إلى الزرقطة، على هيئة
 كرك، يتحول رأسه المسحور إلى لون الذهب، ينطلق متثاقلا، يحوم،
 قبل أن يغيب فى السماوات العلا.

ينهض من فوق الماء ملك، يتقدم رافعا رأسه، يصفق بجناحيه
 المدمجين بالصفرة، ينطلق طائرا يسبح فى فضاء أسطورى، فهذا هو
 طائر النيل المقدس أيبس⁽²⁶⁾.

اليوم خلقت أشرعتك على صرة الأرض، تتفرس فى أفق الماء
 السماوى، ممزقا بين لانهائيات التاريخ والجغرافيا، أين أنت بين الزمن
 والمدى؟ ترهقك مشاعر الأسى والوحدة، ها هي مهمة هيئة الأركان،
 شارفت على نهاياتها، بعد رحلة على ظهر النيل المقدس، امتدت آلاف
 الكيلومترات، وتحت إمرتك ضباطك العربيين وأطفالهم، ونسانهم

26 (أيبس: هو الطير الذي يعرف فى بلاد النوبة بأبى خنجر.

الصغيرات؛ إيزيات⁽²⁷⁾ بالفطرة، تعلقن بأزواجهن، بما لا يحلم به رجل.

* * * *

ليولامبا،
جنة الله الواقعة
على صرة الأرض ومنافئها

تخط البعثة رحالها على جزيرة
(ليولامبا)⁽²⁸⁾؛ الواقعة على صرة
الأرض ومحورها، ومهاد اليابسة
ورحاه، تغشاها آلاف الحوريات، تبعث من
شاطئ العشب والمروج جوقة سماوية من سدرة المنتهى، ترحب بضباط
وجنود البعثة، على الشاطئ تنضو طيور ملونة أثوابها المصنوعة من
ريش السحاب، وزغب الضباب، تبزغ حوريات سوداء، يختلط بعاقها
بخير الغدائر، ونسيمها.

هنا فى الجزيرة الواقعة على سمت خط الاستواء، التى لم يطأها
إنسى، ألقت البجعة مراسيها، وحطت البعثة فى أوكارها، ونصب
العسكر خيامهم.

توارى الملازم عبد الواحد مقلد حزينا، بالأمس طرق الكوخ الذى
يقيم فيه السيد روفائيل، والشيخ عبد الفضيل الأشمونى، وطلب
منه الموافقة على زواجه من ابنته أنجي، أصيب الرجل بصدمة، جعلته
يسأل الضابط الشاب أن يدخل لتناول طعام العشاء، وهو يشعر أن
الفردوس السماوى الذى يقف هؤلاء الشباب على حافته، يحيلهم إلى
الجنون، والإتيان بتصرفات لا يأتى بها عاقل.

فى البدء حاول التاجر القبطى أن يتأكد من أنه فهم مطلب
الضابط الشاب، فاستفسر منه إذا كان يقصد التدخل لدى الشيخ

27 إيزيات: نسبة إلى إيزيس الآلهة المصرية القديمة.

28 جزيرة ليولامبا: Lulamba

الأشمونى من أجل قبول زواج إبراهيم أفندى بابنته، فلما أكد له مقلد أن مقصده الاقتران بابنته أنجي، وقف التاجر القبطى حائرا، ينظر إلى صديقه الشيخ لا يصدق ما يسمعه.

- مستحيل يا أبني.

- حضرتك وافق، وأنا مش ح خليها تسيب دينها.

- يعنى إيه مش ح تسيب دينها؟

- يعنى أنا ح أفضل فى دين الإسلام، وهي تفضل على دين سيدنا

المسيح.

- يا سلام، وأنا بقي استفدت إيه يا فرحتى، لا يا عبد الواحد

أفندى مش ح ينفع، وبعدين يا بنى هو إيه اللى حصل لكم، أنتم أجنتم ولا إيه؟

سأله صديقه إبراهيم حليم: يعنى قال لا.

- أمال ح يقول أيوه موافق. خش خدها من الزريبة اللى جوه.

- أديك عملت اللى عليك.

- لا ... أنا ح أقدم استقالتى من الجيش وأتجوزها.

نظر اليوزباشى له مليا فأضاف:

- متخافش حضرتك، بعد ما ننتهي من مهمة البعثة.

قال حليم: "إيه يعنى، ح تتجوزها غصب عن أبوها!"

اكتفى عبد الواحد بالصمت، قال اليوزباشى:

- "الصبر، بكره يحلها الحلال، يلا يا أفنديه على طابور العلم".

- فيه خبر تانى.

- خير يا عبد الواحد أفندى مش مكفيك أخبار؟

- النهاردة وصل بريد لادو يحمل أنباء سيئة.

- وهو فيه أسوأ من كده؟

- الخرطوم جارى حصارها من قوات المهدية.

- بتقول أيه؟

- ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الشيخ عبيد، بدأوا حصار المدينة،
العباس بن العبيد عبر النيل الأزرق، وحاصرها من الجريف، والشيخ
عبد القادر ولد أم مريوم حاصرها من (الكلاكة)، ويقال إن قوات من
الجيش المصرى بدأت تنضم إلى المهديّة.

* * * *

الحصار / فن.

دار جدال بين الضباط، بدأ بجلاء أن وضع الجيش المصرى فى خط
الاستواء بات معرضا للخطر، وطوال العام التالى ساد الارتباك والحيرة،
لدى ضباط مديرية خط الاستواء؛ راودتهم أفكار كثيرة، وبدأ
منطقيا أن يتم التحالف بين الثورتين المهديّة، وأنصار الثورة العراقيّة
فى خط الاستواء، لكن اتساع الفجوة الحضاريّة، وصعوبة الانسجام
مع عقيدة المهدي الأصوليّة المغرقة فى بدائيتها، وعقيدة الضباط
العراقيين التى تنتمي لدولة دستوريّة مدنيّة حديثة، عرقل حدوثه.

وطوال الحرب التى دارت لأعوام فى الاستوائيّة بين قوات الأنصار
التابعة للحركة المهديّة، والتى تمكنت من الاستيلاء على شمال
ووسط السودان، وإحكام الحصار، وبين الجيش المصرى الذى تخلت
عنه حكومة نوبار باشا رسميا، لم يرد للحظة واحدة لدى القوات
المصريّة (مصريون، وسودانيون؛ عرب وأفارقة) مبدأ الاستسلام، وهو
أمر يدعو للدهشة.

* * * *

يقول الشيخ أبو المكارم، روى رواية الأمصار، وموصل
الليل بالنهاية:

اليوم كتب كتاب النيل صفحاته الأخيرة، لم يكن
هناك الشيخ أبو النور الزيتوني ولا المارد الجنى خيرقان، ولا
جزر الوقواق السبع، لم يكن هناك بحر عجاج، ولا جزر
نحاس، ولا شجر عالى على قدر البصر، أوراقها تحير النظر،
أثمارها بنات أبكار على هيئة البشر، معلقات من شعورهن
كالثمر، تطوحهن الرياح ذات اليمين واليسار. وهن كما
قال الجنى خيرقان للملك سيف ذى اليزن:

ألذ من نساء بنى آدم، لكونهن فاكهة أباحها الله
لخلقه، منهم من يأكلها أكل الفاكهة، ومنهم من
يطبخها، ومنهم من يملحها كى يتناولها فى غير أوانها،
وهن يصلحن للجماع. ولديهن من أساليب النكاح، ما
يغلب المهجة والفؤاد، ويذهب العقل والخطر، فهن يفوقن
قدرة الإنسيات، وما على الرجل من ذلك فحش أو عصيان،
لأنهن بمنزلة الرقيق المملوك للملوك والمؤمنين العابدين
من عباد الله الصالحين.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ ﴾

على شاطئ
المأوى، اصطفت
فى ملابس
إلى البيرق المصرى، يرفرف
المباركة، ويصل بين خط الاستواء وصفحة السماء، سيذكر
الضباط العراقيون تلك اللحظات، وهم يقاتلون معركة الرجاف، التى
حاصر الدراويش خلالها البلوك الأول، وأسرنساء وأطفال القوات
المصرية وباعهم رقيقا فى "مشرع الرق".

سيذكرون تلك اللحظات التى وقفوا يحيون العلم المصرى على
خط الاستواء، وهم مشدودون إليه بقوة القاهرة، وقد أخذت تتشكل
ملامح لجمهورية تمتد على الأراضى التى يظللها علم الخديوية، من
المنابع وحتى المصب.

ستتوه من الذاكرة وتتلاشى؛ تلك اللحظة المقتطعة من الوجود
المصرى الحديث؛ خليط من الكرامة والفخر، والخوف والوحدة، وقد
عين حقيقة كينونتهم، هذا العلم الذى يخفق عاليا فى السماء.

- سريته... انتباه.

دق الجنود بكعوبهم أرض المعسكر، فاهتزت الأرض، شق صوت
اليوزباشى ثانية السماء:

- سريته... صفا...

- سريته... انتباه...

- كتفااااا... سلاح...

- جنبأ سلاح....

.. تذكر وجه السيدة حباب، زوجة الملازم أحمد سليمان،
وكبرياءها المنتمى للقبائل العربية الشريفة النسب، وشمم طفلها
جعفر الذي سمى على اسم جده الأكبر جعفر الطيار ابن عم الرسول،
ولا تذكر وجه أمك.

تذكر وجه السيدة أميرة، زوجة الملازم حسن سليمان، صاحبة
البهجة الإسكندرانية، المرطبة بزرقة البحر المتوسط، ورياحه
الشمالية العذبة، وابنتهما مريم، ستقطف رءوسهم قبائل اللورين،
وهم في مناقع بحر الزراف، وترسل تحت حصار الدراويش في سلال،
يلقى بها على أسوار أمادي، ولن تذكر وجهها لأمك.

.. ستذكر وجه الأختين سنية وصفية اللتان حملت فراش
عرسيهما على ظهر النيل، في رحلة المنفى مع الملازمين محمود
ومصطفى العجيمى، وصوت ضحكاتهما يجلجلج بالبهجة، قبل أن
يموت محمود العجيمى وهو يطارد الدراويش في معركة "ريلى"، ولن
تذكر وجه أمك.

يطاردك وجهها أنجي وخضرة، الصييتان اللتان ستنضمآن إلى
قافلة "الإيزيات" من نساء الحملة قريبا؛ وكلتاها تسافران على
سهوب البرارى، والبطاح، والمناقع، بين غابات البكارة، وأكمات
الأدغال، تتبعان شبح ضابطين، حكم عليهما بالموت على ضفاف
بحيرة الهضبة الاستوائية العظمى، بينما تبحث لأمك عن وجه فلا
تجده.

فمن سيموت أيضا، من ستناله يد المنية، ومن سيباع في مشرع
الرق، في أسواق النخاسة، أطفال في عمر الزهور، وأطفال ولدن
لتوهم، وأطفال لا يزالون في رحم أمهاتهم، فهل تعرف مصائرهم بعد،
من يقرأ كتاب الغيب.

.. ستذكر وجه فرانسوا، التى حذرتك، بأن وعد الحب غير قادر على حمايتها من الرغبة فى ممارسة الحب مع الغلمان، تدب فى أذنيك عبارتها "أعذرني لا أستطيع المقاومة".

تستعيد وجوههن جميعا، ولا تذكر وجه أمك، تكبر بين يدي جدتك المعروفة، فى أحضانها العبقة بعرق السحر والشعوذة، ورائحة الجن والعفاريث، وفى حناياك كهف فارغ لا يمكن ملؤه، تولد يتيما، وتموت وحيدا، بلا أخوة ولا أشقاء، لعنة قدرها لك المكتوب، فانتبه فلن تجد رفيقا فى الحياة.

إنه الحصار بين قضبان الأسى، وزنازين الوحدة.
لماذا مات الأمير لاى محمد عبيد وعاش عرابى؟
لماذا ظهرت الحركة المهدية فى هذه اللحظة من التاريخ؟
لماذا ماتت الجمهورية قبل أن تولد؟

كان باستطاعتنا؛ نحن الضباط من أبناء وأدى النيل؛ مصريين، سودانيين عرب وأفارقة إعلان الجمهورية من خط الاستواء إلى البحر المتوسط، لكنها ماتت قبل أن تولد، مثل ابن أفت السلحدار وسالم خلاف، لأن أباه لم يكن يؤمن بقدمه... أترى!!

كيف للحلم أن يولد فى رحم المستقبل، إذا لم يجد آباء يؤمنون به؟ تقبل مصيرك؛ الحصار بين الأسى وزنازين الوحدة.

ولو شئت أن تحمى نفسك من الجنون، اذهب إلى خيمتك فقد حلّ الليل، إلى فراشك البارد، وأحلامك التى ماتت فى مهدها، وأمالك المهدرة، وتلك الصبية السوداء التى لا تستطيع أن تفرق بينها وبين الليل المدلهم، لا يدلك على وجودها سوى تلك العينين اللتين تلمعان بالألق الاستوائي فى دياجير الظلمة.

* * * *

سدرۃ المنتهى

اليوم بتنا فى سدرۃ المنتهى... لم يكن مسطورا على سطحها
أساطير الغيلان، والساحرة الألعويان، ثم نر ملك الجان "ملككان"،
ولا ابنته الأميرة "عاقصة" أخت الملك سيف، ولا خراق الشجر، ولا
الملك "أفراح" وزوجته "دهشانة"، وابنتهما الأميرة "شامة"، ولا
سقرديون حكيم الزمان اللئيم، الذي طلب مهرا للأميرة؛ كتاب
النيل الذي يحميه ملك الجان علقم، وهو الذي استعصى على
الملكة بلقيس والنبي الملك سليمان الحكيم؟
فسأله الأمير "يا حكيم وما أهمية هذا الكتاب الطلسم".
فقال اللئيم: اعلم يا أمير أن من يملك كتاب النيل، يصير
حاكما على مصر والحبشة والسودان، ويصبح فى نعليه جميع
ملوك الزمان.

* * * *

انتهت

القاهرة: 14 أكتوبر 2007
29 نوفمبر 2013

أهم المراجع التي استند عليها النص الروائي.

مديرية خط الاستواء المصرية

الأمير عمر طوسن تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية الجزء الثانى
والثالث مطبعة العدل الإسكندرية 1937
د. جميل عبيد، المديرية الاستوائية، دار الكاتب العربى للطباعة
والنشر، القاهرة 1968

النيل:

سليم القبودان - الرحلة الأولى للبحث عن منابع النيل الأبيض -
ترجمة محمد مسعود - الناشر مكتبة مدبولي - الطبعة الثانية -1996
وليم جاستن الدليل فى موارد أعالي النيل. مكتبة مدبولي القاهرة
2000.
أمسل لودفج النيل حياة نهر. ترجمة عادل زعيتر - مكتبة الأسرة
1997
آلان مورهد النيل الأبيض الهيئة المصرية العامة للكتاب 2011
د. رشدى سعيد نهر النيل - الناشر دار الهلال. 1993.
د. عبد العليم خلاف -كشوف مصر الأفريقية فى عهد الخديوى
إسماعيل -الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999
كولين ماكيفيدى -أطلس التاريخ الأفريقى -ترجمة مختار السويفى -
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987

الثورة العرابية

عبد الرحمن الرافعى-عصر إسماعيل الجزئين الأول والثانى الناشر:
دار المعارف-طبعة رابعة-1987
عبد الرحمن الرافعى-الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزية الناشر: دار
المعارف الطبعة الرابعة 1883
جوان كول - الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر -
ترجمة عنان على الشهاوى - الناشر المجلس الأعلى للثقافة 2001
لورد كرومر-الثورة العرابية - ترجمة عبد العزيز عرابى-الناشر: الهيئة
المصرية العامة للكتاب 1999
جون مارلو-تاريخ النهب الاستعماري لمصر-ترجمة د. عبد العظيم
رمضان-الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976
جاك كرايس جونيور - كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر-
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993
دار الوثائق القومية ببيوجرافيا ووثائق الثورة العرابية والوقائع
الحربية-الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1881
جابريل بير-دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة-ترجمة
عبد الخالق لاشين / عبد الحميد فهمى الجمال - الناشر: الهيئة العامة
لقصور الثقافة 2006
محمد بن عمر التونسي - تشحيز الأذهان بسيرة يلاد العرب
والسودان-الناشر: الهيئة العامة للكتاب مكتبة الأسرة-2007
مكى شبيكه - السودان عبر القرون-الناشر: دار الثقافة بيروت

عميد أركان حرب محمد فريد السيد حجاج - مذكرات الزعيم أحمد
عرايى - الناشر: دار المعارف - 1983
محمد فيصل عبد المنعم - معارك الثورة العرابية - الناشر: مؤسسة دار
التعاون للنشر 1977
محمد مورو الثورة العرابية القاهرة 1990
يوزباشى محمد البارودى (بوليس) تاريخ العائلة الخديوية والثورة
العرابية. الناشر: دار الهلال 1897
محمود الخفيف - عرايى المفترى عليه - الناشر: الهلال - يونيو 1971
محمود صلاح - محاكمة زعيم - الناشر: مبدولى الصغير 1996

السودان:

عبد الرحمن الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال -
الناشر: دار المعارف - طبعة رابعة 1883
نعوم شقير - تاريخ السودان - الناشر: دار الجيل بيروت 1881
د. أحمد سيد أحمد - تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى -
الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000
الشيخ بن عبد الرحمن السعدى - تاريخ السودان -
د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم - د. شوقي الجمل - تاريخ السودان
الحديث - الناشر: دار الثقافة للنشر - القاهرة 1997
سلاطين باشا - السيف والنار، الناشر مطبعة البلاغ، 1930
السنى بانقا - أضواء على النظام القبلى والإدارة فى السودان
الناشر: الخرطوم - المطابع الحكومية
د. صلاح الدين على الشامى - السودان دراسة جغرافية - الناشر:
مكتبة المعارف الإسكندرية 1972
الطيب عبد الرحيم الفلانى - الفلاتة فى أفريقيا - الناشر: دار الكتاب
الحديث - الكويت 1994
د. محمد إبراهيم أبو سليم - بحوث فى تاريخ السودان - الناشر: دار
الجيل - بيروت 1992

المراجع العسكرية:

الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على باشا - الناشر:
مطبعة المستقبل الطبعة الثالثة 1935
الأمير طوسن - الجيش المصرى فى الحرب الروسية حرب القرم -
الناشر: مكتبة مبدولى - الطبعة الثانية 1996
خالد فهمى - كل رجال الباشا (محمد على وجيشه وبناء مصر
الحديثة) ترجمة شريف يونس - الناشر: دار الشروق 2001
وزارة الدفاع - التاريخ العسكرى المصرى عصر محمد على الفترة
من {1801 - 1848} الناشر وزارة الدفاع
وزارة الدفاع - التاريخ العسكرى المصرى عصر الخديوى توفيق -
الخديوى عباس حلمى الثانى الفترة من {1879 - 1914} الناشر وزارة
الدفاع
د. جاد طه - بريطانيا والجيش المصرى - الناشر: مكتبة سعيد رأفت
1984

د. محمد رفعت عبد العزيز الجيش المصرى وحروب الشام الأولى -
الناشر: دار العين 1999
قائمقام عبد الرحمن زكى - ملابس الجيش المصرى فى عهد
محمد على-الناشر: المطبعة الأميرية 1949
خلف عبد العظيم سيد المبرى - تاريخ البحرية التجارية المصرية
1854-1879-الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007

الإمبراطورية العثمانية:

محمد فريد بك المحامى- أخبار الدولة العلية، الناشر: دار
النفائس، بيروت، 1981
ترجمة د. محمد حبيب مذكرات السلطان عبد الحميد -الناشر:
دار القلم دمشق - الطبعة الثانية 1991

أفريقيا:

ملفل هيروسوكوفتش - العنصر الإنسانى فى التطور الأفريقى-
ترجمة جمال محمد احمد - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984
مسعود الخوند -الموسوعة التاريخية الجغرافية - الجزء الثامن
محمد مروان مراد حيوانات المروج والغابات

ميتولوجيا:

حسان نعمة -ميتولوجيا وأساطير الشعوب القديمة - الناشر: دار الفكر
اللبنانى بيروت 1994

أدب وأساطير:

سيرة الملك سيف بن ذى يزن-الناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999
فتحى أمبابى رواية نهر السماء - الناشر دار النهر 1887

الصور والخرائط:

أغلبها منقول عن شبكة العنكبوتية

كتب للمؤلف: الأعمال الروائية

العرس	رواية	طبعة ماستر الناشر دار ميرت	1980 طبعة أولى 2000 طبعة ثانية
نهر السماء	رواية	مكتبة الأسرة	1987 طبعة أولى 2003 طبعة ثانية
مراعى القتل جائزة الدولة التشجيعية 1995	رواية	دار النهر الناشر 3/15	1994 طبعة أولى 2006 طبعة ثانية
أقنعة الصحراء	رواية	الناشر: دار ميرت	2002 نفذ
شرف الله	رواية	الناشر: الورشة	2005
العلم	رواية	الناشر: دار الهِلال	2008
السبعينيون	قصص صغيرة	الناشر 3/15	2010

كتابة السيناريو:
مسلسل طيور الشمس
مسلسل نهر السماء

الأعمال السياسية
جوهر الدساتير

تم عرضه فى التلفزيون المصرى 2003
لم يتم إنتاجه بعد

الناشر دار
الطنانى

شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم	المجلس الأعلى للثقافة	تحت الطبع
الدوافع الاجتماعية والسياسية للحركة الطلابية لجيل السبعينات	مدير الندوة	الناشر: دار الفسطاط
سهام صبرى زهرة الحركة الطلابية	المحرر	الناشر: دار ميرت



المديرية الاستوائية التابعة للحكومة المصرية

1890-1870

A MAP OF THE EQUATORIAL PROVINCE